نائل الطوخى

نساء الكرنتينا

الطبعة الثانية

#رواية



نائل الطوخى

نساء الكرنتينا

رواية

الغلاف: رستم وتصميم مهندس

حمادة، بجسمه السمين، كان يعتقد أنه مخلوق غير محدد الهوية ، شيئ ما يقع في منتصف الطريق بين الذكر والأنثى، وربما كان هذا هو سبب مشاربه الدائمة وغير المنتهية لتحسيس نفسه .ربما حودة فز ذات مرة وهو صغير، رأها وهي تتحول إلى شرنقة ثم تخرج فراشة منها وتطير بعيداً اعتقد أنه، بنفس الطريقة، فسوف ينتهي من كائن مخنث، رخو، برمائي، يعيش بين تراب كرموز والبحيرة التي يقع في وسطها تمثال الفرحة، إلى الأنوثة الكاملة .تظل هرمونات الأنوثة تصارع هرمونات الذكورة داخل جسمه، تظل هرمونات الذكورة تخسر معاركها، تنسحب من مواقعها التي تسيطر عليها هرمونات الأنوثة فورياً، إلى أن يحدث الانفجار الكبير .ينفجر كرشه وثدياه ومؤخرته لتخرج من داخله أنثى كاملة، قوية وعنيفة وقادرة على فشخ العالم في أفكاره.

"1521211823226" LE 45.00

ميريت

مكتبة عابث الالكترونية

نائل الطوخى

نساء الكرنتينا

رواية

دار ميريت
القاهرة ٢٠١٣

نساء الكرنتينا
رواية
نائل الطوخى

الطبعة الثانية ٢٠١٣.
(ج) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٢٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
موبايل / ٠١١٤٢١٣٨٩٢٥
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف: مخلوف
المدير العام: محمد هاشم
رقم الإيداع: ٢٠١٣/٣٣٩٨
الترقيم الدولي: 978-977-351-660-8

مكتبة عابث الإلكترونية

أنا مش ضد الحاجات الفظيعة والله، بالعكس والله،
هي اللي طول الوقت كانت ضد الحاجات الفظيعة
إنجي

مكتبة عابث الإلكترونية

أحلى عروسين

قصة شخصين وضعهما القدر في المكان الصحيح"

مكتبة عابث الإلكترونية

١

الكلب الذي تعود على النبش في الزبالة لم يجد الزبالة التي تعود على النبش فيها.

حدث هذا في الثامن والعشرين من شهر مارس — أذار للعام ٢٠٦٤. لأسباب كثيرة يلي سردها هنا، كان هذا اليوم هو الأقسى في تاريخ الإسكندرية. الجميع عانوا من مرارته، ولكن أكثر من تعرض لقسوته هو الكلب الذي لم يجد الزبالة. بحث الكلب بجوار سور المترو، حيث كان يُفترض أن تتواجد الكومة الكبيرة والتي تحلق فوقها أسراب الذباب الهائمة، ولكنه لم يجدها، ولم يجد سور المترو نفسه. المنطقة كانت مكشوفة للشمس بشكل غريب، كانت كالصحراء.

الكلب كان جائعاً. ركض بمحاذاة سور المحطة، أو ما كان يفترض أن يكون سور المحطة. هز ذيله الجربان. نظر إلى البعيد. تمرغ على الأرض ومشي يحك جسمه بالحائط. كان جائعاً ومحبطاً ويائساً وحزّانا. المشهد يأخذ في الإظلام، ولا شيء، أي شيء، ملقى هنا أو هناك. بدأ ينبح، ومن بعيد رأى ماسورة تتحرك، فأطلق نباحاً ثانياً. هنا، ومع النباح الثاني، ارتطم بساقه شيء ما، شيء ساخن وصلب، بالضبط مثل طلقة رصاص. من المؤكد أنه طلقة رصاص. ويساق عرجاء وساق مضروبة بالرصاص واصل الكلب مهمته في تمشيط المنطقة بعينيه بحثاً عن كومة أخرى من الزبالة، محاذراً أن يصدر عنه أي صوت

مكتبة عابث الإلكترونية

يعرضه لطلقة رصاص أخرى. اختبأ وراء كومة تراب واهناً ونازفاً. فجأة انتفض جسمه تحت وطأة زخة رصاص أخرى. الآن ترى الكلب قتيلاً على التراب الذي تلون بالدم. بعد قليل أمسكت به إحدى السيدات المارات وقذفته إلى داخل حفرة عميقة. ربما بدا لها أن هذه هي الطريقة الأمثل والأكثر شرعية لدفنه. شيء ما كئيب كان يحدث هنا. حياة كانت تنتهي، وقصة كبيرة.

°°°

القدر يلعب ألعابه أحياناً، يقوم بجمع ما لا يجتمع. قد يكون الإنسان ذا مركز ومال وجاه وفجأة يصبح بلا مركز أو مال أو جاه. قد يجمع القدر بين اثنين، زميلين أو جارين أو ينتميان لنفس الفصيلة من الكلاب الضالة، ويربط بينهما بالحب، وفجأة، يمنع كلاً منهما عن الآخر، بضربة قاسية. ما أعجب تصاريف القدر.

القصة بدأت منذ وقت طويل، امتدت لأكثر من جيل، وحلقت فوق أكثر من مكان، من جنوب مصر لشمالها، واحتوت على الكثير من المواطن والدروس الأخلاقية، والكثير من الفلسفة العميقة بخصوص الإنسان ورغباته وصفاته. القصة هي واحدة من تلك القصص النادرة في تاريخ الإنسانية، التي تربط المتعة بالتشويق بالمعلومة المفيدة والنصائح الغالية.

إذا كان لنا أن نصف أحداث القصة بصفة فهي التوفيق الإلهي. التوفيق الإلهي الذي وضع كلاً من الأشخاص في مكانه الصحيح، وألهمه بالتفكير الصحيح في الوقت الصحيح. وإذا جاز لنا أن نستخرج الدروس المناسبة فهي أن لا شيء مستحيلاً، وأنه متى توفرت النية السليمة، فإن الإنسان، بفضل من ربه عز وجل في البداية والنهاية، قادر على كل شيء.

°°°

في اليوم الذي قتل فيه الكلب كانت تقف على الناحية الأخرى من كرموز قلبة أخرى، ولكنها، بخلافه، كانت تنبش في كومة عامرة من الزبالة. الكلبة ذات جلد متقيح وبقع صلعاء كثيرة، وأسراب من البراغيث تحوم فوق البقع التي لازالت مشعرة. تختبئ في الزبالة عندما يشتد إطلاق النار، ثم تخرج. الكلبة كانت تنتظر الكلب. ولكن شعوراً قوياً داخلها بأنه لن يأتي الليلة، ولن يأتي أصلاً في أي ليلة. قلبها كان منقبضاً، روحها كانت مكتئبة، والعلامات لم تبخل بنفسها: الزبالة لم تحتو على طعام كثير، وأصوات الانفجارات وطلقات الرصاص أيضاً صدت نفسها عن أي شيء.

بدأت قصة الكلبة مع الكلب منذ ثلاثة أشهر، في الخرابة. رأى مؤخرتها تهتز أمامه، فنط عليها. أخذ كل منهما يفرك جسمه في جسم الآخر، والبراغيث تنتقل من شعره لشعرها وبالعكس، كان جلدها مليئاً بالقروح وهو كذلك، ولم يمنعهما هذا من الاستمتاع. أحبا بعضهما، وقرر كل منهما الإخلاص للآخر حتى الممات. حملت في بطنها أبناءه، وكل شيء كان يدل على أنها سوف تلد اليوم، وكل شيء كان يؤكد لها أنها ستلد وحدها، بدون زوجها.

°°°

القصة في أحيان كثيرة تكون أكبر منا. قد تكون قصة أبوين يكرهان بعضهما البعض، أو عائلتين، أو صراعات ومصالح ليست لنا طاقة بمواجهتها، وقد تكون القصة قصة وطن يتشكل. القصة هنا هي قصة وطن يتشكل.

ليست أبداً قصة عن الكلاب، ولا حتى عن البشر، الذين مهما علا شأنهم، فهم يظلون مجرد ذرات في محيط هذا الوطن الشاسع. نحن نكرات في هذا الوطن، ليس لقلة شأننا، وإنما لأن هناك الكثيرين غيرنا، أفضل منا وأسوأ منا، حاربوا معنا أو حاربونا، والوطن هو مجموع هؤلاء الناس. كل هذه القصص

مكتبة عابث الإلكترونية

الصغيرة، وعلاقات الحب والكراهية والزواج والطلاق والأبناء والصراعات ووصايا الميراث وعقود الملكية والملكية التي بلا عقود والميراث الذي بلا وصايا، ألحان الموسيقيين وكتابات المؤلفين وحسابات المهندسين وقرارات الزعماء وسواعد البسطاء، من كل هذا يتكون الوطن. الوطن هو كل هؤلاء. الوطن هو نحن.

°°°

واهنة ومتعبة تحركت الكلبة ببطء. مضت تمشي وتمشي، عبرت حواجز عسكرية وجنوداً وبحيرات من الدماء والبول وفوارغ رصاص وقنابل مولوتوف وجثث وأشلاء وقطع قماش ممزقة. عند نقطة معينة مضت تشمشم. شعرت برائحة شريك حياتها من حولها. نظرت في كل الأنحاء ولم تجده. فجأة حانت منها التفاتة نحو هوة عملاقة بالأرض، هوة لم تكن موجودة بالأمس، وهناك، بالعمق من تلك الهوة، وجدت جثة كلبها. الكلبة لم تتردد، لم تفكر في أبنائها الذين تحملهم ببطنها، قفزت إلى داخل عمق الهوة. ربما تكون قد ماتت، الأكيد أنها قد ماتت.

°°°

قصص كثيرة تولد وتموت لأسباب كتلك. قصص كثيرة لا يريد لها الله الاكتمال، قصص كاملة تموت في كل ثانية في جميع أنحاء العالم، قصص كثيرة يكفي لكي تحكيها أن تحكيها، وحدها قصتنا لابد لنا من أن نحكي الحكاية كاملة حتى نفهم شيئاً منها، أي، منذ جيلين على أقل تقدير. وحدها قصتنا تستحق منا التمهل وتأمل خلفياتها، وحدها قصتنا تستلزم منا الصبر في الحكاية والسماع. القصة بدأت منذ أكثر من ستين عاماً.

لقد كان ذلك اليوم بعيداً جداً.

٢

في ذلك الزمان البعيد كانت الشمس تشرق على مصر دائماً، الليل أكثر سكوناً، والنهار أكثر بهجة، وكان النيل يجري طوال الوقت. كل شيء كان رائعاً في مصر. أو أن هذا كان إحساس المصريين ببلدهم، الحقيقة هي ما يشعر به الناس، وليست هي الحقائق الموضوعية، الطبيعية والفيزيائية. من يهتم بالحقائق الفيزيائية؟!

سنحكي هنا عن قصة حب رقيقة، جمعت بين قلبين شابين في بداية حياتهما: "علي"، ٣٢ عاماً، عنده شقة صغيرة إيجار قديم بعين شمس الشرقية، إيجارها خمسة وعشرون جنيهاً، بنظارة سميكة، يسكن مع أخيه، لم يكمل تعليمه الجامعي للأسف، درس سنتين في حقوق ثم غادرها ليعمل في محل ملابس يملكه هو وأخوه بجانب الشقة، واستمر الحال.

"إنجي"، ٢١ عاماً، تخرجت لتوها من كلية سياسة واقتصاد، شابة واعدة، بنظارة صغيرة ودقيقة وجسد صغير ودقيق، ولكنة أمريكية فوق كل هذا، وتعيش في شقة وحدها بمدينة نصر، أبوها توفي في أبو ظبي، وورثت عنه مبلغاً معقولاً جداً باعتبارها ابنته الوحيدة. ملابسها بسيطة. تحب شراء ملابسها من على الأرصفة ومن محلات الدرجة الثالثة.

اللقاء الأول بين علي وإنجي لم يكن مهماً، مرت بنت بنظارة من أمام المحل فقال بصوت عال إيه يا دكتور. وقفت لتتفرج على البضاعة فنظر إلى

مكتبة عابث الإلكترونية

أصحابه وقال يكفيني شرفاً إنها وقفت عندي. اشترت بنطلونا فعلاً. وهي بالداخل ابتسمت ونظرت في عينيه وقالت له ازيك يا علي. أخبرته أن اسمها إنجي. هو تذكر بنت عمه البعيدة المقيمة في أبو ظبي. سألها إن كانت بنت عم سليمان العلايلي. ابتسمت وقالت له أيوة. ارتبك. بعد ثوان سألها عن صحتها وصحة أبيها والجو في الإمارات عامل إيه. ومضت ونساها. لم تكن ابنة عمه المباشرة، أبوها هو ابن عم أبيه. عادت مرة أخرى، ومرة ثالثة. هي التي لم تنسه. وشيئاً فشيئاً بدأ يلتفت لها، ويسألها عن أشياء خارج الهدوم. لم يكن خجولاً. كل ما في الأمر أنه كان لا يصدق، بنت ناس أوي يا أخي، وانجليزي وبتاع. هكذا قال لمصطفى أخيه. تشجع وأخذ رقم تليفونها. ابتسمت عندما طلب منها هذا. سألته ليه عاوزه وهي تستعد لإملائه عليه بالفعل. ارتبك ولكنه تمالك نفسه، عدل إطار النظارة السميكة، علشان أبقى أسأل على صحة الوالد حضرتك.

الأحداث تحركت ولم يملك أحد إيقافها. الأحداث كانت أسرع منهما. اتصل بها في اليوم التالي وأخبرها عن بلوزة جديدة. زارته واشترت البلوزة، وسألته لماذا لا يتمشيان قليلاً. فتح فمه. قالت له ممكن نطلع مدينة نصر على فكرة، هي قريبة. سألته إزاي تبقى في عين شمس ومش بتروح مدينة نصر؟ سألته إنت أجازتك إمتى؟ سألته بتخلص إمتى في أيام الشغل؟ لم يرد. كان مازال فاتحاً فمه.

في اللقاءات الأولى لم يكن يتحدث كثيراً. هي كانت تتحدث، وكانت تقترح المواضيع، وتسأله، وكان يجيب بكلام قليل. لم يكن مصدقاً نفسه، كان الموضوع أشبه بحلم، ولكنه بالتدريج صار يشارك، ويستظرف ويتساخف، يعني، مثلاً، للتقريب، تسأله إنجي كيف يشرب الشاي، فيغمض عينيه

ويضغط أسنانه العلوية على شفته السفلى ويقول لها سخن، سخن أوي. فتبتسم وتنظر له وتلمع عيناها. يرتبك.

أحيا بعضهما، هذا ما بدا لأخيه، الذي كان يراقب من بعيد. ولكن علي لم يفهم.

سليمان عبد الله كان لا يزال مقيماً في أبو ظبي، عندما قررت ابنته العودة لمصر. مات بعدها بعامين. منذ بداية التاريخ، عرف أنه من الأفضل له أن ينجو بعراته من عين شمس وقرفها. سافر إلى الإمارات وخلف هناك، في نفس الوقت الذي كان فيه ابن عمه، محمد سيد، يطبخ الكوتة حتى يعمل الجنيه بعين شمس. أي الطريقين كان سليماً؟ محمد سيد عرف الحياة جيداً، وبذراعه فتح محل ملابس بجانب البيت، وتزوج وخلّف. صحيح أن سليمان قد عمل بيديه قليلاً في أول سفره لأبو ظبي ولكنه سرعان ما استطاع، بذكائه، العمل بتسفير المصريين، عرف مداخل أهله في سوهاج، ومداخل الإمارات، وضع الفلس على الفلس في الأول، ثم أصبحت الدراهم تضاف تلقائياً لحسابه في البنك. اشترى شقة في مدينة نصر. ثم اشترى الشقة التي فوقها، والتي أمامها، والتي بجانبها، بالتدريج أصبح مالكاً لطابقين كاملين. وورثت إنجي كل هذا. قامت بتأجير الطابق الأعلى ولم تقم بتأجير الطابق الأسفل.

عندما التقى علي بإنجي كانت تلك هي القصة. هي بنت الرجل الذي نجا وهو ابن الرجل الذي تورط أكثر وأكثر في بلده. لم يكونا رجلاً وامرأة التقيا في غفلة من الزمن. لقد كانا ميدأين متناقضين، رؤيتين للعالم، لقد شكلا في هذه السنوات المبكرة ما يمكن أن نطلق عليه اسم صراع الثقافات، قبل أن ينتبه أي شخص لوجوده.

مكتبة عابث الإلكترونية

حكى لها علي كيف مات أبوه. استرجع ذكريات بعيدة ومؤلمة. حكى لها عن الصعيد، وعن التار، وعن الضوء الشارد ونئاب الجبل، حكى عن أبيه الذي وجدوه مقتولاً على باب محله، وعن الصوت المتحشرج الذي كان يخرج من حنجرته، عن الدم الذي أغرق جميع الملابس، عن المحل الذي أغلق عامين كاملين، ماكانش فيه زبون واحد يرضى يقرب منا، واله العظيم والله العظيم والله العظيم أنا كنت أمشي ف الشارع أنا واخويا واحس الناس بتهرب منا، أنا كنت أما اتعب أوي اروح الجامع اصلي، هتصدقيني لو قلتلك إن ماكانش فيه حد يرضى يصلي معايا. كل ما فعلته إنجي هو أنها أغلقت عينيها تعاطفاً معه. ثم طبطبت على كتفه. احتضن كفها بين كفيه وبدأ في السهوكة. ألصق ساقه اليسري بساقها اليمنى. مد يده على ظهرها وبدأ يلعب فيه من تحت التي شيرت. هي ارتبكت جداً. هتفت علي! إنت اتجننت؟! بتعمل إيه؟ وعلي لم يكن يعرف على وجه التدقيق هو بيعمل إيه. ولذا ارتبك هو الآخر، وقال لها يا فندم ماتفهمينيش غلط. حضرتك في منزلة أختي والله. هي نظرت له باحتقار شديد، وغادرت المكان. بعدها بيومين أرسلت له إس إم إس. قالت له أنا حاسة بحاجة ناحيتك يا علي. بس أنا عاوزة أبعد شوية علشان أتأكد منها. ماتزعلش مني.

°°°

إنجي شخصية شديدة التعقيد، إذا جاز التعبير. تقيم وحدها في مدينة نصر، ولها مغامراتها. في سنة أولى كلية قالت إنها ستصبح دبلوماسية كبيرة. درست كثيراً. ولكنها في نفس الوقت تعرفت على شاب وأحبته. كانت قادمة لتوها من الإمارات ولا تعرف شيئاً عن أي شيء. الشاب كان يستغلها مادياً. هذا ما عرفته، ولكنها لم تهتم، وبرغم هذا تركها. وعاشت هي طويلاً في صدمة

عصبية. رسبت في أول سنة. ثم نسيت حلم التفوق، كانت تنجح بتقديرات منخفضة، وكانت لها في كل سنة قصة حب أو أكثر.

أجمل شيء في إنجي أن كل هذا لم يكسرها. ظلت بنتاً مرحة ولذيذة، ومازالت مستعدة لأن تثق في العالم من حولها، بلا حدود. قررت ذات يوم أنه لابد لها أن تعرف أهلها. سألت بابا عن ابن عمه في عين شمس. قال لها إنه مات. قالت له أنا عارفة. أنا بسأل على ولاده. وصف لها محل ولاده، بقدر ما كانت تسمح ذاكرته. وقررت هي أن تصنع بيج سربرايس لأبناء عمها البعيدين، للوجه الآخر من مصر الذي لا تعرفه. إنجي عاشقة لمصر.

فوق عشقها لمصر، كانت عاشقة لجذورها أيضاً، عاشقة لاكتشاف جذورها بالأحرى. لأيام طويلة ظل حلم يقظة واحد يزورها بانتظام. هي في الكونغو، تدردش مع واحد من رجال القبائل. تنطق فجأة باسم أبيها "سليمان عبد الله". فلا يفهم الأفريقي. تكرر النطق فيهز رأسه وينطق "أبدولاه. أبدولاه"، ثم يقودها إلى شيخ القبيلة. شيخ القبيلة نصف نائم. تسأله عن "أبدولاه"، فلا يفهم، يحدثه الأفريقي الآخر بلغته فيتوجه لها: "نعم لقد كان هناك ولد يضرب الطبل عندنا وكان اسمه أبدولاه. ولكن في يوم حار اقتادوه إلى.. إلى" ولا يكمل، فقط يرسم بيديه أهرامات. تكمل هي "إلى مصر". فيرد بحماس "نعم نعم إلى مصر". وتقوم هي في وسط المجلس وترقص: "لقد عثرت على جذوري. لقد عثرت على جذوري."

لهذا تمنت إنجي من أعماقها زيارة الصعيد ولو لمرة واحدة، مرة واحدة بس، لكي تعثر على هذا الجذر الهارب، المراوغ في الزمن. مرة واحدة وأموت بعدها يا رب، قالت مخاطبة الله قبل أن تشد على جسمها البطانية وتنام.

°°°

مكتبة عابث الإلكترونية

علي تمادى، وهو يعترف بهذا. مع إنه تعلم في شغلته هذه الصبر. بصراحة البنت شكلها نضيف يا أخي، يعني مش فكرة إنها بنت عمي، لأ، هي تحسسك إنها دكتورة مثلا، أنا اتخنقت من نفسي الصراحة.

ظل علي مخنوقاً من نفسه لأسبوعين، لا نفسه تريد مسامحته، ولا إنجي تريد الرد عليه في التليفون، ولا أخوه توقف عن أن ينظر له نظرات التوبيخ التي يرميه بها. علي تعلم الاستيقاظ مبكراً، والتدخين على معدة فاضية، وقرض أظافره، واللعب في مناخيره، واللعب في بيضانه، وتطفيش الزباين، وخصوصا بنات الجامعة، علي كان يستفتح الصبح بسب الدين والتف على الأرض. لقد تحول إلى حيوان.

بعد شهر كامل أرسلت له إنجي رسالة، كلمة واحدة، بحبك. انهار علي على الكرسي وأخذ يبكي. في هذه اللحظة تصور أن أله انتهى، أنه وداعاً للسهر والعذاب وطول الليالي. ولكن تلك لم تكن سوى البداية فحسب.

°°°

الثأر هو قصة كبيرة، عانت منها مصر كثيراً، وبالأخص في الجنوب الجاهل والفقير، ولم تفلح محاولات الحكومة الدائمة لاقتلاع الفكرة من رؤوس الأهالي. ظل الناس متشبثين بعنادهم أمام أية محاولة لتنويرهم. هكذا ظلت ما يمكن أن نطلق عليها ثقافة الثأر متغلغلة بقوة، في الجنوب بالأساس، ولكن لا شيء يمنعها من أن تتحسس طريقها إلى الشمال أيضاً، الشمال المتعلم والثري. شيء كهذا كان علي يحاول شرحه لإنجي وهو يحكي لها عن أبيه. تار قديم، لا أحد يعرف أصله، اشتعل بين عيلة العلايلي وعيلة أمين بأخميم سوهاج. راح ضحيته محمد سيد العلايلي، عمك كان أحسن حد يا إنجي، إوعي تصدقي لو حد قالك إنه كان وحش. وهو ماكانش بتاع تار وسلاح، هما اللي جم وراه من

البلد، اسألي بابا هيقولك كدا. طيب أنا آسفة يا علي. أكيد كان فيه ناس بيقولوك إنك لازم تاخد بتار بابائك. صح؟ سكت علي. وبعد قليل: كل الناس. وإوعي تفتكري إن باباكي نفسه ماكانش فيه ناس بتقوله كدا. كل أمة لا إله إلا الله كانت بتقول كدا. لغاية أما زهقت يارب. بس لا أنا ولا اخويا بتوع مشاكل. بس وحق السوجارة دي ماحد منهم هيفلت سليم. طبطبت إنجي على كتفه، أبقت يدها قليلاً، نظرت إليه دقيقة كاملة وهي تبتسم، لمست ساقها بساقه، وعندما استجاب هو، عندما حاول مجاراتها، سألته علي! إنت بتعمل إيه؟ وعملتها زعلة. العالم ظالم، وهذا من زمان.

°°°

لف بها علي في كل الأماكن، القلعة والهرم وسيتي ستارز والنيل. تريدين الفرجة على مصر، أهي مصر يا ستي، استريحتي؟ هي لم تكن مستريحة فحسب، كانت طول الوقت تضحك بسعادة هستيرية. أغلب الوقت كانت معلقة بذراعه، وبتي شيرتها الذي بلا أكمام، وبنظارتها الشمسية، والكاميرا المعلقة برقبتها، كل هذا يجعلها تبدو كسائحة، أما هو فكان يبدو عبيطاً، كان يصر على حشر قميصه حشراً في البنطلون الجينز القديم، وعلى إطالة أكمام القميص المشجر وتزريرها من عند الأساور، وبشنبه الخفيف ونظارته كعب الكوباية لم يكن يثير انطباعات جيدة إجمالاً. ولكنهما لم يهتما، وهذا كان أجمل شيء في علاقتهما. يجلسان على صخرة الهرم، تسند رأسها على كتفه، رائحة إبطه معرقة، ولكن هذه التفاصيل لا تهمها. فجأة تسأله، علي، إنت الكلام اللي قلته كان صح؟ كلام إيه؟ إنت كنت بتقول إنك مش بتاع مشاكل. بصي يا إنشي (هكذا كان ينطق اسمها)، أنا وأخويا اتنين في حالنا، بس على شرط، ماحدش يقربلنا، تعاملني بالأدب أعاملك بالأدب، تفكر مجرد تفكير تأذيني اطلع عين

مكتبة عابث الإلكترونية

أمك. طب وبابك؟ هتسيب دمه يروح يا علي!؟ مين دا اللي هيسيب دمه يروح؟ أقسم بالله العظيم العيال دول ما هيفلتوا مني. وأنا اللي هاجيب تاره خدي بالك، مش حد من أهلك ولا حتى اخويا. ابتسمت. اوعدني يا علي. الله! باقولك أنا بأقسم بالله، مش مكفيكي دا؟ أمسكت بكفه وراحت تفرك كفها بها، نظرت له وابتسامتها تتسع. إنت حبيبي. قلتلك دا قبل كدا؟

°°°

ولكن هذا لم يكن كل شيء. علي ليس بتاع مشاكل، وإنجي تعرف هذا، ولكن إنجي بتاعة مشاكل، هي تعرف أن الحق حق والباطل باطل، وتعرف أنها ستتعب كثيرا مع علي. أحيانا كانت تلجأ للرومانسية، مثل المشهد السابق، وأحيانا كانت تصيح أكثر عنفاً. كانت تشعل سيجارة وتعطيها لعلي. يجلسان في بينوس.

• علي. الويتر أتأخر. انت ملاحظ؟

• أيوة يا حبي.

• طيب ممكن تستعجله؟

• هايبجي دلوقتي يا حبي.

• (أعصابها تتوتر) علي. احنا بقالنا نص ساعة. مش معقول كدا فعلا. قلة ان مش معقول كدا.

• (يشير للويتر ليستعجله)

(صمت)

• بس؟!

• بس إيه؟

• (تزعق تقريباً)، علي، اتحرك، قله ان كدا كتير، إن مش معقول بسيبنا كدا علشان جنابه مش عاجبه التيبس بتاع المرة اللي فاتت.

(يصمت)

• (باستهزاء) علي. انت متأكد إنك عاوز تاخد بتار بابك؟

°°°

في ذلك الزمان لم تكن الأمور محددة بدقة. هناك شخص ما قد يفعل شيئاً، ثم تكتشف أنه كان ينوي شيئاً مختلفاً تماماً. أو حالة أخرى، هناك شخص ما قد يقصد شيئين في نفس الوقت من وراء شيء ثالث، ولا يمكن تحديد أي من الشيئين أراده بقوة أكثر، هل هو الأول ولا الثاني؟ كان ذلك زماناً غامضاً، وكل دوافعه كانت غامضة. على وإنجي قررا قضاء يومين في سوهاج. علي كلم شخصاً يعرفه وأخبره أنه سيبيت عنده يومين. لم يخبره شيئاً عن إنجي، ربنا يسهلها من عنده.

يدخلان محطة مصر ساحبين شنطة كبيرة خلفهما، بعد أن حجزا تذكرتين. ما الذي دفع إنجي لقرار السفر إلى سوهاج؟ وما الذي دفعها لمحاولة إقناع علي ليومين بهذا القرار؟ هل هي الرغبة في رؤية مصر؟ هل هي الرغبة في مشاهدة خلفية الأحداث التي حكاها لها عن أبيه القتيل، وإنجي لم تكن تفوت حقها أو ثأرها؟ لا أحد يعرف. وربما كان مزيجاً من كل هذه الأسباب والعوامل. ذلك كان زماناً غامضاً. ولكن أيا ما تكن الدوافع، فإن الأحداث هي المهمة. إنجي تشعل سيجارة فيغضب علي، مش قدام الناس، وتغضب هي، أنا حرة. يغضب أكثر، حرة دي لما تبقي لوحدك مش مع راجل. تبتلع الإهانة وتقرر الانتقام.

• تعرف يا علي؟

مكتبة عابث الإلكترونية

• نعم؟
• انا ماعرفش انت جاي سوهاج ليه.
• مش انتي قلتي نفسك اعرفك على اهلي.
• علي، ماتهزرش، ما اهلي هما اهلك.
• (بشيق) طب انتي عاوزة إيه؟
• انت قلتلي انك عاوز ترجع علشان تاخد بتار ابوك.
• ايوة.
• يعني ايه ايوة. صح ولا مش صح.
• ماعرفش.
• علي. انت مش راجل.
(لا يرد)
• الراجل اللي اعرفه مايخافش من المسئولية.
(ينظر حوله. يزفر)

يقفان على الرصيف. يخرج سيجارة ويكتشف أن ليست معه ولاعة. يبتعد خطوتين ليبحث عن ولاعة. أصوات زعيق تصدر من المكان الذي كان يقف فيه. صوت إنجي: إنت مش محترم. صوت أجش لرجل: انا جيت جمبك؟ يقفز علي، في خطوة واحدة يكون عندهما، يمسك الرجل من قميصه بقوة، انت حسابك هنا معايا، أنا هاطلع ميتين أمك النهاردة بعون الله، يلوش الرجل محاولاً الإفلات، لا إله إلا الله، إنت فاهم غلط يا بشمهندس. ولكن علي، سواء كان يفهم صح أو غلط، لا يسمعه. يضربه بالشلوت في ساقه، في نفس الوقت الذي يتمزع فيه قميص الرجل تحت وطأة القبضة العنيفة لعلي. الرجل يتعصب، تحت سيل الضربات المباغتة ينجح في توجيه صفعة محكمة لوجه

علي. علي يصمت لثانيتين. الجمهور، الذي كان يحاول التخليص، يصمت هو أيضاً بوجل. الرجل يتراجع للخلف مترقباً رد فعل هادراً. يندفع علي بقوة ليلكم الرجل في بطنه، في رأسه، لا يتوقف. الرجل يحاول الفلفصة، والناس يحوشون علي. شخص ضخم يقترب ليمسك ذراعه بقوة فينتره علي بعنف وتندفع إنجي لتخليص حبيبها. يدفعها الرجل بعيداً فتزقه ويزقه علي بقوة. فجأة يحدث هذا. يسقط الرجل على قضيب القطر. على القضيب بالضبط. قطر الصعيد قادم. الرجل الآن مفروم تحت العجلات.

الرصيف خاو تماماً. الناس جرت بعيداً. علي يحتضن إنجي وحدهما على الرصيف، طويلين جداً، بهيبين جداً، منتصبين وغضبانين وملابسهما ممزقة، كأنهما إلهان. بخطوات واثقة يخرجان من المحطة. على الناحية الأخرى من الميدان يوقف علي تاكسياً. يركبان صامتين، صامتين تماماً، صامتين إلا من "عين شمس يا اسطى"، منهكة ومكدودة.

°°°

مصطفى شاهد أخاه يدخل الشقة مع إنجي، يرتميان على الكنبة الكبيرة في الأنتريه. كان يعد كوب شاي. خرج مصطفى. بقع الدم والعرق والتراب تملأ ملابسهما. يسألهما. لا يرد أحد. بعد ثلاث دقائق ينطق علي: "أنا قتلت واحد". وإنجي تأخذها نوبة جدعنة: "أنا قتلته معاك." مصطفى يولع سيجارة. يعطيها لأخيه. فيحكي أخوه. نظراته ثابتة ونبرته آلية. لنصف ساعة يحكي. مصطفى لا يستطيع التصرف ولا اقتراح أي شيء. بعد قليل يعود إلى المطبخ. يتصل هناك بشخص ما. ينهي الاتصال ويعود لعلي. انتو هتنزلوا معايا دلوقتي. هتباتوا في الشارع. ومن بكرة الصبح تاخدوا أول عربية على اسكندرية. فيه واحد اسمه الشيخ حسن هيبقى ف المحطة. أنا كلمته. دا راجل أنا اعرفه

مكتبة عابث الإلكترونية

من أيام الجيش وخدمته وهيخدمكوا. أي قصص ف دماغك تنساها. لا تار ولا ماتارش. احنا مش ناقصين قرف.

علي وإنجي ومصطفى بيبتون في الشارع. على دكة خشبية بميدان التحرير. علي يسند رأسه على حقيبته الكبيرة، وإنجي تسند رأسها على كتفه. ومصطفى بعيد. مع أول ضوء للصباح ينهضون. يتجهون، قافلة صغيرة، أسرية، مأخوذة بالذنب الذي وجدت نفسها غارقة فيه، إلى رمسيس. عربية اسكندرية مازالت فارغة. فيها أربعة أنفار أو خمسة. يلف ثلاثتهم في الشوارع، كل في اتجاه، وعندما يزمر كلاكس العربية، عندما تحمّل بالكامل، يعودون. يجلس علي وإنجي على المقعد الخلفي، ويودعهما مصطفى. تنطلق العربية بعيداً. فقط عندها ينامان بعمق.

٣

• أنا اسمي سوسو. اسمي سعيد، بس قولي يا سوسو. أنا أحب الاسم دا.

• ...

• يا عم انت خايف مني ولا مكسوف ولا إيه؟

•

• ماتخافش، أنا عمري ما أذيت حد، ولا هأذي إن شاء الله.

• ...

• ربنا بس يقدرنا على فعل الخير.

• ...

• انتو أصلاً مين؟

• ...

• مش بقولك؟ انت خايف مني اهو. هو أنا بسألك يعني عشان أأذيك.

• احنا من سوهاج.

• أحسن ناس يابا. سيجارة؟

ooo

الشيخ حسن رجل طيب، أطيب إنسان رآه علي في حياته. رجل صالح فعلاً. حج بيت الله أكتر من عشر مرات، وعمره ما بص بصة وحشة لأي حد، لا نظرة شهوة ولا نظرة حسد. علي يعمل الآن في محل هدوم في كامب شيزار.

مكتبة عابث الإلكترونية

أجمل مكان في الدنيا كامب شيزار. شياكة وأناقة. منطقة شعبية وسياحية في نفس الوقت. يسكن علي الآن مع إنجي في شقة صغيرة إيجار جديد يملكها الشيخ حسن هناك، ويدفعان إيجارها ألف جنيه في الشهر مخصوماً من مرتبهما، مع شرط آخر: "أنا راجل باخاف ربنا. ومش عاوز يوم الحساب ربنا يحاسبني ويقول لي انت جمعت بين اتنين في الحرام. علشان تقعدوا مع بعض لازم تتجوزوا، وبا مش هيخسركوا حاجة، هي ورقة بس تشتروا بيها مرضاة الله، وربنا يرزقكوا بالذرية الصالحة إن شاء الله"

حدث هذا، تزوج علي بإنجي. سكنا في شقة الشيخ حسن، وبدءا عملهما في محله، "ملابس الهدى"، إنجي تقف على الكاشير وعلي يعتمد عليه الشيخ في كل الأشياء من أول جذب الزباين للمحل وحتى الاتفاق على الطلبيات. الأيام تمر وتفوت. شهر يفوت، شهران، ثلاثة، إنجي الآن حامل.

°°°

كيف تعايش كل منهما مع الذنب الذي يحمله في عنقه، كيف تحمل كل منهما أن يصبح قاتلاً هارباً، في ثوان، وبهذه السرعة الخاطفة؟ علي كانت له سابقة قديمة، جرح شخصاً بسكينة في وجهه. حبس وقتها ولم يعد للخناق. كان يحب وصف نفسه بأنه مش بتاع خناق، وإنجي لم تكن لديها بالطبع أية خلفية إجرامية من أي نوع. على ما يبدو فلقد تعامل كل منهما مع هذا الوضع بوصفه وضعاً مؤقتاً. هما الآن هاربان، ولكن سيأتي وقت يتوقفان فيه عن الهرب، سيعودان إلى بيتهما الجديد بعين شمس، وعندها، ستختفي الجريمة من التاريخ، ستُمحى من ذاكرتهما وسيعود القتيل للحياة وسيصحوان من الكابوس. جدل كهذا كان محوراً لحديثهما لليال طويلة.

• أنا خايفة.

(ينفخ دخان سيجارته بعيدا. لا يرد)

• علي احنا لازم نرجع.

• نرجع فين؟

• على بيتنا. على بيتك. انت لازم تقول للبوليس. دي جريمة قتل شرف. يعني مش هتاخد فيها حاجة.

• والناس؟

• مالهم الناس؟

• لما يعرفوا إني قتلت واحد..

• (تصحح) احنا قتلنا واحد.

• لما يعرفوا إن إحنا قتلنا واحد.

• إنت قتلته خطأ.

(يبتسم بسخرية)

• (بعصبية) انت مش عاوز تتحرك.

(يواصل الابتسام بسخرية)

• إنت ماعندكش مسئولية.

(تفتر ابتسامته الساخرة. ينفخ دخان السيجارة)

• انت دايما بتخاف من المواجهة. دايما أنا اللي باخد القرار.

• (يلتفت إليها. يمسك بيدها. يضغط على معصمها بقوة. يعنف. ينظر في عينيها. عيناه محمرتان) أنا قتلت واحد علشانك.

• (تصحح) إحنا قتلنا واحد.

مكتبة عابث الإلكترونية

• (يصرخ) أنا اللي زقيته ع القطر علشان كان بيعاكسك. أنا اللي الكل شافوني وأنا بموته. انتي زي الهانم ضربتيه بالبوكس في بطنه، بس أنا اللي مستقبلي ومستقبل ابني هيضيع.

• (تلتفت إلى الناحية الأخرى. بعد قليل تنظر إليه وعيناها مرغرغة من الدموع) أنا مابقيتش احبك خلاص.

(يستأنف الابتسام بسخرية).

ooo

سوسو شاطر. يقف على عربية كبدة أمام المحل. تعرف عليه علي وهو يأكل عنده. بعد قليل أصبح يزوره في محل "ملابس الهدى"، ثم نشأت بينهما صداقة من نوع خاص. يقضيان اليوم كله مع بعضهما تقريباً. علي، الذي كان جديداً في المنطقة ويحاول استرضاء من حوله، أهداه جينزا ليفيس دفع ثمنه من جيبه الخاص، وسوسو لم يعرف كيف يرد له الهدية. دخل سوسو بيت علي، وأصبح صديقاً للعائلة، صديقها تقريباً. ليس صديقها جداً. إنجي لم تحبه كثيراً، إنجي لم تحب أحدا في هذه المنطقة، كانت قرفانة من حياتها ومن كل شيء. سوسو راهن نفسه أنها ستتعود، ولكنه خسر الرهان. لم تتعود، وهذا لم يجرح سوسو.

سوسو كان إنساناً، يشعر بالبشر، شاب في العشرينيات، قصير القامة، صوته مبحوح، يزك في مشيته لوجود ساق أطول من أخرى. ربما لهذه الإعاقة كان قلبه يتألم دائما للآخرين. وما أن رأى إنجي حتى عرف أن هناك شيئاً ما وراءها، فتاة متعلمة، مثقفة، تأتي مع زوجها لتعمل كاشير في محل هدوم، قرفانة من كل ما حولها، لا أحد يعرف عنها وعن زوجها شيئاً. سوسو لم يفكر في الأذية أبداً، لقد كان يفكر في المعرفة، المعرفة فحسب، المعرفة المجردة حتى

من السلطة. مرة وراء الأخرى تجرأ على دعوة علي إلى بيته، عشة صغيرة فوق السطح، هناك قدمه إلى أخويه، عادل وأبو أميرة، أخيهما الأكبر وصاحب البيت، بوصفه البشمهندس علي اللي عاوزين نعملو معاه الواجب. عادل لم يقص. بيرة وحشيش للصبح. على الساعة عشرة استأذن علي في الانصراف. أمسك أبو أميرة ذراعه بقوة وقال له عليّ الطلاق يا خويا ما يحصل، انت بايت معانا النهاردة. بأدب قال علي إن المدام قد تقلق عليه وهي في أول شهر حمل. أبو أميرة أغلظ القسم ثم حل المشكلة: يبقى انت تكلمها دلوقتي، واني نبعت المدام تبيّت عندها، واحنا الرجالة نقعدو براحتنا. اتصل علي بإنجي وأخبرها وخرج أبو أميرة ليتفاوض مع زوجته التي غادرت الشقة بعدها بربع ساعة. واستمرت سهرة الرجالة للصبح.

لم يهلهل علي بالكلام. فقط تحدث عن عين شمس، وعن مصر. والتقط سوسو المعلومة، لم يجيئا إذن من سوهاج. سأله ماذا كان يعمل قبل المجيء لاسكندرية فتحدث عن محل الهدوم. سأله ما الذي أتى به إلى هنا، فكاد علي يتكلم وسكت، سكت طويلاً، ثم قال إن ربنا سبحانه وتعالى بس هو اللي يعرف الخير فين. الإجابة لم تقنع عادل، الذي لم يشاركهما الحشيش وإن كان شرب تسع قزايز بيرة. جعله هذا عدوانياً. اقترب من علي وسأله إن كانت معه مئة جنيه حتى ينزل يحاسب محل الخمرة تحت ويعيدها له غداً. الخدعة انطلت على علي. أخرج المحفظة فاختطفها عادل وأبرز البطاقة. قبل أن يتمكن من النظر إليها كان علي قد ركب فوقه وقرب سكينة من رقبته وقال له عاوز تسأل على حاجة يبقى تسأل عليها بالأدب، غير كدا هأذيك.

سوسو كان قد غاب تحت وطأة الحشيش. فجأة أفاق، واقترب من علي ليحاول تهدئته. نتره علي بعيداً، دقيقة ثم قام، توجه إلى باب الشقة، قبل أن

مكتبة عابث الإلكترونية

يغادر كان قد أخرج مئة جنيه ورماها في الهوا. قال: "دا حق البيرة. أنا ماحبش حد يعزمني ويبقى فاكر انه هيكسر عيني." أبو أميرة كان يراقب الموقف كله. لم يتدخل للدفاع عن أخيه.

عاد علي إلى الشقة. بعدها ولدة أسبوع ظل سؤال يتردد في ذهن سوسو: "من هو هذا الرجل؟"

°°°

أدهم صبري، كان هذا هو البطل المفضل لإنجي. منذ قرأت مغامراته في الإمارات وحتى عودتها لمصر. منذ ذلك الحين، بدأ هوسها بالمخابرات. تخيلت حياتها على هيئة مغامرة طويلة، تمتزج فيها كل الأشياء، الأكشن بالدراما بحب الوطن بالعواطف المشتعلة. كانت تحلم – في جزء من نفسها – بالبطولة. ربما لهذا السبب، فقد كان الخلاص من كل هذه الحياة السرية هو أمنيتها الوحيدة. البطل لا يختبئ من الشرطة، لأن البطل هو الشرطة، هكذا فكرت. كانت صغيرة ولا تعرف الحياة.

في اليوم الذي زارتها فيه أم أميرة وتحدثا حتى الثانية فجراً اكتشفت إنجي أن هناك موضوعات لا يمكنها الحديث عنها، وموضوعات أخرى عليها تنسيق كيفية روايتها مع علي قبل أن يتحدث عنها أحدهما بمفرده. اكتشفت إنجي أن ثمة منطقة أصبحت سرية في حياتها، وبكت. أم أميرة هتفت بها قائلة مالك ياختي انا زعلتك؟ وإنجي أخذت تجفف دموعها، لا أنا آسفة يا أم أميرة. أنا اللي ضايقتك. سامحيني. في هذه اللحظة دخل علي. ارتبكت أم أميرة. قامت متوجهة للباب لتغادر. ألحت عليها إنجي في المبيت عندهم، فباتت. فرشت لها إنجي كنبة صغيرة في الصالة. وذهب علي للنوم بجانب زوجته.

في الخامسة صباحا شعر علي بالظمأ من جراء سهرة الأمس، قام، فتح الثلاجة وتجرع زجاجة مياه كاملة، عاد وهو يتطوح، وهو يتطوح شاهد أم أميرة وطرف جلابيتها منحسر عن ساقيها، ممتلئتين قليلاً، ولكن لا يهم، بدأ يهرش في قضيبه، وكان يلعب من تحت بنطلونه. اقترب منها. انحني. كاد يقع عليها ففوجئ بها تسنده وهي تشير إلى فمها ألا يحدث صوتاً.

°°°

لم يتم علي من قبل مع امرأة لا يعرفها، باستثناء الشرامبط طبعاً، ومنذ تزوج، لم يخن زوجته مرة واحدة. كان مخلصاً لها إخلاصاً من نار.

أما اليوم، فلقد تضافرت عدة عوامل جعلته يشعر بالشهوة إزاء أم أميرة، أولها البيرة التي أخذ يتجرعها حتى امتلأت بطنه، ثانيها أنه أراد بنومه معها الانتقام من جوزها، بعد أن حاول عادل أخوه بالعافية خطف البطاقة منه ولم يتدخل هو(هذا هو الانتقام البحت. الانتقام للانتقام)، ثالثاً أنه أراد أن يتقي شره، إذا كان عادل قد رأى شيئاً في البطاقة، عن كونه يعيش في القاهرة أو أعزب، فإن علي قد كسر عينه (هذا هو الانتقام الإجرائي، الهادف والموظف)، رابعاً وأخيراً، أنه كان فعلاً قد هاج عليها. كانت قذرة، ذات رائحة مقرفة، رائحة نتانة ممتزجة بكحول رخيص، كل هذا جعله يهيج عليها أكثر.

منذ تزوجا، لم تسمح له إنجي بالنوم معها إلا في أول أسبوع. بعدها بدأت نوبات الاكتئاب والقرف تعاودها، وعلي إنسان، دم وأعصاب، وله رغباته المنحطة أحياناً، ومنها السكس.

في ساعتين كان علي قد عمل تلات وحايد، صحيح أنها ليست وحايد كما ينبغي. القذارة تفصل الإنسان أحياناً، ولكنه على الأقل راض عن نفسه، ورضاه هذا جعله يدخل غرفة النوم على طراطيف صوابعه. يخرج ويمنح أم أميرة

مكتبة عابث الإلكترونية

خمسين جنيهاً، ويقول لها بحنية: "ابقي اشتري حاجة حلوة لأميرة". ويدخل غرفة نومه مرة أخرى. يستيقظ بعد ثلاث ساعات. يتشطف بسرعة ويخرج مع إنجي ليفتحا المحل.

هكذا انقضى أهم يوم بحياة الثنائي علي وإنجي. الأيام التالية كانت مجرد نتائج لأحداث هذا اليوم.

°°°

سوسو، عادل، أبو أميرة، أم أميرة، عائلة من ثلاث إخوة وزوجة تسكن سطح بيت قديم في كامب شيزار. أساس العائلة من سوهاج، مثل ناس كتير. سوسو يعمل على عربية كبدة، وعادل له فرشة في محطة الرمل يبيع عليها البوكسرات والفانلات الداخلية، كما يساعد أبو أميرة في عمله. أبو أميرة بواب، إن كان لابد من استخدام هذه التسمية.

عادل عيل هايف، بدا هذا لعلي من نظرات أبو أميرة له وهو يخطف منه المحفظة. تافه ومراهق وأخلاقه صغيرة. سوسو شاطر، يعتمد عليه أبو أميرة في أشياء كثيرة. تسقط أخبار الشباب الذين يريدون استئجار شقة، وتسقط أخبار الملاك الذين يريدون تأجير شققهم في المناطق المحيطة، وجلب عدد أكبر من الزبائن والزبونات إلى شقة الدور الثاني، التي يؤجرها صاحب العمارة بالساعة لمن يريد. أبو أميرة سمسار أيضاً، ومعرص، إن كان لابد من استخدام هذه التسمية.

يؤهل أبو أميرة أخاه سوسو لكي يحل محله. يحبه. هو الوحيد الذي يذكره بشبابه، ويحب أن يتخيل نفسه أباً له، وليس مجرد أخ. هذا الإحساس انتقل بالتبعية إلى أم أميرة. تعامله كأنها أمه.

في اليوم الذي نام فيه علي مع أم أميرة قال لها "ابقي اشتري حاجة حلوة لأميرة". لم ترد هي، لأنها امرأة حكيمة، وليست خفيفة لتسرد عليه المأساة كلها، مأساة أميرة التي ماتت في العاشرة، وظل الناس ينادونها باسمها بعدها. سمعت، تألمت، صمتت وانصرفت، ابتلعت ألمها وانصرفت.

°°°

إنجي: نظلمها بالقول إنها في هذه الأيام لم تكن تفعل إلا القرف من الحياة حولها. لقد كانت تكوّن طفلها ببطنها أيضاً، وهذه هي الوظيفة المقدسة للأم، وربما كان هذا هو السبب الأساسي في قرفها أيضاً. علي لم يستوعب هذا، كان صغيراً وقليل التجارب. قتل إنسان ليس تجربة مهمة. سألها مرة، عاوزانا نرجع مصر وتولدي هناك، فأشاحت بوجهها، فقال في سره الله يقرفك وانصرف. في هذه الفترة كانت إنجي تتعرف على زبونة تأتي لتزورها في المحل. الحاجة اعتماد اسمها. بادرت الحاجة بفتح حوار معها. قالت لها إن شكلها غريب عن المنطقة. وكانت تقصد اللكنة الأجنبية التي تتحدث بها إنجي. قالت لها إنجي إنها دارسة سياسة واقتصاد، فعادت لها الحاجة اعتماد ثاني يوم وسألتها بحرج إن كان يمكنها مساعدة ابنتها في الإنجليزي. البت طالعة خايبة ف الإنجليزي وانتي عربية هتجيبك وعربية هتوديكي واللي تأمري بيه مش هنكلمك فيه. وافقت إنجي، بدون حتى الرجوع لعلي. أخبرته مرة بنبرة سريعة، بنبرة من نوى أمراً، ولم يعترض هو. لم يجرؤ على الاعتراض.

الحاجة اعتماد تعرف الشيخ حسن من بعيد كما تقول. وهو الذي أوصاها بالحديث مع إنجي عندما شكت له من مستوى البنت في الإنجليزي. في أول يوم تزورها فيه إنجي في البيت، أعدت الحاجة ملوخية وفراخ ومحشي ورق عنب

مكتبة عابث الإلكترونية

وأقسمت بأغلظ الأيمان أن إنجي ستتغدى معهم. لم تستطع إنجي الرفض. في البداية لم تتكلم كثيراً، بالتدريج انفتحت نفسها، على الأكل والكلام، ولكزتها الحاجة في كتفها قائلة يا اختي فكيها كدا. وقربت دبوس فرخة من بقها، ووالنبي لتاكلي دا.

لم تذاكر إنجي للبنت في أول يوم، ولم ترها أساساً، أكلت وأكلت وأكلت، في النهاية وجدت نفسها تجلس مع الحاجة اعتماد وحدها في الصالون. الحاجة فاردة رجلها على الأرض وراكنة راسها على الفوتيه وبتقميص نوم، ذراعها مهول وصدرها عظيم وناصع البياض. الفرق بين بياض صدرها وسمار رقبتها بدا لإنجي مضحكاً. إنجي تسند جسمها على الكنبة المقابلة وتضم ركبتيها إلى صدرها. الحاجة تلف سيجارة حشيش وتعطيها، وإنجي تدخن وتحدق في المروحة التي تئز. الاثنتان غائبتان. بعد قليل تلتفت إليها الحاجة: "بت يا إنشي". تنظر لها إنجي ببطء. تواصل الحاجة:

"انتي ياختي قتلتي واحد في مصر صحيح؟"

°°°

الدائرة الصغيرة التي كانت تحيط بعلي وإنجي كانت تعرف قصة محطة مصر. قصة القتل، مع بعض التوابل: القتل الخطأ أصبح قتلاً عن عمد، وعلي وإنجي قاتلان، لا أحد يأمن لهما، ولكن لهذا السبب بالتحديد، فلقد اقترب منهما الجميع. المثالان اللذان لدينا الآن هما عائلة أبو أميرة والحاجة اعتماد. كانا يعرفان أشياء عامة وغامضة. ولكن التفاصيل كانت تنقصهما تماماً، ربما لهذا تحججت الحاجة اعتماد بقصة ابنتها، بطلب من الشيخ حسن. يمكننا تخيل الشعب السكندري وكأنه عصابة كبيرة، كبيرة جداً، وهذه العصابة تسعى لتجنيد كادرين جديدين وقويين ومهمين في صفوفها. والشعب السكندري يعني هنا عائلة أبو أميرة والحاجة اعتماد.

صحيح أن هذا التعميم مخل بعض الشيء. ولكن الحياة مستحيلة بدون تعميمات.

يصعب كثيرا تحديد رد فعل إنجي عندما سمعت سؤال الحاجة، ولكن لدينا دلائل. فيما بعد، عندما ستحكي لعلي ستقول له: "أنا ماعرفتش أقولها إيه خالص، وحسيت ان كل الناس شايفاني. وبعدين لقيتني بقولها وأنا بضحك "ايوة قتلت واحد، واللي هيكلمني هقتله هو كمان."

من أين اكتسبت إنجي كل هذه القوة؟

الحياة في الإسكندرية تعلم المرء الكثير. الكثير جداً.

الحياة في الإسكندرية لا تعرف العواطف.

°°°

الحاجة اعتماد فكت عقدة إنجي. وجدت من تقترب منه بعيداً عن جو المحل والبيت. والحاجة أيضاً من جانبها كانت حيوية، بنت سوق، وتعامل كل شخص بما يحب أن يعامل به. تعرف كل الناس، ويعرفها كل الناس، وتعرّف كل الناس على كل الناس. أحبتها إنجي، وتلك من جانبها لم تبخل عليها بأي نصيحة تحتاجها، سواء عن الحمل، أو عن الحياة في الإسكندرية، أو الحياة هرباً من البوليس، أو الحياة هرباً من مشاعر الذنب.

النقطة الأخيرة نقطة مهمة. عرضت عليها الحاجة الصلاة معها في الجامع. وعرضت عليها الحجاب، انتي فاكرة الحجاب هيوحَشك، أما انتي خايبة، يا بت دانتي هتبقى زي القمر، ولبست إنجي الحجاب، وأصبحت تقرأ القرآن كل يوم، صارت أكثر مرحاً وانفتح قلبها على المكان أخيراً. سمحت لعلي بأن يستخيف سوسو في بيتهما. وطبخت ليهما، ثم توالي دخول أفراد عائلة أميرة، أم أميرة، أبو أميرة وانتهاء بعادل.

مكتبة عابث الإلكترونية

لقد بدأ الجليد يذوب أخيراً.

°°°

تذاكر إنجي لمنة الله بنت الحاجة يومياً. بنت ذكية، لكن حمارة. صحيح تستوعب بسرعة، ولكنها لا تعرف شيئاً عن الإنجليزي. وكان لزاماً على إنجي إذن أن تبدأ من الأول. منة. طلعي لسانك وانتي بتقولي التي إتش، منة، مافيش حاجة اسمها هي ووك، هي ووكس أو هي إز ووكنج، منة، البي غير البي (يصعب شرح هذا الفارق كتابة)، منة، ركزي معايا شوية لو سمحتي وماتسرحيش في السقف.

ولكن منة ذكية، بسرعة تلتقط كلاماً بالإنجليزي، بلكنة إنجي الأميركية، وترددد، وبسرعة تفهم، طبعاً ليس بما يؤهلها لأن تتحدث، ولكن بما يؤهلها لأن تنجح في الامتحان. يوماً وراء يوم، تدخل إنجي حياة هذا البيت، تراه من الداخل، بيت بسيط، ناسه بسطاء، صحيح أنهم ليسوا فاحشي الثراء، وصحيح أنهم لا يتحدثون اللغات الأجنبية طول الوقت، ولكن فيهم شيء بسيط، حميمي وصادق. دائما كانت إنجي تؤمن بهذه الخصلة في أولاد البلد الحقيقيين، ولقد رأتها متجسدة في عائلة الحاجة.

ولكن أين هو زوج الحاجة؟ لقد ظل هذا السؤال يدور بخلد إنجي دون أن تعرف إجابته، ولقد تحرجت أن تسألها مباشرة، ولقد خافت، ولقد حدثتها منة ذات مرة فذكرت شيئاً عن بابا الشهيد البطل، وعن الشيخ حسن الذي لا يجعلهم محتاجين شيئاً. لم تزد منة، ولم تسأل إنجي.

لم تعد الحاجة لسؤال إنجي عن حادثة القتل القديمة. يبدو أنها حاولت تجميع تفاصيل الحادثة بطرقها الخاصة، وأنها لم تيأس. جمعت المعلومة وراء

المعلومة، حتى كونت ملفا ضخماً. هذا الملف لن يظهر الآن، سيظهر في وقته. الحاجة اعتماد لا تترك شيئاً للصدفة.

°°°

علاقة علي بأم أميرة تتواصل في بيته. تتحدث كثيراً، طول الوقت تتحدث. تحكي كل شيء عن كل الناس، وهي تحته، وهي فوقه، وهي جنبه، وهي وراءه، تحكي كل شيء عن كل الناس، وعلي لا يسمع شيئاً. وعلى العكس من ذلك كان أبو أميرة، يشع بطاقة عظيمة تبدو واضحة منذ أول لحظة وتتزايد مع الوقت. علي كان يحاول الحديث معه. كان يحاول إثبات نفسه أمامه، ولكنه اكتفى فيما بعد بالفرجة عليه. كان يراقبه وهو يشعل سجائره، وهو يحدق إلى البعيد، وهو يرشف الشاي، وهو يربط الجزمة، وهو يخرج النقود من جيب محفظته، وهو يطرطر في مبولة القهوة. كل حركة لأبو أميرة بدت وكأنها تحمل فلسفة خاصة. لم يكن ينطق تقريباً، ولكن علي كان ينصت له طول الوقت. لم يكن يفهم أشياء كثيرة، كان صغيراً، وفي هذا الزمن لم يكن قد استوعب الحياة بعد. لقد رشحت الأقدار أبو أميرة لكي يعلّم علي كل شيء في حياته.

لأيام طويلة ظل علي ساكتاً. وظل أبو أميرة يتبادل معه الأنفاس. يشعل السيجارة، ويعطيه نفساً منها، يشرب كوب الشاي، ويعطيه شفطة، ويهرش في بتاعه، وينظر له ويضحك، وفجأة ينطق. يقول إن الدنيا مابقاش فيها خير زي زمان. وعلي يحفظ هذه الجملة في رأسه، ويحفظ الإيماءات التي سبقتها، والتي لحقتها. هكذا فقط يصبح كبيراً.

لا نستطيع الجزم بالوقت الذي تحولت فيه العلاقة المرشحة لأن تكون علاقة صداقة بين علي وأبو أميرة إلى علاقة من نوع آخر، تلمذة، بنوة، انبهار،

مكتبة عابث الإلكترونية

شيء كهذا. في النهاية، فكل ما يمكننا فعله هو رواية موقف أساسي في هذا التحول. نتذكر جميعا أن علي قد نام مع أم أميرة ما يقرب من خمس مرات. وأن هذه المرات الخمس قد أوحت له تقريباً أن بإمكانه الاستظراف مع أبو أميرة. يلعبان الطاولة على إحدى القهاوي بالمنطقة. اللعبة شبه محسومة لصالح أبو أميرة. ولكن علي يحاول الثأر لكرامته. يضيق عينيه. يقول ماشي يا عم. بس أنا معوّرك ف اللي أحسن م الطاولة. يبتسم أبو أميرة. يقفل الطاولة. يطلب شايا للأستاذ علي. يضع ساقاً على ساق. يهرش في شنبه، وينتفّ شعرة سوداء طويلة تدلت من منخاره. ينظر لعلي. يتحول صوته. يغدو رقيقاً، بساماً، سمحاً، وجميلاً: "مين برضه يا أستاذ علي اللي معور التاني؟ إنت؟ ماشي يا سيدي. انت صح. بس تقصد أنهي مرة بالظبط؟"

الآن يلتفت له أبو أميرة بكل جسمه. يقرب وجهه منه. صوته منخفض، جديّ وخطير: "جايز الحاجّة بتحب تنبسط. دا مايعيبهاش، ولا يضايق حد، ولا يضايقني أنا، ولا فارق مع كس امي أصلاً. بس لما يبقى اللي قدامها مش راجل، دا يزعلني أوي، عليها، وكمان عليه، خصوصا لما يبقى عامل نفسه دكر ف كل حتة." أبو أميرة يقطّع الكلام، يتسّمه، يلون في نبراته. أبو أميرة ينهي الكلام. يشير للقهوجي: "حساب الأستاذ علي كله عليا. الراجل ضيف علينا."

°°°

لا يأنف أبو أميرة مما يأنف له سائر الناس عادة. لا يشعر بالعار من أشياء معينة، ويشعر بالعار من غيرها. هكذا هو. ربما هذا ما جعله إنساناً قوياً. لأكثر من مرة يحاول علي جرحه بكلمة، ويكتشف أنه لا ينجرح. ما الذي ستفعله مع إنسان لا ينجرح؟ لا شيء أبداً. واحدة واحدة، بدأ علي يندرج في عائلة أبو أميرة، ليس بمنطق الند هذه المرة، ولا بمنطق فتحة الصدر، ولكن

بمنطق اسمع، اسأل، استشير. كل الناس تبدأ صغيرة. سيلزم لهذا الدرس كي يُنقش داخل ذهن علي موقف آخر.

اللقاء التالي لعلي مع أم أميرة. يسألها إن كانت أخبرت أبو أميرة بما يحدث بينهما فتشهق: "طبعاً يا اخويا. مش جوزي!؟"، علي لا يفهم هؤلاء الناس. يمسكها من ذراعها، "جوزك مش جوزك دا مايهمنيش، ولا يضايقني، ولا يفرق مع كس أمي أصلاً، دا حتة معرص مايلزمنيش. اللي يلزمني ان كل اللي بيني وبينك يفضل بيني وبينك." تخلص ذراعها من قبضته. تنظر للأرض للبلاه، ثم له: "عيب يا أستاذ علي، أبو أميرة مش وحش، ومايصحش تقول عليه كدا، الراجل دا فاتح بيتكو." علي يثور، يهلفظ، يضربها، فاتح بيتنا ازاي يا شرموطة، يركلها في بطنها، وهي تنظر له بثبات، لا تتأوه. بعد انتهائه تلملم حاجتها وتمضي. تنظر نظرة طويلة له، نظرة لا يفهمها.

عندما سيخلو إلى نفسه، سيتذكر المبلغ الشهري الذي يرسله أبو أميرة للبيت، تحت بند مساعدة العرسان الجداد، وهداياه الكثيرة، من أول اللحمة والفاكهة والحشيش وحتى التليفزيون وطقم الأنتريه. يبكي قليلاً. يتذكر كل شيء، أباه المغدور، ثأره الضائع، عين شمس، مصطفى أخاه، ويتذكر اليوم إياه، الذي لولاه لما كانا هنا. يقوم ليكلم مصطفى، لأول مرة منذ غادر القاهرة يكلمه، وبلا أي اعتبارات، يكلمه من تليفون البيت، ينهنه، يسأله عن الأخبار في مصر. يشخط فيه مصطفى، انسى انك ترجع دلوقت. شوف أكل عيشك ولما الدنيا تهدا متصل بيك. علي يغلق السماعة. علي يواصل النشيج.

في الصباح يزور أبو أميرة. يعطيه سيجارة. يضحك معه، يضربان كفاً بكف، وينتهز الفرصة لكي يقوم أثناء الجلسة ويقبله في كتفه.

الدرس كان قاسياً، ولكن معلش، هكذا هي الدروس الحقيقية، التي تعلمنا أشياء حقيقية، دائما قاسية.

مكتبة عابث الإلكترونية

٤

الإسكندرية كانت تغلي هذه الأيام.

صراعات كثيرة خاضتها المدينة البحرية دفاعاً عن استقلالها واستقلال مواطنيها. في الحقيقة، لا يمكننا النظر إلى الصراعات السكندرية مع السلطة المصرية إلا بوصفها وجهاً من وجوه صراع الهامش مع المركز.

السلطة التي كانت الإسكندرية تصارعها لم تكن سلطة "مصرية" فحسب، كانت سلطة محلية أيضاً.

ذات يوم، استيقظت الإسكندرية على مقتل شاب مصري، شاب اسمه خالد سعيد، على يد مخبرين من الشرطة. تم تعذيب الشاب وسحله وتهشيم رأسه، هكذا. في نفس اليوم، تم إنشاء صفحة على موقع الفيسبوك الشهير بعنوان "كلنا خالد سعيد"، ووصل عدد المشتركين في اليوم الأول لإنشاء هذه الصفحة إلى مئة ألف مشترك سرعان ما تزايدوا في الأيام التالية حتى وصل عددهم إلى نصف مليون مشترك عشية ثورة ٢٠١١. عمت الإسكندرية المظاهرات الاحتجاجية، بأشكال مختلفة، يعني مثلاً، آلاف السكندريين يتجولون على الكورنيش بملابس سوداء في ذكرى مقتل خالد، مظاهرات عنيفة، وصعود سياسي ودرامي بارز لاثنين من أهم رموز المعارضة، البرادعي وأيمن نور، أمام السلطة الغاشمة لمبارك وأسرته. ولكن كل هذا لم يكن سوى قمة جبل الجليد.

الإسكندرية مدينة كوزموبوليتانية. على الأقل، هذا ما كانته قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، بعدها بدأت عمليات ممنهجة لطرد الأجانب من مصر، وبالتالي من الإسكندرية التي كان يتمركز بها عدد من أكبر الجاليات الأوروبية. ومنذ ذلك الحين، يستشعر المرء إحساساً ضائعا في الإسكندرية، إحساس المجد الغابر، الشكوى من الأيام التعيسة، هذا الإحساس يتسرب في الهواء، ينقله موج البحر والطيور في السماء والبشر على الأرصفة.

ثلاثة محافظين ظل السكندريون يصارعونهم. إسماعيل الجوسقي، عبد السلام المحجوب، وعادل لبيب، ولأن الصراع مع السلطة الإصلاحية هو أكثر خطورة وأهمية من الصراع مع السلطة الرجعية، فلقد كان الصراع مع المحافظين الأخيرين هو الأكثر دموية. عندما قرر المحجوب مثلاً جمع سائقي الميكروباص (المشروع في اللغة السكندرية) داخل الموقف الجديد بكرموز، بعيداً عن محطتي سيدي جابر ومحطة مصر، احتشد السائقون داخل مواقعهم، تمترسوا ورفضوا التحرك، في النهاية، اضطرت الشرطة للتدخل، أطلقت عدة أعيرة بالهواء. حينها فقط، تفرق المعتصمون، ولكن بعد مقتل واحد منهم.

هذا الحدث كان بروفة لحدث أكبر. في يوم خريفي من أيام العام ٢٠٠٤، استصدرت تاجرة سمك تدعى "فضة أميين المعداوي"، أمراً من الحي بهدم فيلا سفير سابق يدعى "مفيد أبو الغار" بلوران، بعد أن باعها لها وفق عقد بيع موثق. عموم السكندريين كان لهم موقف يختلف عن موقف مجلس الحي، فلقد تابعوا على مدار أسابيع عدة تحقيقات صحفية كانت تكتبها صحفية نشطة — وعضوة بحزب الغد المستقل — اسمها "أمل صبور". التحقيقات كانت تبرز الأهمية الفنية والتاريخية والمعمارية التي تمتاز بها الفيلا، وكانت تبرز — في الوقت نفسه — محاولات فضة المعداوي لإجبار أبو الغار على بيعها. والتي

مكتبة عابث الإلكترونية

انتهت بتلفيق قضايا لبعض من أقربائه، منها قضايا دعارة وتعاطي مخدرات، مما اضطره لبيع الفيلا لها. اعتصم جميع أهالي الإسكندرية أمام البلدوزر الذي يتقدم لهدم الفيلا بإيعاز من فضة، المالكة القانونية للفيلا. انتهى الموقف بتوقف البلدوزر أمام جموع المتظاهرين مع السفير المصري السابق، واستكماله عمله في وقت آخر، ولكن بعد أن كانت القضية قد نالت حظها من الدعاية، وصار مشهد الوقوف أمام البلدوزر يوازي في أهميته مشهد راشيل كوري وهي تتحدى وحدها الجرافة الإسرائيلية.

صاحبت هذه القصة قصة أخرى ذات دلالة. المحافظ السكندري قرر منع الشيشة في القهاوي، في إطار خطته لمنع بيع السجائر وتعاطيها أيضاً، في إطار خطته لجعل الإسكندرية "مدينة بلا دخان"، في إطار خطته لتولي منصب الأمين العام لليونسكو. ولكن كل هذه المبررات لم تكن مرضية للسكندري الحر. أعلن أصحاب القهاوي عن احتجاجهم، ولم يأبه لهم المحافظ. أعلنوا إضراباً، ولم يأبه، أعلنوا بصراحة أنهم بصدد ممارسة العنف في المدينة. لم يأبه، فحددوا موعداً، الخميس ٢٢ يوليو ٢٠٠٥، لإظلام المدينة. اجتمعوا في مجموعات صغيرة بمناطق متفرقة، من بحري وحتى ميامي، وساروا يكسرون كل أعمدة الإنارة على الكورنيش، بأحجار صغيرة يزقلونها لأعلى، ومن يملك منهم سلاحا ناريا يضرب به الفوانيس. قبضت الشرطة على بعضهم. استجوبوهم ولم يحصلوا منهم على أية معلومات. في النهاية أطلقتهم، وألغى المحافظ قراره. السكندري الحر يعرف أن لا قيمة للحق بدون قوة تحميه.

كما لاحظ مؤرخون كثر، فالسكندريون لم ينتصروا في هذه المعارك انتصاراً واحداً حاسماً، نعني انتصاراً على الأرض. جميع الانتصارات كانت دعائية ورمزية. كانت مشاهد درامية مؤثرة أكثر من كونها انتصارات حقيقية. هنا

نحن نقتبس من عبارة فنان الكاريكاتير السكندري حسن الباشا الذي رسم في جريدة "بحر ونورس" المحلية، اجتماعا لخلية سكندرية، يترأسها شخص مسلح يراجع لوحة مكتوب عليها "سجل انتصارات البحر" [المقصود الانتصارات السكندرية]، ويقول رئيس الخلية متأففاً: "هو كله مشاهد مؤثرة مشاهد مؤثرة، مافيش انتصارات بجد ولا إيه؟"

قبل هذه الأحداث بعقدين تقريباً، في منتصف الثمانينيات، شهدت مدينة الإسكندرية ضرباً من المعارضة كان جديداً وقتها على مصر بكاملها. في عدد من المسارح الصيفية التي تعرض فيها بعض الفرق مسرحياتها، والتي كان يقوم ببطولتها نجوم كوميديا من الطراز الأول مثل سيد زيان ومحمد نجم ووحيد سيف ومحمد هنيدي – الشاب جداً آنذاك. تولدت في هذه المسارح أول بذرة للاحتجاج السياسي – في العصر الحديث – تشهدها الإسكندرية ضد ظالميها، حيث دأب الجمهور على الصفير، والتصفيق في المواضع التي يشتبه أن تحمل إسقاطاً سياسياً، مهما بلغت ضآلتها. وإذا ما تذكرنا أن هذه المسارح كانت مسارح عائلات من الطراز الأول، حيث دأبت العائلات المصرية جميعاً في عقدي الثمانينيات والتسعينيات على قضاء أشهر الصيف في الإسكندرية، فيمكننا أن نضيف إلى أهمية ذاك المسرح، كونه ربى جيلاً من الأطفال – آنذاك – الذين استوعبوا بعمق الدروس السياسية الأولى في حياتهم، ومارسوها بعد ذلك، في طور شبابهم العاصف. في أول أيام ثورة ٢٠١١، تم القبض على واحد من شباب "المحرضين" الأساسيين، واسمه هاني سمير، تم تعذيبه بعنف، وبعد خروجه استضافته أحد برامج التوك شو الشهيرة. هناك قال بالحرف: "أنا بابا هو اللي علمني سياسة. مش سياسة بالظبط، بس علمني أحب مصر، وأخاف إن لو حصلت حاجة لحاجة لصاحبي ممكن تحصلي بعد كدا، لما كنت بشوفه مع صحابه في

مكتبة عابث الإلكترونية

مسرحية العسكري الأخضر [مسرحية شهيرة للنجم سيد زيان] وهو بيزعق ويسقف ويصفر ويخليني ازعق واصفر زيه."

الإسكندرية كانت الفصل الأكثر إشراقاً في تاريخ النضال المصري هذه الأيام. كانت سائر المحافظات المصرية مستكينة بشكل واضح. لا أحد يعرف سبب هذا على وجه الدقة. أشرنا من قليل إلى النفسية السكندرية التي تشعر دوما أن مجداً غابراً قد ضاع من أيديها عندما تولت سلطة يوليو مقاليد الأمور، ولكن ثمة عوامل أخرى.

منذ بداية تأسيس المدينة، بالتحديد بعد مرور القرن الأول على إنشائها، وثمة سمات واضحة للسكندري تأخذ في التشكل، الغضب مثلاً كسمة أساسية، الغضب الذي يسمى في العامية المصرية أحياناً بـ"الحمقة". السكندري شخص طيب بلا شك في أغلب الأوقات، باستثناء الحالة التي يشعر فيها بتهديد خارجي، وبالتحديد، إذا شُنَّا الدقة، بتهديد موجه إلى هويته السكندرية. ولا عجب، فالإسكندرية هي المدينة المصرية الوحيدة التي طورت هوية قومية صريحة، وطورت طقوساً للإيمان بهذه الهوية، وطقوسا للغضب إذا ما تم جرح الهوية. تعلم السكندريون هذه الخصلة من الجيران الأوروبيين السابقين، المعتزين بقنصلياتهم وامتيازاتهم الأجنبية، ولكنهم تعلموها أيضاً من الجيران البدو الحاليين، عرب مطروح. كان – ومايزال – البدوي الثائر في مطروح هو الجار الذي يرتضيه السكندري الأصيل لنفسه، وليس الفلاح البحراوي البليد، الذي فرضته عليه الجغرافيا.

في العام السابق على "عام خالد سعيد" كتب أحد المدونين مقالاً عن الإسكندرية، مقالاً ساخراً إذا جاز التعبير، أطلق على شخصياته السكندرية أسماء هزلية. ثار آلاف المدونين السكندريين، على ساحة المدونات والفيسبوك،

ثم إغلاق حساب هذا المدون على الفيسبوك (الذي لا نود ذكر اسمه) لمدة عام، واتفقت عودته – التي أثارت غضب السكندريين– مع اشتعال قضية خالد سعيد. هذا قد يشرح لنا سر الغضب الشديد الذي قوبلت به حادثة قتل خالد. الغضب لم يكن موجهاً لقاتليه فحسب، ولا لجهاز الشرطة فحسب، بل لكل من تسول له نفسه الاستهزاء بالإسكندرية، ناهيك عن الاعتداء على الدم السكندري. إحدى الصور الشهيرة في وقفات الاحتجاج كانت فتاة مجروحة في شفتها من أثر اعتداء رجال الشرطة عليها، وتحمل لافتة مكتوب عليها: "دم الاسكندراني مش رخيص."

لهذا كله، وفي خضم كل تلك المعارك والنيران والدماء التي تسيل من أجل الحرية، ظهر علي وإنجي في مدينة البحر. أي، في عز التهاب المشاعر السكندرية اشتياقاً للمخلص.

مرحلة جديدة في حياة إنجي وعلي بدأت بولادة حمادة.

ولد سمين، يزن أربعة كيلوجرامات، عيناه واسعتان كعيني أبيه وخضراوتان كعيني جدته – أم إنجي، يضحك كثيراً، ويبكي قليلاً، يتطلع فيما حوله بعيون مندهشة. الرضيع يتنقل من يد ليد، يبدو تعويضا إلهياً عن الظلم الذي حاق بوالديه، عن الغربة والحرمان والتيه. الرضيع أعاد العقل لعلي، توقف عن النوم مع أم أميرة لفترة، تحول إلى أب حقيقي، ربى شنباً ضخماً، وبدأ يتحدث ببطء. مصادر دخله كانت تزداد، المحل، ونصابات صغيرة على الزبائن، وتحويل بعض الزبائن إلى بيت أبو أميرة، زبائن الحشيش أو السكس، وقبض ثمن هذا مضاعفاً. علي كان يعرف كيف يلاعني الزبون. تبع عادل إلى محطة الرمل، وإلى شارعي الزوجين سعد وصفية زغلول، وشيئاً فشيئاً اعتاد

مكتبة عابث الإلكترونية

على القعدة في بارات وسط البلد. لا يشرب كثيراً. يتابع الزبائن. يلاغيهم. يأخذهم من أيديهم إلى كامب شيزار. يسلمهم إلى أبو أميرة. ينظر له أبو أميرة مضيقاً عينيه. يبتسم أحياناً، وأحيانا لا يبتسم. عادي. البشر يبتسمون أحياناً وأحياناً أخرى لا يبتسمون، ولكن علي لا ينتبه لهذه الحقيقة، ولذا يحار في تفسير هذه الابتسامات. كما يحار في تفسير كل شيء ينتمي لأبو أميرة، ويستمر. يمشي في طريقه، لا ينظر وراءه.

ليس هذا فقط. الجميع كانوا يبتسمون لعلي في هذه الأيام، ناس يعرفهم، وناس لا يعرفهم، سواقين التاكسي، الباعة في المحلات، القهوجية، حتى زباين المخدرات والنسوان. يشعر بشيء ما يحوم حوله، يقترب، ولكنه لا يلمسه، دائما على حافة الهجوم. إنجي تشعر بشيء مماثل. منة أتت لها بطالبات لكي تقوم بالتدريس لهن أيضاً، والطالبات في نظراتهن شيء من اللوعة، الشغف، الحنين غير المعروف لمن، وإذا جاز لنا أن نقول، فالنظرات كانت منبهرة بها، تماماً.

كذّبت إنجي إحساسها، وقاومته كثيراً، قاومته بعنف، لأنه كان يملأ الهواء حولها، ويحاصرها في كل الأماكن، برغم أنها لم تملك دليلاً عليه. في النهاية، لا يمكن لشخص أن يقول أن الناس كلهم منبهرون به، وأنه، فوق ذلك، لا يعرف هذا إلا من نظراتهم له، كإنه بطل، كإنه رأفت الهجان. لم تحصل إنجي على الدليل المادي غير بعد شهرين من الولادة. حمادة في حضنها، وواحدة من الطالبات تحدثها عن مشكلة عاطفية تمر بها. الولد كلمها أكثر من مرة عن رغبته في أن يسيبوا بعض، والبنت تبكي، فتنيم إنجي حمادة على الكنبة وتأخذ البنت في حضنها، وفي عز البكاء تهتف البنت: "ياريتني يا مس كنت زيك." المس تسكت. بعد قليل تسألها بتردد: "ليه بتقولي كدا يا

شيماء؟"، البنت تبعد وجهها عنها. تمسح مناخيرها بكم القميص. تنظر في الأرض قليلاً: "عشان انتي قوية. لما يبقى فيه واحد مش عاجبك بتقتليه."

علي أيضاً تحوطه نظرات الإعجاب. كيف تسربت سمعتهما إلى جميع أهالي الإسكندرية في سنة أو أقل؟ لا أحد يعرف. المدهش أن علي كان جباناً. لا يزال يخاف من أشياء تافهة، الحكومة مثلاً، ولا يزال يؤمن بأشياء تافهة، صلة الرحم مثلاً، ولا يزال يتحاشى أشياء تافهة، الكلام عن اليوم إياه مثلاً، إلى أن حدث واحدٌ من الأحداث الأكثر أهمية في حياته. تليفون صغير من القاهرة، مصطفى أخوه على الخط، يسأله فيه إن كان يمكنه أن يزوره. يوافق علي. مصطفى يتغدى معه في بيته بكامب شيزار.

– الناس مش سايبيني في حالي يا علي.

–

– كل شوية الحكومة تكبس، ويسألوا عليك.

–

– ابعد يا علي

–

– أبوس إيدك ابعد يا عم. البوليس هيوصلك.

– اعمل إيه يعني؟

– شوف يا خويا. المحل بتاعك. محل أبوك يا علي. بس أنا عاوزك تعملي تنازل. مؤقت بس والمصحف. وبعد ما ربنا يفرجها من عنده كل حاجة ترجع كما كانت.

–

مكتبة عابث الإلكترونية

– الحكومة هتوصلك يا خويا. وحياة النعمة دي هيوصلوك.

–

– شوف يا علي. أنا جبتك هنا. أنا أتعهدت قدام ربنا إني أخلصك م المشكلة دي. وصدقت. ادِيني بتعهد دلوقتي اني هارجّعك تاني وهاعملك تنازل عن التنازل. بس وحياة ابنك خلصني انت كمان م الورطة دي. يا اخي علشان لو حد جا سألني أقول اني ماعرفش حاجة عنك، يبقى أكن المحل محلي وانت مالكش فيه. دا قدام الحكومة بس ياخويا.

في اليوم التالي يكتب علي تنازلاً لأخيه. يحكي لأبو أميرة القصة. أبو أميرة ينظر لعلي طويلاً ثم يقول: أخوك نصب عليك يا صاحبي. وعلي كان موقناً أن أخاه نصب عليه، ولكنه كان يريد التشبث بأمل ما. يطلب منه أبو أميرة أن يتصل به. يتصل به ولا يرد. يواصل أبو أميرة، كلمه يا خويا بكرة ولا بعده ولا كمان شهر، ومش هيرد. يكلمه علي، بكرة وبعده وكمان شهر، يطلبه كالمجنون، ولا أحد يرد. كل شيء يهتز من تحت قدم علي. المحل والأخوة الغالية وذكرى أبيه. يعود لأبو أميرة. يخبره أن كل شيء ضاع منه. أن حياته في خطر وأنه زهق من كل حاجة. ينفخ أبو أميرة دخان السيجارة ويقول بحسم: شوف يا اخويا، إنت اتضحك عليك، أتنصب عليك نصبة جامدة أوي، والأخ اللي ينصب على اخوه يبقى مش أخ، (يميل عليه) يبقى أخ عاوز الموت. صح؟! يجيب علي مترددا، صح، فيواصل أبو أميرة، أخوك هيتقتل يا علي، وهنقتلوه هنا، ف اسكندرية. مش دا الحق بتاع ربنا؟ لا يرد علي، ينظر بعيداً، صوت أبو أميرة وحده هو الذي يتردد الآن، واني مش عاوز حاجة، الورث انت هتورثه، من غير ما حد يكلمك، بس اللي هتاخده يبقى اني ليا فيه، مش هقولك أنا عاوز كذا، الحاجة دي بتاعتك انت. انت تقدّرها بضميرك. صح؟ لا

يرد علي فيواصل أبو أميرة بحنية، رد عليا يا علوة، صح ولا أنا غلطان؟ فيأتي صوت علي متردداً وهامساً، صح يا أبو أميرة، صح.

°°°

علاقة علي بمصطفى أخيه لم تكن قوية. بعد رحيل والدهما، عانى علي من تعنت أخيه، الذي رفض دائماً بيع المحل – ولم يكن يعمل ساعتها جيداً– واعطائه نصيبه منه، حتى في الأوقات الأكثر تأزماً لعلي، عندما أحب بنتاً كانت تسكن بجوارهما ورغب في التقدم لها، رفض الأخ الأكبر شراء حصة أخيه من المحل، ورفض الوقوف بجانبه، بل وأكثر من هذا، كان يطلب من علي المرة تلو الأخرى أن يبحث لنفسه عن شقة إيجار جديد لتخلو له شقة عين شمس. يتذكر علي ثناء، البنت التي أحبها يوماً، وهي تحكي له أن مصطفى التقى بها وطلب منها تشجيع حبيبها لكي يبحث عن شقة، أو أن تبتعد عنه نهائياً، أو أنه غير ملزم أبداً بأي شيء تجاههما. حتى تهريبه له ولإنجي من القاهرة، تتواصل الأفكار السوداء في ذهن علي، لم يكن إلا بهذا الغرض. هكذا أصبح مصطفى مالك الشقة والمحل وكل شيء، هي دي وصية أبوك ليك يا مصطفى؟ يتساءل علي بمرارة وهو يفرد السجادة لصلاة الاستخارة. عندما ينتهي من الصلاة يكون قد ابتسم أخيراً. حمل كبير انزاح من على كاهله.

°°°

أم أميرة في القاهرة. تعود ومعها مصطفى. تجره من يده كالبهيم. يبدو مبسوطاً وهو في القطر معها. يمني نفسه بواحد حلو يعمله ف اسكندرية. في شقة بكرموز تسلمه إلى سوسو، الذي يعزم عليه بسيجارة حشيش. ويسأله عن المحل بتاع الولا علي. مصطفى يشعر بغفخ يتم إحكامه حوله. يجيب أن المحل محله ومكتوب باسمه. يميل عليه سوسو مبتسما: شوف يا خويا. انت هتتقتل.

مكتبة عابث الإلكترونية

انت مش هنا علشان نلعبو مع بعضينا. انا عاوزك تتنازل دلوقت عن المحل.

يرن الجرس. يدخل المحامي. مصطفى يكتب تنازله. يخرج المحامي. ينزل سوسو مع مصطفى. يركبان مشروعاً إلى سيدي جابر. القطار قادم. يرميه سوسو تحت القطار. يعود. بثقة كاملة يخرج من المحطة، بثقة كاملة يتصل بعلي. كل شيء تمام.

°°°

قبل صلاة الفجر. علي يصلي ركعتي دخول المسجد، والشيخ حسن يصلي بعيداً عنه. بعد انتهاء الصلاة يقترب منه. الشيخ فاتح المصحف ويقرأ. ولكن علي لديه ما يقوله:

– أريد أن أعترف لك بشيء يا شيخ.

– أيوة يا بني. أيوة أيوة.

– أنا إنسان مثقل بالخطيئة.

– ورحمة الله تسع كل شيء يا بني. كل شيء.

– أنا قاتل، سفاح.

– يابني، كتب عليكم القتال وهو كره لكم.

– لقد قتلت ابن أمي، لقد قتلت ابن أبي.

(ينهار علي باكياً. الشيخ حسن يطيطب عليه. الشيخ حسن يتذكر مصطفى، زميله القديم في الجيش، ويتذكر واجبه، فيحبس دمعة عنيدة)

– ماذا أفعل الآن يا شيخ؟

(يصمت الشيخ)

– الحيرة تقتلني يا شيخ.

– طيب، عاوز الكلام الصح. ولا هتزعل؟

– (ينظر له) ماحدش يزعل م الصح.

– كمل طريقك يا علوة. كمل. ربنا اختارك. هتقوله لأ؟

(ينظر له بعينين مليئتين بالدموع)

– لاء. إوعي. إلا دا يا علوة. إلا دا. أرعل. اسمه سوء أدب مع العزيز الحكيم. نفترض جدلاً مديرك قالك أنا عاوزك تعمل لي وتسويلي. مش هتجري تنفذ أوامره، ما بالك بملك الملوك؟ صح يا علي؟

(يتسلل الإشراق إلى وجه علي. خادم المسجد يؤذن للفجر. الصلاة خير من النوم تملأ المكان. وعلي قلبه يمتلئ بالفرح. يوطي على كف الشيخ حسن ويبوسها).

°°°

لا أحد يمكنه بالضبط تخمين ما حدث في الأيام السابقة لهذا الحوار، أي بين حادثة مقتل مصطفى وبين اعتراف علي. الأرجح أن هناك شيئاً مخيفاً في نفسية علي. إنجي تطيطب عليه. توشوش له أن مصطفى يستاهل. حرامي ويستاهل. ولكنه غير مقتنع. تهمس له إن الاسكندرانية كلهم فخورون به. هي تسمع ذلك وتعرف ذلك. وهو أيضاً يسمعه ويعرفه. ولكنه يبكي أمامها. تطلب منه زيارة أبو أميرة. أبو أميرة بيريحك يا علي. روح له يا بابا. ولكنه يؤجل الزيارة يوما بعد يوم. تدخل إنجي مرة البيت. لا تجده، تدخل البلكونة، تجده واقفاً أماماً يقيس ارتفاع سورها برجله. تسأله بتعمل إيه يا علي؟ فلا يرد. يعود لها بنظرات ساهمة.

لا أحد بالضبط يمكنه تخمين ما حدث في الأشهر التالية لهذا الحوار، أي بعد حوار علي مع الشيخ حسن. بدأ القرش يجري في يد علي، الذي يتحول بالتدريج إلى المعلم علي. المَعْلَمة ليست بالهدوم، وعلي كان لا يزال يرتدي

مكتبة عابث الإلكترونية

القميص والبنطلون. المعلمة تبدأ بالاستقلال. وعلي من زمان كان قد ترك محل الشيخ حسن. وفتح محلاً جديداً وقريباً، ملأه بسيديهات القرآن. باع المحل وقام بتأجير شقته بعين شمس من الباطن، واشترى شقتين مجاورتين في بيت أبو أميرة، بهدا أمكن له أن يأتي بالزبائن والنسوان إلى بيته الخاص، وليس إلى شقة صاحب العمارة، مع مراضاة صاحب العمارة بقرشين كل شهر أيضاً. المستقبل مضمون في يد علي الآن. يتبقى الاطمئنان لسلامة الطريق، وعلي قام بتحويل شقة صغيرة بالطابق الأرضي في عمارته إلى زاوية للصلاة، وعين فيها شيوخاً شباباً لتحفيظ القرآن، هذا بالاستعانة بفلوس إنجي التي باعت الدورين اللذين تملكهما في عمارة مدينة نصر بالقاهرة. كانا مصرين أن يبدآ طريقهما من البداية. إنجي تركت المحل وهي تقوم الآن بتحفيظ المسلمات القرآن في الجامع والكومبيوتر والإنجليزي. إنجي وعلي مطمئنان لسلامة الطريق الآن، صحيح أنه لم يتبق لديهما مال سائل كثير، ولكن ليهم كافة الأشياء التي ستقوم بتخليق هذا المال السائل.

طيب، وماذا عن العنصر الثاني للأمة، عن جناحها الخفاق، ماذا عن المواطنين المصريين كاملي الحقوق الذين عرفوا بروحهم الوطنية على مدار تاريخهم!؟ لم يتجاهل علي أبداً أقباط مصر. لقد بني كنيسة صغيرة لهم في الشارع، صحيح أنها غير مرخصة، ولكن أحدا لم يجرؤ على الاقتراب منها. علي، القادم من أصول شعبية، لم يُعرف أبداً بتعصبه ضد الأقباط. دوماً كان يقول عنهم: "ربنا عز وجل أوصانا بهم خيراً، لإن ربنا بيمهد للمشركين في الحياة الدنيا عشان يعذبهم ف الآخرة، أنا دوري هنا إني أمهد للظالمين من خيرات الدنيا، لغاية ما يتلبوا بعدين". لقد كان الشارع مثالاً نادراً وحقيقياً

على التسامح الديني الذي لم تعرف مصر غيره سوى في العقود الأخيرة. يمكن القول بلا مبالغة أن علي وإنجي قد أعادا مصر إلى نفسها.

لم تتغير علاقة علي بأبو أميرة. ظل الأخير هو المعلم والقائد والنبراس. حتى وإن صار علي هو الذي يشغّله، بدلا من العكس، كما حدث في الأشهر السابقة. علي بطبعه لا يحب أن يتمرس على حد، فما بالك بمن علمه. حتى هذا يصعب أن نشير إلى تفاصيل معينة فيه، أبو أميرة علمه كيف يلاغي الزبائن، علمه إجبار الزبون على الدفع بدون كلمة واحدة، فقط بابتسامة، فقط بنظرة صارمة تعقبها كلمة ودودة، وعلمه ملاغاة الشرامبط أيضاً. "الواحدة منهم عاوزة حنية، حتى لو كات كدا، ولو واحدة منهم ناقصة تبقى برضه عاوزة حنية." وعلي وعى الدرس بقوة، دار به أبو أميرة على كل الأماكن، أعطاه تليفونات النسوان، وشرح له أين يجلسن وماذا يفعلن كي يمكنه تمييزهن "بيبان عليهم ياخويا، بيبان عليهم." وعلي يسير وراء أبو أميرة، ويشعل له سجائره أحياناً، لا يخجل، أبو أميرة مثل أخيه الأكبر. من منا يخجل من أخيه؟

أم أميرة: لقد فقد علي من زمن طويل رغبته فيها، وبصراحة، فقد بات يحتقر نفسه لأنه نام معها كم مرة. أم أميرة جدعة وكل حاجة بس ست كبيرة ووحشة، وأنا راجل شاب وعاوز أتمتع بحياتي، كما كان يقول. أم أميرة حاولت أن تجذب نظره لها مرة. إنجي نايمة وهي تتصل به على موبايله. تتدلع، تذكره بكلمات سرية كانت شفرة بينهما (كلمة "الأرنب" مثلاً، كانت اسم العضو الذكري في لغتهما الخاصة). يرد باقتضاب بأن يسألها عن صحة زوجها، فتقرر اللعب بوساخة. يرن جرس الباب ويفتح ليجدها أمامه، وفجأة يثور

مكتبة عابث الإلكترونية

البركان: "أنا دلوقتي يعني مابقيتش عاجبك؟ (تشخر) الله يرحم امّا كنت بتتحايل عليا تلمسني واني مانرضاش. أحيه يا معرصين.." علي يحاول كتم نفسها. إنجي تحو. أبو أميرة يصعد. تنظر أم أميرة لزوجها والدمع يملأ عينيها: "الخول اللي انت فتحتله بيته دا بيتريق عليا يا حاج، قال اني وحشة ومانستاهلش يبص عليا." ولكن أبو أميرة سمع العركة كلها. يمسك بها. تفلفص بين ذراعيه. ريحة الخمرة تنبعث بقوة من فمها. يزقها على السلم حتى تسقط. يركلها برجله. تتدحرج وصولاً إلى الطابق الأرضي. يقبض عليها بكلتا يديه دافعاً إياها إلى بيته. ترفض الاستجابة. تسقط على الأرض فيمسكها من ياقة جلابيتها ويجرها جراً على الأسفلت، حيث تظل ترفس برجلها. تتمزق كل جلابيتها وهي مسحولة على الأرض. تصرخ بصوت مبرسح وهي مسحولة. تنادي علي، يا متناك، تنادي المنطقة، يا منطقة يا معرصة، فاكرينه شيخ، دا وسخ ومدورها بيت دعارة وبتاع عيال.

أم أميرة في الفترة الماضية كانت تتعرض للكثير من النوبات العصبية. ربما يكون هذا هو سبب نفور علي منها. تسكر وتسكر حتى تعمي تماماً ثم تبدأ في الاستهبال، وأبو أميرة يسمع ما تقوله. لم تكن تهمه كثيراً قصتها مع علي. كان يعرف. هي أخبرته، وهو أخبره. ولكن وساخات السكر والفضايح قدام الناس لم يكن يتحملها. ليلة طويلة قضاها أبو أميرة بعد أن استسلمت زوجته للنوم أخيراً. لم ينم لحظة واحدة. مع أذان الفجر قام. توضأ وسار للجامع والماء ينز منه. بعد الصلاة اقترب من علي. نظر له هذا بعينين محمرتين. أبو أميرة عيناه في الأرض، لأول مرة تصبح عيناه في الأرض: "إنت زي أخويا الصغير يا علي. بس المرة دي كلامك هيمشي عليا، اللي تأمرني بيه اني هنعمله". علي لا يرد. نظره للناحية الأخرى. يلمح أبو أميرة قطرة ماء تسقط على حصير الجامع. علي

يدمع. يواصل أبو أميرة: "ورحمة أمي الطاهرة إنك أعز عليا من سوسو ومن عادل. وأني مانطيقش نشوفك كدا. اللي تأمرني بيه يا علي يا صاحبي." ينظر علي له. عيناه ملتمعتان بالدموع ولكنهما قاسيتان. صوته صلب. معدني، مقسم إلى مقاطع صارمة: "طلقها يا أبو أميرة. أنا لو شفتها مرة تانية هقتلها."

٥٥٥

لم تنته الفضيحة بطلاق أبو أميرة وأم أميرة. الفضيحة فضيحة، أمام علي، أمام إنجي، أمام أهل المنطقة، أمام الإسكندرانية كلهم. غابت إنجي. لا يعرف علي أين ذهبت، ومعها حمادة، الولد الصغير. فجأة اختفيا، تبخرا. أين هما وماذا يفعلان. لا أحد يعرف. الإسكندرانية، الذين سبق وقدموا دعماً غير محدود لعلي، كأنهم اختفوا، أصبح الواحد منهم إذا رأى علي يدير وجهه، والزبائن، ليس هناك زبائن، لم يعد هناك زبائن، اختفت الزبائن.

السكندريون شعب حساس. ليس هناك أسهل من استمالته، ولكن ليس هناك أيضاً أسهل من خسارته إلى الأبد. وإذا شعر هذا الشعب يوماً بأن من وثق فيه قد خيب ظنه، فسوف ينصرف عنه، ولن يعود. وللحظة خيب علي ظن الاسكندرانية فيه. الشيخ علي الذي بنى الجامع والذي يعيش من فلوس كتاب الله، له علاقة بالست النجسة أم أميرة، وبتاع عيال كمان (للدقة، علي أبداً لم يكن بتاع عيال. لا نعرف من أين جاءت أم أميرة بهذه المعلومة وهي مسحولة على الأرض). الأقاويل كانت تحاصر علي في كل مكان. ويلزم لهذا بعض التوضيح. التفاصيل التي صرخت بها أم أميرة وهي مسحولة لم تكن هي مصدر الإزعاج بالتحديد. الفضيحة هي المزعجة: أم أميرة المعفنة نائمة على الأرض وسكرانة وتقوم بإيقاظ كامب شيزار كلها على تفاصيل مثل هذه. ومن هم سكان كامب شيزار؟ إنهم عائلات محترمة في النهاية. إنهم الطبقة الوسطى المظلومة

مكتبة عابث الإلكترونية

في حياتنا المصرية. قد تحدث في كامب شيزار بعض الوساخات من وقت لآخر، هذا شيء لا يمكن تلافيه، شر لابد منه، ولكن أن تصبح الأمور بهذه العلنية، وأن تعلنها امرأة مثل أم أميرة، على مسمع من الأطفال والسيدات والآنسات الصغيرة، فهذا شيء لم يرتضه سكان المنطقة المحافظون. سكان المنطقة يحترمون أبو أميرة، ويقرفون من أم أميرة. أبو أميرة نفسه كان طول الوقت قرفاناً من زوجته.

ترك علي شقته وأقام عند أبو أميرة. قال له الزبائن مقاطعيني حاجة غلط يا ابو أميرة. أبو أميرة قال له إحنا مابنعملش حاجة غلط يا اخويا. اطلع للناس وقلهم كدا. الناس عاوزة تعرف ف دماغك إيه. وعلي دفن وجهه بين كفيه. لحظات طويلة، طويلة، ثم نظر لأبو أميرة وألقى بمونولوجه:

– تعرف يا ابو أميرة. زمان، أما كات حاجة تحصلي، كنت أقول تلاقيها كابوس. وكنت استريح كدا. بس دلوقتي أنا تعبت، التفكير تعبني، وربنا مش عاوز يفرجها من عنده. دنيا بنت وسخة. أنا قلت هتحلو. بس شكلها ولا عاوزة تحلو ولا حاجة. حتى المرة سابتلي البيت وطفشت. الدنيا بقت صعبة أوي ياخويا.

يناوله أبو أميرة سيجارة الحشيش: شد يا علي. شد، وماتفكرش يا خوي. التفكير بيتعب.

علي يشد. يشد. ينظر فجأة لأبو أميرة وعيناه محمرتان، أحيه. حشيشك مضروب يا سعاد؟!

يضحكان بعنف. يخبطان على الأرض، وعلى الحيطة. يمشيان على أربع كالكلاب، يطاردان بعضهما في البيت، يعملان نفسهما سحالي ويحاولان تسلق الحيطة فيقعان، يعملان نفسهم طيور، ويحاولان الطيران. يقفان فوق

الترابيزة، واحداً وراء الآخر، فيسقطان، فيضحكان، ويركب الواحد منهم على الثاني. ويواصلان الضحك.

°°°

الشيخ حسن لم يفد علي كثيرا في أزمته الحالية. الشيخ حسن نفسه كان واحداً من الناس الذين تجنبوا علي. سلامو عليكم وعليكم السلام وخلاص. حاول علي الاقتراب منه ولكنه تذرع بالحاجة للوضوء. وسوسو وعادل ابتعدا كذلك. هذه حالة دالة، سوسو وعادل يعرفان كل شيء عن علي تقريباً قبل الفضيحة، ليس مثلاً أنهما انصدما في الملاك الطاهر الذي اسمه علي. ما الذي دفعهما إذن إلى تجنبه في هذه الفترة؟ عزز هذا لدى علي فكرة أن هناك شيئاً ما، يعني مثل توجيهات، أو أوامر، بتجنبه، بمحاصرته وعزله. أم أميرة حكومة؟ لقد شغله السؤال لفترة طويلة وهو يلف سجاير الحشيش، وهو يعد بلاطات البيت، وهو يلعب جيمز عالموبايل، وهو يضرب الدبان بالمضرب، وهو يغمض الناموس بإيديه. عندما فاض به سأل أبو أميرة إن كانت أم أميرة حكومة فأجاب بأنه لا ينفع أن تكون حكومة.

هل أبو أميرة حكومة، كان هو السؤال التالي.

لا، لم يكن سؤالاً، لقد كان حقيقة. علي كان يحلل كل الأمور وهو جالس في بلكونة شقته. من الذي استقبله بمجرد وصوله من القاهرة، من الذي سهل له كل شيء في اسكندرية، من الذي زقّه لقدام، وكبره، وجعل منه بني آدم (هكذا يؤمن بمرارة على كلمة أم أميرة)، من الذي سلط عليه مراته لينام معها، ومن الذي سلط عليه امرأته لتفضحه، ومن الذي يعرف عنه كل شيء، بدون أن يسأله؟ يبرش علي في بتاعه. يتف على الشارع. ثم ينزل ليجلس مع أبو أميرة على المصطبة خارج البيت، يعطيه سيجارة. يولع له. يصمت، ثم يلتفت له

مكتبة عابث الإلكترونية

ويقول، انت حكومة يابو أميرة. أنا عارف دا، ومش زعلان منك. بس ليه ماقلتش ياخويا؟ أبو أميرة لا يرد. فجأة يلتفت له ويقول بصوت بطيء، أنا حكومة يا علي؟ بتقول عليا أنا حكومة. علي يبتسم بعصبية، أنا مش زعلان منك. وربنا ما زعلان. أبو أميرة تتصاعد نبرته، يهز علي من كتفه، أنا حكومة يا علي، أنا حكومة؟ بعد كل اللي عملتهولك؟ وعلي يحاول التخلص منه، يرفسه بركبته في صدره وهو ينازع، عملتلي إيه يا رمة يا معفن؟ أبو أميرة يبرك عليه، علي ينتره من عليه ويقف ويزعق: ماحدش عملّي حاجة. أنا عملت نفسي. ماحدش له فضل عليا. أنا فضلي عليكو كلكو. صوت علي مرتفع. يصرخ تقريبا. يقف الآن فوق المصطبة، يواصل الزعيق، أنا فتحت بيتكو واللي فاكر نفسه له فضل عليا يوريني نفسه.

كانت أعصاب علي تتجه نحو التلف السريع. لقد بدا فجأة لأهالي الإسكندرية أن الشيخ الشاب الذي منحوه ثقتهم يسير نحو الجنون، وأن أحداً ليس بيديه تغيير هذا القدر.

٥

ولماذا لا تكون إنجي هي الحكومة؟

من الذي ظهر فجأة في حياة علي، بدون سابق إنذار، وأقنعه بالسفر للصعيد، وورطه في جريمة قتل، من الذي استدعى من قلب الماضي قصة ثأر قديمة، وخطط لتحويل علي من بياع ملابس يمشي في حاله إلى مجرم، من الذي كان متحمسا لقرار علي بقتل أخيه؟

صحيح أن إنجي كانت هي من قامت بكل هذا، ولكن لأجل اتهامها بأنها حكومة، يلزمنا بعض التريث أولاً. ولنلق نظرة على بعض التفاصيل.

إنجي امرأة، والمرأة قد تغفر كل شيء، كل شيء، ما عدا أن تُهان كرامتها. ومشهد أم أميرة وهي مسحولة على التراب وتنفخ جوزها مزقها من الداخل. لمت هدومها وأخذت ابنها الصغير وقررت الانطلاق نحو بيت الحاجة اعتماد. قالت لها يا حاجة دا بني آدم حيوان وماعندوش نظر. تخيلي بينام مع أم أميرة القرعة (أم أميرة مقدمة شعرها خفيفة) في بيتي أنا. في بيتي أنا اللي أنا فتحتهوله بفلوسي. أخذت تطبطب عليها الحاجة. قالت لها أشياء من نوعية أن كل الرجالة كدا. وإنجي لم تقتنع. قالت أنها تريد أن تبدأ حياتها من جديد بعيداً عن هذه الوساخة. قالت هذا وانفجرت في البكاء. سكتت الحاجة قليلاً ثم أشارت عليها بشقة في عمارة تملكها في كرموز. ماحدش يختي يعرف حاجة

مكتبة عابث الإلكترونية

عن العمارة دي. اقعديلك فيها يومين كدا لغاية ما تهدي وربنا يفرجها من عنده.

في كرموز عرفت إنجي نوعاً جديداً من الحياة. بدأت من جديد، محاطة بطيبة أولاد البلد الحقيقيين، الجدعان، الذين ساعدوها على تجاوز محنتها سريعاً. لم تملك إلا قلوب الناس حولها، بعكس علي الذي لم يفقد إلا قلوب الناس. من البداية رجعت إنجي تحفظ الأطفال دروس القرآن في الجامع، بالإضافة إلى دروس الإنجليزي والكمبيوتر. لم يكن المال هو ما تحتاجه بالتحديد، ولكن المستقبل. أرادت الاندماج في المنطقة. أرادت أن تصبح شيئاً، من الناس وإلى الناس.

الحب أيضاً لم يكن بعيداً عنها. الشيخ خالد كان يقوم بتحفيظ القرآن أيضاً في نفس الجامع. كانا يلتقيان بعد صلاة العشاء، هو بلحيته القصيرة وهي بنقابها الذي صارت ترتديه منذ جاءت كرموز. يتمشيان حتى المنشية. يجلسان على البحر. يأكلان ذرة، هي تأكله من تحت نقابها، وهو يأكله من فوق ذقنه، في النهاية، تختلط الفتافيت بكليهما، قماش النقاب وشعر الذقن، يشعران بهذا كنوع من الابتلاء من عند الله، الابتلاء الذي يوحدهما، وإذا صبرا عليه فسيكافئهما الله، بأن يجعلهما معاً. كانت الأفكار تتسارع في عقليهما، وينظر كل منهما إلى الآخر، ويبتسم بامتنان.

للعشاق طرق تفكيرهم الخاصة.

إنجي مرت بالكثير، منذ عرفت علي وهي تتنبهدل في حياتها، سفر وخلفة ومرمطة وقرف، ولكن جسمها كان مازال كما هو، نار، يتحدى العواصف. وهي أيضاً، برغم النقاب، إلا أنها مازالت تحب الدلع، في طريقة مشيتها، في إمساكها بذراع الشخص اللي جنبها وهي بتعدي الشارع، كلامها

(في عبارات حميمية تستعملها مع الكل: خلي بالك من نفسك، وحشتني، «لمني عليك وحياتك)، وهذه الأشياء كلها يلاحظها الشيخ خالد، ولا يتكلم، فقط تمسك يده وهي تعدي الشارع فيضم يده على كتفها وهما لا يعديان الشارع، ويريد أن يقول لها شيئاً هاماً فيقبض على فخذها وهما جالسان، وينتهز جلستهما خلف الصخرة على البحر فيرفع النقاب قليلاً ويقبلها على خدها، وهي ترتجف.

في البدء كانت ترتجف فقط، فيما بعد بدأت ترتجف وتبادر. إنجي تحتاج للعواطف، إنجي إنسانة. وما يريده الشيخ خالد ليس حراماً. هو يريد متعة الله الحلال. الاثنان التقيا في الجامع وعلى حب كتاب الله. وخالد عندما يبوسها على خدها (لم تسمح له بتجاوز هذا) يقول لها هامساً، انتي حلالي. وهي أصبحت تمسك يده وتضعها على كتفها، وتتحسس صدره، وتلمس بطرف إصبعها حلمة صدره، إن كانت بارزة، وتقرصها إن لم تكن بارزة، فتبرز، فتلمسها بطرف إصبعها. لا شيء يمنعها عن تحقيق هدفها.

كلمت إنجي الحاجة اعتماد، أخيرتها بكل هذه التفاصيل. كانت مكسوفة جداً، ولكن الحاجة قررت زيارتها بنفسها في كرموز. ضحكتا مع بعض كثيراً ثم انفكت عقدة لسان إنجي. هي على ذمة علي لا زالت، وتخاف أن تغضب ربنا. ولعت لها الحاجة سيجارة حشيش، وأخذت تسمعها، أنا مش هاكدب عليكي يا حاجة، أنا بقيت أخاف أغضب ربنا، والإنسان مش معصوم من الخطأ، الشيخ خالد بيحاول طول الوقت. وأنا مش عاوزة أخد خطوة لغاية أما اتكلم معاكي. الحاجة اعتماد تسمع بجدية شديدة. ثم تسألها عن موقفها من علي. أنا طلب الخلع منه. دا يعتبر قواد يا حاجة، غير انه كان بيخوني. والحاجة تسمع. ثم تقول، وانتي ياختي هتفضلي حارمة نفسك لغاية ما

مكتبة عابث الإلكترونية

المحكمة تقول تتخلعي ولا ماتتخلعيش؟ لا ترد إنجي، تميل عليها الحاجة، اهتمي بنفسك شوية يا إنشي. ربنا عالم انك زي اختي الصغيرة. والشيخ خالد راجل طيب، ومش بتاع غلط.

قلب إنجي يشرق بالفرح. النصيحة تأتيها من أعز الناس على قلبها الآن. في المرة القادمة، عندما يهمس لها الشيخ خالد بأنها حلاله، ستنظر في عينيه بشغف. تسأله، فعلاً؟ يبتسم بطيبة. ويبوسها على رقبتها، فتسمح له أول مرة بقبلة في الفم، لا، ليس الموضوع إنها تسمح له، هي التي تبادر، هي التي تنقض على شفتيه فتمصهما، هي التي تدخل لسانها داخل فمه، هي التي تعض لسانه عندما يحاول التسلل، هي التي تلحس بعضاً من لعابه، وتمرر بعضاً من لعابها على لسانه. هي التي تشير للمشروع. وتقود خالد إلى شقتها في كرموز.

البهدلة والحرمان الطويل جعلا إنجي تهيج على أي شيء. حتى لو كانت كلمات الأغاني، حتى لو كانت كلمة مثل التي قالها الشيخ وهو يبوس حلمة صدرها وينظر لها هامساً: "عاوز أزني ببكي"، أو وهو يعضها عضاً خفيفاً في رقبتها، وهو يخربشها في ظهرها، كل هذه الأشياء كانت تهيجها أكثر أمام القادم الغريب. وفي النهاية، تمسك بسبابته. تمررها على حلمتيها المنتصبتين بشدة. تقول له هامسة شوف عملت فيا إيه. وهو يهيج أكثر وأكثر. وهو فوقها يقول لها لامثاً إنه سيقسمها نصفين، فتهيج أكثر. تمسك هي قضيبه وتدخله بنفسها. لا تستمتع تماماً. أثناء غيابها عن علي، وبعد مرحلة النقاب، لم تستسلم إنجي للعذرية التامة. لقد أدمنت العادة السرية. أدمنت يعني أدمنت، صارت تفعلها خمس مرات أو أكثر في ساعة أو ساعة ونصف.

هذا الأمر هو ما عطلها عن الاستمتاع المطلق أول مرة. يمكن القول أنها لم تصل. استمتعت في البداية ثم استعانت بأصابعها، بجانب قضيبه، ثم توقفت

متعتها تماماً. بدأ الأمر يتغير مع المرة الثانية والثالثة، حتى استطاعت الاستغناء عن أصابعها تماماً. ولاحظت أن خالد هو أيضاً قد استغنى عن أصابعه. لأن كل تجارب خالد الجنسية من قبل، وهذه معلومة نقولها الآن للمرة الأولى، لم تكن إلا ضرب عشرات.

المهم، هذه كانت الليالي الأولى للمحبين، ومثل أي ليال أولى، لا يفكر فيها أحد في مستقبله، الحكاية دائما تكون في الدلع والهيام والمي. ومشكلة الليالي الأولى الوحيدة أنها تمر. وأنها لولا أنها تمر لما كان اسمها الليالي الأولى. ربما كان يصح اسمها الليالي الوحيدة، الليالي الرهيبة، الليالي العربية. المهم، الليالي الأولى مرت، واختفى الشيخ خالد.

بحثت عنه إنجي في كل مكان، اختفى من الجامع، من المنشية، من كرموز، من اسكندرية كلها. سألت الحاجة اعتماد فأكدت أنها لا تعرف شيئاً. أوشكت على الجنان. قرضت أظافرها، وقطعت شعر راسها، وعندما شاهدته لأول مرة بعد ثلاثة أسابيع يركب الترام هجمت عليه، همست في أذنه إنت فين يا خالد قلقتني عليك، وأبعدها هو عن طريقه. واصلت الهمس، أنا إنجي، فأبعدها بقوة، فرفعت النقاب حتى تؤكد له أنها إنجي، فزقها بعيداً، وركب الترام.

حكت إنجي القصة كلها للحاجة اعتماد. الحاجة فكرت قليلا، ثم نادت منة بنتها. استمعت لها منة باهتمام، وبدافع من الامتنان لتلك التي علمتها الإنجليش في شهور قررت اتخاذ موقف. دخلت على إيميل الشيخ خالد. أضافته. وتكلمت معه طويلاً، سهرت ليالي وليالي تتحدث معه. ومرة في مرة في مرة طلب منها أن تركب الكَمَرة، وبعد تركيب الكَمَرة طلب أن يراها، وبعد أن رآها

مكتبة عابث الإلكترونية

ورأته، وبعد أن بدأ يكون عن نفسه فكرة أنه الدونجوان الأول والآخر، طلبت منه الطلب الحاسم: أن يوصلها للقطر. ستزور خالتها في دمنهور.

في المحطة يقفان وحدهما. تظهر إنجي من الفراغ. تسلم على منة، يتظاهر بعدم معرفتها ولا يجرحها هذا. بعد قليل يحاول الانسحاب. عنده ميعاد. ولكن الأوان يكون قد فات. القطار قادم من خلفه ومن خلف منة. إنجي تلاحظه. بزقة واحدة يرقد الشيخ خالد أسفل القطار. بزقة واحدة يتحول إلى لحمة مفرومة. تمضيان، منة وإنجي، خارج المحطة. الناس مرعوبة. الصراخ يتصاعد، والكل يفسح لهما الطريق. منة مرعوبة وأنفاسها مكتومة. أول مرة تفعل شيئاً من هذا النوع. وإنجي تخطت هذه المرحلة من زمان. إنجي فقط موجوعة، إنجي تذكرت قتيل محطة القطر برمسيس فجأة. تذكرت علي. إنجي يقتلها الحنين. تقرقص أظافرها طول رحلة العودة. الحنين يدفعها لقرقضة الأظافر.

٥٥٥

مع الوقت بدأ موضوع الشيخ خالد ينكشف. أهل الإسكندرية الطيبين لم يعرفوا الفاعل. لفوا حول نفسهم وداروا وسألوا وتشككوا واحتاروا، ولم يعرفوا الفاعل، حتى تطوعت الحاجة اعتماد بنقل الخبر إلى بواب عمارة كرموز، وبدأ الشعب يلعب لعبته.

جزء مهم من التمرد السكندري على مر الأيام لم يكن ضد السلطة فحسب، بل ضد الظالمين أيضاً. شعب الإسكندرية مستنير بطبيعته. ويكفي على هذا مثال واحد: الكرنتينا. في الواقع فلقد ظلت هذه المنطقة بحي القباري غرب الإسكندرية، منذ أن كانت معسكرات للإنجليز، بؤرة مهمة لتمرد السكندريين على الأصولية التي كانت تجتاح المجتمع شيئاً فشيئاً. فلقد تركز بها، قبل

الثورة، بعض السكندريين من عملاء الإنجليز، الذين كانوا يشاهدون تنامي حركتي الإخوان المسلمين ومصر الفتاة، والذين اختاروا مواجهتهما بديمقراطية الحلفاء. فباعوا واشتروا، ونقلوا أخباراً ومعلومات للإنجليز، وتحقق هدفهم في النهاية. انتصر الحلفاء وانتهت الحرب بإسدال الستار للأبد على النازية والفاشية وشموليات القرن العشرين. في نفس الوقت، وبشكل مفارق، فلقد أسدل الستار أيضاً على تواجد البريطانيين بالشرق الأوسط. قامت الثورة ورحلوا. الثورة حولت مساكن الكرنتينا إلى مساكن إيواء. وبالقرب من مساكن الإيواء هذه نمت الأسطورة الحقيقية للكرنتينا، عشش صفيح، دكاكين، مطاوي وسنج ومخدرات. فقراء الإسكندرية قرروا السكنى هناك، والاندراج في منظومة مصرية واسعة تسمى العشوائيات.

العشوائيات اسم ظالم بالطبع، فهذه المساكن ليست مجرد مساكن لمن هم تحت خط الفقر، وليست مجرد مساكن للمجرمين وأصحاب السوابق. هذه "العشوائيات" تقوم بدور مهم في التمرد على سلطة وقوانين المجتمع المصري المحافظ، والذي تتسرب إليه شيئاً فشيئاً عادات وهابية وأصولية لم يعتد عليها. بتركز الجريمة فيها، وتركز عادات فوضوية مثل شرب الخمر وتدخين البانجو والبلطجة، أمكن لسكان "الكرنتينا" مواجهة القيم المحافظة، والوهابية أحياناً، للطبقة السكندرية الوسطى. هكذا كانت الضربات تتوالى على يد أهل الكرنتينا إلى الحليفين، السلطة والتيار الأصولي الزاحف. وهذا لم يكن مرضياً بالطبع للنظام القائم. تم هدم عشش الكرنتينا في خطوة عنيفة من المحافظة قامت بها في أوائل الألفية الجديدة، وتم إحلال مجمع مدارس بدلاً منها. تشرد الأهالي في كل مكان، ولكنهم ظلوا يحملون في قلوبهم أسطورة الكرنتينا وحلمها الجميل: مجتمع سكندري فوضوي يتحدى النظم السائدة.

مكتبة عابث الإلكترونية

على الناحية المقابلة، كان الشيخ خالد نموذجاً ممثلاً لكل ما يكرهه السكندريون. أنهى دراسته بكلية دار العلوم بالقاهرة، ثم سافر إلى الإسكندرية، مع أفكار متطرفة استقاها من مدينة الألف مأذنة. التزم فورما عاد. ربى ذقنه. حرص على ارتداء الجلباب الأبيض طول الوقت، وفوقه سويتر في الشتاء، والسواك بجيبه الأعلى. في البداية، انتظم للصلاة في الجامع، ثم بدأ في تحفيظ القرآن، إلى هنا والأمر طبيعي، إنجي مثلاً تفعل هذا، ولكن ما لم يغفره السكندريون أبداً هو اعتراضه المارة في الشارع ودعوتهم للصلاة في المسجد، وتضمين خطبه التي يلقيها يوم الجمعة عبارات ذات طابع أصولي متطرف. وعندما يعترض واحد من أهل المنطقة يحتد عليه الشيخ خالد، وسلاحه دائماً هو قال الله وقال الرسول، وهو ما كانت تنبذه الطبيعة المتسامحة لأهالي الإسكندرية، الذين بدأوا في التوجس من هذا الغريب القادم من القاهرة، وحاولوا إيقافه عند حده، ولكنه كان يتعملق، ومعه يتعملق شبح الإسلام الأصولي، والضحية دائماً هي الشعب.

لكل هذه الأسباب، فلقد تحولت إنجي، بعد معرفة الجميع بقتلها لخالد، إلى بطلة من نوع خاص. وبدأت عبارات التحية والتقدير تنهال عليها في كل الشوارع التي تتحرك بها، وهو الأمر الذي لم تجربه سوى مع علي، قديماً، في حياتها السابقة التي تركتها في كامب شيزار. لا يدعها أحد تحاسب على شيء، والأهالي يدفعون بأطفالهم إلى دراسة القرآن والإنجليزي والكمبيوتر عندها في الجامع، هي مطلوبة بالاسم الآن، وهدايا صغيرة تصلها في كل مكان، بالإضافة إلى هدايا كبيرة وهدايا متوسطة، وطلبات أيضاً. مثلاً، البلدية لمت بضاعة أحد الباعة على رصيف سعد زغلول، مش عاوزين نضايقك يا شيخة إنشي، اللي ربنا يقدرك عليه اعمليه. والشيخة إنشي تذهب بنفسها للنقيب

عمرو. تكلمه بالحسنى. تقول له إن العيل اللي خد بضاعته بخصها. فيقول لها ماحنا كمان عاوزين نشتغل يا شيخة. فتقول له اشتغل في أي حتة، بس وعزة الله لو قربت من حتتي يا حتة نقيب بشخة لاكون باعتاك على سيدي جابر دوغري. يخاف الضابط من تلميحها له بالقتل. تعود البضاعة لشارع سعد زغلول، ولأيام طويلة تخف قبضة البلدية على الباعة هناك، لسنوات بالأحرى. طبعا هذا لم يكن ما حدث بين إنجي والنقيب عمرو، ولكن هذا كان ما تناقلته الناس. ما حدث بالضبط لا أحد يعرفه حتى الآن.

طيب، خفة قبضة البلدية على شارع سعد زغلول كانت له نتيجة أخرى مباشرة. واحد من الباعة الدائمين هناك هو عادل، أخو أبو أميرة. كان من أكثر الناس حماسا لترويج الرواية السابق ذكرها بخصوص ما حدث بين إنجي والنقيب عمرو. همس بها لكل زملاء المهنة، وزملاء الدماغ، ولكل أقربائه، ولأبو أميرة، حتى وصلت إلى علي. علي كان مايزال حتى الآن يلف سجاير الحشيش، ويعد بلاطات البيت، ويلعب جيمز عالموبايل، ويضرب الدبان بالمضرب، ويغمس الناموس بإيديه.

عادل نفسه زار الشيخة إنجي. قال لها إنه ليس طرفاً في المشكلة بينها وبين علي. قال لها إنه في البداية كان منحازاً لعلي، لأنه كان صاحبه، ولكنه الآن منحاز لها ويشرفه أن يكون صبي من صبيانها. إنجي كانت حاسمة، علي دا اللي انت بتقول عليه يا بابا اسمه الشيخ علي، ويبقى جوزي وأبو ابني الصغير، وعمره ما كان صاحبك، ولا كان يصاحبك، علي صاحبه أبو أميرة. صمت عادل مكبوساً. واصلت هي، شوف يا عادل، بلغ زملاتك انهم أهلي، وانت زي اخويا الصغير. أي حاجة تحصلهم أنا موجودة. تربت ربتة خفيفة

مكتبة عابث الإلكترونية

على كتفه، فيكاد يدمع. يعود لكامب شيزار. لا يحدثهم هناك عن شيء. يكتم الموضوع بداخل نفسه. ويبدأ نور الروحانيات في الشروق بداخله.

تجلس إنجي مع ابنتها حمادة كل يوم، تحفظه القرآن، تكلمه عن تاريخ عائلته. تكلمه عن أبيه، وحمادة يفهم الكلام، عمره سنتان الآن باسم الله ما شاء الله، تقول له إنها هنا بسبب يوم بعيد، بعيد جداً، حدثت فيه حادثة بعيدة، في بلد اسمها سيدي جابر، الحادثة اسمها أخ يقتل أخوه، ثم تستدرك وتقول لا لا، الحادثة حدثت في بلد ابعد، اسمها القاهرة، واسمها رجل ينتقم لشرفه، ثم تستدرك الاستدراك الأخير وتقول، يا أخي البلد اسمها الصعيد، والقصة كانت تار. وحمادة الصغير يضحك ويقول جملاً مكسرة، وتمسكه هي وتبوسه في كل حتة في وشه، ياخلاصي أنا دلوعة ماما أنا.

°°°

البيزنس ابتدأ. عرفتها الحاجة اعتماد على مدام نادية، امرأة هاي كلاس من كرموز، لديها قرشين وتريد استثمارهم. نصحتها الحاجة اعتماد بافتتاح انجليش وكمبيوتر سنتر. المكان في الدورين اللي تحت من عمارة الحاجة، والإدارة تترك لإنجي، هي تفهم في هذه المواضيع. رحبت إنجي بالفكرة. إنجي لم تنس ماضيها أبداً كإنتلجنسيا، ووجدت في هذا فرصة للعودة إلى الماضي البعيد. ومدام نادية كانت سمعت عن امرأة جديدة في كرموز وفي اسكندرية كلها تصعد بقوة، والناس تتكلم عنها بين وقت للتاني. قررت الجلوس بنفسها معها. وإنجي عادت لطبيعتها الأولى بشكل تلقائي. تخلط بين الكلمات العربية والإنجليزية بلكنة أمريكية. مع الحرص في نفس الوقت على ألا تبدو ابنة امبارح. إنجي أعجبت مدام نادية. قرت الفاتحة وقالت مبروك.

مدام نادية كان عندها تحفظ واحد: النقاب. كلمت إنجي في هذا فابتسمت الأخيرة وقالت إنها ليس لديها أية مشكلة مع الأخريات، سواء كنّ بنقاب أو بحجاب أو حتى نيكيد تماماً، مادام أن ذلك ذير فري تشويس، انا بالنسبة لي يا مدام نادية مش مهم الواحد أو الواحدة تلبس إيه، فعلاً إت دزنت ماتر بالنسبالي، اللي يجد مهم هو قد إيه الواحد مقتنع بلبسه، أو مستريح فيه. صدقيني الشخص ممكن يفرض نفسه ولبسه على أي حد وف أي مكان، طالما فيه سلف كونفيدنس. إنجي استطاعت فرض منطقها على مدام نادية، لأن منطقها كان محملاً بالكثير من السلف كونفيدنس.

استلمت إنجي إدارة المركز، وعلى حسها تقدم كثيرون وكثيرات للدراسة هناك. أعجب هذا مدام نادية، التي تذكرت أنها لم تعرف عن إنجي الكثير، فسألت. أخبرها البعض بأشياء، ولكن المعلومة الهامة تأخرت قليلا: إنجي قاتلة يا مدام نادية، إنجي قتلت في مصر وقتلت في كامب شيزار وقتلت في كرموز، والله أعلم بالباقي. هذا الكلام لم يقل بغرض التشنيع، وإنما بالعكس، بغرض التباهي بابنة كرموز. ووصل الكلام إلى المدام بهذا الغرض. زارت إنجي في مكتبها. كانا في نهار رمضان. أشعلت سيجارة. إنجي لم تعقب. المدام هي التي عقبت: "السجاير مابتفطرش يا إنجي. هو كان فيه سجاير أيام الرسول علشان تبقى بتفطر؟" سكتت إنجي. قامت المدام، أنا عاوزاكي في مشوار معايا يا إنجي، هنرجع على طول ماتخافيش.

المدام قادت إنجي بالعربية إلى بيتها بغيط العنب. شقة تملكها بالطابق الأرضي. دخلتاها. معتمة قليلاً. المدام تسير وإنجي وراءها. لا ترى جيداً. المدام تفتح باباً في ركن بعيد (يخيل لإنجي أنه بعيد) وتدخلان. الغرفة بالداخل أكثر إعتاماً. إنجي لا ترى شيئاً تقريباً، برغم النهار. تسمع خشخشة خطوات المدام

مكتبة عابث الإلكترونية

فقط في يمين الغرفة، تسمع نحنحتها. ينقطع الصوت تماماً. إنجي تريد المناداة عليها ولكن صوتها يروح. وترتبط في ذهنها الحقائق. قتل الشيخ خالد. مدام نادية تنتقم، بعيداً عن كل شيء، في غرفة مظلمة لا أحد يعرف عنها شيئاً. فجأة تسمع صوتها، من أقصى اليسار. إنتي يمكن ما تعرفيش حاجات كتير عني يا إنجي. بس اني نعرفو عنك كل حاجة. ماتفتكريش انك اشتغلتي معايا علشان عجبني كلامي معاكي. انتي اشتغلتي معايا علشان كلام الناس عنك. قلت هي دي اللي انا عاوزاها معايا. بس انتي لازم تعرفي حاجة الأول.

"يا إنجي انتي مابتسأليش على حاجة أبداً. كُتي اسألي ياختي. كنت نفيدك. فيه ناس كتير قبلك حاولوا يعملوا اللي بتعمليه دا. بس ما توفقوش. الحاجات دي بتاعة ربنا يعني، هو اللي بيوفق عبده أو مابيوفقوش. خدي بالك ان دا ممكن يبقى ابتلاء كمان."

"شوفي يا بنتي. انتي صغيرة. الحكاية اللي هاحكيهالك دي اديلها عشرين سنة. كتي انتي عيلة ساعة اما حصلت. وماحدش يعرف حاجة عنها ولا الجرايد كتبت عنها، ولا جت ف التليفزيون."

"الحاجة اعتماد اللي انتي تعرفيها دي، واللي انتي شايفانا أصحاب وحبايب مع بعض، دي كانت ضرتي ف يوم م الأيام، وكنا مانطيقوش بعض خالص. بس الزمن بيمر يا إنجي يا بنتي. الزمن بيمر. معقول نبقى ستات كبار وعاقلين ونتعاركوا علشان راجل. مش معقول طبعاً."

"الراجل مش غريب يا إنجي. هو مات دلوقتي أديله خمستاشر سنة. انتي يمكن ماتعرفيهوش. بس تعرفي اخوه. الشيخ حسن. الراجل اللي فتح بيتكو اول ما جيتو اسكندرية. راجل طيب، مش كدا؟ واخوه هو اللي لمّع اسكندرية من عشرين سنة."

شخص غامض، يرجح أن أصله يعود إلى الصعيد. ظهر في سماء كوم الشقافة، اسمه محمد حربي، ولم يعرف إلا باسم حربي. لم تعرف عنه حرفة معينة. قيل أنه مجنون. وصحيح، كان يقوم بأشياء غريبة، بدأ بأفعال مبررة، يثبت شخصاً بسيف ويأخذ ما معه، يتعارك مع صاحب محل فيعود بالليل مع أصحابه ليحرق المحل بالبنزين، يعتدي على قاصرات، وغير قاصرات، كل هذه الأشياء معروفة، ومعظمنا مارسها بشكل أو بآخر في طفولته. ولكن الجديد هو الأفعال غير المبررة. يعني. في عام ٩٢ وقف حربي في منتصف طريق الكورنيش بميامي، وبيده كرسي بحر، فرشه على الأسفلت وجلس ينظر للسيارات القادمة باستهزاء. تفادته السيارات بأعجوبة. استوقفه أمينا شرطة وحاولا جذبه بالقوة إلى الرصيف. أخرج بسرعة سيفاً من تحت الجلابية، كان يربطه حول وسطه، ولوح به بقوة فجرح ذراع أحدهما. تراجع الاثنان، وهو ما كان كافيا له ليجري، برغم الإعاقة الخفيفة في قدمه، ويلتقط مشروعاً من على البحر ينقله إلى الشاطيء. هنالك فرش كرسيه، في نهر الطريق أيضاً. خمس دقائق وزهق. طوى الكرسي وعاد.

لمن لا يعرف، لمن لا يذكر، فالإرهاب كان يجتاح مصر في هذه الأثناء، ولذا فقد أمكن إلصاق تهمة الإرهاب بمحمد حربي. وذلك لأن حربي قد تخصص أيضاً في أمر آخر، إطلاق سراح البهائم من الحجر الصحي، قام بهذه العملية مرتين، على رأس رجال من كوم الشقافة. حرروا البهائم وسلموها للتجار الذين قادوها بدورهم إلى العامرية للإتجار بها هناك. قيل عن البهائم إنها موبوءة، ولكن حربي كان له رأي آخر، البهايم بتخش الحجر الصحي سليمة وبتطلع عيانة، وإنقاذاً لها من هذا المصير، قام بعمليتيه. على العموم، في هذا الوقت كان حربي قد أصبح إرهابياً في عين الحكومة، وليس بعد الإرهاب ذنب.

مكتبة عابث الإلكترونية

"في الوقت دا يا إنجي كان اتعرف على مراته الأولانية واتجوزها. اعتماد اللي انتي عارفاها. بس ما استريحش معاها. وأنا كنت اعرفه من بعيد. بيني وبينك يا إنجي يعني كات عيني عليه. وهو كمان كات عينه عليا، وكان بيلمح لي بين وقت والتاني. بس مارضيتش ندخل بينه وبين مراته."

"هو تعب مع مراته خالص، وانا قلتله يسيبها، عشان ماتتعبش معاه كمان، بس هو قال لا، اتجوزك وافضل متجوزها كمان. انا بيني وبينك كنت صغيرة. وكنت ملهية ف الدنيا، والناس كلها كات بتتكلم عن حربي، كان زي زعيم ف كوم الشقافة. المهم وافقت. وقلتله اوعدني يا محمد تطلقها، فقالّي أوعدك."

هل كان محمد حربي مجنوناً؟ لا أحد ينطق بهذا، وإن كان الكثيرون يعتقدون به. على العموم، ليس هذا وقت محاسبته، المهم أن كثيرين آمنوا به، وأن كثيرين اتبعوه، وأنه شكل لسنوات (صحيح أنها معدودة، ولكنها مؤثرة) أسطورة الإسكندرية وفكرتها عن ذاتها. الشخص الذي تحدى الحكومة، والذي قاد واحدة من أكبر الحركات الاحتجاجية العفوية التي يقوم بها فرد واحد (غير متعلم، غير منظم، غير ذي خبرة بالحركات الاحتجاجية)، الشخص الذي لم يهدف نشاطه الأساسي لا إلى مال أو نساء أو انتقام وإنما إلى مواجهة السلطة وتحدي فكرتها المستقرة عن نفسها. هذا هو التاريخ الحقيقي للإسكندرية.

"ودا يختي اللي لازم تعرفيه. ما انتي لو فردتي صدرك كدا وانتي مش عارفة حاجة هينفعش. انتي عشان تكملي اللي عمله عمك حربي لازم تعرفي ايه اللي عمله الأول. مش كدا؟ وانتي متعلمة وتعرفي لغات وان شاء الله ربنا هيجيبلنا الفرج من عندك." لهذا، أضافت المدام، فإنجي هنا، في الغرفة

الشخصية لحربي، بين متعلقاته، بين سيوفه ومطاويه، "الأودة دي إن شاء الله تبقى من نصيبك، أو من نصيب الناس القريبين ليكي، بس لو عجبتيني يا إنجي، وانا عارفة انك مش هتخيبي أملي فيكي."

مشهد مقتل محمد حربي كان من أهم المشاهد في التاريخ البصري للإسكندرية: "هو كان زي ما تقولي الحكومة بتدور عليه وهو بايت عند واحد صاحبه، ف الشبان المسلمين. طلع مرشد بعد كدا. هتولك دلوقت انا عرفت مين. اني مابنجيش على حد. صاحبه دا استفزه. قعد يسم بدنه ويقوله انت مابقيتش حربي بتاع زمان وقاعد ف البيت زي الحريم عشان خايف م الحكومة. حربي كان دمه حامي، ماستحملش، ربط السيف على وسطه ونزل الشارع. أول ما نزل لقى العساكر والظباط ف الشارع. أتاريهم كانوا عاملينله كمين ومتقفين مع صاحبه دا. الراجل جري وتنه يجري لغاية اما وصل شارع فؤاد، عدى الشارع وهو بيجري، اتاري كان فيه عربية مستنياه هناك. طلعت العربية وخبطته."

تصمت دقيقة: "عارفة يا بت يا إنجي. جسمه زي اللي لزق ف العربية. والعربية تنها طالعة لغاية ما قابلتها نص نقل جاية من شارع تاني، العربيتين ليسوا في بعض." تصمت طويلا. الذكرى أليمة. لا يحتملها إنسان. مشهد جسد محمد حربي وهو محشور ومتطبق بين العربيتين. شيء آخر تتذكره المدام، نداء طويل، درامي، اقترن بلحظة الموت، نداء "ولا يا حربي"، الباء ممدودة، وطويلة، حتى يأخذ الصوت في الخفوت، "ولا يا حربيييبي"، في نهاية النداء يلتفت حربي، ويجد موته أمامه. من صاحب هذا النداء، صاحب السيارة البيجو، صاحب النص نقل، عسكري كان ينتظره أسفل البيت، وفي أية لحظة قبل، والأهم، كيف تتذكر حتى هذه اللحظة نبرة العبارة، مادامت لم تشهد

مكتبة عابث الإلكترونية

الحادثة، وإنما سمعت عنها. "ولا يا حربي" منبهة ومحذرة، "ولا يا حربي" مميتة وقاتلة، "ولا يا حربي" غامضة، مقطوعة من كل السياقات المحتملة، "ولا يا حربي"، بباء ممدودة، ياء ممدودة بغباء.

الهواء يصفق الشيش فجأة، ينفتح الشيش، سحب من التراب بين ثنياته تجتاح الغرفة، والأهم من التراب، النور، تمتلئ الغرفة بالشمس، تنكشف تفاصيلها، إنجي تكح كحة خفيفة، ثم تفتح عينيها، سيفان طويلان معلقان على الجدار، ومدفع آلي، وطبنجة تسعة ملليِ، وعدد من المطاوي مغروزة في الخشب المشقق لسطح المكتب. مدام نادية في أقصى اليسار، جالسة، تبكي، تمسح دموعها بأصابعها، تمسح بربورها وتلقيه أرضاً بسبابتها وإبهامها. الأرض مليئة بالدموع وبالمخاط.

°°°

مركز "إنجي سنتر" يستقطب زبائن جدداً يومياً، زبائن للدراسة، وزبائن للعب الجيمز والشات في السايبر الصغير، وزبائن للحب. غرفة صغيرة بالطابق الثاني من السنتر بدأت ككافيتيريا متحررة نسبياً، من ناحية السماح بحركات وأوضاع معينة بين الشاب وصاحبته، ثم متحررة بشكل واضح، ثم بشكل مطلق، حتى انتهت إلى شقة كبيرة مخصصة للسكس. لم تخط إنجي خطوة واحدة غير محسوبة، كله بمعرفة الحاجة اعتماد ومدام نادية. بدأ التفكير في هذا المشروع بالتزامن مع تعرف إنجي على قصة محمد حربي، أي في عز رمضان. لم تمانع الحاجة اعتماد، فقط أرجأت التفكير في هذا إلى ما بعد رمضان، وكذلك مدام نادية. إنجي وحدها كان الحماس يقتلها. أخذت تفكر وتحسب وتسترجع تاريخها القديم مع علي في بيت كامب شيزار. قالت للمدام إنها تريده شيئاً مختلفاً، محترماً، ليس مثل الأماكن المعفنة الموجودة حولهم. "زبوننا راقي،

واحنا كمان لازم نبقى راقيين." رداً على هذه الجملة أعلنت مدام نادية موافقتها الحاسمة. الطموح القديم للمدام كان الخروج من كرموز. مرت السنين، وكونت ثروتها، ولم تستطع الخروج، وتبدل حلمها القديم: أن تقوم هي بخلق كرموز جديدة، تنتشر السايبرات والكافيهات في أنحاءها. يدرس جميع أبنائها وبناتها إنجلش وكمبيوتر. في الواقع يمكننا فهم الكثير من شخصية مدام نادية إذا فهمنا هوسها بالتحديث (**modernization**)، وإنجي استطاعت فهم هذا، ودخلت لها من مدخل زبائن الهاي كلاس الذين سيترددون على السنتر بفضل الشقة الجديدة. "عرب وظباط جيش وشرطة. انا اعرفهم من أيام كامب شيزار." ابتسمت مدام نادية، وابتسمت الحاجة اعتماد، وواصلت إنجي صعودها.

موضوع حربي نُسي تماماً، لم تعد المدام للحديث معها عنه. والحاجة اعتماد أشارت إشارة واحدة له. سألتها إن كانت نادية كلمتها عن حاجة فسكتت إنجي. ألحت الحاجة. سألتها بصراحة إن كانت حكت لها قصة حربي فأومأت برأسها. واصلت الحاجة، هو كان عشيقها، ماكانش جوزها، المرحوم ماتجوزش غيري، ولا خلف غير منة بنتي. لو سألتيها مش هتنكر، هي بس بتتكسف تقول دا.

لفترة طويلة كانت هذه هي الإشارة الوحيدة لقصة حربي، ولكن إنجي لم تنس، حلمت به ذات يوم. كان يتقدم جيشاً طويلاً من البشر، يذقن سوداء وشعر رأس خفيف، يصرخ بعنف كما يفعل راسل كرو في أفيش فيلم المصارع. من ضمن أفراد الجيش كانت البت غادة، واحدة من البنات اللائي يعملن معها في السنتر. تراها غادة فتلوح لها فرحة، ثم تأخذها من يدها لتعرفها بحربي. تصحو إنجي عرقانة. تجفف عرقها وتبتسم. تكلم غادة في التليفون. تقول لها

مكتبة عابث الإلكترونية

إنها وحشتها. إنجي دائما حريصة على علاقتها بالعاملات معها. لا تسميهن شرامبط، وإنما تيتشرز، أو ويترز، حسب وظائفهن الأصلية، وهذه الأشياء تفرق. هذه الأشياء تفرق كثيراً.

وحلم آخر متكرر: هي وعلي جالسان في بيتهما القديم بكامب شيزار. علي يلاعب حمادة، يناغيه ويطعمه إصبعه، وينظر لها، ويبتسم، فتبتسم هي وتقوم إلى غرفة النوم، يلحقها، يلاعبها ويداعبها، وتستجيب هي، وتبدأ في الابتذال، تصحو قبل أن تصل. تعزي نفسها بأن التعب من أجل الوصول للشيء أفضل من الشيء نفسه. ومستعينة بمشاهد الحلم، تمارس عادتها السرية اليومية.

°°°

في الليلة التي تلت مقتل حربي رأت اعتماد، زوجته، كابوساً. كانت تسير في طريق يشبه القبو، القبو مليء بالمشايخ الذين يقرأون القرآن على جانبيه. نظرت لأحدهم، كانت عيناه معلقة بحجره. رفع لها وجهه فجأة. كان أعمى. عيناه كانتا مفرغتين تماماً. لدرجة أنه أدخل إصبعه السبابة في تجويف عينه اليسرى وأخذ يضحك. فمه كان بلا أسنان وانكشف الآن. حاولت اعتماد الركض بعيداً، ولكن القبو كان ضيقاً، بالأحرى، أصبح ضيقاً، وواطئاً. اكتشفت فجأة أنه عليها الانحناء، فانحنت. شيخ آخر كان يقرأ "قل أعوذ برب الفلق"، وأخذ يكرر كلمة "الفلق" بشكل هستيري. والقبو الضيق والواطئ كان يردد صدى صوته. وجدران القبو تحولت إلى جدارية ضخمة، جدارية مرسومة عليها أعضاء بشرية، أذرع وخصلات شعر ودماء وسيقان، وأعضاء تناسلية، ذكرية وأنثوية، والأعضاء التناسلية تنتشر حتى تصبح لها الغلبة، وعبارة "ولا يا حربيبي" تتردد، في كل مكان تتردد، واعتماد تعي الآن أنها تحلم، وتحاول

الاستيقاظ ولا تستطيع، تحاول هز ذراعها وساقها وجسمها كله مخدر. "ولا يا حربي"، ولا يا حربي" ويد تمتد لجسمها، يد واحد من المشايخ. تهب مفزوعة. منة ابنتها توقظها، تهز كتفيها. منة تهتف بيأس "يا ماما اصحي."

الأيام التي أعقبت مقتل حربي كانت كارثية بالنسبة لاعتماد. استسلمت للاكتئاب. رفضت الأكل والشرب ولم تفعل شيئاً سوى تقطيع شعر رأسها في حركة عصبية، وشم الكوكايين في شقة صغيرة بالشاطبي. في هذه الظروف الوسخة تعرفت على نادية، اعتماد عقلها سايح من الشم وتآتي واحدة لتتعرف عليها وتخبرها أنها كانت مرات جوزها. اعتماد مش فاهمة. تجلس معها نادية وتشرح لها القصة، من أول لقاء لها بحربي وحتى العلاقة بينهما ووعده لها بأن يتزوجها، تمسك اعتماد بخناقها: "يعني كان مرافقك، أومال إيه كنتي مراته يا وسخة؟!"

كان هذا هو اللقاء الأول، فيما بعد نمت صداقة بينهما. جمعتهما ذكرى الرجل الغائب والأحلام به. يظهر من عمق البحر. ينزل من السماء. يقف أمام الكارتة ويضرب نار على جميع الداخلين إلى الإسكندرية. يزُكّ وهو يجري، ويرغم زكته هذه يدوخ الحكومة وراه. ويكبّ الكيروسين على بحر الإسكندرية ثم يشعل فيه بالكبريتة. النيران تلتهم كورنيش الإسكندرية كله. الإسكندرية مدينة مشتعلة بالنار والبهاء. حربي يظهر من قلب النيران، عملاقاً، قوياً، بساق سليمة، وفجأة: "ولا يا حربيبي." تصحو كل منهما عرقانة. تشرب كل منهما كوباية مية، تقول باسم الله الرحمن الرحيم، وتعاود كل منهما النوم.

°°°

في الليلة التي سبقت مقتل حربي صحت نادية من النوم قرب الفجر. عطشانة. ذهبت لتشرب. أمسكت زجاجة الماء فوقعت وانكسرت منها. انحنت

مكتبة عابث الإلكترونية

لتحاول لم الزجاج المكسور فانجرحت يدها. أجلت العملية كلها للصباح وغسلت يدها وعاودت النوم. في النوم حلمت بزجاج مكسور كثير. زجاج وماء سائل ودم ووجه متشنج، متقلص وقبيح. الحلم كان كابوساً. ما الذي يجعل الحلم كابوساً؟ لا شيء، لا تيماته ولا أجواءه ولا أبطاله. فقط هكذا، يتحول لكابوس، في منعطف ما منه، لحظة محورية حاسمة، يقرر الحلم تغيير هويته الجنسية، ينقلب على نفسه، يظهر الجانب الخنثوي فيه، هازئاً وساخراً، ويظل وجه الشيطان. صرخت نادبة.

في اليوم التالي اتصلت بالشيخ حسن. ذهبت للقائه في الجامع. حكت له عن الحلم. قالت له إن قلبها واكلها على حربي، إنها ملهوفة عليه، وتتمنى لو تزوره وتراه ولو دقيقة. في الأول نزلت دمعة، وحيدة ومنفردة، ثم دمعة أخرى. لم تمسحهما، حاولت المقاومة. قالت بصوت متهدج "بس أنس جسمه". انهارت مقاومتها. نهنهت، وتشنج وجهها، تقلص، أصبح قبيحاً، قبيحاً جداً. دفنت عينيها في حصيرة الجامع، وارتبك الشيخ حسن، لم يعرف هل يطبطب عليها أمام الناس أم لا، قرب كفه منها، عمل نفسه كأنه يطبطب عليها، ثم أعاد يده لجواره. وهي تنهار كل دفاعاتها، بقيت مش قادرة خلاص، تعبْت يا إنجي.

"كان قلبي حاسس يا بنتي، كلمت عمك حسن وقلتله، بس هنعمل إيه. ربنا كان أمر خلاص". (لحظة صمت. تنظر من الشباك وتحرك شفتيها. تدرب نفسها على النطق بعبارة ما. تكررها بصوت خافت ثلاث مرات، ثم تلتفت لإنجي وتلقيها كلها مرة واحدة، بلا تردد أو لعثمة) الأمر طلع والتنفيذ ابتدا واللي عاوز يعترض بقى مافيدوش حاجة".

°°°

أثناء مقتل حربي كانت الإسكندرية كلها نايمة. الإسكندرية نسيت بطلها القومي، وبدأت تعود لروتينها اليومي. ساد الاعتقاد بأن حربي قد همد، إنه خلاص، كما قال صاحبه، لم يعد مثل الأول. وتجهز عدد من الصغار للانقضاض على تركته الرمزية، سيد وسيكا وسلطان، أعمال بلطجة صغيرة كانوا يقومون بها هنا وهناك ظنوا أنها قد تؤهلهم للحلول محل حربي في قيادة دفة التاريخ السكندري، ولكنها، فضلا عن صغرها وتفاهتها، لم تستمر. جاء مقتل حربي ليضع كل شيء في مكانه الصحيح. انطلقت بسرعة أسطورة حربي لتشعل الإسكندرية كلها، ومن تجرأ سابقاً، بالكلام، بالعمل، بالحركة، ولو بإيماءة صغيرة، على حربي، سرعان ما تم نبذه، ألقي في مزبلة التاريخ. دخلت الإسكندرية عصر الظلام. خرجت القمصان والبناطيل والجلابيات السوداء من الدواليب، أطفأت المحلات والقهاوي أنوارها ليلاً، وسلط الآباء أبناءهم ليزقلوا أعمدة النور بالطوب. منذ هذه اللحظة، أصبحت الإسكندرية مدينة سوداء.

"الحكاية اللي بنحكيهالك دي مش متلاقيها ف الكتب ولا ف المدارس. الحكاية دي احنا بس اللي نعرفوها. لو سألتي ألف من يدلك، لكن ماحدش هيكتبها."

مكتبة عابث الإلكترونية

٦

الوحيد الذي لم يبتعد عن علي في هذه المرحلة من حياته كان أبو أميرة، برغم كل شيء. علي كان متشككاً في الجميع. القعدة الطويلة في البيت أثرت بالسلب على أعصابه، بلا شك، وابتعاد زوجته وابنه أيضاً، كان له المزيد من الأثر السلبي. ولكن أبو أميرة ظل ملاصقاً له.

الآن يمشي علي في الشارع فلا يعرفه أحد، يبتسم أبو أميرة ويقول، أحسن، سيبهم ينسوك شوية. دا أحسنلك. والترجمة كما يفهمها علي، عندما لا يعرفه أهل منطقته فهذا أفضل من أن يعرفوه ويبحثوا عليه، ويبتسم بمرارة. يضطر لتأجير شقته إيجار جديد، ومن فلوس الإيجار يعيد النشاط لمحل السيديهات. يعمره بالمزيد من القرآن، يربى له ذقناً خفيفة، ويلبس الجلابية، ويضيف ركناً لمحله، للسبح والجلاليب والطاقيات البيضا. علي أصلا بتاع هدوم، وجزء من بضاعته أعطاه لعادل ليبيعه على الرصيف في محطة الرمل. ما لم يقل هنا هو إن تدخل إنجي لصالح باعة سعد زغلول كان في مصلحته أيضاً. إن جزءا من البضاعة كان يخصه. كل هذا كان يشاهده علي من بعيد، ويحفظه. علي كان يقوم على رجله من جديد، ببطء شديد، وليس بثبات، ولكن المحصلة كانت أنه يقوم. باب آخر للرزق انفتح أمام علي. الإنسان وهو مضطر يفعل أي شيء. البداية كانت في بيته. يرن الجرس في الثالثة فجراً، الرائد أكمل. يدخل، يشرب شايه، ويفاتح علي في الموضوع: "احنا عاوزينك تبقى الراجل بتاعنا..

فيه حاجات انت ممكن تعرفها واحنا مانعرفهاش، عاوزين معلومات معينة، ممكن مانحتاجهاش دلوقتي، بس توقع اننا ممكن نحتاجها في أي وقت. وطبعا يا شيخ علي أي حاجة انت عاوزها احنا هنعملهالك." اشترط علي شيئاً واحداً، خطأ أحمر إذا جاز التعبير، أبو أميرة: "الراجل دا يعتبر خيره عليا، وانا مش عاوز أأذيه"، ابتسم الرائد أكمل، ووضع يده في يد علي.

علي كان قد فقد الكثير من قوته في هذه الأيام. وهذا أفضل، يجعله أكثر أمناً، لا أعداء له، لا أحد يتعقبه، الناس أكثر اطمئناناً له. صحيح أنه أقل تورطاً، ولكنه مازال يعرف أشياء، ديلرز صغاراً، وتجاراً كباراً، ومحلات تخفي وراءها مخدرات، وممارك بالسيوف والطاوي، وأين ومتى يكون فلان موجوداً، وأين ومتى لا يكون موجوداً. هكذا، استطاع علي توسيع محله، واجتذاب الزبائن من جديد.

زيارة الرائد أكمل له في بيته كانت الأولى والأخيرة. حرصا على اللقاء بعيداً عن كل الدنيا، في كافيه سياحي فاخر بأول طريق القاهرة، بجانب كارفور. علي وأكمل، بالملابس المدنية طبعاً، يدردشان كل ليلة خميس. يشيشان ويضحكان وينبسطان. بالإضافة إلى خط تليفون خاص امتلكه علي بغرض الاتصال به. بدأ علي يخرج من حالة الاكتئاب التي انتابته، ويحتك بالناس، والزبائن بدأت تزداد، وعلى استحياء، عاود العرب الظهور في شقة علي، عاود علي نشاطه في شقته المخصصة للقاء العرب بالبنات اللاتي يدله عليهن الرائد أكمل. صحيح أنه فقد الدعم الشعبي الجارف، ولكنه كسب الغطاء الرسمي، وبالغطاء الرسمي بدأ في اكتساب القليل من الدعم الشعبي. بدأت تندّع، قال هذا للرائد أكمل، فابتسم وقال له، لإنك ماشي صح يا علي. احنا مش عاوزين غير مصلحتك. وطبطب على كتفه بحنان، وضحك علي من قلبه.

مكتبة عابث الإلكترونية

علي، كأي رجل، كان يغار من نجاح زوجته. وكأي رجل، لم يكن يصرح بهذا. اعتبرها مرحلة منتهية في حياته خلاص. في يوم من الأيام سيسترد قوته بالكامل، ويسترد زبائنه بالكامل، ويسترد ابنه، وعندها فقط، يرسل إلى إنجي ورقتها. كانت هذه هي الندبة التي لا يمكن ترميمها. الجرح العميق والمكتوم في لعبة السلم والتعبان التي يلعبها. أخبره عادل مرة أن إنجي دافعت عنه، عن علي، أمامه، فابتسم، ولكن لم يذب حقده. قبل نومه، كان يفكر في إنجي، وفي ابنه. كان يقول لسة بتحبني، انا عارف، بس انا مش هسامحها عمري. بهذه النتيجة التي يصل إليها، ومع إقناع نفسه أنها هي التي تريد وهو الذي لا يريد، كان يمكن للنوم أن يواتيه، مبتسماً، رائقاً، وهادئاً كالملائكة. عندما يصحو كان يلعب في ترنج أزرق من هدوم إنجي، تركته بعد مشيانها، وعثر عليه بالصدفة، ملقى أسفل الغسالة. في البداية كان يشمه، وعندما ضاعت رائحته، تعود على اللعب فيه بأصابعه. لم يحب علي الترنج الأزرق يوماً، ولكن الوضع مختلف الآن. قد يُجبر المرء يوماً على حب ما لم يحبه سابقاً. سنة الحياة.

لم يتحدث علي قط مع أبو أميرة في موضوع إنجي. كان يتوقع رده مسبقاً. أم حمادة ما غلطتش. إن كان فيه حد غلط فيبقى المرة بت الكلب مراتي. سيقول أبو أميرة هذا ويتحاشى النقطة المعينة، المسكوت عنها، سيتحاشى ذكر أنه كان متجوز شرموطة نامت مع طوب الأرض. لا أحد يفتح هذا الموضوع، علي ممتن لأبو أميرة ليس لأنه لم يقتله، بل لأنه حتى لم يلمح له تلميحاً واحداً. لأنه لم يضع صداقتهما على المحك. أبو أميرة كان يفهم الرجولة بمعناها الحقيقي. شيء آخر لم يفاتح علي فيه أبو أميرة. بعد أول زيارة من الرائد أكمل له، تمنى لو حكى لصديق عمره عن حيرته. تمنى أن يسمع منه، ولو كلمة واحدة، ولو

هزة رأس. ولكن أبو أميرة كان مستحيلاً كالضمير. علي لم يقدر على المواجهة. الجرأة لها ناسها.

"اسمعني كويس يا شيخ علي"، بدأ الرائد أكمل الحديث وهو يشد نَفَساً من الشيشة الكنتالوب، "احنا تقريباً عارفين عنك كل حاجة. وصدقني بنحترمك جداً، أنا مش بتكلم هنا عن نفسي، بتكلم باسم الداخلية كلها، انت بالنسبالنا نموذج لواحد قدر يعمل نفسه بنفسه. طموح وعارف هو ماشي رايح فين، ودي حاجة مش كتيرة لا ف البلد دي ولا ف الزمن دا."

أشار علي للنادل بأن يبدل حجر المعسل، مال عليه الرائد أكمل: "أخبار حمادة إيه؟" لم يرد علي. تلجلج. واصل أكمل: "مانفسكش تشوفه؟". ابتسم علي ابتسامة مرتبكة. لعب في شعر دقنه ونظر إلى ضوافره. قال: "فيه حد مانفسوش يشوف ابنه يا باشا؟"

"جميل. طبعا يا علي إنت تعرف اكتر مني اخبار طليقتك ايه"، الجو يتكهرب، يواصل الرائد: "هي لسة على ذمتك بالمناسبة؟"

"لسة يا باشا."

"طيب. دا حلو أوي. احنا عاوزين معلومات عنها."

"معلومات عنها ازاي يعني."

"يعني معلومات عنها يا علي. بتعمل ايه، ايه نشاطاتها، مين اللي واقفين وراها، قرب منها يا أخي، اعصر على نفسك ليمونة وقرب منها." يضحك.

.....

مكتبة عابث الإلكترونية

"شيخ علي، صدقني لو قلتلك الخدمة دي مش ليا، أصلاً هي مش تبعنا، دي خدمة لواحد صاحبي، ومقابلها، ابنك هيرجعلك، وهترجع تاني المعلم علي بتاع زمان."

.....

"انت عارف الرجالة اللي نامت معاهم، عارف انها خلت الناس تضحك عليك، عارف الكلام اللي بتقوله عليك. انا ماكنتش عاوز اقولك حاجة من دي، ومش عاوز اقولك على حاجات اكتر."

علي يطلب الحساب، يأتيه فيدفعه. يقوم مع أكمل خارج الكافيه.

علي مستند على عربيته، وأكمل قصاده.

"اللي فهمته منك يا باشا إنك عاوزني ابقى مرشد على مراتي. صح."

"مش بالظبط كدا، ممكن تقول."

(بصوت أعلى) "اقرب منها واجيبلك معلومات، يعني عاوزني ابقى مرشد على مراتي. دي مافيهاش ممكن تقول."

"يا علي.."

(بصراخ هستيري) "انت عاوزني انا، عاوزني انا، ابقى مرشد على مراتي، على مراتي أنا (المرة يتوقفون. رواد الكافيه من الداخل يتطلعون).

الرائد أكمل يبتعد. يلحق به علي. يشده من قميصه. يمد أكمل يده على خصره ليخرج الطبنجة، فيسارع علي ويخرج المطواة من تحت شرابه. يفتحها، يصرخ: "هتضرب نار عليا انا." يلوح بالمطواة فيجرح كتفه، "انت نسيت نفسك، اتجنيت! انا اسمي المعلم علي لو انت ناسي"، تلويحة أخرى وجرح آخر في كتف آخر، "انت عاوزني أنا ابقى مرشد على مراتي، انا!" الرائد أكمل يجري في عرض الطريق السريع، وعلي وراءه. وفجأة، المصير المحتوم. الرائد

أكمل مبطط على الأسفلت، وسط دمه وبعيداً عن طبنجته بسنتيمترات، والسيارة تهرب. رواد الكافيه كلهم متجمعون في الخارج. ينظر علي إليهم. يجعر: "إيه. فيه إيه؟" ويركب عربيته. يديرها عائداً، قدمه على دواسة البنزين، ركبتاه ترتعشان، ونبضه متسارع.

يوماً ما، قال أبو أميرة لعلي: "خليهم [الناس] ينسوك شوية". هذا كان جيداً لعلي في فترة ما. وتحت ستار النسيان نفذ أشياء، وكبر بالراحة وفي هدوء. ولكن الآن، على العكس، فإن الذكرى تندلع من مكمنها لتجتاح كل شيء. جملة "عاوزني ابقى مرشد على مراتي" تنتشر في الإسكندرية كلها. يرددها الجميع، رجال أعمال ووكلاء وزارة وسائقون وتجار مخدرات وربات بيوت وممرضات وطبيبات وأطباء، ويعود علي ليكبر ويكبر في عيون الناس. يستعيدون القصص القديمة، والقصة الجديدة، يستعيدون قصة إنجي، يتواصل الفصل الأول من التاريخ في الفصل الثالث، يتم محو الثاني تماماً، ونكتشف سوياً أن نسيان الناس لم يكن نسياناً، كان مجرد تعطيل طفيف للذاكرة، برهة يتوقف فيها كاتب التاريخ عن الكتابة.

حمادة الصغير، حمادة علي محمد سيد، يصبح نجم الفصل في مدرسته. أحد التلاميذ يفتن للمس: "دا باباه هو الشيخ علي اللي موت الظابط." واللمس تعرف. المدرسون يحاولون التقرب منه والدردشة معه، ما هو إحساس ذلك الطفل الصامت والسمين، الذي لا يتحدث إلا نادراً، وأمه إنجي وأبوه علي؟ هل يعرف أي طفل كُتب عليه أن يكون؟ وحمادة ينظر للجميع ولا يتكلم، كأنما باستعلاء، ويعود لأمه ويحكي فتحضنه. وتحكي له عن أجداده، وعن أبيه، وعنها هي شخصياً. يسألها الطفل عن باباه، فتجيبه بأنهما زعلانين مع بعض،

مكتبة عابث الإلكترونية

ولماذا زعلانين يا ماما، فتجيبه بأنهم اتعاركوا مع بعض من زمان، ثم ترتبك ولا تكمل.

الشيخ علي هو نجم الإسكندرية هذه الأيام بأعين الجميع، كما سلف الذكر، باستثناء جهاز واحد، الشرطة. داهمت قوة من مباحث الآداب الشقة التي يملكها وقبضت على الزبائن بالمايات. وقبل خروجها من كامب شيزار تم إطلاق النار عليها، من أماكن مختلفة. فجأة حدث هذا، النيران كانت تنطلق من كل مكان. علي، الذي كان نائماً ساعتها، استيقظ. ارتدى ملابسه وخرج مسرعاً للمشاركة في المعركة. على باب بيته، شاهد شابا طويلاً. اقترب منه الشاب وقال بغلظة: "شيخ علي، خليك انت بعيد، ارجع ع البيت. ماحدش هياخد زباينك، ولو حد عملها مش هيطلع حي." عاد علي. والنيران مازالت تتواصل في ذلك الشارع الصغير بكامب شيزار. تحت حمايتها استطاع الزبائن الفرار، وأصيب أفراد الشرطة بالجنون، أطلقوا النار في كل اتجاه، أصابوا ذراع أبو أميرة، وجرحوا آخر في ساقه، وقتلوا امرأة كانت تقف في البلكونة لتشاهد ما يحدث. سقطت المرأة على الأرض من طابقها الثالث. هنا فقط أمر النقيب، قائد القوة، أفراد قوته بالانسحاب.

هدوء حذر ساد كامب شيزار الأيام التالية. الحياة كانت في مكان آخر، في الفيسبوك والمدونات والصحف المستقلة. استطاع شخص ما (هل كان موجها؟) تصوير واقعة مقتل المرأة وسقوطها من الطابق الثالث، وسرعان ما انتشرت القضية في كل مصر، الشرطة تقتحم بيتاً آمناً (الزبائن هربوا) وعندما يحاول الأهالي الدفاع عن أنفسهم تقتل الشرطة امرأة منهم وهي في بيتها. بهدوء ودون خرق للروتين، انتشرت أشكال جديدة في الشارع، رجال طوال ويحملون سلاحاً آلياً ينتشرون في كل مكان. تحول الشارع إلى ثكنة مشتعلة استعداداً لهجوم آخر

يقوم به البوليس. أصبح واضحاً أن أية حركة جنونية أخرى من الشرطة ستنتهي بمذبحة. خاصة في ظل اشتعال الرأي العام المصري ضدها. علي نفسه استقبل ضيفاً في اليوم التالي للمعركة. الضيف كان حاسماً. قال كلمات قليلة: "احتمال يستدعوك علشان يحققوا في موضوع الرائد اللي اتقتل. ماتروحش. ماتخرجش من بيتك وتروح أي حتة، إحنا هنا حاميينك كويس وماحدش هيقدر يقرب." قبل انصراف الضيف قال كلمات معدودة: "بالمناسبة، الشيخة إنجي بتسلم عليك."

ابتسم علي.

°°°

لم يخرج علي من بيته هذه الأيام. راقب السلاح وهو يغزو الشارع الصغير، اللافتات وهي تُعلق فوق المحال. تم تثبيت الشفرة: "الزمالك"، يعني الحكومة، و"الاتحاد" هو فريقنا، هو نحن، هو الشيخ علي وأبو أميرة ومدام إنجي واعتماد ونادية وسائقي المشاريع والشيخ حسن وباعة الفلافل والشرامبط والناشطون السياسيون. "مرحباً بالجميع في كامب شيزار، ما عدا الزمالكوية"، "الإسكندرية مقبرة الزمالك"، "الاتحاد أسياد البلد، أسيادكم يا قازورات"، وهكذا، وهكذا، ومع كل لافتة صورة للشيخ علي.

أبو أميرة، بذراع مجروحة، زار علي في بيته. لفّ له سيجارة، وناوله. سأله لماذا لم يخبره أنه عمل فترة مع المقدم أكمل. لم يرد علي. كان مشغولاً بالتقاط الكرة في الجيمز على موبايله، ولم يفلح في التقاطها. رمى الموبايل. سكت قليلاً ثم نظر إليه وقال: "ماقدرتش يا ابو أميرة. اتحرجت منك." هز أبو أميرة رأسه متفهماً. تناول الموبايل من علي. فتح اللعبة. وأخذ يلعب. يلعب دقيقة ثم يضغط للإيقاف ويأخذ نفساً من سيجارة الحشيش.

مكتبة عابث الإلكترونية

"الحتة هنا مش هتستحملك يا علي."

ينظر له علي.

"الناس اللي حاميين الحتة مش منها، واللي منها ميفهموش ف السلاح."

.....

"شوية والحكومة هتسيطر. انت عاوز حتة تانية."

"يعني امشي؟"

"انت هتمشي وانا هامشي. انا مش عاوزك تفهمني غلط. فيه زبون عاوز ياخد الشقة بتاعتك. بيعها ونروحو حتة تانية. مافيهاش حاجة دي."

قام علي. دخل الحمام. جلس على الكبانيه ودفن وجهه بين كفيه. رفع وجهه وتف تفة على الأرض. من الخارج وصله صوت أبو أميرة.

"إنجي مراتك عاوزة تشوفك. قلتلها تعدي عليك بكرة. هتيجي ومعاها الواد الصغير."

ترتيبات محمومة اجتاحت الشقة المهملة. طلب علي من أبو أميرة أن يرسل له بنتاً تنظف الشقة في ساعات. أرسل هدومه لتُغسل، بالإضافة إلى بعض الكيك والساقع الذي احتل مكاناً في الثلاجة أخيراً. شغل قرآناً لمدة ثلاثين ساعة متواصلة في البيت، عسى أن يهدئ من نبضات قلبه المتسارعة، ولكن لا شيء ينفع طبعاً. في السابعة دق جرس الباب. دخلت إنجي، بنقاب أسود وجلباب أسود واسع. وراءها حمادة. ألقت السلام فسمع علي صوتها فتذكر كل شيء. العينين والأنف الدقيق وعين شمس وقطار محطة مصر والأيام القديمة. حاول

الاقتراب من ابنه ولكن الولد كش واحتمى بأمه. جلست إنجي على الفوتيه، بدأت بالحديث، بنبرة رصينة:

"انت لازم تنقل مكانك يا شيخ علي. الناس هنا مش هيستحملوا اللي هيحصل الأيام الجاية. الناس هنا معاك بس دا مش كفاية. الناس في كرموز استعداداتهم اكبر وهيقدروا يحموك اكتر. والمنطقة هناك متأمنة أحسن. أبو أميرة قالي إن فيه مشتري للشقة. وقالي انه عارض مبلغ مش وحش. بيعها وتعالى عندي ف كرموز، اشتري الدور اللي فوق السنتر بتاعي. دا هيبقى احسن ليا وليك."

"يمكن انت ماتعرفش انت عملت ايه يا شيخ علي. اللي اقدر اقولهولك ان فيه حرب ابتدت، وان مبقاش ينفع تتراجع دلوقتي. ولو ماضربناش بقوة ممكن نتداس. ومش هنعرف نضرب في منطقة مش متأمنة."

"فيه حرب هتحصل في اسكندرية. والحرب دي ماينفعش انت تدخلها لوحدك. فرصك هتبقى قليلة. ممكن انا اشارك فيها،" ضحكة قصيرة ومغتصبة، "حاجة على قدنا يعني."

تصمت إنجي طويلاً، طويلاً، وفجأة، بصوت متهدج، "علي"، ينظر علي. "أنا آسفة، بس انا بجد مش قادرة اسامحك."

الغفران شيء يمنحه الله. الله يمنحه.

كل شيء بيد الله، لا أحد يجادل، لا أحد يملك القوة ليجادل. ولكن الغفران وحده لا يد للبشر فيه. الله هو الغفور العفو، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وكل من تورطوا في التاريخ السكندري بتلك السنوات كانوا شخصيات مؤمنة. لم يستطع علي الدفاع عن نفسه أمام إنجي. أدار وجهه

مكتبة عابث الإلكترونية

الناحية التانية، وقام ليحضر لإنجي شيئاً تشربه. عندما عاد كانت قد خلعت النقاب. ظهرت كما كان يعرفها منذ أربع سنوات. وجهها امتلأ قليلاً. تجعيدة طفيفة فوق شفتيها ظهرت، وخط صغير من الكحل الأسود سال على خدها. الولد الصغير اقترب منه. مد يده إلى لحيته فحاول علي احتضانه فكش مرة أخرى في حضن أمه، التي أبعدته هذه المرة. قالت له: "مش هتبوس بابا؟". اقترب منه الطفل. باسه بسرعة وعاد لأمه مرة أخرى. ابتسمت إنجي، ابتسامة دامعة ومشرقة. قالت لعلي: "بكرة هياخد عليك." وطبطب عليها علي، ثم أخذها في حضنه، ثم قال لها، وحشتيني أوي.

وافقت الحاجة اعتماد على تمليك علي الطابق الثاني من عمارتها، وبسعر مرتاح. شيئاً فشيئاً، صارت تفقد أرضاً في عمارتها، ولم يقلقها هذا. كانت، مثل عموم السكندريين، متحمسة تماماً لرياح التغيير، حتى وإن هبت – في الأول فقط – ضدها.

لا أحد يفعل شيئاً لوجه الله. حتى في هذه اللحظة المشحونة بالآمال الوطنية الكبرى. الكل يسعى وراء المقابل، ولكن تحديد ماهية المقابل هي التي تفرق وتضع الأمور في نصابها. طلبت الحاجة من إنجي تعليق صورة كبيرة لها في مدخل العمارة، ووافقت إنجي. الحاجة كانت تشعر أن التاريخ يُكتب الآن، وأن سطراً واحداً يكتبه التاريخ عنها سيكون عدلاً. هذا كان المقابل الذي طلبته. لا تطلب شيئاً لنفسها ولا لمزاجها، كل شيء تطلبه كان لتشرّف أولادها من بعدها.

عربة نصف نقل حملت العفش من بيت كامب شيزار إلى بيت كرموز. العفش القليل (علي كان قد بدأ يبيع عفشه في الأشهر الأخيرة) تم حمله في نقلة

واحدة، مصاحبة بإطلاق نار ولافتات مودعة، غناء، رقص، دموع، وذبح أضاحي في الشارع وغمس الأكف في الدماء ووشم الجدران بها.

السوزوكي النصف نقل كانت تجتاز الكورنيش. علي واقف على كنبة محملة على متنها، بالجلابية والدقن والكوفية التي تتطاير في الهواء وبالبندقية الآلي، من أمامها طابور من السيارات ومن خلفها طابور آخر، والجميع يطلقون النار. وعلي وتلات رجالة معه يقفان فوق الجميع، مع كاسيت عملاق. عماد بمرور يصدح على مسمع من أهل الإسكندرية والبحر ورذاذ البحر: "علي يا علي يا علي يا علي، علي يا علي يا علي علي يا علي". عند "هو فين علي دا"، يتم إطلاق النار ويصيح الرجال ويلعبون بالنار الخارجة من أنابيب البوتاجاز، ويشير المارة على الكورنيش إلى علي وهم يرقصون. لا شيء يهم. الشيخ والرجالة واقفون في وجه الجميع، في وجه الحكومة والأعداء. اليوم بداية تاريخ جديد، وأهل كرموز يستقبلون القادم بزعف النخيل.

– حبيبي مالو؟
– مالو يا طه؟
– حبيبي مالو؟
– مالو يا طه؟
– كشفني
– يالهوي
– كشفني
– يا لهوي

مكتبة عابث الإلكترونية

"شافني واقف في البلكونة، قام حادفني بالليمونة، قلت حاجة مش مضمونة، اني اسيب قلبي ف إيديه"

"اني اسيب قلبي ف إيديه"

"خفت منه قلت اسيبه، بس ازاي ارجع واجيبه، قلت جايز يوم يسيبه، من كلام الناس عليه"

"من كلام الناس عليه"

"علي يا علي يا علي علي يا علي"

"علي يا علي يا علي علي يا علي"

"اتدلع يا حبيبي.. على راحتك خالـــص"

"قيد ناري وزيد لهيبي.. وبراحتك خالص"

"أوتعلم، إن عيونك، شاغلة فؤادي، وللدرجة دي، هواك مش عادي، ومالهوش حل"

"أوتدري، إن أنا أدري، ازاي اسيبك، كدا من بدري، يا روحي يا عمري، يا سيد الكل"

"عمي يا عـمي يا عـم النـاس"

"سيدي يا سيدي يا سيد الناس"

"علي يا علي يا علي علي يا علي"

"علي يا علي يا علي علي يا علي"

عند المنشية انحرفت السيارة يساراً، وبدأت الزغاريد تلعلع، والشوارع تصبح أكثر ضيقاً، والسوزوكي واقفة أغلب الوقت، والرجال يرقصون أمامها وبحذائها بالسلاح، والترام القادم يتوقف، وركابه وسائقه وكمساريه ينزلون للمشاركة في الموكب. وعلي يا علي يا علي علي يا علي.

عند مدخل كرموز ينزل الشيخ علي، يمشي على قدميه محاطاً بالرجالة والصحاب والحبايب. أبو أميرة، سوسو، عادل، الشيخ حسن، وكل الناس، من نعرفهم ومن لا نعرفهم.

عند مدخل العمارة عُلقت يافطة مرحبة "إنجي سنتر ترحب بابن الإسكندرية، الشيخ علي السيد"، دخل علي، بجانبه أبو أميرة والشيخ حسن، وباقي الزفة تتواصل بالخارج. تلفت نظره صورة كبيرة للحاجة اعتماد معلقة في المدخل. ينظر له أبو أميرة. لا يعلق علي. عند باب الشقة في الطابق الثالث يتوقف. تفتح البت غادة، علي لا يعرفها، تنطلق الزغاريد من الداخل، الحاجة اعتماد ومدام نادية وأخريات جالسات. إنجي بينهن، بالنقاب. وجهها في الأرض. يقترب منها علي، يلتقط كفها الأيمن، يقبلها، وبصوت خافت، وإنما واضح ومسموع للجميع، يقول: "أنا آسف يا ست الكل." تنظر له إنجي، عيناها من خلف النقاب مبتسمتان، تقول بصوت مداعب: "على إيه ولا إيه يا شيخ؟"، فيضحك، "عديها بقى". ويضحك الجميع. غادة والبنات يرقصن. والرجال ينسحبون لمواصلة الزفة تحت البيت. فقط علي يبقى. إنجي تخلع النقاب، تتحزم به، وترقص، وكارول سماحة شغالة، طب علي يا بن عمي، ياللي بتجري في دمي، وإنجي تشير لعلي، وتميل عليه، وتتدلع. والسنات يمسكون بيديه، "ارقص يا شيخ، بالله عليك ترقص يا شيخ." ويقوم علي، يمسك حمادة، يحمله على كتفه، ويرفع كوفيته، ويميل بها على إنجي، يشدها على رأسها،

مكتبة عابث الإلكترونية

يحركها للوراء والخلف فتتحرك معه، وتميل عليه، فيميل عليها، ويربط رأسه ورأسها بالكوفية، ويبوسها من تحتها، والولد الصغير رجله تخبط في كتف أمه، ويضحك وهو فوق، ويسقف.

أحلى ناس.

٧

طبعاً المواضيع لم تحدث بهذه السلاسة في البداية. يعني أخذ علي وإنجي فترة حتى يمتادا على بعضهما من الأول. مع بعض العوامل المحفزة لكي تنمو بينهما الألفة من جديد، الاهتمام بتفاصيل الولد الصغير، متابعة المسلسل، والمعارك الصغيرة. بعد انصراف الجميع سكتت إنجي، لم تتكلم، الواد نام وحل عليها الصمت، حل عليها الصمت لساعات طويلة، ليس هناك إلا سلامو عليكم وعليكم السلام. علي اعتقد أنها مكسوفة، سألها المطبخ منين، فأجابته بجفاء، "عندك اهو"، لم يفهم فواصلت بعصبية، "الباب اللي وراك يا أخي." سألها مالك فقالتله يا علي انا عاوزاك ف حاجة. يا علي إحنا مبقيناش زي الأول، وضعنا اختلف.

– يعني إيه؟

– يعني انت لازم تراعي انت بتعاملني ازاي وانا بعاملك ازاي قدام الناس.

–(يطبطب على شعرها فتبعد يده بعنف)

– يوم زي كدا ماكانش لازم تهزر معايا بالطريقة دي، يعني إيه تقولي عديها بقى.

–

مكتبة عابث الإلكترونية

– يا أخي كان ممكن تقول انك ندمان، أو متضايق، انما يعني ايه تخلي الناس كلها تضحك عليا كدا.

– الناس ماضحكتش عليكي، الناس كانت مبسوطة.

– والله؟ ولما بنت شغالة معايا تقولي "عديهاله"، وتضحك، تبقى مبسوطة برضه؟ مش فاهمة كان ممكن يحصلك ايه لو قلتلي انا اسف.

– انا قلت انا اسف.

– تقولها تاني.

– اه ان شاء الله. يا حبيبتي دانا لما اغلط ف رئيس الجمهورية مش هقولها تاني.

– (تصرخ) يعني إيه؟ غلطت ولا ماغلطتش.

– لا ماغلطتش.

– إيه؟ إيه دا بقى؟ أومال امي اللي غلطت.

– اتكلمي باحترام.

– (تلوي بوزها) انا محترمة غصبن عنك.

ينتهي الحوار. تقوم لتفتح شنطه واحدة واحدة. تخرج ملابسه وترميها على الفوتيه. فجأة يقرصها برغوث. تنظر بقرف نحو الشنطة المفتوحة، ثم إليه بغضب مكظوم. هو ينظر للأرض، خجلاناً من حياة البهايم التي كان يحياها الفترة الماضية، بلا نظافة، بلا اعتناء، بلا حموم ولا غسيل هدوم. ثم يواجهها بعينه فجأة هادراً:

– لاء بقى. أنا ماغلطتش. انتي اللي ماكنتيش بتشوفي طلباتي، وانتي اللي اجبرتيني اني ابص للولية دي.

– ليه ان شاء الله. ما انت كنت زي العجل كل شوية عاوز عاوز حتى لما بتحايل عليك اني مش قادرة.

– لا يا حبيبتي. الست هانم كانت زعلانة م الناس الشعبيين ونفسها تروح لمامي وبابي ومش طايقاني ولا طايقة الناس هنا.

– فين دا؟ ازاي؟ يا زفت انت انا كنت لسة نايمة معاك قبليها بيوم.

– قبليها بتلات تيام يا أبلة. احسبيها كويس. وكمان كنت انا اللي طلبت منك. عمرك ما جيتيلي من نفسك وقلتيلي إني واحشك.

– يوم واحد، ركز يا بابا. وانا اللي جيتلك وانت قعدت تهزر وتقولي انا تعبان.

– لا طبعاً. وكنتي لابسة الترنج الازرق، وانتي عارفة اني مبحبوش.

– أولاً الترنج الازرق كان ضايع مني، ولما مشيت من عندك ماخدتوش معايا. أنا أصلا ماعرفش هو فين.

– (باستهزاء) وثانياً؟

– (تدير وجهها) ماعرفش ثانياً. مافيش ثانياً.

– يبقى تخرسي خالص وماتخليني اسبلك الدين.

– وانت ماتخليني اسبلك ستين دين.

– (يهدر بغضب) إيه ستين دين دي إن شاء الله، مافيش حاجة أصلاً اسمها اسبلك ستين دين.

– (تنظر له متحدية. فجأة تنتبه لجملته الأخيرة فتضحك) إنت؟ إنت مش معقول.

– (النظرة الغاضبة تتواصل في عينيه. بعد ثوان يبتسم. بعد ثوان يضحك).

مكتبة عابث الإلكترونية

نقار هنا أو نقار هناك، يسهم في تلطيف الأجواء بينهم. ولكن أيضاً التوحد ضد الأخطار يفعل فعلته. الحكومة زرعت رجالاً في المنطقة، رجالاً كثيرين، أكثر من أن يعرفهم رجال إنجي، المزروعين على القهوة المقابلة لإنجي سنتر، واكتشاف مرشد واحد يتحول إلى يوم عيد، يقتل معه واحد من الرجالة عركة، يفضحه في منتصفها، فتتحول حياته في المنطقة إلى جحيم. وأحياناً ما كان هذا ينتهي بالدم. تعويرة صغيرة كانت تنهي حياة العملاء في المنطقة. المذبحة لم تبدأ بعد، وإن كانت كل المؤشرات تدل على أنها تقترب.

توضيح بسيط: في الفترة التي ظل فيها علي معزولاً، عن الحياة والناس ومراته وابنه، لم يضيع وقته. كان يستمع إلى الحكايات، عن اسكندرية وأهلها، كان يلف على القهاوي، ويجلس، ويفتح كلاماً مع الناس، حفظ تاريخ الشوارع التي كان يمر بها، كأنه كان يعوض ما نقصه بسبب عدم تعليمه بالإضافة إلى عدم انتمائه إلى جذور سكندرية واضحة. لقد بدأ يخلق هذه الجذور بنفسه. كان كالتلميذ الذي يناضل ويتعلم وقلبه مدرسة شعبية. القصة الأبرز التي سمعها في تلك المرحلة كانت قصة الكرنتينا. مجتمع سكندري كامل يتم اجتثاثه من تربته وتشتيته في منفى طويل وعريض بحجم الإسكندرية.

أين ذهب أهالي الكرنتينا بعد أن تم اقتلاعهم من عششهم وبناء مجمع مدارس مكانهم؟ كيف اندمجوا بسائر نواحي الحياة السكندرية، وهل اندمجوا حقاً؟ هل مازال من الممكن استعادتهم إلى حضن بيئتهم الأصلية؟ وكيف يحدث هذا؟ تشاور على مع إنجي في إطلاق اسم "الكرنتينا" على القهوة المقابلة لإنجي سنتر. غالى في اقتراحه أيضاً، استبدال اسم إنجي سنتر نفسه باسم الكرنتينا سنتر. إنجي، التي لم تستبعد وجود شبهة غيرة زوجية وراء اقتراح محو اسمها، رفضت في البداية. ولكن علي كان أكثر إقناعاً، مضى يشرح فكرته:

– انا قريت كتير يا إنشي، قريت كتير أوي، في كل حاجة، وعرفت كل حاجة، الكرنتينا دي كانت حاجة كبيرة، كبيرة أوي، وناسها كانوا جدعان، ناس حلوة، انا قعدت مع ناس منهم، عاوزين الخير لينا وبيحبوكي، بيحبوكي ياما. واستعداداتهم كويسة، ممكن يشتغلوا في أي حاجة. لما نسمي السنتر بتاعنا على اسم منطقتهم هييجوا، هيتلموا علينا وييجوا، واللي لسة ماسمعش عنك هيسمع. يا إنشي الحرب جاية. واحنا عاوزين رجالة جمبنا، رجالة وسلاح.

إنجي صامتة. تبدو على وشك الاقتناع. ينتهز علي الفرصة ليضرب ضربة أخرى.

– وكمان الصورة اللي ف واجهة العمارة.

– صورة إيه؟

– صورة الحاجة اعتماد، مينفعش تبقى موجودة هناك.

– ليه إن شاء الله؟

– طيب يا ستي، خليها، بس نحط صورة كمان جمبيها، أبو أميرة خدمنا كتير، ويستاهل نحطو صورته.

– علي، انا مش هتكلم ف الموضوع دا!

–

– ماتجننيش. مش دا المعرص اللي خلاك تنام مع مراته؟

– وطلقها لما عرف.

– لا. طلقها لما انت قلتله يطلقها. هو كان عارف من الأول.

– أبو أميرة صاحبي يا إنجي، ماتتكلميش عليه كدا، انا ما استحملش حد يجيب سيرته بكلمة.

مكتبة عابث الإلكترونية

– صاحبك دي حاجة ترجعلك وترجعله، أنا الحاجة اعتماد شيلتلتي أمانة، قالتلي صورتها تفضل هناك لوحدها.

– والحاجة اعتماد دي يا ماما مش هي اللي عصتك عليا؟

– هي اللي كبرتني.

– وانا مالي انا، انا مش ملزوم منها، هي عاوزة تجاملك تجاملك بعيد عني، وعشان تبقي عارفة، مش بس صورة أبو أميرة اللي هتتحط، صورة الشيخ حسن كمان. العمارة دي انا ليا فيها دور كامل، بتاعي وملكي ويخصني.

– علي، ماتخليش الموضوع بينا يوصل للدرجة دي.

– (بقرف) انتي اللي بتوصليه.

هكذا كان الأمر في الحقيقة، هكذا كان الوضع والمذبحة تقترب، والحكومة تقرر التدخل وتفجير العائلة السعيدة من داخلها. الموضوع كان معقداً أمام الحكومة من الناحية الظاهرية، السلاح يزداد والرجال يكثرون وشعبية علي وإنجي في السما. ولكن لا شيء مستحيل. الموضوع لم يحتج أكثر من مخبر واحد يجلس على القهوة. يفتح حواراً مع أحد الزبائن العابرين (لا يجرؤ على مواجهة الزبائن المقيمين). يسأله عن صاحب مركز الكمبيوتر والنت في العمارة المقابلة، فيجيبه بأنهما رجل وامرأته، شيخان صالحان، يعملان من أجل المنطقة وأهل المنطقة. يتشعب الحوار. وينطق المخبر بالمعلومة الذهبية، انا عارفهم، من عندنا من اخميم، ابوه اتقتل ف مصر. والواد ماخدش تاره، ف البلد الراجل اللي انت بتقول عليه دا ماحدش بيحترمه. التار عندنا ف الصعيد شيء أساسي يا صاحبي. اللي ميأخدش تاره الناس تستحقره خالص.

صوت غليظ انطلق من الخلف هدد بإشعال الموقف: مين الحلو دا اللي الشيخ مش عاجبه؟ أنهى المخبر حواره مرتبكاً، ولكن الكلام ينتقل بسرعة.

والكلام ينتشر. والكلام تصعب السيطرة عليه. هذه طبيعة الدنيا من زمان. بدأ علي يسمع كلاماً هنا وهناك. أخبر إنجي، لوحت بوجهها وقالت، عشر سنين واحنا هنا وانت لسة ماخدتش بتارك، عاوز الناس تستنى عليك لغاية إمتى. بدأ علي يتخنق، الآن هو بين طرفي المقص، إما أن يخاطر بفقدان شعبيته أمام الناس، أو يشتت جهده في الصعيد، في منطقة لا يعرف عنها شيئاً، وقد تنتهي المخاطرة بفقدانه حياته. على الأقل، على الأكيد، ستنتهي بإخلاء الجبهة السكندرية أمام الحكومة لتدمير المنطقة بأكملها. هكذا، المذبحة لا تقترب ولا نيلة. لعبة الحكومة كانت أذكى من الدم وضرب النار. صحفي كبير يكتب في جريدة يومية عن "الشيخ الصالح" الصعيدي الأصل الذي يتزعم مجموعة من البلطجية في الإسكندرية وهو لا يستطيع أخذ تاره، أي سقط في ألف باء امتحان الكرامة بمفهومها الصعيدي. وعلي في الحمام، ينزع بالملقاط شعرات بيضاء قليلة في ذقنه، يستحضر كل شيء، كل التاريخ الأسود والأبيض، وصولا إلى هذه اللحظة. يخبط بقوة على المرآة أمام الحوض فتتكسر، تنجرح ذقنه، وصرخة رهيبة بأصدائها تتردد، ماحدش هيكسرني، سَرني، سرنيييييييه. هل انطلقت الصرخة من فم علي، أم أنها ترددت في داخله؟ لا أحد يعرف، ولا علي نفسه. الأكيد أن أحداً لم يسمعها غيره.

يلبس ملابسه بسرعة، ينظر إلى جسد زوجته النائمة. وينزل. حين يصل لكامب شيزار يكون الفجر قد أذن. في مبغة الجامع يرى أبو أميرة، يمضيان معاً والماء يقطر من جلبابيهما المشمرين. يميل عليه علي ويقول له: "بعد الصلاة هنقعدو مع بعضينا حبة. عاوزك ف استشارة كدا."

في بيت أبو أميرة يجلسان معاً. يحكي له علي المشكلة كلها، فيهز أبو أميرة رأسه. بعد انتهاء علي من حديثه لا يعقب. يصمت طويلاً، عشر دقائق

مكتبة عابث الإلكترونية

مثلاً، ثم يقول: "بكرة بعد أذان العصر بمشيئة الرحمن هتلاقيني عندك، وهتولك ايه الحل لمشكلتك دي." تلتمع عينا علي. يقترب منه ليطبطب على كتفه، ولكن أبو أميرة ينسحب. بعد دقيقتين يواصل: "انا عمري ما طلبت منك حاجة قبل كدا مقابل اي خدمة. بس المرة دي اني هانطلب."

°°°

باختصار، أبو أميرة هو من سيتولى هذه العملية. يقاطعه علي قائلاً إنه يحتاجه هنا في اسكندرية، فيواصل أبو أميرة كلامه، لن يسافر هو سوهاج، سوسو أخوه هو من سيسافر. سوسو شارك في عمليات كتلك من قبل، ولكن الآن البطولة الرئيسية ستكون له، وهي فرصة لأبو أميرة أيضاً لكي يكبّر أخاه قليلاً. هل علي الآن هو علي بتاع زمان، وهل أبو أميرة الآن هو أبو أميرة بتاع زمان؟ طيب، يبقى ليه نمنع ولادنا واخواتنا الصغيرين انهم يكبروا زينا. مش صح؟ يتكئ أبو أميرة على الكنبة ويواصل:

– أنا بافكر اكبّر الولا سوسو. هيعملك كل اللي انت عاوزه ف الصعيد. ولو قلتله اقتل المحافظ هيقتله. بس هو عاوز محل هنا ف الشارع، يعمل سندوتشات كبدة وسدق وأكل وحاجات زي كدا، ويحميك ف نفس الوقت.

علي كان يقص أظافره. قص جميع أظافره وتبقت قصاصة بإصبعه الأصغر. نزعها بأسنانه وتفلها في قمر فنجان صغير على الطاولة. لم كل أظافره المقصوصة ووضعها في الفنجان. ثم استل خلة من فوق الطاولة وأخذ يسلك أسنانه. كان يتكلم وهو يسلك. الكلمات كانت تخرج غير واضحة:

– لا يا أبو أميرة. مش سوسو بس. انت كمان هتيجي هنا. انا هافتح محل هدوم باسمك، يبقى ليك ولعادل اخوك بعد ما يخرج م الحبس إن شاء الله. وكمان محل صغير لسوسو. انا عاوزكو تبقوا جمبي. بس على شرط. زي ما لقيت

ابويا ميت ومرمي قصاد المحل، انا مش عاوز اسمع عن حد من عيلة أمين عايش. مش عاوز حد من الخولات يقول الشيخ علي مش عارف ياخد تاره. صح يا صاحبي؟

– صح.

– من النهاردة انا هعتبرك من رجالتي. أهم واحد من رجالتي، انت واخواتك يا ابو أميرة.

– ...

– جايز انا ماقدرتش اقولك الكلام دا قبل كدا، أو جايز إن الوقت ماكانش مناسب، أو جايز إني كنت مستني اللحظة المناسبة، لكن انا باقولهالك اهو، انا مش عارف من غيرك كنت عملت إيه يا ابو اميرة.

– ...

– لو ربنا رجعني ف الزمن ورا يمكن كنت رجعت عملت كل حاجة عملتها. (لحظة صمت) يمكن مفيش حد منا بيختار قدره. لكن علشان كدا ربنا بيدينا الحلو والوحش. والشاطر هو اللي بيحمد ربنا ع الحلو، وبيصبر ع الوحش.

– ...

– جايز كل حاجة ف حياتي كانت وحشة، جايز اكون اتورطت في حاجات انا مش قدها، لكن كفاية ان ربنا عرفني بيك.

– ...

– (يرمي الخلة جانباً، يخرج بإظفره نسيلة لحم كبيرة من بين ضروسه) صحيح انت هتبقى واحد من رجالتي، لكن الحقيقة اني انا اللي كنت باتعلم منك. الحقيقة اني انا اللي كنت صغير طول الوقت، وانت اللي كنت كبير.

مكتبة عابث الإلكترونية

– يا شيخ علي..

– (يضع نسيلة اللحم في قعر الفنجان) كلم أخوك يا أبو أميرة. خليه يسافر سوهاج أول الأسبوع الجاي. لو الموضوع دا خلص هيبقى دين ف رقبتي مش هنساه.

– يا شيخ علي..

– انا رايح انام دلوقتي يا أبو أميرة. (يبتسم) سامحني يا صاحبي. مانمتش من تلات تيام. انت خليك زي ما انت. بس وانت خارج م البيت اطفي النور.

ما أراد أبو أميرة أن يقوله لعلي ولم يستطع كان حكاية قديمة. تعود لأول يوم التقيا فيه.

سوف نحكي هنا قصة قصيرة، قصة عن القدر والعلامات والأطفال الذين يموتون والأباء ذوي الميول الروحية والشباب الذين لا يؤمنون إلا بما تراه أعينهم.

في يوم ١٥/ ٦/ ٢٠٠٥ توفت أميرة، ابنة أبو أميرة ومانحته لقبه الشهير. لم تشك من مرض قبلها. فقط لعبت في علبة كهرباء أسفل البيت فماتت، ماتت صعقاً. أبو أميرة لم يكن شخصاً مهووساً، لم يتصور أن في الموضوع شبهة قتل مثلاً، ولكنه أيضاً لم يكن ساذجاً. عرف وقتها أن موت طفلته لم يكن موتاً لطفلته فحسب، وإنما موت محتمل لآلاف الأطفال مثلها. من ترك علبة الكهرباء مفتوحة مثلاً؟ ألا يحتمل أن يخلف هذا الأهمال وراءه عشرات الضحايا في الشارع، وتخلف إهمالات مماثلة عشرات أخرى؟ طيب، من دفع البنت الصغيرة للعب في الشارع في الوقت الذي كان يفترض فيه أن تكون في

المدرسة؟ أليس هو النظام التعليمي المتردي الذي يدفع آلاف التلاميذ للتسرب منه سنوياً، والنظام الاقتصادي المتردي الذي يجعل آلاف الآباء غير قادرين على دفع نفقات تعليم أبنائهم؟ من المسؤول عن مقتل طفلته؟ كل شيء كان يشير في رأسه إلى أن القصة أكبر من مجرد طفلة تلاقي حتفها بسبب إهمال غير مقصود. القصة يمكنها بسهولة أن تصبح قصة عن أطفال البلد المعرضين للموت في كل لحظة. هذه الأفكار، على هذا النحو، لم تخطر على بال أبو أميرة، فقط أفكار قريبة. شعر ببؤسه في هذه اللحظة مضاعفاً، بؤسه وبؤس من حوله، بؤس عمله وعملهم وحياته وحياتهم وأسرته وأسرهم. صعبانة عليا نفسي أوي، يعني هو اللي زينا مايعرفوش يعيشوا ولا يبقالهم عيال، هكذا قال لأم أميرة بعدها بعدة أشهر في قعدة صافية. طيطبت هي على كتفه، وهو كان متأكداً إنها تحس بما يحس به بالضبط، إن لم يكن أكثر.

في يوم ١٥/ ٦/ ٢٠٠٦ رأى علي لأول مرة، جاء به سوسو إلى البيت. قدمه لهم بوصفه البشمهندس علي. الليلة كانت السنوية الأولى لأميرة. ولكن أبو أميرة حزنه في قلبه. شربا وحشش، سأله أبو أميرة عن رأيه في المنطقة. فلم يخف علي عدم حبه للمكان، الإهمال والزبالة في كل حتة. لكن الشيء الأخطر هو علب الكهرباء المفتوحة في كل حتة، وقد تقتل العيال الصغيرين الذين يلعبون في المكان. الليلة هي السنوية الأولى لأميرة. وأبو أميرة يؤمن بالعلامات.

بعدها بأيام، احتاج عادل كيسة بلاستيك يضع فيها عدة كلاسين وفانلات وهو خارج. بحث في البيت كله ولم يجد. لمح أبو أميرة شنطة المدرسة الخاصة بابنته الصغيرة، مهملة ومتربة وملقاة تحت الكنبة. أشار عليه بأن يستعملها مؤقتاً. ولكي يساعده أخذ في إفراغ محتوياتها، كراريس وكتاب وقلم رصاص وبري قلم وجومة وورقة. أعطى أبو أميرة الشنطة لعادل أخيه ومضى يتأمل

مكتبة عابث الإلكترونية

الورقة. كان مرسوماً عليها رجل وامرأة وبينهما طفل صغير وسمين. شيء ما دق في صدر أبو أميرة عندما رأى الرسمة، اسم علي، الرجل الذي رسمته ابنته قبل أن تموت بثلاث سنوات على الأقل هو الشخص الذي التقاه منذ أيام. لم يحدث أحداً عن هذا الأمر. ظل ساكتاً. وعندما ولدت إنجي ابنها الصغير اكتملت النبوءة المنقوشة على اللوحة. طفلة صغيرة رسمت قبل موتها العائلة التي ستثأر لدمها. تقريباً كانت تتنبأ. أكيد كانت تتنبأ.

فيما بعد سيهتم علي نفسه بإصلاح علبة الكهرباء المفتوحة، فيما سيشكل علامة أخرى تنضم إلى ألبوم العلامات التي يحتفظ بها أبو أميرة في عقله، والتي أدت به إلى أن يقول للشيخ حسن مرة وهو يتودود معه بعد العشاء: "علي دا ولي من أولياء الله."ثم يحكي له قصة صغيرة: "شفت امبارح رسول الله يا شيخ. كان مقرب مني ومعاه عيلة صغيرة. المرحومة. سألتها يعني انتي مثلاً ابوكي ماوحشكيش يا بت يا أميرة عشان ماتجيش تعيّدي علينا السنة دي. قالتلي يا بابا ان شاء الله كلنا هنعيدو سوا، بس انت خد بالك من الشيخ علي علشان ربنا يكرمك. وبصيت على الرسول لقيته بيضحك وسنانه باينة. لما صحيت قمت رايح مصلي ركعتين لله، ولقيت نفسيتي مستريحة أوي."

٨

الثأر هو قصة كبيرة، عانت منها مصر كثيراً، وبالأخص في الجنوب الجاهل والفقير، إلخ، إلخ، وعلي لا يعرف الكثير عن الثأر القديم في الصعيد. استقبل سوسو في بيته. حكى له عن عيلة أمين وعن ثأر عمره عشرون عاماً. لم يزد حرفاً عما يعرفه أي طفل صغير في إخميم. هذا كان يزيد مهمة سوسو صعوبة، ولكن الشغل شغل، قبل أن ينصرف طلب منه علي مبتسماً: "ابقي اسأل لنا هناك على عيلتنا، عيلة العلايلي، شوفهم حلوين ولا وحشين ولا وضعهم ايه ف البلد." قطر سوسو لسوهاج بعد ساعتين، سيصل اليوم وفي اليومين القادمين سيتوالى وصول الرجال هناك. الدنيا كانت فجر، في عز يناير، سوسو كان يرتدي الجينز وفوقه سويتر جلد سميك وكوفية. قبل أن ينزل أحكم ربط الكوفية على وجهه، لأيام طويلة لن يتذكر علي من وجه سوسو سوى هذا الوجه، سوى هذا النصف وجه، وغير زكتة الخفيفة وهو نازل. سيحاول استحضار وجهه الأصلي طويلا ولن يفلح. ربما سيكون في هذا شيء ما من السماء، فسوسو الذي ذهب لن يكون هو سوسو الذي سيعود، سيختفي تماماً وسيحل محله شخص آخر. الأيام تغير الكثير.

بعد نصف ساعة نزل علي لصلاة الفجر. عندما عاد كان يترنح تقريباً، وضع نفسه على السرير ونام. سقط بالأحرى. شعرت به إنجي،

مكتبة عابث الإلكترونية

قامت لتنظر إليه فوجدته غاب في النوم. ابتسمت. حنونة إنجي. حنونة جداً.

ما الذي كان علي يعنيه بسؤاله: "ابقي اسألنا هناك على عيلتنا، عيلة العلايلي، شوفهم حلوين ولا وحشين ولا وضعهم ايه ف البلد." الجملة بدت غريبة جداً في أذن سوسو، وفي السياق بشكل عام، إذا أتيح لنا أن نتأمله من بعيد، أي من دون التورط في أن نكون جزءاً من المشهد أو من أحد الشخصيات الرئيسية اللاعبة فيه. في الليلة السابقة تحدثت إنجي مع علي. قالت له مبتسمة إنها غيرانة من سوسو. ليه يا نوجة؟ كنت عاوزة أروح انا الصعيد، (لحظة صمت)، علي إنت عمرك ما فكرت ف جدودك اللي ف الصعيد؟ يعني عيلتك هناك، الناس دول موجودين من إمتى، ومين أول واحد ف عيلتك؟ طبعاً علي لم يكن يفكر في هذه الأشياء ولا بطيخ، ولكنه ضيق عينيه وقال لها إن هذا هو موضوعه الأساسي للتفكير منذ كان طفلاً، وعندما شعر أنه ليس مقنعاً بما يكفي بالنسبة لها أضاف بعض التفاصيل: "أبويا كان لما يسيبني في المحل لوحدي كنت اتفرج على الصورة اللي ع الحيطة، كنت اقعد اتفرج عليها ياما، صورة فيها ابوكي واقف معاه، وهما حاضنين بعض وهما صغيرين، وكنت اقعد اسأل نفسي ياترى ابوهم الاتنين، جدي الكبير يعني، كان شكله إيه، وكان بيعمل إيه وعايش فين."

– كان ف الصعيد طبعاً!

– أيوة. هو انا مش عارف يعني؟ يعني إيه معنى الجملة دي؟

– مش فكرة مش عارف، بس..

– مش فكرة مش عارف، بس فكرة ان انتي اللي عارفة كل حاجة، صح؟

– لأ مش صح.

– طيبا مش صح. إنتي ولا تعرفي أي حاجة. مش انتي فاهمة أوي الصعيد، طيب، أهلك، اللي هما مش حاجة بعيدة عنك، كانوا فين قبل ما يروحوا على إخميم؟

– ماعرفش طبعاً. إيه السؤال دا؟

– (يضحك ضحكة قصيرة ومستهزئة).

– ولا انت تعرف بالمناسبة.

– "صمت بسيط، ثم يرفع نظره لها" أيوة أنا ماعرفش، بس ع الاقل مابقولش اعرف وانا ماعرفش.

– (تضحك ضحكة قصيرة ومستهزئة).

– (يشخر في سره).

المخلص: في الحقيقة، فلقد آمنت كل شعوب العالم بالمخلص في وقت ما، وبالأخص في عصور الانحطاط، عندما لا يتبقى أمامها أي أمل سوى الأمل. الالتهاب شوقاً للمخلص هو ظاهرة أنثروبولوجية معروفة، لها رموزها الدينية، يسوع المسيح، المسيح مخلص اليهود، المهدي المنتظر، الحاكم بأمر الله، ورموزها العلمانية، ناصر، جيفارا، ماو، وحتى عبد الحليم وألفيس بريسلي. الأمل هو ما كان يدفع الشعوب للتفكير في الخلاص، الشعوب الرازحة تحت نير الظلم والطغيان. في هذه الأيام انتشرت أغنية لمغنية لبنانية من مغنيات الفيديوكليب. الأغنية كانت تقول كلماتها: " أيوة فيه أمل يا عينيا، مع بعضينا الصبحية، تطبطب وتدلّع فينا."

مكتبة عابث الإلكترونية

في تاريخ سابق للإسكندرية، وفي الساعة العاشرة صباحاً من يوم جمعة ما، تقدم شخص يدعى أبو خيرة إلى مسجد المرسي أبو العباس بمحري. كان معه رجلان سهر معهما طول الليل يضربون كيميا، وعندما طلع الصبح كانوا قد اقتنعوا بأنه خلاص، آن لكل هذا الظلم أن ينتهي. وصلوا إلى باب الجامع المغلق، وطرقوا عليه. لم يفتح أحد. ركلوا الباب وأحضر أحدهم مطرقة ضخمة، وأخذوا يضربونه حتى انكسر. اثنان كانا يقومان بالعملية والثالث كان يقف على مبعدة منهما لتهديد من يفكر في الاقتراب. دخل الثلاثة الجامع. صعد أبو خيرة على المنبر، وتجمع الناس داخل الجامع يدافع الفضول. أذن أبو خيرة للصلاة. ثم ردد: "الله أكبر الله أكبر. الله أكبر ولله الحمد." ونظر للحضور: "خلاص يا اسكندرية. قرفنا بقى." الناس أخذ يزيد عددهم. وأبو خيرة يندفع في خطبة الجمعة، قبل موعدها الرسمي بساعة ونصف. يقول أولاً إن خطبة الجمعة بدعة. إنه راح السعودية ورأى خطبة الجمعة هناك لا تستمر أكثر من خمس دقائق، وإن الناس تجادل، طول الوقت الناس تجادل، وتتكلم، وكله بقى بيلبّت، وكله نازل لتّ، ولا أحد يفعل شيئاً. وقال إن سنة الرسول حلوة، لكن الناس لا تأخذ بها. ثم الناس تسأل لماذا ربنا مش عاوز يكرم؟!

في سهرته، خلط أبو خيرة بين عدة أنواع من الكيميا والخمرة. لهذا كان يشعر بدوار وهو يخطب، يميل أمامه حتى يكاد يقع ثم يرجع إلى الوراء، ثم يسكت دقيقة ويتنقيا ما بجوفه، ويسقط القيء على بعض الحضور، ثم يواصل كلامه، خلاص، خلاص، آن لهذا الفجر أن يزقزق، يا أمة محماااد، اسمعوني كويس، أنا باقول الآن اني قرفت، وان اللي هيكلمني كلمة مالهاش لازمة ورحمة أمي اني هانتغابى عليه. خلاص يا اسكندرياااااه.

ثم راح في غيبوبة. سقط من المنبر، تدحرج على درجاته، ونام في منتصف السلم.

يصعب تحديد مؤشرات بعينها تدل على أنه سيظهر يوماً في التاريخ شخصان يعيدان المجد للمدينة المنسية على البحر، ولكن التأويل يفيدنا، والتأويل أفاد أهالي الإسكندرية أيضاً، خطبة الشيخ أبو خيرة، مع أغنية المطربة اللبنانية، مع أحلام الناس، كل هذا كان يقطع بأن الإسكندرية دخلت في عصر المخلص. والمخلص، الموكل بالتعبير عن آمال شعبه وقيادة شعبه نحو النور، عليه أن يكون ابن ناس. ابن ناس هنا تعني ابن ناس، له نسب، ولو فقير، ولو متواضع، ولكن أن يكون نسبه معروفاً، أن يكون متأصلاً في التاريخ، وثانياً، عليه أن يكون متأصلاً في التاريخ السكندري بالتحديد. على مخلص المدينة أن يكون ابن المدينة. وعلى وإنجي لم يكونا من أبناء المدينة. ولم تكن هذه مشكلة سهلة. دعونا نتابع الأحداث.

خط التليفون ظل مفتوحاً بين الشيخ علي وسوسو في الأيام التالية. في الفاضية والملياتة يتصل سوسو. يسأل عن أشياء لا تعني الكثير، ربما ليبدد إحساسه بالغربة في أرض الصعيد القاحلة، هو ابن رائحة اليود والسمك. كل يوم يشحن بعشرين جنيهاً ويتكلم. أحيانا يكون علي في السنتر، وأحيانا يكون في القهوة، وأحيانا ينسى موبايله في البيت، أو في المكتب، وأحيانا ترد إنجي بدلاً منه. طيب، هذا يحدث كثيراً، ليس أنه مجرد "أحياناً". إنجي ردت ذات يوم عليه فحكى لها سوسو عن البلد، عن ناسها الطيبين، وعن العلاقات بين الناس التي يجتهد لفهمها، وحكى لها عن الجد، جدها، أبي جدها المباشر، بخيت، الرجل الذي يحكي عنه أهل البلد كلهم، عنده مزارع وعزب وأطيان

مكتبة عايث الإلكترونية

وبمايم، لكن ربنا حرمه من الولاد. ترد إنجي: ربنا حرمه م الولاد ازاي اذا دا كان جدي يا سوسو؟ فيرتبك سوسو: آه، هو اللي حكالي القصة حكاهالي كدا، بس بصي، انا هسأله بكرة استفسر منه، لإن المعلومة دي كانت تايهة عنه. يسكت قليلاً ويواصل: هو ممكن كان متجوز ستك مثلاً، وهي تكون مخلفة من قبله، هنا ناس كتير بيعملوا كدا. الصعيد اتغير كتير على فكرة. ويتكلم، ويرغي، وإنجي تسمع، تتدخل لتصحيح معلومة، أو تتركه ليكمل ولا تصحح. سوسو يحب الكلام، ودمه خفيف، وإنجي ساعات تتجاوب معه. هل حدث استلطاف بينهما من نوع ما؟ الأيام ستكشف لنا. نحن لا نعرف إلا ما أرادت الأيام أن ترينا إياه. نحن مجرد وسيط.

مع الوقت تزداد التفاصيل في حكايات سوسو، يحكيها لعلي وإنجي سوياً. بمجرد أن يسمع قصة جديدة يسرع إلى التليفون. يشحن، ويتكلم. سوسو أهبل؟ لا، هو مجرد عيل خفيف. يحب الكلام الكتير، وإنجي عرفت عنه هذا، وإنجي تحب سماع القصص عن بخيت، الأب الأكبر، الأصل المقدس، وسوسو دمه خفيف كما أشرنا. يقول نكتاً، يدخل من موضوع إلى موضوع بسلاسة. لا شيء يقف في وجهه. وإنجي تتجاوب. وإنجي لم تكن لتتجاوب لو لم يكن هناك استلطاف. الأيام أجابت.

في هذه الأثناء كان علي يقف مع العمال. النشاط يتغير بالتدريج. إنجي سنتر للكمبيوتر واللغات يتحول إلى الكرنتينا سنتر، والكرنتينا سنتر يطغي عليه الكافيه – الذي كان كافيتيريا بالإضافة إلى سايبر صغير– وينسحب دور السنتر نفسه الخاص بتدريس الكمبيوتر واللغات. الكافيه يتوغل، بشكل أخطبوطي عنكبوتي، تُعلباني وأفعواني، يحتل طابقين، وكورسات اللغة تأتي أو لا تأتي. الزبائن على كل حال تأتي للكافيه، تشيش وتشرب وتلعب وتتفرج

على ماتشات الكرة وفي الدور الأعلى يتم إصعاد زبائن مخصوصين مع بنات السنتر. وصورة أبو أميرة يتم تعليقها بجانب صورة الحاجة اعتماد في مدخل العمارة، وصورة علي بلحيته وإنجي بنقابها أيضاً تحت "قل أعوذ برب الفلق". بدا واضحاً أن كرموز تدخل مرحلة جديدة. بكافيه واحد مبني على أحدث الطرق والتصميمات يمكنك إدخال الحداثة لحي فقير وقديم. إنه حلم الـmodernization من جديد.

– بتحب مصر يا سوسو؟

– دي بلدي يا شيخ، يعني أهلي فيها.

– بتحب أهلك طب؟

– دولا أهلي يا شيخ، يعني دولا الناس اللي عايشين معايا في بلدي.

– حبيبي يا سوسو.

– باحبك يا ابو حمادة.

الحوارات بين علي وسوسو كانت – بالإضافة إلى فائدتها الجمة – محملة بالكثير من القفشات اللذيذة والمرح الهادف.

بخيت، كان هذا هو السر الذي حمله سوسو لعلي في الأيام التالية. الجد بخيت لم يكن صعيدياً أصلياً، كان قادماً من وجه بحري. أضاف سوسو، بفضل الله اني هانوصل لمعلومة هتبسطك، هتدعيلي لما تعرفها ياما، بس اصبر بس. وصبر علي، وبعد أيام اتصل سوسو مرة أخرى. الرؤية بانت يا شيخ علي. بخيت جدك أصلاً دا يعتبر اسكندراني، ومن بحري كمان. إيه رأيك بقى يا معلم؟

مكتبة عابث الإلكترونية

علي لم يثق بسوسو يوماً، لم يستخونه ولكنه لم يحترمه. لم ير فيه ذلك الرجل الذي كان يراه في أبو أميرة مثلاً. كان يعرف شطارته في القتل وتثبيت العيال واللعب مع الحكومة، أي في كل ما يتصل بالأكش، ولكن شيئاً خطيراً افتقده في سوسو، الرزانة. سوسو كان عبداً للخبر المثير، وليس الخبر الحقيقي. وهذه نقطة ضعف قاتلة في شغلانة زي شغلانتنا، يقول علي لنفسه.

هذه المرة كانت الوقائع هي ما تؤيد سوسو. والأهم من الوقائع، الرواية المتماسكة، الجد كان ضابطاً برتبة يوزباشي عندما تم نقله من الإسكندرية إلى سوهاج، تزوج هناك وأقام عائلة. سوسو كان يتحرك في كل مكان، ويسأل عن أصل العائلة. لا أحد تذكر ما هو أبعد من بخيت، وامرأة عجوز تذكرت لحظة وصوله إخميم، شاباً بهياً بطربوش وشارب منتصب وأزرار نحاسية لامعة. بخيت الشاب الذي كان ودوداً على غير العادة سرعان ما اقترب من أهل البلد، وأعجبته إحداهم، فاطمة بنت أحمد زكي، أرسل بالبوسطة لأبيه في الإسكندرية يقول لهم إنه وجد حياته هنا، في الصعيد، وإنه قرف من حياتهم — كانوا يفضلون أخاه الأصغر عليه، وهذه كانت عقدة من عقد حياته الكثيرة — وإنه عاهد ربه ألا تطأ قدماه أرض الإسكندرية مرة أخرى، حتى ولو لشغل، حتى ولو كان فيها حبل المشنقة، ورد عليه أبوه برسالة يقول فيها إنه لم يعد يعتبره ابناً له وأنه فوض أمره فيه لله، ولكن هذا لن يمنعه، كمسلم وموحد بالله، من أن يمنحه نصيبه من الميراث بحق ربنا. وعندما مات أبوه زاره إخوته في بيته بإخميم وأعطوه ما قالوا إنه نصيبه، وقبل هو. لم يجادل. لم يشكك.

المعلومات كانت تتلاحق في مكالمات سوسو مع إنجي، بتفاصيل مختلفة، وبعد لقائه بناس مختلفين: الجد السكندري الأصلي لم يأت من بحري بالضبط، جاء من كوم الدكة، ولم يقاطع أهله، الذين لم يبق منهم غير أمه العجوز.

بالعكس، ظلت ترسل له رسائل، يكتبها أحد جيرانها على ما يبدو، تقول له إنه واحشها وإنها تنتظر عودته، وتحدثه عن مبالغ مالية تحتاجها، وعن قبر أبيه الذي يحتاج دهاناً جديداً، وتطلب منه أن يفعل هذا في أول نزول له للإسكندرية. طيب، وتحدثه أمه في إحدى الرسائل عن ابن أخيها التعبان في عينيه، وتطلب منه أن يرجع بسرعة ليكشف عليه. إذن، فالجد بخيت كان طبيباً، ليس ضابطاً. إذن، هيا بنا نضع استنتاجات:

الروايتان كانتا مختلفتين، متناقضتين في بعض التفاصيل. ولكن هكذا هي الحقيقة التي نقوم بإطلاع الناس عليها قطرة قطرة، في الفترة نفسها التي نحاول فيها الوصول إليها وترميم شقوقها، ملأى بالتناقضات. وحتى الحقيقة الأخيرة، المكتملة، المختومة، المحررة جيداً، لا تخلو من تناقضات، فما بالنا بحقائق مختلفة يتم تجميعها من هنا وهناك ومن مين ما كان. سوسو أيضاً ربما لم يكن جاداً في رحلة البحث هذه، سأل أشخاصاً قليلين، على مرتين، مرة كلم بعدها الشيخ علي فورياً، ومرة كلم بعدها الشيخة إنجي. سألته إنجي عن الرسائل التي أرسلتها أم بخيت إلى بخيت، فقال إنه رآها بنفسه. سألته عن العنوان المسجل عليها فقرأه لها. الأمر لا يحتمل الشك إذن. كما أن علي سأله عن رسالة أبي بخيت إلى بخيت فأخبره إنه رآها بنفسه. سوسو لم يكن يكذب بالمناسبة. سوسو كان يريد أن يضفي مصداقية أكبر على حقيقته التي كان يصل إليها بالتدريج. سوسو كان عبداً للخبر المثير، وليس للخبر الحقيقي.

فجأة، ودون مقدمات، حلم علي بجده بخيت. كان هذا حدثاً خارقاً، لم يُعرف عن علي الاهتمام البالغ بأجداده من قبل، بالإضافة إلى أمر مهم، بخيت أصلاً كان وجهاً جديداً في ذاكرته. لم يسمع اسمه سوى من سوسو، وصفاته التي

مكتبة عابث الإلكترونية

ظهرت في الحلم كانت ابنة لصفات سردها عليه سوسو، ظهر طويلاً، "اضرب طولي وطولك يا شيخ ف اتنين تلاتة وهيطلعلك بخيت"، حلو، وسميناً، "حتة كرش يا شيخ، بيقولك كان يبقى ماشي أكن جبل ماشي ع الأرض، الدنيا تتهز تحته. الله أكبر يا شيخ." النقيب بخيت يخرج على رأس دورية من شرطة الإزالة لطاردة أحد باعة شارع سعد زغلول. لكن البائع – كان يشبه عادل أخو أبو أميرة – يهرب منه. بخيت الجالس في السيارة إلى يمين السائق يحتل هو عجلة القيادة ويطارد عادل. عادل يجري ويجري. بحر الإسكندرية يخلص وينكشف وراءه رجال القبائل في الصعيد، بجلاليب وشوم ويغنون "طلع البدر علينا". عادل يظنهم يغنون له فيستجير بهم ولكنه يرفضون إجارته، يعرفون أصله الخسيس، ويصل الجد بخيت على حصانه فيرشونه باللح والزغاريد، ونكتشف سوياً أنهم يغنون له. عندما استيقظ حكى لإنجي الحلم: "أنا كنت جمبه وهو كان عمال يوصيني على اسكندرية، وكنت اقوله اسكندرية في عيني يا جدي، وجاب سيرتك، قالي مراتك ف عين واسكندرية في عين يا شيخ علي، لو دي وقعت دي متتقع."

إنجي طبعاً لم تنبسط من الكلام. أولاً، زوجها يحتكر الجد لنفسه، بينما الجد جدها أيضاً، ثانياً، زوجها يحتكر الإسكندرية لنفسه، والإسكندرية مدينتها أيضاً. هناك ألعاب وسخة تحدث في أحلام علي. وإنجي لم يكن يموزها سلاح الأحلام. حلمت ببخيت هي الأخرى. في الحلم كان بخيت يجمع متاعه من الإسكندرية في بقجة صغيرة. يعلقها بعصا وراء ظهره ويمضي جنوباً. تصحو وتحكي لعلي حلمها: "كان قاعد يقرالي الكف في العيادة بتاعته، قالي اسكندرية قربت تنضف بسببك يا إنجي، وقالي أنا مبسوط ياما، قلتله بس انت ادعيلي يا جدو علشان ربنا يكرم، قالي انا دعيتلك خلاص، وانا عاوز

نقولك خدي بالك من علي، اتشاركي معاه وماتخليش مركزك الكبير يغريكي انك تظلميه معاكي."

علي لم ينبسط. نظر لإنجي وسكت.

توقف سوسو عن تليفوناته المطولة. بدأ في الجد. كان يحترق بنار التجربة في أرض الصعيد. تليفوناته أصبحت جملاً تلغرافية: "خسيت النص، مابيوكلوناش هنا يا عمي، اهلك بخلا"، "ربيت ثنب صغير"، "والنعمة لو حد شافني وانا لابس صعيدي كدا ماهيعرفني، والله ما هيعرفني، إيه رأيك بقى؟"، "خلاص يا عمي. يومين بعون الله وتشوف عيلة أمين متقطعين وكلهم مرميين في النيل". الجملة الأخيرة كانت هي الأهم بطبيعة الحال، وبرغم هذا، فلم يتحدث سوسو كثيراً عن محاولاته لاصطياد عائلة أمين. ترك علي وإنجي عالقين في حيرتهم. كانا يعرفان أنه قادر على مهمته، ولكن شيئاً من القلق داخلهما. القلق شعور إنساني.

مكتبة عابث الإلكترونية

٩

إنجي تفعل ما تريد. دائما هكذا. تمشي بدماغها، منذ قررت العودة من أبو ظبي إلى مصر، وقررت دفع علي للأخذ بثأره، وحتى كونت إمبراطوريتها في كرموز طوبة طوبة. قررت إنجي أن تتتبع بنفسها خطى الجد الراحل. طلبت غادة، سألتها إن كان لها زبائن في كوم الدكة فأجابت غادة بالنفي. طيب يا غادة، الحاجة اللي انا هاطلبها منك دلوقتي دي ممكن تعتبريها خدمة شخصية، والمقابل بتاعها هيبقى كبير أوي." أخرجت إنجي عنوان بيت كوم الدكة لغادة. صحيح أن بيت الجد بخيت تم هدمه منذ وقت طويل، ولكن الأكيد أن أمامه نصبة شاي، يقوم عليها رجل في الخمسين من العمر، الرجل ابن لرجل عجوز، والعجوز ابن الشيخ، والشيخ قد يكون قد حضر بخيت. كل ما تطلبه إنجي هو المعلومات. وكلامها واضح، معلومات أكثر تساوي فلوس أكثر، وفلوس أكثر لا تعني ألف أو ألفين أو حتى ثلاثة آلاف جني. إنما تعني عشرين ألف: "أنا عارفة يا غادة إنك ممكن تسيبينا وتمشي لو خدتي الفلوس ف إيدك، زي ما تحبي، إحنا مش هنقفو في طريق سعادتك، بس أهم حاجة عندي تجيبيلي كلام مظبوط عن الراجل اللي بقولك عليه. فهمتيني يا حبي؟"

غادة كانت تفكر في أشياء أبعد من الجد، ومن العشرين ألف جني. غادة تجاوزت الثلاثين هذا الشهر. وبمنتهى الأمانة، فلقد زهقت من حياتها. غادة لم تولد هكذا، من منا وُلد هكذا؟! غادة أكملت تعليمها في كلية تجارة، وكان

المفروض أن تصبح محاسبة قد الدنيا، لكن كذا قصة حب فاشلة دفعت بها إلى كافيه في المعمورة بدأت فيه طريقها نحو الانحراف. التقطتها الحاجة اعتماد، ودفعت بها للعمل كبيبي سيتر في عدد من البيوت، وواصلت غادة طريق الانحراف في البيوت التي خدمت بها. الانحراف لذيذ في أوله فقط، وبعده العذاب والويل ودموع الليل، هذا ما آمنت به. لذا فقد أرادت أي مبلغ يسترها. فكرت في كذا مشروع، نصبة سمك، كشك سجاير، تضع الفلوس ف البنك وتصرف على نفسها من الفوايد، ولكن المشروع الأهم، أن تشارك إنجي في الكافيه، هذا كان الأكثر ملائمة لطموحاتها. أخذت غادة نفسها إلى كوم الدكة، وقد عقدت العزم على النجاح في مهمتها.

المستحيل، كلمة لا تعرفها غادة.

المستحيل، كلمة لا تعرفها إنجي.

المستحيل، كلمة لا يعرفها عامة الباحثون عن الحقيقة.

إنجي لم تكن تبحث عن حقيقتها هي فقط. كانت تبحث عن حقيقة وطن. علي، في الفترة التي تركته فيها إنجي، أخذ يدرس ويذاكر تاريخ الإسكندرية، وهو ما لم يكن متاحاً لزوجته، التي كانت في هذا الوقت مشغولة بتكوين مركزها وفلوسها ومنصبها الكبير. لذا فقد أرادت إنجي تعويض هذا بالوصول إلى حقيقتها، جذورها، وعن طريقها سيمكنها أن تفهم شيئاً عما حدث في الإسكندرية على مدار قرن من الزمان. عاودها حلم كانت تحلم به زمان. تشاهد مسرح عرائس، وتظل تضحك وتصفق، والرجل الذي بجانبها يزغر لها فترتبك. يشير لها إلى فوق رأسها فتنظر لفوق وتكتشف أنها واحدة من العرائس المتحركة، وأن هناك خيطاً طويلاً ممدوداً إلى السقف حيث يقف الرجل الذي يحركها. تحاول شد الخيط ولكنه لا ينشد، فتحاول تسلقه، الموضوع معقد

مكتبة غابث الإلكترونية

جداً، تذهج مرة وتفشل مرات، وخلفية موسيقية شغالة في الحلم، " يا مسا الجمال والدلال والورد ع العالي"، وإنجي تصعد، والأغنية تصعد، "ع الأصل دور". إنجي تقع من سقف مسرح العرايس، إنجي تقع من فوق السرير، إنجي لا تتمكن من التدوير ع الأصل، ولكل هذه الأسباب تقرر إنجي أن تحقق في الواقع ما فشلت في تحقيقه في عالم الأحلام الساحرة.

°°°

علي لم يكن يعرف شيئاً عن رحلة غادة، ويلزم القول أنه كان يشرع في رحلة جديدة، إنجي لم تكن تعرف عنها شيئاً كذلك. قرر الذهاب بنفسه إلى الأنفوشي، إلى العنوان الذي وصفه له سوسو، اطلع على مكانه، قهوة بلدي، ثم زار قسم الأنفوشي. هناك جلس مع المقدم كمال. تحدثا سوياً عن حال البلد، المقدم قال له في معرض حديثه: "أوعى تفتكر يا شيخ علي إني ضدك أو ضد مدام إنجي. بالعكس، الداخلية كلها تعتبر معاك، بس احنا مافيدناش حاجة". علي لم يستجب لهذا الإطراء، الذي يعرف أنه كاذب، وإنما لجأ إلى ضربة خاسمة من أول الحديث: "واحنا والله كلنا بنحبكم. ولو طلب أي ظابط أي حاجة منا عمرنا ما بنتأخر، الداخلية تعتبر هي الدرع اللي بيحمي البلد". اتصل به رقم فكنسل عليه، ثم التفت إلى المقدم: "البنوتة اللي بعتناهالك الأسبوع اللي فات انشالله عجبتك يا باشا؟" هكذا، فعلياً، وبهذه الجملة، أصبح أرشيف قسم الأنفوشي في خدمة الشيخ علي، الأرشيف الشفهي طبعاً. المقدم كمال ظل يحكي له عن القسم، وعن ضباطه وعساكره وأمنائه، وعن تاريخه وتاريخ المنطقة، وعلي أخذ يبحث ويبحث ويبحث عن أثر في كلامه ليوزباشي اسمه بخيت تم نقله إلى سوهاج. لساعات طويلة ظل يسمع، هناك ثلاثة بخيت، الأول الرائد أحمد بخيت عبد الله الذي يخدم في القسم حالياً، والثاني سليمان

بخيت الذي خدم في أواسط القرن التاسع عشر وترقى من يوزباشي إلى صاغ ثم اختفت آثاره، لم يشر له المقدم، ولم يحب علي أن يسأله بشكل مباشر، والثالث اللواء بخيت عبد الصمد وانتهت خدمته في الثمانينيات، والثاني سليمان بخيت الذي خدم في أواسط القرن التاسع عشر، والثاني سليمان بخيت الذي خدم في أواسط القرن التاسع عشر، عادت أذن علي بسرعة لتتأكد من اسم الضابط. تأكدت من المعلومات المباحية. وبدأ عقله ينسج قصته.

برغم هذه الزيارة السريعة، والتي كانت تبشر بزيارات أكثر رواقاً وتمعناً، لم يشر علي لأي شيء. كان يقف صباحاً في الحمام، يغسل أسنانه ويهذب لحيته أمام المرآة، وتمر إنجي، فيتذكر رحلته، ويتذكر أنه لابد من إخبارها بشيء ما، ولو تلميح بسيط، يعني، حتى لا تتهمه فيما بعد أنه أخفى أشياء عنها. كان ينظر معها في الصباح رغيفين عيش وجبنة وشاياً، وكانت تنظر إليه، وكان يتذكر رحلته، ويتذكر أنه لابد من إخبارها بشيء ما. كان ينزل معها إلى الكافيه ويقوم بتظبيط الحسابات، ويتذكر، ويتذكر، ولكنه يجبن في النهاية. علي كان يريد الالتحام بأجداده السكندريين. علي – المثقف في كل ما يتعلق بتاريخ المدينة – كان يتخيل التاريخ السكندري كأنه حلقة تلتحم ببعضها، مؤسس الإسكندرية القديمة، سليمان بخيت، يلتحم بحفيده، الشيخ علي، مؤسس الإسكندرية الحديثة. التاريخ السكندري هو تاريخ من التمرد، الجد تمرد على سلطة الدولة وهرب إلى الصعيد ليؤسس عائلة خارجة عن القانون، والحفيد يعود إلى الإسكندرية هرباً من عائلته ليؤسس عائلة خارجة عن القانون هي الأخرى، ولكن انتبه، خارجة عن القانون ليس لكراهيتها في فكرة القانون بشكل عام، ولكن لكراهيتها للقانون الحالي، قانون الدولة الفاسدة وحكم العائلة، علي كان يفكر في العدل، وليس القانون، إذا صح

مكتبة عابث الإلكترونية

التعبير. وكل هذا سيبوظ إذا عرفت إنجي بالأمر. ليس لأن علي كان يريد مجداً لنفسه، علي آخر حاجة فكر فيها هي نفسه، ولكن لأن إنجي تُعتبر واحدة ست غاوية نكد، أو تُعتبر مجنونة بمعنى أصح، وستتدخل في كل كبيرة وصغيرة. سوف يخبرها يوماً ما، أكيد سوف يخبرها. في انتظار الوقت المناسب.

°°°

الثأر هو قصة كبيرة، عانت منها مصر كثيراً، وبالأخص في الجنوب الجاهل والفقير. اقتحمت مجموعة من الغرباء الجامع الكبير بقرية جزيرة محروس، واحدة من قرى مركز إخميم بمحافظة سوهاج، وقاموا بذبح الإمام ومصليين اثنين عبر فصل رؤوسهم عن أجسادهم، وذلك أثناء صلاة العشاء، وقد انتابت حالة من الذعر المصلين، الذين تدافعوا هرباً من المسجد. وكان الغرباء فور اقتحامهم المسجد قد قاموا بإطلاق النار على لمبات المسجد النيون مما أدى إلى الإظلام التام للمسجد وجعل التعرف عليهم مهمة مستحيلة، ثم قاموا بجريمتهم وفصلوا الرؤوس عن أجساد الأشقاء الثلاثة محمد وعبد الله وعبد الرحمن أبناء عبد الله أمين، وتركوا الجثث في المسجد، أما الرؤوس فقد قاموا بإلقائها من فوق الكوبري الجديد ليتم العثور عليها طافية على سطح النيل بعد ساعات.

في فجر اليوم التالي غادر سعيد رجب شحاتة، الشهير بسوسو، شقته التي كان يستأجرها بمدينة إخميم عائداً إلى الإسكندرية. يذكر أن سعيد رجب شحاتة قد ربى شنباً رفيعاً، ونزل كرشه بشكل ملحوظ، في الفترة التي قضاها في إخميم، ويذكر أنه فورما نزل في محطة مصر بالإسكندرية واستنشق بعمق

رائحة اليود السكندري حتى وطى على الأرض وباسها، بدون تفكير ولا حسابات. يذكر أن العائد للإسكندرية كان يعشق الإسكندرية.

°°°

أرض كرموز كلها تم فرشها بالورد، وتم تشغيل اللمض في كل سنتي فيها ليلا ونهاراً مع أغاني أسماء الله الحسنى وبسم الله الرحمن الرحيم وهنبدأ الليلة منبعثة من ستيريوهات عملاقة ودي جي. وسوسو يخطو بداخلها على حصان أبيض قوي، بجلابية بيضا وعباية سودا محيياً الناس باتجاه محل كتب عليه بخط رديء "كبدة الكرنتينا، لصاحبها سعيد رجب الشهير بسوسو وأولاده من بعده إن شاء الله". سوسو ينزل من على ظهر الحصان، ويشاهد الناس علي وإنجي يتقدمان من الاتجاه المقابل. يحضنه علي ويبوسه مشيراً إلى محل الكبدة الجديد في الشارع، وتسلم عليه إنجي وتضحك في وجهه. لا يسمع الناس ما تبادلا من حديث، صوت المزيكا يغطي على كل شيء. إلى أن شوهدت الحاجة اعتماد قادمة من طرف الشارع، أشار علي للمزيكا بالسكوت، ثم صعد بجانب الدي جي، تناول الماك وبدأ في الحديث:

" دلوقتي أنا عاوز احيي الحاجة اعتماد. الحاجة اعتماد اللي وقفت معانا في أول طريقنا، وكان فضلها علينا بعد ربنا عز وجل كبير جدًا، عسى الله أن يجعلها في ميزان حسناتها. الحاجة اعتماد اللي يشهد الله أن اللي جمعنا بيها مش هو الشغل ولا المصالح، إنما كانت بمسابة الأم الغالية وعمرها ما بخلت علينا بالنصيحة. ولذلك احب اقول إنه إذا ما كنا فيه من خير دلوقتي فبفضل الست الغالية علينا دي، واذا كان شر فبسوء من عند أنفسنا."

الحاجة اعتماد كبرت وعندها مشاكل في الركبة. تسير مستندة على كتف ابنتها منة من ناحية، وعلى كتف رفيقة عمرها سدام نادية من ناحية

مكتبة عابث الإلكترونية

أخرى. تطبطب بكفها على صدرها وتوطي راسها عرفاناً. والشيخ علي يواصل التحية:

"دلوقتي احنا بنحيو واحد من رجالة الحتة، أحسن واحد في رجالة الحتة، رجالة كرموز. المعلم سوسو اللي دافع عن كرامة أهله وماقبلش على نفسه ان حد يشمت فينا، المعلم سوسو اللي اخوه يبقى المعلم أبو أميرة، الراجل اللي وقف جمبنا واحنا بنبنو كرموز حتة حتة وعمره ما بخل علينا بحاجة، المعلم سوسو اللي أنا باعتبره بمسابة أخويا الصغير، ورب أع لك لم تلده أبوك وأمك، واللي كبر دلوقتي وبقى راجل واللي بأشهد ربنا إنه لو عندي بنت اني هانتقدم لاخويا وصديقي أبو أميرة علشان اطلبه ليها، والله يشهد على ما أقول. لكن نقول الخيرة فيما اختاره الله وربنا بيقول الطيبون للطيبات واحنا مش هنلاقي أحسن من الآنسة منة، الآنسة منة اللي هي بنت أمنا الحاجة اعتماد، بنت الشهيد، ابن الإسكندرية البار، الحاج محمد حربي، الراجل اللي ماخافش ولا جاب ورا عشان خاطر الحتة وأهل الحتة. حاجة اعتماد، إحنا دلوقتي بنطلبو إيد مدمازيلتنا الحلوة، الآنسة منة الله، للمعلم سوسو، أقسم بربي إنه ما حباً في دنيا أو مال أو سلطان وإنما حباً في هذا النسب الطاهر."

الحاجة اعتماد لم تعد تستطيع رفع صوتها كما كانت في البداية، تضحك بخجل وتميل على ودن مدام نادية توشوشها. ومدام نادية لا تقصر. ترفع صوتها بزغرودة هائلة. وتتوالى بعدها الزغاريد. كل الحضور، رجالة وستات، يزغردون ويرقصون، وحدها منة جالسة في مكانها. تنظر بخجل إلى عريسها المستقبلي. الأنثى كائن جميل يتميز بالحياء.

°°°

قصة حب منة وسوسو لم تبدأ في هذا اليوم. لقد كانت ابنة سنتين كاملتين، منذ أن رآها سوسو لأول مرة في بيت أمها وهو ينقل لهم شوية طلبات، بدأ بينهم أحلى كلام من ساعتها، برغم الفارق الثقافي والاجتماعي بينهما. قصة الحب البريئة هذه نمت تحت الأعين المراقبة للحاجة، والتي لم تكن تتدخل إلا لتوجيه النصيحة الغالية والنصيحة الطيبة، وتحت أعين مدام نادية، مدام نادية التي كان لها رأي في البداية، صرحت به مترددة للحاجة اعتماد: "ماتخلي بنتك ياختي تقعد ف بيت ابوها".

توجست الحاجة. الحاج حربي، الرجل الذي كانتا تتنافسان عليه في الماضي هو محور الحديث: أنهي بيت ابوها يا نادية؟

– بيت ابوها يا اختي ف غيط العنب.

– دا مش بيت ابوها يا نادية. دا بيتك انتي.

– إخص عليكي. وهو انا وابوها إيه. مش واحد؟!

سواء قيلت الكلمات الأخيرة بحسن نية أو بسوء نية فلقد تكهرب الجو بعدها. صرخت اعتماد: "لا يا حبيبتي مش واحد. واحد دي تقوليها لو كان كاتب عليكي. انتي حياته كان مرافقك وكان يرجعلي انا اخر الليل."

قالت هذا وقامت، وسيلزمها أسبوعان لتصحيح أثر هذا الكلام. العلاقات بينها وبين نادية هي دائماً علاقات شد وجذب. مهما أخطأت الواحدة منهما في الأخرى، وحربي دائماً هو محور الغلط، فإنهما ترجعان لبعضهما البعض. ورجوعهما لبعض هذه المرة، أو مسامحة نادية لاعتماد، استلزم من الأخيرة الموافقة على شرط الأول: أن تكون شقتها السابقة في غيط العنب، وهي الشقة التي قضى فيها حربي معظم أوقاته معها، هي شقة زوجية منة وسوسو.

نادية أيضاً كان لديها تصور ما عن تاريخ الإسكندرية. التاريخ يلتحم ببعضه. والمدينة التي كانت سابقاً محوراً لمقاومة فعالة يقوم بها حربي ضد

مكتبة عابث الإلكترونية

السلطة في مصر، تصبح الآن محوراً لمقاومة أخرى يقوم بها جيل الكرنتينا، هذا الجيل الذي يستلم من حربي الراية ويعلن نضاله في وجه الظلم. يجدر بنا أن نسأل الآن عن معنى تردد هذا المجاز: التاريخ السكندري يلتحم ببعضه، سواء في ذهن نادية أو في ذهن علي أو في أذهان الجميع. لم يكن هذا المجاز ملكية خاصة بهم. صاحبه الأساسي كان حربي. روت اعتماد فور موته أنه كان جالساً معها. كان يشيش في قلب الصالون، الذي لم يكن سوى أرض عارية وكرسيين وجهاز تليفزيون على ترابيزة، كانت تقنعه بأهمية أن تتعلم منة، التي كان عمرها عاماً واحداً فقط ساعتها، بشكل نظيف وراقي، أهمية أن تدخل مدارس نضيفة، حتى لا تكرر خيبتهما. شد نفساً من الشيشة وقال لها: "ومين قالك يا ولية إني عاوزها تتعلم. انا عاوزها تكمل اللي بنعمله. عاوز اسكندرية كلها تعمل اللي اني بنعمله."

على العموم، القرار بإدخال منة المدرسة هو الذي انتصر، ولكن بقيت جملة حربي خالدة. روتها اعتماد لمنة عندما كبرت، وروتها لنادية، وروتها نادية لجميع من عرفتهم، ورواها جميع من عرفتهم لجميع من عرفوهم. تحولت الجملة إلى شعار. وكُتبت بالأحرف الذهبية في كتاب التاريخ الشفهي للإسكندرية. الحلقات السكندرية تواصل بعضها، لا حلقة مفصولة عن الأخرى، سوسو ومنة سوف يعيشان في الشقة التي أدار منها حربي معاركه، علي وإنجي هما تجسيد حي ومستمر لحربي، وحربي تجسيد حي ومستمر لآخرين بعيدين في الزمن، وهكذا منذ بداية الخليقة، منذ اللحظة التي عثر فيها الإسكندر المقدوني على الإسكندرية. قطعة أرض مهملة على البحر.

– تعرف إيه عن التماسيح يا شيخ علي؟

– حيوانات مخيفة.

– طب مين بيخوف أكتر، هما ولا التعابين؟

– برضه التعابين تعتبر مخيفة.

– كل نعمة ربنا مخيفة.

– انت صح يا سوسو.

– انت مربيني يا شيخ.

إنجي كانت تبحث عن أصولها في مكان آخر، في كوم الدكة. لأيام طويلة لم تصلها أخبار من غادة. عصّبها هذا كثيراً. كادت تخبر علي، هو رجل وسيتصرف. ولكنها تراجعت في اللحظات الأخيرة. أول اتصال من غادة بها حدث بعد أسبوعين. قالت لها إنها في الطريق إليها. في مكتبها بالكافيه حكت لها غادة عما عرفته، عرفت ثلاثة رجال، أو رجلين وشاباً، منهم صاحب نصبة شاي كانت إنجي نفسها من دلتها عليه، كانوا يقولون إنهم يعرفون أشياء عن الجد بخيت. لم تطمأن لأي منهم. نامت مع الجميع، ولم تطمأن. غادة تعرف الكاذب من الصادق. وهكذا حتى التقت بامرأة غريبة، كانت تشوي سمكاً في المنطقة. المرأة هي التي تقربت منها، وعزمتها عندها في بيتها، أودة صغيرة تحت السلم، وهناك سكرتها وسألتها لماذا تبحث عن بخيت. غادة التي لم تكن رأسها قد لفت بعد قالت إنها تبحث عنه علشان حاجة كدا ف دماغها، ورفضت الإفصاح. سألتها المرأة بوضوح إن كانت تبحث عنه من أجل المرة الحربانة اللي اسمها إنشي؟ لم ترد غادة. واصلت المرأة: "أني نعرفها كويس. روحي قوليلها يا ختي. قوليلها إن طلبها عندي. الراجل اللي هي بتدور عليه دا حكاية قديمة في التاريخ، واني حافضاها. قوليلها بس خالتك أم أميرة بتسلم عليكي."

مكتبة عابث الإلكترونية

غادة واصلت: "هي اسمها أم أميرة بس الناس في المنطقة بيقولوها أم أميرة القرعة. شعر راسها واقع خالص. منظرها يخض يا مدام إنجي والله."

إنجي لم يبد على ملامحها تأثر. سألتها كيف يمكن الوصول لأم أميرة، والأهم، كيف تثق فيها بعد أن ضللها سائر الناس؟ كيف يمكن الوصول إليها هذه بسيطة. ستذهبان معاً إلى الدصية التي تشوي عليها السمك، هي هناك أربعة وعشرين ساعة. كيف تثق فيها قصة طويلة.

"أنا ماكنتش مصدقاها في الأول. الدليل اللي خلاني ماصدقهاش إن هي اللي جرت ورايا، هي اللي راحتلي مش انا اللي رحتلها، ودا أكبر دليل إن ليها مصلحة. بس هي عطتني صورة بخيت نفسها."

قلب إنجي دق.

"أنا قلت مانوريهالكيش إلا اما نحكيلك القصة كلها." أخرجت الصورة. الصورة قديمة وتنتمي لأوائل القرن العشرين. الجد بشارب مفزلن وطربوش.

"سبحان الله يا مدام إنجي. الراجل الخالق الناطق حضرتك والشيخ علي. مش هو يعتبر جدكو إنتو الاتنين. أنا اما شفتها ماصدقتش نفسي والله. قلت معقول فيه شبه كدا!"

تركتها إنجي تتحدث وغابت في الصورة.

دق قلبها. هاهي تشهد ميلاد الأسطورة. أول لحظة في التاريخ.

غابت لحظة في التاريخ، هذا ما بدا. من وراء فتحة النقاب لمحت غادة عينيها تلتمعان بالماء. استأذنت إنجي وقامت لدقائق في الحمام. عندما عادت كان وجهها كان قد أصبح أكثر إشراقاً. عيناها مبتسمتان: "شوفي يا غادة. إنتي كدا عملتي اللي عليكي واكتر. الحاجة الأخيرة اللي انا عاوزاها منك انك توصليني بالست أم أميرة دي. ويا ريت لو تقدر تيجي الكافيه هنا."

طبعاً أم أميرة لا يمكنها زيارة الكافيه. عرضت غادة عليها هذا فثارت: "وديني وما أعبد ما اعتب منطقتهم. دي حتة نجسة. لو عاوزين بيجوا يشربوا شاي أهلاً وسهلاً وأني نقعدو هنا زي الملكة معززة مكرمة." قررت إنجي زيارتها مع غادة..

أم أميرة فقدت شعر مقدمة رأسها تماماً، ولا ترتدي حجاباً، تجلس على نصبتها، تشرب سجاير وتخرج قزازة الخمرة من عبها وتشرب منها. عرفت إنجي برغم النقاب منذ رأتها قادمة عليها بجانب غادة. هتفت بلسان ثقيل: "أهلا بست البنات، تعالي سلمي على خالتك يا عروستنا." إنجي التي استاءت من هذا الاستقبال – إنجي لم تعد هي مجرد ست البنات أو عروستنا، إنجي هي الشيخة إنجي، أو مدام إنجي، ملكة كرموز – إنجي هذه مدت إليها أطراف أصابعها. ولكن أم أميرة قفزت عليها وحضنتها وباستها، ثم قادتها مع غادة إلى غرفتها الصغيرة. أصرت ألا تتكلم قبل أن يأكلوا شوية سمك شوتهم هي بيديها. أكلن، وبدأت أم أميرة بالكلام:

"شوفي ياختي. أني بسبيكم أديلي سنين وسنين مرمية زي الكلبة هنا. ولا حد يعرفني ولا حد يسأل فيا. لكن انا قلت معلش، مش هنعملو عقلي بعقل واحدة من دور ولادي. صح ولا إيه يا أبلة، حتى لو كنتي انتو اللي وقعتوا بيني وبين جوزي، وحتى لو كنتو انتو سبب بهدلتي البهدلة دي كلها، بس اني بنسى وبنسامح، بس دلوقتي جا وقت دفع الحساب. اني عاوزة نتعوض، ونتعوضو كويس كمان، وقصاد دا هتمرق مني كل حاجة عاوزة تعرفيها عن جدك."

ما نوعية التعويض الذي تطلبه أم أميرة القرعة؟ ليس كثيراً، هو العدل وليس أزيد مليماً من العدل. تريد محلاً للسمك لها بجانب الكرنتينا. هي

مكتبة عابث الإلكترونية

ليست أقل من الواد سوسو الجربوع أخو جوزها. وعشر تلاف جني في إيدها، حتة واحدة، لا على دفعات ولا على شيكات. إنجي، التي كانت قد خلصت نقابها ودخنت سيجارة، نظرت إلى أم أميرة ووافقت. لكن على شرط، محل السمك لن تحصل عليه قبل سنة، عندما تقارن إنجي بين كلامها وكلام الناس الثانية، في اللحظة التي يتم فيها الإعلان عن بخيت، طبيب كوم الدكة القديم، بوصفه الأصل المؤسس لعائلة الشيخة إنجي، ستستلم أم أميرة محلها.

"حلو يختي، النهاردة اني هنحكيلك شوية حاجات كدا، وبكرة تشرفينا مرة تاني مع المدمازيل غادة، وتديني فلوسي واديكي شوية صور وورق كان المرحوم كاتبه بإيده." وافقت إنجي.

الحكاية طويلة، بدأت من طفولة أم أميرة. أبوها في آخر سنه يخرف. طول الوقت يتكلم عنهم، عن ناس يسحرون له ولبنته، وعن الشيخ حامد الذي سيكون عنده الحل لكل شيء. كانت الخمرة قد خربت عقله تماماً، والأفيون، والسن: "اني ماكنتش نعرف مين الشيخ حامد دوّت، قمت رايحة سألت أمي، أمي كانت ست على باب الله، كلنا على باب الله، بس هي كانت زي ما تقولي بتفسل هدوم وحاجات كدا للي عاوز، واني لغاية دلوقتي نتشرفو بيها قدام أتخن تخين فيكي يا اسكندرية، هي بقى حكتلي القصة كلها، الشيخ حامد دا كان راجل بيعبد ربنا في الجامع، وخلف خمس عيال، لسة فاكرة أساميهم لغاية دلوقت. حسن وعبد الله وفادية وبخيت وحسين، دي كلها قصة في التاريخ، كل دا حصل قبل اما اتولد بياما. أمي كانت تحكيلي قصة الناس دي، كلهم ناس حلوين والله، ما عدا بخيت النجس (تنظر لإنجي. تتابع رد فعلها. لا رد فعل على وجه إنجي)، زي ما بنقولك كدا. الولا بخيت بعد ما ابوه صرف

عليه، وكح تراب عشان يعلمه قالك انا مسافر الفلاحين، (إنجي تصحح: السعيد يا أم أميرة)، يختي اهو غار ف داهية وخلاص، وهو السعيد والفلاحين إيه، بقى يقول أني هنبقى دكتور ونسافرو الفلاحين. أنا أبويا كان شغال عند الراجل حامد دا، كان بيجيبله طلباته ويظبطله قعدته، فكان بقى يسمع الراجل وهو بيتعارك مع ابنه ويقوله يا نجس يا وسخ، ويا ابن كذا وكذا، كلام قذر يعني، بقى انا اصرف عليك وانت عاوز تسيبني وانا بقيت كبير ف السن وتعبان. والتاني كان ركب دماغه خلاص. مابقاش فيه كلام ينفع معاه."

قبل أن يموت الشيخ حامد، سرق خادمه صندوقاً كبيراً من عنده كان يحتفظ فيه بأمواله، التي كانت عبارة عن أربعة وخمسين جنيهاً بالضبط. تصرف في المال بسرعة، أما ما لم يستطع التصرف فيه فهو رسائل وجدها في الصندوق، من بخيت لأبيه، وصور للأولاد كلهم، وبخيت من بينهم. هذا الصندوق ظل ملك أبو أم أميرة. لم يتخلص منه على مدار حياته، وهو سبب عقدة الذنب الذي ظل يشعر بها تجاه الشيخ حامد. هذا الصندوق كله ملك أم أميرة الآن، وحصول إنجي عليه مرهون بدفع العشرة آلاف جني، ثم المحل فيما بعد.

إنجي كانت تدمع. كانت تخرج منديلاً تلو الآخر من حقيبتها وتجفف دموعها. لدى سماعها الجملة الأخيرة نظرت لأم أميرة.

– الجوابات والصور ديّت تعتبر بتاعنا يا أم أميرة. إنتو تعتبروا سارقينها منا.

– يبقى خديها ياختي. لو عرفتي تاخديها. وساعتها تبقى والله شيخة عن حق مش زي كلام النصب اللي بتقوليه. وابقي انا مش انا أم أميرة.

مكتبة عابث الإلكترونية

سكتت إنجي.

في اليوم التالي. زارت إنجي أم أميرة. أعطتها المبلغ المطلوب، وأخذت كيس نايلون به عدة أوراق مهترئة. بعد انصرافها ذهبت أم أميرة لتشتري خمرة. أعطاها البائع زجاجة البراندي الذي تشربه. شربتها كلها في غرفتها ثم تلوت من الألم. أمسكت معدتها وحاولت التقيؤ ولم تستطع. سقطت على الأرض وقبضت على رجل الكرسي وعضتها وظلت ترفس في الهواء نصف ساعة.

في نفس اليوم، وقبل أن يشم أحد من الجيران رائحة الجثة. اقتحم شابان غرفتها، أخذا الحقيبة التي تحوي العشرة آلاف جنيهاً، ورجعا بها إلى إنجي. فتحت إنجي الحقيبة، عدت المبلغ جيداً، ثم أعطت الشابين حقهما.

– ولا يا سوسو.

– عيني يا شيخ.

– الدنيا ابتدت ازاي يا سوسو؟

– الدنيا ابتدت لما ربنا سبحانه وتعالى خلق آدم.

– مش الفكرة، مانا عارف، هو انا مش عارف، الفكرة الناس كانوا لابسين ايه، بيشربوا إيه، كانوا بيتكلموا لغة إيه؟

– الناس كانوا بياكلوا لغاية اما يشبعوا يا شيخ، وبيلبسوا هدوم، ويعتبروا بيتكلموا بلغتنا.

– عيني عليك يا سوسو.

– (يضحك ويدمع ويخبط كفاً بكف) والمصحف انت عسل يا أبو حمادة يا سكرة.

من هو اليوزباشي سليمان بخيت؟

تعب علي كثيراً بحثاً عن هذه المعلومة.

طوابير من نساء الكرنتينا كن يزرن قسم الأنفوشي هذه الأيام. كون علي له صداقات كثيرة داخل القسم. كان هذا هو العصر الذهبي في العلاقة بين الكرنتينا والحكومة. سهر الشيخ علي مع الظباط يومياً، تعرف عليهم جميعاً بأسمائهم، من أول عسكري مجند إلى العقيد مأمور القسم. وطبعا كل شيء على حسابه. خدمته التي طلبها منهم بسيطة: الوصول لأي أثر لسليمان بخيت. والأثر كان ضائعاً تماماً. جلسة جمعته في إحدى غرف الكرنتينا بالعقيد أحمد عمران والمقدم كمال والملازم مدحت بثت في قلبه شيئاً من الأمل. العقيد عمران كان صاحب النصيب الأوفر من الكلام: شوف يا شيخ علي. انا ماعرفش مين دخل في دماغك حكاية انه كان فيه ظابط اسمه سليمان بخيت بيخدم ف الانفوشي. (ينظر علي للمقدم كمال ولا يتكلم)، لكن دا كله كلام فاضي. ماحدش يابني يعرف الحاجات دي. انت لازم تطلع تسريح وتروح تدور في المديرية، وتسريح تاني وتروح الوزارة، وتسريح تالت ف دار الوثايق، الموضوع صعب. الموضوع مش سهل. (ينظر لمن حوله) مش سهل خالص. مش كدا؟"

الموضوع صعب صحيح، لكن الملازم مدحت لا يراه بهذه الصعوبة. الجميع كانوا سكرانين. لم يكن هناك مجال للتقاليد العسكرية الزائدة ولا للموافقة على أراء ذوي الرتبة الأكبر. رد مدحت: إذا سمحتلي يا عمران باشا الموضوع ساعتك مش بالصعوبة دي. هو تسريح واحد من دار الوثايق، الراجل اللي انت بتدور عليه كان في سنة الف تمنمية وحاجة. صح يا شيخ علي.

مكتبة عابث الإلكترونية

المقدم كمال مدافعاً عن روايته: بس يا عمران باشا انا موضوع سليمان بخيت دا اللي حاكيلي عليه العميد عبد الحميد، الراجل دا كان يعتبر مرجع في تاريخ الشرطة.

العقيد عمران: يا ابني انت مين العميد عبد الحميد اللي انت بتتكلم عليه دا؟ دا راجل يعتبر مش مرجع ثقة. انت عارف انه كان دفعتي؟ (يهز كمال رأسه بالإيجاب)، ماتجيبلنا قزازة ويسكي تانية يا علي يابني.

الملازم مدحت: إنت عارف يا باشا إن العميد عبد الحميد دا درّسلي في الكلية. إنت عارف بقى (يغمز، يبدو حريصاً على ألا تُمسك عليه أي كلمة).

العقيد عمران: يا ساتر يارب. وقدرتوا تستحملوه ازاي يا مدحت؟

المقدم كمال: (يحاول الخروج من المأزق الذي وضع نفسه فيه بالإشارة إلى اللوا عبد الحميد) انت بخيل ولا إيه يا شيخ علي؟ انت مش قعدت تقولنا هانمز بحمام وجمبري؟

الملازم مدحت: صحيح، فين الحمام يا شيخ علي؟

المقدم كمال: والجمبري؟

العقيد عمران يدندن مسطولاً: فين الحمام يا شيخ علي (يهتفون: الله الله!)، ولا فين الجمبري، (يا عيني، يا عيني!)، ولا انت ليه ظالمنا معاك يا راجل يا مفتري.

تصفيق حاد، ثم يهتفون فيما يشبه نفساً واحداً، وبأصوات متنافرة: يا مفتري، يا مفتري، ياللي انت بتوعد بالجمبري.

كورس: يا مفتري يا مفتري، يا شيخ علي، ياللي انت راجل مفتري.

الملازم مدحت كان هو أول من اتصل بالشيخ علي ليبشره بالوصول إلى طرف الخيط. وطرف الخيط اسمه فعلاً سليمان بخيت. صدقت الرؤيا إذن. سافر الملازم للقاهرة، اطلع على وثائق متحف الشرطة، ووثائق وزارة الداخلية ووثائق دار الوثائق، وعاد بما يشبه الحقيقة المكتملة. اليوزباشي سليمان بخيت غادر الإسكندرية عام ١٨٩٠ إلى الصعيد، كان موقف إسكندرية كلها على رجل، كان ضابط شاطر وكان يكره الإنجليز، فيه ناس بتقول إنه اتنقل الصعيد علشان كان بيشجع عرابي، في وقت كان هذا يعتبر فيه قمة الخيانة، خيانة عظمى يعني يا شيخ. أخذ الملازم مدحت يحكي عن بطولات اليوزباشي الراحل. وقوفه على يمين عرابي وأمام الخديو توفيق يهتف بقوة: أقسم بالله العليّ العظيم إننا لن نستورث بعد اليوم. ومال عليه فجأة: دلوقتي يا شيخ علي، انا ماكانش ممكن اعمل الحاجات دي كلها من غير إمضة العقيد عمران والمقدم كمال. هما بيسألوك على حقهم. أجاب الشيخ علي بأنه من الغد سيكون مبلغ خمستاشر ألف جنيه قد أودع في حساب كل منهما وفي حساب الملازم نفسه أيضاً. ابتسم الملازم: طيب والحلاوة بتاعتي أنا بقى؟

لم يفهم الشيخ علي. شرح الملازم: انا عاوز حلاوة مخصوص ليا، مش فلوس. زي ما تقول كدا انا واخد اجازة طالع اصيف في الساحل اسبوع. البت ايمان اللي شغالة عندك دي عاجباني، ايه رأيك تبعتها تسافر معايا، واهو تغير جو وترجعلك مفرفشة. دي حلاوة مخصوص ليا لإني لسة ماقلتلكش على كل اللي عندي.

ما كان عند الملازم هو أكثر من كنز. أخرج قصاصة من جريدة قديمة، مكتوباً فيها خبر عن نقل اليوزباشي سليمان محمد عبد الله إلى سوهاج بالصعيد. قرأ علي الخبر مرتين. ثم سأل عن اسم "بخيت"، فابتسم الملازم مدحت: يعني

مكتبة عابث الإلكترونية

تلاقيه اسمه ف البطاقة. بس اسمه الثلاثي سليمان محمد عبد الله. هما مش هيكتبوا اسمه الخماسي يعني، ولا عاوزهم يعملوله فيش وتشبيه كمان، ولا انت فاكر ايه يا شيخ علي؟

ضحك الملازم، وضحك الشيخ، أخذ القصاصة، قرأها عشرات المرات، والملازم أمامه. كان يبتسم وهو يقرأها، وكان يدمع وهو يقرأها، وكان يمسح دموعه وهو يقرأها. وإيقاع أغنية حزينة تتردد في خلفية عقله.

"يا مسا الجمال، والدلال، والورد ع العالي، ع الأصل دور، ع الأصل دور، ع الأصل دور."

○○○

اليوم التالي كان يوم عيد بالنسبة لعلي. لم يخبر أحداً بعثوره على جده. سوف تكون مفاجأة للجميع. أفاق صباحاً وإنجي نايمة. ارتدى بدلة على غير عادته. حضر القميص حضراً في البنطلون لأول مرة منذ سنوات، معانداً كرشه الضخم. لَمع زجاج نظارته السميكة المشروخة. ونزل إلى المكتب. اتصل بأبو أميرة، بحمادة، بسوسو ومنة، بمدام نادية، طلبهم للحضور على وجه السرعة. حضروا واحداً تلو الآخر، وبدأ في طرح فكرته:

قريباً ستحل الذكرى رقم عشرين لوصولهما، هو والمدام، إلى الإسكندرية، يوم واحد ستة ٢٠٠٦، وهذه المناسبة تستحق احتفالاً. الآن، لينظر كل منكم حوله، هل الإسكندرية هي نفس الإسكندرية، هل الإسكندرية التي عانى أهلها من الظلم والجوع والتشرد والحرمان قبل هذا التاريخ هي الإسكندرية اليوم، الواثقة بنفسها، القوية والعنيدة والتي تكتب مستقبلها؟ ألا يستحق هذا احتفالاً بسيطاً. الباب مفتوح لتلقي الاقتراحات. أبو أميرة اقترح إقامة ليلة ذكر، ومدام نادية اقترحت تعليق أنوار في المنطقة وتأجير سيارة بميكروفون

تسير في كل شوارع الإسكندرية تسرد ما حدث خلال العشرين عاماً، ومنة اقترحت نشر إعلان في الأهرام، وأيدها سوسو، وعلي لم تعجبه أي من الاقتراحات.

نظر إليهم جميعاً، بس، خلاص؟ مفيش حاجة تانية؟ ولم يرد أحد، فتحدث هو.

الكرنتينا ليست نتوءاً في تاريخ الإسكندرية. هي ابنة لهذا التاريخ، ولتاريخ مصر بأكملها. أجدادنا الفراعنة عندما قرروا تذكير الناس بعملهم بنوا الأهرامات، ولم ينسهم أحد من ساعتها، حتى الناس اليونانيين والرومانيين بنوا أشياء حلوة ومفيدة خالص. ما يقترحه علي هو تمثال ضخم، يقام مقابل الكرنتينا كافيه، بحيث تجتمع فيه الذكرى الخالدة والمنظر الظريف، تمثال يعبر عن كفاح أهل الكرنتينا وكفاح السكندريين أيضاً. سكت علي ولم يتحدث أحد.

ظلوا صامتين تماماً، لدقيقتين كاملتين، ثم قطعت مدام نادية الصمت وهتفت: وردة جميلة.

نظر إليها الجميع. ارتبكت لثانية ثم غالبت ارتباكها وشرحت الفكرة، الكرنتينا وردة جميلة في اسكندرية. الناس يجدون فيها الرائحة الحلوة والراحة النفسية. التمثال سيكون لوردة عملاقة، ويقام في حديقة صغيرة خضراء مساحتها عشرون متراً مربعاً. بدا في نظر أبو أميرة شيء من القرف وهو يسمع اقتراح مدام نادية. علق قائلاً إن الوردة والبطة والبجعة هي أشياء للأطفال، بينما الكرنتينا بنيناها بالدم والعرق والسلاح، يد تحمل مدفعاً آلياً وتنشق الأرض عنها هي الرمز الذي يستحقه كفاحهم. احنا تعبنا يا اخواتنا

مكتبة عابث الإلكترونية

وجيل الشباب لازم يعرف إن مفيش حاجة بقت سهلة الايام دي، كله بقي بدراعك.

سوسو بدأ كلامه بتأييد كلام أبو أميرة، أخوه وابوه وأستاذه، ولكنه انتهى إلى نتيجة مختلفة، يعني إذا كان احنا تعبنا فيبقى لازم احنا ندي أمل لجيل الشباب، اني عاوز اقترح نعملو تمثال كبير لوش بيضحك وفرحان ونكتبو من عليه "جيل الشباب". وأيدته منة.

حمادة ليس مجرد إنسان عادي. إنه فنان في أعماقه. كل شيء فيه يشي بهذا. لقد رضع بذرة الفن من الحكايات التي كانت تحكيها له أمه طفلاً ومن حصص الرسم التي كان يبدع فيها، وهو عاشق للطبيعة أيضاً، يجلس يومياً ساعتين أو ثلاثاً على الترعة يتأملها، بلا كلمة واحدة، وبنهر من المشاعر يتدفق بداخله. لم يتحدث حمادة طوال الجلسة. الآن فقط يقرر الحديث، بترو وهدوء وعقل. فكرة سوسو صح جداً. إحنا لازم ندي الأمل لجيل الشباب، وفكرة بابا صح، إحنا مش لوحدنا. إحنا حتة من اسكندرية، واسكندرية حتة من مصر. ومصر دي بلدنا كلنا. يدير وجهه بينهم. ثم يقوم. يتمشي في المكتب بينهم، من أول يوم بابا وماما جُم اسكندرية فيه، ومصر كلها على بالهم، (يتوقف بجوار أبيه، وجهه مقابل لهم جميعاً)، أنا بافتخر بإن الراجل دا (يشير لأبيه)، أبويا، جاي من مصر، وجدو جاي من الصعيد، وانا جيت من اسكندرية. اللي عاوز اقوله دلوقتي إن مصر كلها لازم تيجي على بالنا. مصر، الفرخة الجميلة اللي حاضنة بيضها، اللي هيفقس كتاكيت، والكتاكيت هما شباب مصر (يستدير بكل جسمه لأبيه)، هو دا التمثال، فرخة، فرخة باصة للسما، يعني باصة لبكرة، وراقدة على بيضها، وعمود نور، عمود نور متعلقة فيه شمس

كبيرة، والشمس دي هي الكرنتينا. هي الكافيه دا، (لأبيه) هي إنت، وأنا، وكل الناس الطيبين دول.

يقوم علي من فوق كرسيه. يحتضن حمادة بقوة. ثم ينظر لجميع من حوله. يشهدهم على الفنان الذي أنجبه. يظبطب عليه. ثم يقرأون الفاتحة.

هكذا بدأ العمل في بناء الفرخة المصرية العملاقة، وشمس الكرنتينا تشرق فوق الجميع.

°°°

علي وإنجي اليوم، ولأول مرة في تاريخ البشرية، رائقان. حمادة مع أصحابه، وأجازة الكافيه اليوم الجمعة. خرجا من الحادية عشرة صباحاً. ركبا حنطوراً يسير بهما من أول الأنفوشي إلى المنتزه ورجوعاً.

طلب علي من سائق الحنطور أن يغلق المظلة، لإن الدام عاوزة تكشف وجهها. تحت المظلة تنام في حضنه. يااااه! منذ كم من الوقت لم تنم في حضنه وتشعر بكل هذا الأمان، وهو، مثل مراهق وليس مثل زوج قديم، يدخل يده تحت عباءتها السوداء، يلمس إصبعه طرف السنتيانة، فيغمز لها بعينه، وهي تتمرغ في حضنه أكثر وأكثر، يمرر يده من تحت، تلمس أصابعه صدرها، يشعر بانتصاب حلمتيها، فيلاعبهما بسرعة ورشاقة، الواحدة تلو الأخرى، وهي تنظر له بامتنان وتتدلع، أحبه عليك يا شيخ علي، كفاية بقى! محطة الرمل، جامع إبراهيم باشا. تنظر له وهي في حضنه وهو يلعب في صدرها: تعرف، أنا عمري ما هانسي إنك كنت عاوز تسيبني. يبتسم، هو انا اقدر اسيبك أبداً يا عمري!؟ إنجي كانت تحتفظ بذكرى سيئة من الأيام الماضية، عندما رأت أم أميرة مجدداً استرجعت كل التاريخ المظلم. تواصل الابتسام، أيوة. ماتستعبطش. كنت عاوز تسيبني عشان الولية الجربانة اللي اسمها أم أميرة دي. يواصل

مكتبة عابث الإلكترونية

الابتسام، ناوية تقلبيها نكد! تبدأ في التكشير، لأ وعلى إيه اقلبها نكد. أهي غارت في ستين داهية خلاص!

– ماتعرفيش حاجة عنها؟

– عن مين؟

– عن أم أميرة.

– (تصمت قليلاً) ماتت.

–

– (تصمت لفترة أطول من سابقتها) علي، إنت عارف كل حاجة. انا قتلتها يا علي، وانت عارف.

يتكهرب علي فجأة. يدفعها بعيداً عنه. ينظر في عينيها بحثاً عن أي أثر لمزاح فلا يجد، قتلتيها، يعني إيه؟ تحاول استرجاع المود الصافي الذي كان بينهما منذ دقيقة فلا تنجح، علي، دي واحدة ست وسخة، دي كانت عاوزة تيجي عندنا تاني وتفتح محل في المنطقة، دي كانت بتحاول تبتزني يا علي. كانت عاوزة ترجع تلعب عليك تاني، الولية المقرفة دي.

علي لا يفهم شيئاً. تضطر لأن تشرح له. قصة بخيت التي وجدتها عندها، واستغلالها للموقف، تصور يا علي، كل ميزتها إن ابوها سرق جوابات جدي، وعاوزة تستغلني بيها.

الأزاريطة، دخولاً إلى الشاطبي. كازينو الشاطبي يتم هدمه. منذ أكثر من عشرين عاماً وهو يتم هدمه. يصمت علي دقيقة، يدفن رأسه بين كفيه، ثم يرفعها ببطء: بصي يا ماما. كل اللي ف دماغك دي قانورات..أولاً، الست دي كانت نصابة، ولا كان عندها جوابات ولا حاجة. جدي، اللي هو جدك، دا انا

وصلتله خلاص، دا كان ظابط هنا وراح الصعيد وخلاص، هي مالهاش دعوة بالموضوع دا. دا أولا، ثانيا بقى...

– ثانيا بقى دا مش صح، انا عندي جوابات منه، وشفت صوره، وفعلا يشبهنا.

– (يزعق) ثانيا اللي بقولهولك هو اللي صح وانتي تحطي جزمة ف بقك وتخرسي خالص.

– انت ماينفعش تكلمني بالطريقة دي!

– ينفع ونص. انتي بتدوري على حاجة في دماغك انتي، وقتلتي ولية مجنونة وهتخسريني أعز صحابي علشانها.

– مين أعز اصحابك؟

– أبو أميرة أعز صحابي.

– لا أبو أميرة مش أعز اصحابك.

– لا أعز اصحابي.

– (بعقل وحكمة) لا يا علي. لا يا حبيبي. أبو اميرة بتاعك دا راجل ابن كلب، إنت عارف إن هو اللي قتل اخوك.

– قتل أخويا! أبو أميرة قتل اخويا! آه أبو أميرة قتل اخويا. استريحتي، بس كمان وقف جنبنا لما كنا عاوزينه.

– آه وقف جنبنا صح. مش علشان تشغله عندك ولا عشان تشغل اخواته عندك ولا عشان يقبضوا فلوس ماكانوش أصلا يحلموا بيها.

– (للسائق) يا اسطى. (لإنجي)، أبو أميرة هو اللي وصلنا لكل دا. (للسائق) يا اسطى لف وارجع لو سمحت. (لإنجي) الراجل عمل اللي عليه من

مكتبة عابث الإلكترونية

غير جزاء ولا شكوراً (للسائق) يا اسطى، يا ريس، يا حبيبي، يا بني آدم، هابوس إيدك يا شيخ عشان تلف وترجع بينا؟

تلف العربية. علي يهدأ قليلاً. يمسح يا إنجي يا حبيبتي، من ساعة اما اتجوزنا وانتي ماشية بدماغك يا ماما. بتعملي اللي انتي عاوزاه، ولا كإن ليا لازمة، صح؟ طيب، لأول مرة هاطلب منك موضوع جدك دا تنسيه، دا حاجة اخترعتها الولية دي علشان تنصب عليكي، وانتي خدتي حقك وقتلتيها. مش صح؟ مش خلاص كدا؟ مش كفاية؟

– لا يا علي مش خلاص. انت اللي ظباط الشرطة كانوا بيلعبوا بيك، وانا عارفة دا ومتابعة دا كويس. وزارة الداخلية كلها اللي انت بتصرف عليها من فلوسنا بتضحك عليك يا علي.

– أنا اللي بيتضحك عليا وانتي اللي فاهمة كل حاجة يعني؟ زي العادة يعني. (يعاود دفن وجهه في كفه، يرفع رأسه بعد ثوان وقد بللت الدموع لحيته ذات الشعرات البيضاء المنتشرة. ينظر للسماء: يوم حلو. يوم حلو يارب واحد في حياتي. يارب ارحمني برحمتك وأنت أرحم الراحمين).

(صوت أذان الجمعة يبدأ في التردد من بعيد)

°°°

أحيانا يحتاج الإنسان للنظر حوله. الإنسان بجهله (يقول الله عز وجل عن الإنسان: إنه كان ظلوماً جهولاً) يتقدم في طريقه، يهتم بقطع مئات الأميال، ولا يتوقف مرة واحدة للنظر حوله، خلفه، فوقه وتحته، لمعاينة موقعه من ذلك الفراغ البشري الكبير المسمى الكون، والمسمى التاريخ. لن نرتكب هذا الخطأ. سننظر حولنا.

لا يزعم أحد أن بإمكانه تغيير التاريخ كلياً، مرة واحدة وإلى الأبد، بحركة واحدة. التاريخ دائماً يسير على مهله. كل ما يستطيع الأبطال فعله هو بذر البذور لتطور التاريخ. هذا ما فعله علي وإنجي، منذ قدومهما إلى الإسكندرية، لقد كانا يبذران البذور، والبذور منها ما كان صالحاً للنمو، ومنها ما لم يكن صالحاً. رأينا منذ قليل كيف أن كازينو الشاطبي يتم هدمه أمام أعين علي وإنجي وهما في الحنطور. هذا الكازينو الذي احتضن آلام وآمال السكندريين القدامى والجدد لعقود طويلة، والذي شكل متنفساً يمكن أن يبث منه السكندري، والمصري بشكل عام، شكواه إلى البحر العاتي من خلفه. ما يعنيه هذا أن الجهد الإصلاحي لعلي وإنجي في الإسكندرية لم يسفر عن تغيير المشهد بالكامل، وأن الرأسمالية، بالاستعانة بالحكومة، ماتزال قادرة على سلب الناس لحظاتهم الحلوة. هل يعني هذا أن لا شيء قد تغير؟ لا بالطبع. وإليكم التفاصيل:

ذات يوم، قرر محافظ الإسكندرية إعلان مدينته مدينة "خالية من الدخان"، وأعقب قراره هذا بمنع تدخين الشيشة في القهاوي، القهاوي التي على البحر في البداية ثم التي بالداخل، وفشل قراره أمام احتجاج القهوجية، فلجأ إلى القوة الناعمة، الشيشة لا يتم منعها من الإسكندرية، الشيشة تختفي من تلقاء نفسها، وكان هذا هو أسوأ ما في الأمر، لولا وجود علي وإنجي.

علي الذي كان مدمناً للمعسل القص، لم يقتنع أبداً بالكلام عن مدينة خالية من الدخان ومن حقك أن تدخن ومن حقي أن أستنشق هواء نقياً وكل هذا الهجص. كان ينزل أي قهوة، معه رجلان أو ثلاثة من رجاله، يشيشون للصبح، وسرعان ما تمتلئ طاولته بالفقراء والبسطاء من أهل الإسكندرية، من يطلب مصلحة شخصية له، ومن يرغب في مناقشة قضية عامة، ومن، ببساطة،

مكتبة عابث الإلكترونية

لا يرغب في شيء سوى الجلوس مع الشيخ علي بنفسه. الجلوس كان شرطه الشيشة، ومن لا يشرب يبقى يروح بيتهم، ويقعد عند مامتهم. السخرية دائماً سلاح فعال ضد التطهريين. قعدة أخرى كان يرأسها أناس مثل أبو أميرة، والمعلم سوسو، مع زوجته مدام منة، والشيخ حسن، وحتى الحاجة نادية، في أماكن مختلفة بالبلد. تزايد عدد طالبي الشيشة، ومع الوقت، بدأت دورة المعسل اللانهائية تدخل في حسابات القهاوي. مثلما حاولت الحكومة أخذ حق ليس لها بالأدب والاحترام، فلقد منعه عنها رجال الكرنتينا بالأدب والاحترام أيضاً، بدون طلقة نار واحدة. كانت هذه معركة نظيفة تماماً. ولكن كانت هناك معارك غير نظيفة.

دفاعاً عن أي شيء يحاربون، هكذا تساءلت صحيفة قومية معروفة بانتمائها للنظام الحاكم، ومتن المقال نفسه كان أقل ما يقال عنه إنه مثير للريبة. يزعمون أنهم يدافعون عن الدين، هذا الذي يسمي نفسه "الشيخ" علي، وزوجته المتنقبة "الشيخة"، إنجي. ويديران بيتاً للدعارة وبيعان الخمور. بالذمة، هل هذا اسمه كلام؟ واصلت الصحيفة.

طيب، علي وإنجي بكل تأكيد لم يكونا من أنصار الإسلام المتشدد، كما أنهما لم يكونا من أنصار الإسلام المعتدل، "الإسلام" كله، مع احترامنا البالغ له، لم يكن عنواناً لنضالهما. يمكن ببساطة وصف الصراع بأنه كان ليبرالي النزعة، وتصادف أن من يقوده هما شخصان مؤمنان يعرفان الله. الموضوع بسيط جداً. ليبرالية الثلاثينيات والأربعينيات هي التي حاول علي وإنجي إدخالها إلى الإسكندرية، الإسكندرية قبل حكم العسكر، إسكندرية الأجانب والحياة المنفتحة، الإسكندرية مدينة العالم، الإسكندرية قبل ظهور التطهريين الجدد. هذا الكلام لم يفكر فيه علي وإنجي بذلك الوضوح، وبالتأكيد فإن كلمة

"كوزموبوليتانية" لم تخطر على بالهما، ولكن هكذا هو التاريخ عندما نقرأه من بعيد، لا يتحدث فيه الأشخاص بلسان حالهما، التاريخ هو الذي يتحدث. نحن الذين نتحدث، نحن التاريخ.

رداً على تساؤل الصحيفة، الذي لم يكن أبداً مفهوماً ولا مبرراً، اقتحم ثلاثة شباب مقر الصحيفة في القاهرة، قلبوا المكاتب وركلوا أجهزة الكمبيوتر، داسوا على الأوراق، حاول رجل الأمن اعتراضهم فجرحه أحدهم بمطواة. اقتحم اثنان منهما مكتب رئيس التحرير، ووقف الثالث على الباب يهدد من يحاول الاقتراب. ثم خرجوا جميعاً. كانت لهذه الضربة نتيجتان متناقضتان: أولاً، زيادة التعاطف مع علي وإنجي اللذين انتقما للشارع المصري كله من أكاذيب الصحيفة وتدليسها، وثانياً: تبرئة علي وإنجي – نفسهما – من تهمة تدبير الحادث. تصاعدت دعاوى على الإنترنت تفيد بأن ما حدث كان من تدبير الصحيفة نفسها التي تحاول إيجاد عدو وهمي لها. وواصل علي وإنجي صعودهما.

الانتصارات لم تكن حليفهما على طول الخط. معركة كازينو الشاطبي كانت من أبرز المعارك المتواصلة، لم يتم الحسم فيها لأي من الطرفين، علي وإنجي من ناحية والمحافظة من ناحية. رجال الأعمال عرضوا على المحافظة شراء الكازينو، وأثيرت أخبار عن هذا في الصحف. سمعت إنجي من بعض النساء في الكافيه بعض هذه الأخبار، وقررت اتخاذ خطوة. الرأسمالية لن تتمكن من الانتصار، قالت لنفسها. كلمت حمادة ابنها في التليفون، طلبت منه ترك المدرسة والعودة فوراً. في المكتب شرحت له القصة. الكازينو ليس ملك رجال الأعمال، الكازينو ملك الناس، وهناك قانون في البلد. صح؟ وفوق هذا وذاك، فالكازينو يأتي منه لقمة عيش لهم، تعودت بعض بنات الكرنتينا على

مكتبة عابث الإلكترونية

اصطياد الزبائن من هناك، والعودة بهم إلى الكافيه. أيهما أفضل، رجل أعمال يشتري مكاناً عاماً من أجل مزاجه، أم أناس يمنحون المتعة للبسطاء مقابل أجر زهيد.

قام حمادة (شاب طويل وسمين الآن يخزي العين، يدرس في الثانوية العامة)، بتأجير عدد من أصدقائه. ذهبوا إلى الكازينو وزرعوا أمامه بافطة كبيرة "الكازينو بتاع الناس، مش بتاع واحد من الناس"، رآهم غفير فطلب منهم الانسحاب، هبوا فيه، وتضامن عدد من المارة مع الغفير، بوصفه رجلاً عجوزاً زي أبوهم، فوقعت المذبحة التي تم الإعداد لها، تم جرح اثنين من المارة، أما الغفير فقد قلعوا له عينه اليمنى. حضرت الشرطة وتم اقتياد حمادة وأصدقائه إلى الحبس. حكم عليهم بأحكام متفاوتة. كان من نصيب حمادة شهران فحسب. قضاهما وخرج أكثر قوة، هابه الناس أكثر، ولم يعد أحد للاقتراب من الكازينو لعدة أشهر. الناس خافت.

ولكن المعركة تجددت عندما تجددت أعمال هدم الكازينو. قاد حمادة معركة أخرى قتل فيها أحد عمال الهدم، وهرب. لم يمسكه أحد. وتوقف العمل شهوراً أخرى، ثم تجدد، وهكذا وهكذا وهكذا، ما كان يقف أمامهم الآن هو رغبة متوحشة في مواصلة هدم الكازينو، ما كان يقف أمامهم هو وحش جبار اسمه تحالف السلطة مع أصحاب الثروة. وأعمال الترهيب لم تعد ترهب أحداً. يرفض العمال مواصلة العمل لأسابيع ثم يعودون. ولكن علي وإنجي لا ييأسان بسهولة. المعركة متواصلة.

كل هذا كان يدفع بمزيد من الثقة إلى نفس السكندريين. هناك أشخاص يدافعون عنهم. طول الوقت كانت تتزايد أعمال الشغب والعصيان. الانتصارات كانت تزيد من ثقة السكندري بنفسه، والهزائم لا تحبطه. والشيخ حسن،

بسمعته الطاهرة، بوصفه أخا الشهيد، يردد طول الوقت في خطبة الجمعة، ومعه شيوخ آخرون، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وفي أحيان أخرى تتردد آيات أخرى، يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وغيرها.

كل هذا والحكومة، التي تكاد تكون تقبض مصروفها من علي وإنجي، تصر على وصفهما بأنهما بلطجية. هي التي تبلطج، هي التي ترهب، وهي التي تصفهما بالبلطجية. كل هذا كان سبباً في إحساس بالمرارة لا يروح من عند علي وإنجي وحمادة.

أصيبت إنجي ذات يوم بانهيار عصبي. جاءها الخبر بالقبض على إحدى البنات العاملات لديها في شقة بالهانوفيل. صرخت في المكتب، إنتو عاوزين مني إيه، عاوزين إيه، نزلت على السلالم بوجه سافر، بدون النقاب. ركضت باتجاه قسم كرموز. حاولت اقتحامه. منعها العساكر الواقفون على الباب. لطمت على وجهها العاري وقطعت شعر رأسها، إحنا عملنالكوا إيه، ماتسيبونا، ماتسيبونا في حالنا. وطت على الأرض وغطت شعرها بالتراب، هو دا حلال اللي بتعملوه، هو دا حلال؟ جاء علي بنفسه وقيدها دافعاً بها في سيارته. أخذ يطبطب على رأسها وأجبرها على ابتلاع حبة مهدئ. راحت في النوم بعد عشر دقائق.

كل ما يتذكره الناس من هذه النوبة هو وجه إنجي، الذي لم يروه أبداً من قبل، عجوزاً، مجعداً، بشعر يأخذ في الابيضاض.

وجه إنجي في هذه اللحظة كان وجه امرأة مجنونة. هذا ما تذكره أهالي كرموز.

مكتبة عابث الإلكترونية

علي لم يصب أبداً بانهيار عصبي. ظل محتفظاً بعقله طول الوقت، حكيماً وذكياً، حتى وإن كان، بنظارته السميكة المشروخة التي لم يحاول أبداً تغييرها، يثير انطباعاً غير هذا.

كان يجلس مرة في البيت، يشيش ويأكل تفاحة. وفجأة تذكر شيئاً ما. رن لحمادة على تليفونه. وصل هذا بعد نصف ساعة. أعطاه علي تفاحة ومضى يلعب في أسنانه بالسواك، وسكت. سكت طويلاً وهو ينظر في عين حمادة. الشاب الصغير لم يفهم المطلوب منه، ولكنه التزم الصمت هو الآخر. بعد عشر دقائق تكلم علي، أمك يا حمادة. أمك اتجنت.

وضع الولد رأسه في الأرض. الأب واصل: أمك عاوزة تقتلني. ولم يكمل.

لم يملك الأب معلومات ليقدمها لابنه، كان يملك إحساساً. يشعر بهذا في كل شيء، في نظرات زوجته وحركاتها وكلامها، في كراهيتها التي تعلن عن نفسها في كل كلمة تقولها.

– ويمكن عاوزة تقتلك كمان.

أضاف أنه غسل التفاحتين، تفاحته وتفاحة حمادة، خمستاشر مرة. يأكل الآن أكله من برة أغلب الوقت، خوفاً من السم، أنا عاوزك تاخد بالك يا ابني، أنا مش بقول كدا علشان هي وحشة، بس هي بتكرهنا جامد، مابتحبناش.

عثر علي ذات يوم على كتاب قديم عندها، على الشوفنيرة. الكتاب كان يتحدث عن أنواع السموم وأخطارها، كان فيه ورقة متنية جوا الكتاب، زي ما تقول الحتة اللي وقفت عندها يعني وهي بتقرا، الصفحة دي كات بتتكلم عن سعابين أفريقيا، أمك عاوزة تسمنا بسُعبان أفريقي يا حمادة.

حمادة كان يحب أمه. لم يسترح لإخفاء أسئلته عنها. سألها عن سر وجود هذا الكتاب على الشوفنيرة، فابتسمت بمرارة وقالت له اسأل ابوك.

الكتاب كتاب الشيخ علي، سكتت إنجي وأضافت: عمره ما فكر في حاجة تانية، طول الوقت بيفكر يموتنا ازاي. واحنا عايشين ومستحملين.

بسُعبان أفريقي يا علي، هي دي آخرتها!

هكذا رددت إنجي وهي تنهنه دافنة رأسها بين كفيها.

°°°

ماتت الحاجة اعتماد.

قبل أن تموت كانت قد زارت منة ابنتها في بيتها بغيط العنب. كانت متعبة وتشعر بالنهاية القريبة. أخبرتها أنها ستموت قريباً، أنها حلمت بالحاج حربي يتقدمها في شارع مظلم ويصعد في عمارة مهجورة، ثم يطل وجهه من بلكونة الدور الأول ويحثها على الصعود، مستنية إيه، ما تطلعي ياختي! ابتسمت الحاجة بتسامح وقالت لابنتها: أنا مش زعلانة، اوعي تفتكري اني زعلانة. انا بس عاوزة نحكيلك على حاجة كدا.

الحاجة كتبت الطابقين المتبقيين من عمارة كرموز للشيخة إنجي، ويضاف إلى هذا طابق تملكه الشيخة وطابق يملكه الشيخ علي. لم تصدق منة ما سمعته. ظنت أن أمها تخرف. ولكن الحاجة أكدت كلامها، طلبت من بنتها ألا تزعل منها، أنا حسيتها كويس، هما أكتر ناس تعبوا في البلد دي، وإنشي دي تعتبر زي اختك الكبيرة، أنا وصيتها عليكي ياما. اوعي تزعلي منها يا حبيبتي. سوسو كان جالساً معهما. انتفض، بتقولي إيه يا ولية؟! هجم عليها ولكن منة منعته. دخل غرفته بالعافية. الحاجة اعتماد أسرت الإهانة في نفسها ومضت. بعد عشرة أيام ماتت.

مكتبة عابث الإلكترونية

علي هو من أقام العزاء لها، لا منة ولا سوسو، اللذين لم يحضرا أصلاً. بدا هذا إعلاناً للكراهية، للعداوة، ولأمواج الدماء القادمة. بدا أن الكرنتينا الآن على شفا الاشتعال.

قصة قاتل

"بخصوص إصبع مبتور لا تظهر به الدمامل"

مكتبة عابث الإلكترونية

١

الفن حريق.

لا أحد يعرف على وجه التدقيق متى يبتلى الإنسان به، ولا كيف. كم من إنسان ناجح في حياته ابتلي بالفن فأحرق روحه وهبط بها إلى أسفل سافلين، وكم من إنسان لا يعرف عنه أحد شيئاً أحرقه لهيب الفن فصار يشار إليه بالبنان. الفن ابتلاء من عند الله، والابتلاء قد يكون خيراً أو شراً.

منذ زمن طويل، والسينما المصرية مغرمة بمفهوم الفن. نتذكر جميعاً مشهد أنور وجدي مع فيروز مرتديين ملابس الحواة المرقعة وبرانيطهم الطويلة ويغنيان، كروان الفن وبلبله، موش لاقي حد يؤكله. كما نذكر سجالاً بين عبد الوهاب وبيرم التونسي الذي كتب، يا اهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله، فعاتبه عبد الوهاب برقة، مما دفعه لكتابة قصيدة تقول، الفن يا اهل المحبة، روح تخاطب روح، بلغاها. هذا الارتباك في تحديد ماهية مفهوم الفن يثبت فكرتنا: الفن لعنة، حريق، لهيب يشعل الإنسان، الفن هو جنة الإنسان أو جحيمه.

منذ طفولته وحمادة مبتلى بلعنة الفن.

صمته، تأمله، مشاعره الدفاقة، حتى سمنته، كلها أشياء لا تنتمي لهذا العالم، لعالم البشر الفانين، وإنما لعالم آخر، عالم يسرح فيه الفلاسفة والمفكرون والأدباء والفنانون والحكماء والأنبياء. ذات مرة، حكت له أمه عن

مكتبة عابث الإلكترونية

جده الذي كان يعيش في أبو ظبي. أصيب الطفل بصدمة، ليس لأن جده بعيد، وإنما لأنه لم يتخيل أن هناك مكاناً اسمه أبو ظبي، كان قد بدأ يتعلم الكلمات، عرف معنى الظبي، وعرف معنى الصبي، وبالاستعانة بكليهما تخيل جده على هيئة طفل، طفل بلحية بيضاء طويلة ويجلس جنب غزالة، وأحبه على هذا الحال.

الصور البصرية الحرفية لازمت حمادة في أشياء أخرى. سمع أمه يوماً تقول لطنط نادية "إحنا بنبني اسكندرية"، ساعتها تخيل الإسكندرية على هيئة بناء حجري كبير، وأبوه وأمه واقفان أمامه ويضعان طوبة على طوبة فيه، ثم يجلسان على ظهره وينهجان من الحر والعرق. ذات مرة سألته المدرسة عن مهنة بابا وماما فقال لها إنهما يبنيان الإسكندرية، وضحك الفصل كله. سأله زميله يبنيان فيها إيه إذا كانت الإسكندرية كلها مبنية من زمان. في يوم لاحق، عرف الفصل أن هذا هو حمادة الذي قام أبوه بقتل الظابط، وقال حمادة لزميله بنبرة تشف واضحة "شفت بقى"، ولكن الولد أصر على الإنكار. قال له إن أباه إذا قتل الظابط فهذا معناه إنه قتل الظابط وليس معناه إنه يبني الإسكندرية. سكت حمادة ولم يرد. شالها في قلبه. وبعد عشر سنوات عرف السر، وهو على أعتاب الجامعة، الولد الذي تحداه من أتباع النظام. اتصل به حمادة، وذكره بنفسه وطلب منه أن يلتقيا في كافيه بكرموز. وصل الولد إلى كرموز وبمجرد أن رآه حمادة أشار لسوسو. انهالت طلقات النار على جسم الولد. تمزق جسمه عشرميت حتة.

والفن لا يعرف الحدود. اكتشف حمادة موهبته منذ الابتدائية، في حصص الرسم. كان يحب رسم الورد والشمس والحدائق، ثم توسعت موهبته لتشمل البشر والمباني والسيارات، ثم توسعت موهبته أكثر وأكثر وخرجت من

حدود الرسم لتشمل الموسيقى. كان يدندن في الشارع وهو عائد مساء، ويدندن وهو في الحمام، وهو يسوق سيارته، ويدندن وهو يشرب. دخل مرة إحدى الكافيتريات بالنشية. طلب بيبسي، وعندما جاءه البيبسي صب عليه من زجاجة ويسكي كان يحملها معه. ثم أخذ يغني بصوت عال جغنه علم الغزل، أتاه النادل ليخبره بأن هذا ممنوع. الخمرة ممنوعة في الكافيتيريا، والإزعاج غير مرحب به. حمادة كان عمياناً، لم يكن يرى ما أمامه، ولكنه اتصاع. حاسب النادل وأعطاه بقشيشاً جيداً واعتذر له. ومضى. بعد ساعتين عاد في سيارة نص نقل. نزل منها ومعه عدد من الرجال. اقتحم باب الكافيتيريا، أخرج مدفعاً آلياً من تحت السويتر، فتح النار، وانتشر رجاله بالشوم في كل مكان يكسرونه. قُتل خمسة في هذه العملية وجُرح تسعة، وعاد حمادة إلى بيته. هكذا تحرك الفنان الذي بداخله، الذي يغار على فنه، الذي يحارب من يمنعونه من الغناء. مضى في البيت يفك أجزاء السلاح وينظفها، ويعاود دندنة جغنه علم الغزل، هاتها، هاهاتها. دوم دودوم دودوم دودوم. كانت الأغنية قد التصقت برأسه.

على خلاف والديه، اللذين كانا يشربان على خفيف فقط، فإن حمادة قد أدمن الخمرة منذ سن صغير. منذ الثانية عشر من عمره بالأحرى. كان في السنة الأولى الإعدادية عندما تذوق أول قطرة كحول في حياته. شرب ثلاث زجاجات بيرة يومها، وتقيأ كثيراً. بعدها صار يشرب يومياً تقريباً. يصعد إلى بار الكرنتينا ويشرب ما يريد، أو يشتري ويذهب ليشرب على البحر. ربما يكون الكحول هو سبب ضخامة حجمه منذ سن صغير. كان طويلاً، سميناً، أبيض البشرة وذا عينين ميتتين. ولكنه لم يشعر بأية مشاعر سلبية تجاه جسده. أو أن مشاعره كانت مختزنة في داخله، لم يفصح عنها لأحد. (الفنانون، وخاصة

مكتبة عابث الإلكترونية

أشدهم حساسية، على عكس الاعتقاد الشائع، نادراً ما يفصحون عن مشاعرهم الحقيقية). كان حمادة يسخر من جسده، ويتقبل سخرية الناس منه، ولكن في لحظة واحدة يتضح مدى الألم الذي يعانيه جراء هذا. حينما تزيد السخرية عن حدها، سعاتها يرتكب أي فعل جنوني. قلع مرة عين زميل له بالثانوية، ومرة برك على آخر وأخذ بعضه في وجهه حتى أدماه، ومرة تمالك نفسه ولم يفعل شيئًا، وعندما عاد إلى البيت كتب قصيدة حزينة، يقول مطلعها، أنا وحش يا زماني ولا الدنيا وحشة؟ ليه تظلمني معاك وتقولي الدنيا وحشة؟ لو تشوفني يا صاحبي تقول مجرم قاتل قتيل، وانا في الحقيقة شاعر وإحساسي جميل.

نظرة واحدة إلى غرفة حمادة في البيت كانت تدل على طبيعته. لوحة كبيرة خلف السرير لمنظر الغروب، ولوحة أخرى لشلال جميل، وموسيقى رومانسية تنبعث من جهاز الكمبيوتر، ورائحة ورد، ونافذة الغرفة التي تطل على أجمل عمل فني في التاريخ. تمثال لفرخة تنظر إلى السماء وترقد فوق بيضها، وتشرق عليها شمس كبيرة كُتب عليها "الكرنتينا"، مع كتاب ملقى على السرير بعنوان "أجمل أغاني العندليب"، ومخدة هي عبارة عن قلب أحمر قطيفة مكتوب عليها بخط ذهبي: "حتى متى ستظل يا قلبي خالي؟"

غرفة حمادة هي واحدة من أهم عناصر تكوينه، وأهم المفاتيح لفهم شخصيته. منذ طفولته وهو شخص انطوائي، يعتصم بالغرفة طول الوقت، ليلوذ بها من قسوة العالم بالخارج. طول الوقت يلاعب الكمبيوتر الشطرنج أو يحل ألغاز السودوكو بالجريدة، أو يرسم، أو يغرق في أحلام اليقظة. فشل أبوه وأمه في محاولة دمجه بالعالم. حاول علي اصطحابه معه إلى المسجد، ولكنه رفض. كل ما أحبه في هذا العمر (١٦ عاما) هو الجلوس على البار وشرب الخمرة، وتأمل النسوان. وذلك حتى أحب صباح.

لم يعرف في البداية من هي صباح. كل ما عرفه هو أن قلبه قد تعلق بها. كانت تأتي بملابس مكشوفة وتجلس مع صاحبها، وفي اليوم التالي تجلس مع صاحبها الآخر. صباح شرموطة. (أمه تزعقله في خياله: انت اللي ستين شرموط. اسمها ويتر يا جاموسة انت). شرب الكأس حتى احمر وجهه ثم تقدم منها. كانت تنتظر صاحبها. جلس وسألها عن نفسها. سألها إن كانت تعرف إنه ابن صحاب المكان. لم ينتظر إجابة. أضاف إنها عاجباه. ولم ترد هي. نظرت إليه مرعوبة ثم إلى باب التواليت الذي سيخرج منه صاحبها. انتبه هو لهذا، فابتلع ألمه وانصرف من نفسه.

كذب من قال إن حمادة نسي صباح يوماً. كتب فيها عشرات القصائد، غنى لها آلاف الأغاني، اشترى جيتاراً ولحن لها الملايين من الألحان. ودخل عشرات ملايين المعارك من أجلها. لم يحص عدد المعارك بالطبع، هذا الكلام كله بالتقريب. جرح رجالاً وانجرح، قتل، حرق، قاد معارك، وقفل شوارع بأكملها، ولم يشعر بالندم. كلمته مامته، قالت له إن شاباً اسمه هيثم رجب طلب صباح بالاسم في فيلته بالمقطم، وهي سافرت له مصر، وهناك نام معها هو واصحابه ثم رفض أن يدفع شيئاً، وضربها وهددها بالقتل أيضاً. حمادة جن جنونه. أخذ يعرق واحمر وجهه وتسارعت نبضات قلبه وهتفت أعماقه: "لاااااااااااه".

في الفيلا كلم الشاب بالهدوء والعقل. فقال له هذا مندهشاً إنه دفع للبنت ألفي جنيهاً كاملة. وإن البنت عجبها موبايله السامسونج الجديد فأعطاه لها كادوه. حمادة كان يبتسم. عندما انتهى الشاب من نطق كلمة "كادوه" عاجله بلكمة عنيفة بيسراه في فكه وهو يصرخ، كايه يا ابن الشرموطة، سقط الشاب من على كرسيه، سقط على ظهره. برك فوقه حمادة وبدأ يفك سوستة بنطلونه،

مكتبة عابث الإلكترونية

انا هاعرّفك دلوقتي مين اللي راجل ومين اللي صباح. اتنفض الشاب فعاجله حمادة بلكمة أخرى من يمناه المثقلة بالخواتم. تراجع الولد مرعوباً نحو المطبخ ليتحصن به، وركض وراءه حمادة. التقط زجاجة ويسكي من على البار، وبخبطة واحدة كسر باب المطبخ. هنا ارتجف جيب بنطلونه الأيمن، موبايله يرن رنته المقتطعة من قصيدة رومانسية قديمة، "الرفاق حائرون، يفكرون، يتساءلون، في جنون"، ولكنه وراءه أشياء مهمة الآن. الولد كان قد أمسك سكينة مطبخ كبيرة ليدافع عن نفسه، ولكن حمادة كان أسرع منه. هوى على رأسه بزجاجة الويسكي، ثم تناول سكينة المطبخ وطعنه طعنة في قلبه. بعدها أخرج الموبايل من جيبه وعاود الاتصال بأمه، التي أمرته بالعودة فوراً إلى الإسكندرية بدون إتمام المهمة. الولد دفع لصباح فلوسها. والبنت هي التي طمعت في المبلغ واخترعت هذه القصة. أزمة أخلاقية عابرة اجتاحت قلب حمادة لثوان. جلس بجانب الجثة دافناً رأسه بين كفيه. بدرت حركة من الجثة. نظر إليها ثم رفع السكينة وطعنها خمس طعنات أخرى. ثم واصل معاناته الأخلاقية في السيارة. ألف قصيدة وهو يسوق: عشانك انتي انا بقيت قاتل، وباتعذب ومفيش حد سائل، عشانك انتي سافرت من بلد لبلد، وعشانك كمان الحزن في قلبي اتولد.

كانت هذه واحدة من أولى المعارك التي خاضها حمادة من أجل صباح، والتي قدر له أن يرتبط مصيره بمصيرها ليشكلا معاً أجمل قصة حب عرفتها الأيام.

* * *

تمثال الفرخة يتطلع يومياً في الصباح إلى غرفة حمادة. يجلس هذا بجانب الشباك، ويفكر.

ذات مرة، قرر أن يأخذ خطوة إيجابية. نزل من البيت. جلس عند قاعدة التمثال الذي يحتضن بيضاته الأربع. وبقلم فلوماستر سميك كتب على البيضة الحجرية الأولى اسمه، حمادة، وعلى الثانية اسم صباح، وكتب على الثالثة، أولاد حمادة وصباح، وعلى الرابعة، ولاد ولادنا بإذن الله.

الكتابة تم محوها بعد أيام بفعل الشتا المنهمر. وكتبها حمادة مرة ثانية، ومحيت مرة ثانية، وثالثة، ورابعة. ما ظل متبقياً من كل هذه الكتابات، ما ظل صلباً وثابتاً لا يروح مع المطر هو الدلالات. حمادة كان يرى في صباح الزوجة المستقبلية بلا جدال. ليس هذا فقط، كان يرى نفسه استمراراً لعائلة علي وإنجي، ويستشرف بعينه مستقبلاً يصح هو فيه أباً للعائلة، وينجب أبناء يصنعون الأيام القادمة لمصر. أبداً لم يتصور حمادة أن يكون تاريخ اباباه ومامته مجرد سيرة ذاتية عابرة لمجرد رجل وامرأة ثوريين. بدون الالتحام بتاريخ الوطن لن يكون لتاريخ الفرد، الفردين في هذه الحالة، معنى. هذا ما وعاه حمادة منذ سن مبكرة.

ولد حمادة بدون أبيه، لا يذكر عن علي في أيامه الأولى أشياء كثيرة. كل ما يذكره هو إنجي وهي تدلعه وتحكي له تاريخها، حكايات كثيرة، عن عين شمس ومدينة نصر وسيدي جابر وكامب شيزار وميدان رمسيس وأبو ظبي وكرموز. عندما كانت تحكي له عن بابا لم تكن تطيل الحكي. بابا بعيد. بابا يحبك. بابا سيرجع قريباً. بابا سيرجع لكن ليس الآن، قد يتأخر قليلاً. قد يتأخر كثيراً. انت عليك عفريت اسمه بابا! خلاص، أبوك غار ف ستين داهية، استريحت يا ابن الكلب. وتحت وطأة المعلومات المشوشة نشأت شخصية حمادة، لا تعترف بالحقائق المتماسكة، وترى الكون كله مفتوحاً على الاحتمالات، كما يجدر بشخصية فنان.

مكتبة عابث الإلكترونية

عندما رأى أباه للمرة الأولى كان خائفاً. منظر أبيه بذقنه ونظارته السميكة المشروخة والوسخة جعله يلتصق بحضن أمه. وعندما جاء أبوه ليعيش معهم بدأ يقترب منه على مهل. كان يسأله عن القصة كلها، ماذا ولماذا وأين ومتى وكيف. وعلي كان يحكي له قصصاً أخرى، كان يحكي عن شخص اسمه أنكل أبو أميرة وسوسو والشيخ حسن وعادل المحبوس في السجن ظلم. وكان يحكي له عن جيمز الموبايل. عندما تكتمل ثلاث كوّر من نفس اللون جنب بعضها تنفجر تلقائياً. لهذا يا حمادة فكلنا بعيدون عن بعضنا. أنا وانت وماما هنا، وسوسو وأبلة منة في غيط العنب، والشيخ حسن في كامب شيزار. تعلم حمادة يومها درساً مهماً سيفيده في مستقبله، كما تعلم درساً آخر من الجيمز. عندما تجتمع ثلاثة إكسات بجانب بعضها تتمكن من تدمير الكائنات المنفردة. ولهذا فكلنا هنا بجانب بعضنا، أنا وأنت وماما وأنكل أبو أميرة ومحل سوسو. الاتحاد قوة يا حمادة. في هذا السن نظر حمادة إلى فرخة الكرنتينا بوصفها الرمز الذي يجتمع حوله الجميع. الفرخة هي أكثر من فرخة، وبيضاتها الأربع هي أكثر من بيض مسلوق متحجر. أبوه كان يرتكن على الكنبة ويواصل الحكي:

"ذات يوم يا حمادة، كان الكون بسيطاً، كان مفهوماً وواضحاً. الخير كان بسيطاً والشر كان بسيطاً. وقتها حاول اثنان، بإمكاناتهما الضعيفة، أن يتحديا الظلم السائد. لم يملكا شيئاً. لا شيء إلا إيمانهما بالحق والعدل والخير والجمال. ولكن الله لا ينسى عبيده. لقد سخّر الله السكة الحديد في خدمتهما. وقتها كانت عربات القطار تتخلص من الظالمين. عربات سائرة في جميع الاتجاهات، من محطة مصر إلى سيدي جابر، ومن سيدي جابر إلى رمسيس، ومن رمسيس إلى سوهاج. (يغمض عينيه طويلاً ثم يفتحهما) ثم، روحي يا أيام، وتعالي يا أيام، وتظهر السيارات، وتظهر الميكروباصات، ويظهر

التوكتوك، ويتعاون جميع جنود الله للتخلص من أعداء الله. الآن نسمع عن أشياء غريبة، سنج ومطاوي وسيوف وسلاح آلي. الله يسخر العلم الحديث لخدمة الناس يا حمادة."

كل هذا لم يربك حمادة. سار في طريقه بقوة وثبات. كان يجلس أمام باباه ومامته ويسجل لهما على الموبايل حكاياتهما. ويخطط لكتابة ملحمة شعرية عملاقة عن قصتهما. كانت تبدأ ببيتين شعبيين، أحسن حاجة يا جماعة نصلي ع النبي، النبي حلو وذكره حلو والصلا حلوة والنبي. حمادة في الجامعة الآن، في كلية تجارة. يكتب قصائد ويرددها على زملائه، فقط. لم ينشغل بالمسابقات الشعرية مثل زملائه الناقمين، وبالطبع ولا اتحادات الطلبة. الفن مش تجارة يا صاحبي، لم يحاول أن يبيع فنه لأي من كان. والزملاء الذين طلبوا منه قصائد يرسلونها لصاحباتهم لم يحصلوا على حق ولا باطل. بظلة قصائد حمادة كانت فتاة مجهولة اسمها صباح. لم يعرف أحد من هي ولا لماذا أحبها الشاعر السمين إلى هذا الحد، ولا لماذا كتب اسمها خربشة على جانب الجيتار الضخم الذي كان يأتي به إلى الجامعة. ولا لماذا حدث المشهد التالي:

حمادة يلعب بعنف فوق أوتار جيتاره لحناً فني ميتال، ويغني صارخاً، يا صباح، يا حبيبتي، يا نور عيني، يا صباح، يا روح الروح، وصوته يعلو، ويصرخ أكثر، ويعرق، حتى يسقط من على البنش بالمدرج. يقيم حمادة في البيت أسبوعاً. ينام ليلاً ويصحو نهاراً. يستيقظ مرة فيجد شخصاً بجانبه. يخبره أن اسمه فاروق، وأنه جاء ليسأل عليه. يتشبث حمادة بكتفه ويسأله إن كان هلوس كثيراً وهو نايم. يرد فاروق، كنت بتشخر. يقول حمادة بحنين، أنا نطقت

مكتبة عابث الإلكترونية

باغلى اسم ف عمري وانا مغمى عليا. أنا نطقت باسم صباح. خدت بالك؟ وفاروق يهز رأسه.

أصبح فاروق هو أقرب الأصدقاء لحمادة، هو صديقه الوحيد بالأحرى. دار به هذا في أنحاء الكرنتينا. فرّجه على أهلها. جلسا عند قاعدة الفرخة، كتب حمادة على واحدة من بيضاتها، حمادة علي بخيت، فاروق، الكرنتينا، ١٦- ٣- ٢٠٢١، صداقة للأبد. ثم صعد به ليشربا شيئاً في البار. فور دخولهما توقف حمادة فجأة. أمسك بيد صاحبه. وسأله، سامع قلبي بيدق ازاي. هز فاروق رأسه فأشار حمادة إلى صباح الجالسة بالداخل مع رجلين.

صباح، في الأول وفي الآخر، هي جثة. جسم عظيم. دهن ولحم، فخدتان هائلتان عاريتان تضع إحداهما على الأخرى، وضرعان عملاقان وبطن عارية مرسوم عليهما، أسفل السرة، تاتوه طويل، على هيئة نقاط زرقاء، تمتد إلى أسفل، حتى تنتهي في قعر الجيبة القصيرة. طبيعي إذن عندما يراها أي شخص أن يهرش في قضيبه. هذا ما فعله فاروق، ولاحظه حمادة ولم يعلق. شربا وسكرا وانبسطا. وفي منتصف القعدة هجم حمادة على صديقه الجديد. ناوله لكمة هائلة في خصيتيه، ثم أخرى، ثم أخرى. ثم صرخ، بتهرش فيه قدامي. وحياة أمك هتقطعهولك المرة الجاية. الولد كان قد سقط بجسمه كله على الأرض. سحبه حمادة من ياقته وجرجره خارج البار. رماه على السلم. ثم عاود جلوسه طالباً كاس تكيلا، نظر إلى صباح وقال لنفسه وهو يخاطبها، بصوت منخفض وحالم، من أجلك أعتقتُ نسائي، وخسرتُ أعز الأصحابي.

صداقة حمادة بفاروق لم تنته بسبب هذه الواقعة. في اليوم التالي قابله بعد المحاضرة وأخبره أنه كتب فيه قصيدة شعر اعتذاراً منه. قرأها عليه ثم أقسم عليه بالله أن يزورا الكرنتينا اليوم مرة ثانية. زاراها مرة ثانية، وثالثة،

بدون أن يدفع الولد شيئاً من جيبه طبعاً. كان حمادة يعد صديقه لمهمة عظيمة، قال له مرة، أنا عاوزك تبقى انت دراعي اليمين، عاوزك لما اجي اقرا شعر انت تسقفلي، ولما اغني انت تقول ورايا، عاوز قلبك يبقى عليا يا صاحبي. وفاروق هز رأسه. وحمادة طبطب على كتفه في حركة ثقة.

في اليوم التالي تكلم حمادة مع باباه. قال له إنه عرف صديقاً جديداً وإنه يرشح هذا الصديق للعمل معهم في الكرنتينا. الولد كويس ومصدر ثقة غير محدودة، وإن شاء الله سيفهم في الشغل بسرعة. هذا أول شيء، ثاني شيء إنه يشعر بشيء، يشعر بمشاعر غريبة عليه، هذا شيء يشعر به لأول مرة، إنه يشبه شيء عجيب، أكيّ، أكن، ثم ألقى الجملة، أنا عاوز اتجوز صباح. سأله باباه صباح مين فارتبك. لعب أبوه في ذقنه وسأله، صباح الشرموطة؟ قال حمادة في سره، اسمها ويتر يا جاموسة انت، وهز رأسه. لم يرد علي. بعد قليل فقط قال، جهزلي سجادة الصلا وحضر الشيشة. حمادة لم يفهم هذا الرد، ولكنه اعتبر أن أباه يقف في طريق حبه، فقام. قرر أن يغادر البيت للأبد. كلم فاروق وأخبره أنه سيبيت عنده الليلة. نزل إلى الشارع، سار مئتي متراً ثم تذكر أنه نسي الموبايل في البيت. عاد ليأخذه، وعندما عاد كان قد تعب من المشي. نام عشر ساعات، وعندما صحى نسي الموضوع كله.

حمادة مثل أي شاب مصري في ظروفه، كان ينظر بلهفة إلى تركة أبيه وأمه، بوصفها ملكه المستقبلي. لذا فقد حاول إثبات ولاءه بأكثر من شكل، بخوض المعارك، الدعاية عن الكرنتينا، تظبيط الحسابات، وينقل أخبار العاملين لعلي وإنجي. فقط النهج كان مختلفاً، علي وإنجي كانا سياسيين بالأساس. استطاعا تحقيق ما حققاه بالقليل جداً من الدم والكثير من المناورات،

مكتبة عابث الإلكترونية

ولكن الأيام الآن اختلفت. الدنيا أصبحت صعبة جداً، وكل شيء بالدراع كما قال أبو أميرة يوماً. ولذا فلقد آمن حمادة بالعنف الثوري. لم يؤمن به بالضبط. كان العنف الثوري هو ما فُرض عليه فرضاً، لإن الحياة بقت صعبة والناس نفوسها اتغيرت. عندما توفت الحاجة اعتماد كان حمادة في البكالوريوس. أرسله أبوه إلى سوسو ليفهم منه ماذا ينوي فعله بعد وفاة المرحومة، أين سيقام العزا مثلا وهل يحتاج هو وزوجته أي شيء؟ كانت هذه أسئلة علي، ولكن الصياغة هي التي تفرق دائماً، والأهم من سؤال "ماذا نقول" هو سؤال "كيف نقول". أراد حمادة إضافة كلمات تثبت أنه أصبح رجلاً يُفهم في كلام الكبار. قال لسوسو، شوف يا أبيه سوسو، أنا مش عاوزك تبقى زعلان من المرحومة عشان كتبت العمارة باسمنا، إنت راجل مؤمن يا أبيه، وعارف إن دي أرزاق، وأكيد عينك ماكاتش على ورث مراتك. سوسو نظر لحمادة بقرف، ثم قال، العزا خليه يعمله، احنا ماعندناش فلوس نعملو بيها عزا، الحاجة التانية ان انا عمري ما بصيت لقرش مش بتاعي، بس الصح مايزعلش، وابوك عارف كويس ان دا مش حقه. فهمت يابو شخة انت؟! حمادة، الرقيق ونو المشاعر المرهفة، جرحته الكلمة. قذف سوسو بطفاية السجاير في وجهه وصرخ بصوت هادر، إنت تتكلم بشكل موحتراااااام. انقض عليه ولكن سوسو كان أسرع. عاجله بضربة على رأسه بالشومة، ثم دفعه بذراعه خارج باب البيت وهو يصرخ، ورحمة أمي اني هانعرفك نفسك يا عجل يا ابن المعرص.

لسنوات طويلة ظل علي يلوم ابنه الوحيد لكونه السبب في الحرب التي اندلعت بينه وبين سوسو ومنة. ولكن حمادة كان عنيداً وصلباً في كل ما يخص قناعاته. الزمن تغير، ودبلوماسية الأيام الماضية لم تعد تنفع. دنيتنا بقت مرار. وحتى إذا افترضنا أن حمادة لم يستفزه، هل كان هذا ليعطل بحر كراهية

سوسو، سوسو الذي لم يتمن لهم الخير في حياته. كان مذهب حمادة يعتمد على التعجيل بالحرب لينتصر فيها. ومذهب علي وإنجي يعتمد على تأجيلها، تأجيلها وتأجيلها وتأجيلها حتى زهقنا يارب، احنا في عصر السرعة دلوقتي يا فاروق، وهما لسة يعتبروا ماشيين بالطرق التقليدية، كان حمادة يشرح لصديقه الفرق بين الأيام الماضية وأيامنا.

٥٥٥

الأصعب من الوصول للقمة دائماً هو الحفاظ عليها. وعى حمادة هذا الدرس بقوة، وجاهد لتدريب نفسه كل التدريبات الصعبة، تدريبات الذكاء بالأخص، فالعصر القادم ليس عصر العضلات ولا القوة البدنية وإنما هو عصر العقل والمعلومات. كان يقضي أوقات فراغه في حل الكلمات المتقاطعة والسودوكو، وفي لعب بنك الحظ مع فاروق. فاروق لم ينتصر أبداً في بنك الحظ. حمادة كان ينتصر طول الوقت، وأشخاص مثل حمادة لا يبهجهم الانتصار، بالعكس، لأن الهزيمة تعلمنا أشياء جديدة، والانتصارات تقف بنا حيث نحن. كان حمادة يعقد صفقات مهمة بنقوده ولا يلتفت لها فاروق، يقع في الفخاخ، ولا يلاحظ أتفه الألعاب. وكان حمادة يحكي. استطاع اكتساب مهارتين في نفس الوقت، اللعب والكلام، وحتى لو كان كلامه في أثناء اللعب يدور عامةً عن اللعب، فإن ذلك كان مبشراً بوقت يستطيع فيه شراء مدينة حلب مثلاً والكلام عن صباح. حتى الآن لم يستطع فعل هذا، سيفعله يوماً.

"عارف مشكلتك إيه يا فاروق. أقولك. إنت غبي يا روقة. ماتزعلش مني يا صاحبي. مش عاوز ازعلك. إنت إنسان جميل، فنان كبير. بس الفن مش كل حاجة يا صاحبي. إنت لازم تبقى ذكي كمان. خدني كنموذج. أنا فنان. باعزف ألحان. لكن عمري ما انغلبت في اللعبة دي. لإن دلوقتين اللي بيتغلب في بنك

مكتبة عابث الإلكترونية

الحظ مابقالهوش مكان بينا. شغل الكرنتينا عاوزة الذكاء والفن مع بعض. أنا دلوقتي باقولك إنك مش مفيد ليا. إنت مابتعلمنيش حاجة جديدة. مين اللي علمك تشتري الجراج يا روقة، مين اللي علمك تعمل سوق في بني غازي، مين اللي فهّمك اللي مكتوب ع الكروت واللي مش مكتوب ع الكروت. أنا علمتك كل حاجة يا فاروق. وإنت تعتبر ولا حاجة. إنت غبي يا فاروق."

فاروق كان إنساناً متسامحاً، لم يرد على إساءات صديق عمره. كان ينظر له ويبتسم ويشتري بيتاً تافهاً في مدينة أتفه، وهذا كان يجنن حمادة، الذي مسك مرة اللوح وقذف به في وجه صديقه. تناثرت الأوراق والزهر والبنكنوت على أرض القهوة وأخذ فاروق يلملمها بتسامح نادر. كان جسم حمادة يرتعش. أخفى وجهه بين كفيه ومضى يردد بصوت هستيري، يا ابن الغبية، يا ابن الغبية، يا ابن الغبية. وفاروق يضع كل ورقة بنكنوت في مكانها على اللوح، وينظر لحمادة ويطبطب على كتفه بيد مرتبكة.

٥٥٥

الروح دائماً عرضة للخداع، الجسد ملموس ويمكن الوثوق به. ولكن الروح هي ما تفتقد الأدلة على وجودها. والفنانون بالتحديد هم أكثر الناس عرضة للاضطرابات النفسية. يعرف علماء النفس البشرية هذا بوصفه اقتران الاضطرابات العقلية بالإبداع. جميع الفنانين الذين أثروا حياتنا بالأعمال الفنية الجميلة كانوا يعانون من إدمان الخمرة والمخدرات، ومن العصبية الشديدة، ومن الميل للاكتئاب والانتحار. وحمادة كان فناناً حتى أعماقه.

لم يفهم حمادة أبداً لماذا تعامله أمه بهذه الطريقة. كانت تعتمد عليه في أشياء كثيرة، ولكن أشياء أكثر كانت تتحاشاه فيها. مثلاً، حمادة خبير في أنواع الحشرات والزواحف، آخذ يثقف نفسه بنفسه طول عمره في الثمانينيات. اشترى

كتباً كثيرة في هذا الحقل المعرفي النادر والمفيد. كان يتركها في كل مكان بالبيت، عسى أن يراها أبوه وأمه يوماً فيستعينان به فيما هو أكبر من تكسير قهوة أو ضرب بنت علقة موت لأنها أخفت عليهم واحدة من طلعاتها. ظل حمادة حزيناً لأن أمه لم تستعن به أبداً في تنظيف البيت من الحشرات.

طول الوقت كان النمل الفارسي يغزو البيت، مع جحافل الصراصير، وبالأخص في الصيف. حمادة كان يجلس أمام أبيه ويحدثه عن الفرق بين أنواع النمل المختلفة، والثعابين الأفريقية، وكيف تفتس الصراصير بيضها، ويخبره عن صفات الصراصير المجنحة، وبرغم هذا، ففي كل صيف تستدعي إنجي شركة إبادة الحشرات. يرش العامل البيت وينتقل أهله للإقامة في شقتهم الجديدة بالعجمي. كان هذا جارحاً لحمادة. ليس عدم إشراكه في تخليص البيت من الصراصير فحسب، وإنما عدم الثقة به في كل العمليات المشابهة. قال لامته مرة إنه يشعر كما لو كان صفراً على الشمال، شيء بلا جدوى، وبكى، وأمسك بذراع أمه بقوة. رن جرس الباب ودخل فاروق مبتسماً كعادته. كانت هناك بقية من دموع في عيني حمادة. نظرات فاروق المندهشة حتمت على صديقه أن يشرح له المشكلة، فمضى يحكي بصوت مخنوق، وينظر لأمه ليشهدها على كلامه لفاروق، وينظر لفاروق ليشهده على كلامه لأمه. إنجي بدت قرفانة، أو على الأقل، غير مكترثة للمشهد الدرامي الدائر أمامها. فجأة نطقت بصوت بارد، حمادة يا حبيبي، مافيش حد اسمه فاروق، مافيش حد معانا هنا في البيت. إنت بتكلم الهوا يا بابا.

تشنج حمادة، ترددت صرخته المذعورة، اسكتي، اسكتي، ثم أخذ ينظر لفاروق ويمسكه من ذراعه، ويشعر بملمس ذراعه بين أصابعه، ذراعه فحسب. فاروق كان يتبخر شيئاً فشيئاً. اختفت رأسه في البداية، ثم رقبته، ثم بطنه، ثم

مكتبة عابث الإلكترونية

ساقاه، ثم الذراع اليمنى، وبقيت الذراع اليسرى وحدها معلقة في يد حمادة. حتى بدأت تختفي هي الأخرى، الكتف ثم الكوع ثم الأصابع. وجلس حمادة على الفوتيه وأجهش بالبكاء.

هذه الحادثة، أي اكتشاف حمادة أن فاروق هو مجرد شخص متخيل، لم تؤثر على علاقة الاثنين ببعضهما البعض. ظلا صديقين وفيين، مع عتاب بسيط ظهر في عيني حمادة تجاه صديق عمره، لماذا لم تخبرني يا صديقي، لماذا خدعتني، لماذا تركتني أقع في الحيرة، لماذا، لماذا، لماذا. وفاروق ينظر له ويبتسم ابتسامة بلا معنى.

٢

إنجي كانت تستلطف سوسو. هو الوحيد الذي ظلت تستلطفه وتستخف دمه بين عائلة أبو أميرة كلها. تستلطفه هنا كانت بمعنى تستلطفه، ليس بأي معنى آخر. كان يلجأ لها في أزماته ويسألها أعمل إيه يا ست الكل، وهي كانت تشكو له من علي، دا بني آدم غبي يا سوسو، مابيفهمش حقيقي. بدأ الاستلطاف بينهما، كما نعرف، من محادثات سوسو المطولة معها من الصعيد. وفور عودة سوسو، كما يعرف جميع سكان الكرنتينا، تزوج منّة، وبالتالي فلم يعد ممكناً للاستلطاف أن يأخذ صيغة أخرى غير الاستلطاف.

السكس كان يتم بين علي وإنجي بانتظام. مرة يوم الخميس، ومرة في وسط الأسبوع. كانت العملية الجنسية جيدة بشكل عام، ما عدا بعض الفتور المعتاد بالنسبة لزوجين قديمين، وتقريباً منذ رحلة سوسو لسوهاج وإنجي تتخيله عندما تكون تحت علي. وعندما عاد، بشنب جديد وجسد جديد، ملىء وليس سميناً، صارت صورته تزورها كل مرة تنام فيها مع علي. منّت نفسها أنه ربما يأتي اليوم الذي تصبح فيه الدنيا عادلة معها وتنفصل عن علي وتتزوج سوسو. ولكن الحاجة اعتماد أفسدت كل شيء عندما كتبت ما تبقى من عمارتها باسمها. كرّهت الناس فيها، وأشعلت غضب سوسو ومنة مراته، وأفسدت أي احتمال لأي دلع يحدث بينها وبين سوسو في المستقبل.

مكتبة عابث الإلكترونية

لسبب ما او لآخر، لا يمكننا إلا أن نعزوه للخلط الذي يقوم به البعض بين شخص ما وآخر، فلقد خلطت إنجي بين علي وبينها، عندما تصورت أن زوجها هو السبب في القطيعة بينهما وبين سوسو. برغم أن العمارة، وهي أصل كل المشاكل، مكتوبة باسمها هي وليس باسم علي، فلقد ظلت تلوم علي بنظراتها، وعندما اندلعت الحرب بين بيت علي وبيت سوسو، فضلت هي دور الطابور الخامس، المتواطئ مع العدو، المهون من شأن خطورته، على دور الوطني الغيور. كس أم العالم كله، بما فيه علي، أو بالأخص علي، الذي يريد أن يحرمها من شيء تريده بقوة.

لا نجزم أن هذه المشاعر كانت متبادلة. سوسو لم يكن مشغولاً بالغراميات والعاطفيات وما إلى ذلك. سوسو كان يبني نفسه بنفسه، يبني إمبراطوريته ويحطم إمبراطوريات الآخرين. عندما انسحب برجالته من محله، وفتح محلاً آخر في غيط العنب حيث يسكن، كان هذا إيذاناً ببداية الحرب. علي لاحظ هذا، إنجي لم تلاحظه، وحمادة ظل يغلى بالغضب خمس ساعات. في البداية، صار رجال سوسو يجلسون بالقرب من بيته، وهم من كانت مهمة حماية الكرنتينا كافيه مستحيلة بدونهم. لم يتخل سوسو عن محله القديم، فقط قام بتأجيره لواحد من رجالته، رمضان المعدول. رمضان المعدول ليس فقط من رجالة سوسو، هو مرشد للحكومة أيضاً. سوسو يعرفه جيداً، ولا يتكلم. حتى مرشدو المباحث قد نحتاجهم يوماً ما، لشخصهم أو لصفاتهم. وعلي لم يفقر هذه الخطوة. قام ثلاثة من رجالته بطرد رمضان من المحل وكب الزيت والكيدة على الأرض. هذه كانت عملية صغيرة. ولكن سوسو كان يحتاجها ليرد عليها ويثبت مكانته الجديدة التي ادعاها لنفسه. اقتحم عشرة من رجالته الكرنتينا كافيه، صعدوا إلى الدور العلوي، أخرجوا الرجال والنسوان بالملابس الداخلية. سار الجميع

عرايا في كرموز كلها، ورجالة سوسو خلفهم بالسلاح. وعندما حاول علي الرد على الضربة، لم يجد رجالاً، كلهم أصبحوا الآن في غيط العنب مع سوسو. وإنجي كانت ضد فتح النار على سوسو، وأبو أميرة شهادته مجروحة. الوحيد الذي التفت علي ليجده بجانبه في هذه اللحظة كان حمادة. حمادة، يرضيك صباح تمشي عريانة في الشارع؟ اشتعل الغضب بداخل حمادة. أبوه الآن بجانبه في كل خطوة. حمادة يكون جيشاً وسلاحاً بدلاً من سلاح سوسو الذي أصبح ينفجر في وجوههم. وبالإضافة للتوجيه اللوجستي على الأرض، كان علي يزود ابنه بتوجيهات من نوع آخر، تاريخية كلها، عن أسلاف سوسو ومصادر تأثيره. مثلاً، صحيح أن ضبط الرجال والنساء وإخراجهم عرايا من الكافيه كان عملاً من تدبير سوسو، ولكنه لم يكن من إبداعه. لقد حاكى سوسو بهذا العمل عملاً آخر، موغلاً في التاريخ. لشخصية من الشخصيات السكندرية الأبرز في العقود الأخيرة، سيكا.

كما اتفقنا، فالتاريخ السكندري هو حلقات تلتحم ببعضها البعض، وسقوط حلقة من هذه الحلقات، لا يعني مجرد سقوط للحلقة، المفردة الوحيدة، وإنما سقوط لجميع الحلقات التالية والسابقة. لهذا سيكون لزاماً علينا سرد قصة هذه الحلقة الهامة في التاريخ، قصة سيد وسيكا وسلطان، أو التلاتة سين، كما صاروا يُدعَوْن اختصاراً.

٥٥٥

بدأت القصة تحت الشتاء، بأول شتاء، ظهر سيكا. شارب ضخم ومقدمة شعر خفيفة، وذيل حصان من الخلف وقميص مشجر مفتوح حتى السرة مع سلسلة ذهبية معلقة على صدره المشعر، يبتسم فتبدو أسنان مسوسة ومتناثرة مع نظرة شر رهيب في العينين. الإسكندرية كانت تشتي بقوة. رعد وبرق ووحل

مكتبة عابث الإلكترونية

ومؤثرات أخرى في يوم من أيام منتصف التسعينيات. دخلت عربة شرطة شارعاً صغيراً في أبو سليمان. تصدى هو للعربية. قذفها بالطوب وبقزايز البيبس من سطح إحدى العمائر. وفي لحظة غباوة قفز من فوق سطح العمارة. وجده الضباط والعساكر بينهم. رأوه يذبح ضابطاً بسيفه، وفجأة، فيما يشبه معجزة، يختفي. لا يعثر عليه أحد لأسبوعين كاملين، ثم يعود. سيكا كان يحب بنتاً من المنطقة، أبوها مدرس ابتدائي. كلم أباها فقال له إن البنت صغيرة، في إعدادي مازالت. ولكن سيكا مجرم. خطف أخا البنت وخبأه ثم قال لأبيها إنه قادر على أن يفعل في إيمان ما سبق وفعله في الظابط أسامة، وقادر على فعل أشياء أخرى، ماء النار، الاغتصاب، القتل. في النهاية تزوجها، وقبل أن يتزوجها كان قد ذبح الضابط، كانت هذه الأيام هي ذروة شعبيته. كنّ شهراً في البيت بعد زواجه، ثم عاود طريقه. لسبب ما أو آخر، دخل في عقل سيكا أنه أسطورة أبو سليمان وونجت والإسكندرية كلها. كانت أسطورة حربي قد بدأت بالخفوت. حربي مختف ولا أحد يعرف مكانه، وظهوره من قبل أكد أن الإسكندرية تحتاج بطلاً شعبياً، وسيكا كان مستعداً لملئ الفراغ، وبخيابة، دعونا نعترف. اعتدى على بنات مدارس قاصرات، وباع مخدرات مغشوشة، وقتل، وهجم على شقق وسرق أصحابها، ولكي يفرض على أهل المنطقة الولاء له، نشر رجاله في المنطقة، وأخذ منهم إتاوة أول كل شهر وفي الأعياد. لم يكن هذا كافياً، الدنيا ولعت خالص من ناحية الأسعار، والجني بقى صعب. الإتاوة كانت تزداد شهراً فشهر، حتى رفضت عائلة كاملة دفعها. دخل سيكا البيت الذي رفض الدفع مع خمسة من رجاله، انتشروا في شقته الأربعة، فرضوا على جميع سكان البيت، رجالاً ونساء، أن يخلعوا ملابسهم، أخرجوهم عرايا من البيت وهم من خلفهم بالسنج وقرن الغزال والسلاح الآلي. كان كافراً بلا ملة. لم يرهب هذا الناس.

ظلوا يتحينون الفرص للإيقاع به. في هذا الوقت تحول جميع أهالي أبو سليمان إلى مرشدين للشرطة، مرشدين بهدف واحد: الإبلاغ عن أخبار سيكا. وعندما داهمت قوة من الشرطة بيته قام. ضرب نار وضُربت عليه نار. كانت الدنيا تمطر أيضاً. خلصت القصة تحت الشتاء، بثاني شتاء، قُتل سيكا.

عندما وقعت هذه القصة كان سوسو مازال عيلاً صغيراً. سمع الكثير عن سيرة سيكا. قرف منها، وتعاطف معها. عندما كبر واشتد عوده في كامب شيزار تعرف على واحدة من عشيقات سيكا، في إحدى ديسكوهات العجمي. عرف قصتها ثم قام بتشغيلها في شقة كامب شيزار. حكت له عن تفاصيل حميمة: "اكتر واحد بسطني كان سيكا، عمره ما قالي لأ، كان يفضل واقف طول الليل، مرة ورا مرة، مابيهمدش، (وبنظرة خليعة) ولا انا كنت باهمد انا كمان". إذا كان التاريخ نوعان، تاريخ رسمي وتاريخ بديل، فإن التاريخ الرسمي كان هو الذي يصف سيكا بالبلطجة والإجرام، والتاريخ البديل، التاريخ بحسب عشيقاته، هو الذي يصفه بالقوة الجنسية. سوسو لم يؤمن أبداً بالتاريخ الرسمي، كان يؤمن بتاريخ الناس، الحقائق المتناثرة، التفاصيل الصغيرة، الميكروتواريخ، وسيكا كان رجلاً جامداً، ليس بلطجياً، هكذا تحدث الناس.

كان من ضمن رجالة سيكا شاب نحيل وأنيق اسمه سيد، سيد، نظارة هاف فريملس صغيرة وأنيقة، وجه نحيل ودقيق الملامح مع ندبة عند الجبين، بلا شارب ودقن تبدو كما لو أنها لم تنم أصلاً. كان يبدو خارجاً من الجامعة لتوه. شاهد سيد معلمه وهو يُقتل فهرب. هرب من أبو سليمان كلها. خاف من غضب الناس. كان واحداً من مدبري حادث إخراج النساء والرجال عرايا، وكان مسئولاً عن تعرية بنت بعينها من كل ملابسها، وهو الذي قلع لها الكيلوت والسنتيان بيديه أيضاً، انتقاماً منها بعد رفضها الزواج به منذ أيام. لم يحتمل

مكتبة عابث الإلكترونية

البقاء في الإسكندرية فسافر مطروح لشهرين وعاد بأهله إلى المنطقة. كان عصراً من سيطرة عرب مطروح على أبو سليمان. هو، بأهله، ببقايا من أعوان سيكا، استطاع تكرار أسطورة معلمه بعد أشهر. تم تقفيل المنطقة تماماً. الشباب أصبح يشرب الحشيش كنشات في الشارع وعلى القهاوي، وعربية الشرطة إذا دخلت ستتفرتك ستين حتة. في هذه الأوقات، تكون الغلظة بموتة، والغلظة الدرامية لسيد لم تتأخر: أدخل شخص في ودنه إن المعلم رجب في الورديان يبيع البضاعة بسعر أرخص لمعلم في القباري اسمه سلطان، لأن الاثنين يرتبطان بصلة نسب. بدأ الدم يغلي في دماغه، وقرر الشراء من معلم آخر بالورديان لتحديه. تزامن هذا مع أعراض لجنون العظمة أصابته، بالضبط مثلما أصابت سلفه سيكا. زاد الإتاوة المفروضة على الناس في أبو سليمان، وقتل عائلة كاملة حاولت التهرب من دفعها، رجلاً وزوجته وأمه العجوز وطفليه. في الليل، هجم عليه رجال سلطان، الذي كان يعمل عند المعلم رجب، وقتلوه. وهلل الناس لسلطان، كان وجهاً جديداً ومبشراً بالخير ساعتها.

عندما حدث هذا، كان سوسو في الإعدادي، يعرف فلاناً وفلاناً وفلاناً، وفلاناً يوصله بفلاناً آخر، وفلاناً الأخير يوصله بفلاناً الأول. الدنيا صغيرة. جلس سوسو مرة مع واحد من زملاء سيد بكلية الآداب. حدثه الشاب وقتها عن تفوق سيد عندما كان في الجامعة، عن ولعه بعلم النفس، وفراسته في كل مايتعلق بنفسيات الناس. ها نحن نصل مرة أخرى إلى معضلة التاريخ الرسمي والتاريخ البديل. الرسمي يقول تاجر مخدرات والبديل يقول متفوق وعنده فراسة. انحياز سوسو دائماً هو للتاريخ البديل.

منذ عام أو عام ونصف تقريباً كان المعلم سلطان قد ظهر في القباري. المعلم سلطان، معلم حقيقي، جلابية ووجه غليظ وشارب ضخم وصلعة، النظرة غاضبة

ولكن طيبة، فيها شيء من الأصالة. لم يكن ظهوره بمعزل عن ظهور حربي. قاد حربي عدداً من العمليات لصالح المعلم سلطان، ولصالح المعلم رجب أيضاً. وعندما اختفى حربي، تعامل سلطان مع آخرين. سواء سلطان أو رجب، كانا ينتميان إلى عائلة كبيرة بقنا. هاجرت العائلة إلى الإسكندرية في السبعينيات، استقرت في القباري، ثم رحل رجب للورديان، وبقى سلطان بالحي الذي كان قد تعود عليه. لكل هذا كان طبيعياً أن يتزوج سلطان من أخت رجب، تربوا مع بعض وعرفوا بعضاً من زمان. البلد واحدة والكار واحد والمصير واحد إن شاء الله، خيراً أو شراً. في البداية، كان سلطان ذلك النوع من المعلمين الأخيار. لم يعاند رجب في شيء، ويمشي جنب الحيط، ولا يقوم إلا بالمهمات التي لا تتعارض مع صالح الناس، مثل قتل المعلم سيد مثلاً. إلى هنا والمسائل جيدة، ولكن حربي كان له تأثير كبير. كلام الناس عن حربي في كل مكان جنّن سلطان. ما الذي فعله الولا ولم يفعله هو. ومثل سابقيه، وعى أن هناك تغيراً يحدث في الإسكندرية. وبحس أولاد البلد الحقيقيين التقط التوق الكاسح للتغيير بين أبناء شعبه، وطرح نفسه بهذه الصفة. توقف عن تزبيط رجال الشرطة وإمدادهم بالمخدرات. كانت هذه هي المرحلة الأولى، المرحلة الثانية كانت قتل من يتعامل من رجاله مع الشرطة بدون علمه، والمرحلة الثالثة، قتل من تعامل من رجاله ولو لمرة واحدة مع الشرطة حتى لو حدث هذا في الماضي السحيق، أي من يوجد في تاريخه أي أثر للتعامل مع الشرطة. بدأ المعلم سلطان حملة تطهيرية واسعة النطاق في القباري، تحت شعار "الإصبع المبتور لا يدوحس أبداً"، قرر بتر جميع أعوانه ممن يشتبه في أي صلة لهم بالداخلية، وقتل زبائنه ممن يشتبه في أي صلة لهم بأعوانه الذين يشتبه أن لهم صلة بالداخلية، وقتل الزبائن الذين يشتبه في صلتهم بالزبائن، إلى آخره. في كل يوم كان المعلم سلطان يكتشف هدفاً

مكتبة عابث الإلكترونية

جديداً مرشحاً للقتل. والحملة التطهيرية وصلت إلى مدى أبعد. أصبح للتعامل مع الشرطة تعريفات أكثر اتساعاً ومطاطية، مثلاً، صار على الشخص الذي يدخل قسم الشرطة لاستخراج بطاقة شخصية أن يثبت عدم تعاونه، وصار حتى المحبوس سابقاً مطالباً بإثبات أنه لم يتم غسل دماغه داخل السجن ولم يعرض عليه أحد التعاون. أهمل المعلم سلطان الشغل وتفرغ لتحقيق نبوءته، "القباري، أول منطقة حرة من الحكومة"، وهو الشعار الذي كتب على حوائط القباري بخط يد أسود غليظ. وعلى قدر ما كانت حملات التصفية تتواصل، كان سلطان يفقد الكثير من قوته، يفقد أعوانه وأعوان أعوانه الذين قرر قتلهم بنفسه. ويرغم ضعفه الظاهري، كانت روحه تزداد قوة وصلابة وإشراقاً وهو يأوي كل يوم إلى سريره ويغمغم برضا وصوت خافت، الإصبع المبتور لا يدوحس أبداً. وعندما أصابته رصاصة الغدر المحتومة ذات يوم أنهى فيه تنفيذ إحدى الإعدامات المتكررة، سقط على الأرض وغمغم بنفس الجملة، وبنفس النبرة، نبرة الرضا والصلابة والتسامح، الإصبع المبتور لا يدوحس أبداً.

هنا كان التاريخ الرسمي والتاريخ البديل يلتقيان. الحديث هو عن المعلم سلطان بوصفه شخصاً إصلاحياً أكثر من كونه تاجر مخدرات، شخصاً حاول تحدي سلطة الداخلية وتأسيس يوتوبيا سكندرية، ولكن المتضررين من مشروعه الإصلاحي لم يدعوه يكمله، بالضبط كما حدث في ١٨٤١ و١٩٦٧. سكتت كل هذه الأصوات، أصوات سيد وسيكا وسلطان ومن شابههم، فور موت حربي. أثبت مشهد قتل الأخير في عرض الشارع للناس أن الملك لا يزال هو الملك. كل شيء عاد كما كان قبل حربي، المخدرات موجودة، والبلطجة موجودة، والإرهاب موجود، ولكن بلا أفكار عن التغيير، بلا كلام كبير، بلا مسحاء أو أنبياء

كذبة. في النهاية، فإن أكثر شخص ارتبط به خطاب التغيير كان هو حربي. كان الزمن هو زمن حربي، والباقون متطفلون عليه.

الآن، بعد هذه النظرة السريعة على منتصف التسعينيات، عودة إلى عصرنا الحالي، منتصف عشرينيات القرن الواحد والعشرين: سوسو يقرأ تاريخ أسلافه، تاريخ التلاتة سين. سوسو يذاكر كل هذه التفاصيل، حتى لا يتهمه أحد بتجاهل التفاصيل والقفز إلى الأحكام العامة. وبعد أن يذاكرها، سوري، آسف جداً، سامحني، يقول سوسو، حربي كان شخص قذر، مجنون أو بمعنى أصح مش عارف هو عاوز إيه، واللي عملوا اسكندرية بجد هما التلاتة سين. هكذا كان سوسو يعيد صياغة تاريخ الإسكندرية في رأسه، يعيد قراءة ما بين السطور، ويتحدى الرواية المؤسسة بروايته هو، "هو" تأتي هنا بمعنى شخصي: سوسو كان يرى نفسه رابعهم، رابع التلاتة سين ومحقق ما فشلوا في تحقيقه. التاريخ السكندري تلتحم حلقاته ببعضها البعض، كما قلنا مليون مرة من قبل.

هذه كانت قصة التلاتة سين، وعاها سوسو جيداً، علق صوراً لهم في كل مكان قرب بيته بنبط العنب. صور سيكا وسيد وسلطان في كل مكان الآن بكربنتينة غيط العنب. سوسو لم ينل نصيباً جيداً من التعليم، إعدادية وخلاص، لا دبلوم حتى، لذا فمن الطبيعي ألا تكون مخارج الألفاظ عنده بالدقة الكافية. سوسو من زمان لا ينطق اسم الكرنتينا كما يجب، يختصره، الكراتينا، وأحياناً الكراسينا، أو الكراتسينا، أو، ينطقه ساخراً: "الكرابنتينا"، وشيء ما هو الذي كتب الخلود للاسم الأخير. عندما انشق عن علي أخذ معه الاسم. أطلق — أو أعاد إطلاق — على محله اسمه "كبدة الكرينتينه"، وعلق على بيته يافطة "عمارت الكرينتينه"، وبالتدريج نطقت

مكتبة عابث الإلكترونية

منة مراته الاسم بهذه الطريقة، ونطقه رجاله بهذه الطريقة. نحن الآن نشهد تحول الكرانتينا إلى منطقتين، ونشهد بذور تكون اللهجات المختلفة بين المنطقتين. المنطقتان صارتا واحدة لعلي وإنجي وحمادة عند الترام، تسمى الكرنتينا، تمتلئ بصور حربي، والثانية في غيط العنب، تسمى الكربنتينة، وتمتلئ بصور الثلاثة سين، ورابعهم سوسو. لم يكن الموضوع إذن هو مجرد شخصين يواجهان بعضهما البعض، ولا منطقتين، وإنما فلسفتان، تاريخان ولغتان ومعياران للقيم، كل منهما يزعم تأسيس الإسكندرية الحديثة. وفي هذه الأمور، فإن الحسم يكون صعباً جداً، مستحيلاً تماماً.

°°°

الانشقاق صار حاداً. لاحظه الجميع، حتى أبو أميرة العجوز والمريض وهو يزور أخاه الصغير في غيط العنب. نزل من سيارته ليجد سوسو في انتظاره بالتوكتوك. سارا معاً في شوارع الكربنتينة. أبو أميرة يشاور على الصور ويسأل سوسو:

– مين دول يا خويا؟

– دا سيكا ودا سيد و دوّت سلطان.

– المجرمين؟

– الأبطال.

– المجرمين يا سوسو؟

– الأبطال يا حاج.

– معلق صور المجرمين يا سوسو؟

– معلق صور الأبطال يا حاج.

°°°

سوسو يهين الشيشة في بيته. يحضرها لأبو أميرة فيعتذر هذا، الدكتور مانعني جامد، ويعتدل في قعدته، شوف ياخويا، انا بقيت راجل كبير في السن، ومش عاوز اشوفك بتتمارك مع الشيخ علي وانا ف نهاية حياتي يُعتبر.

– هو اللي ابتدا يا حاج، خليه يرجع حقنا في البيت.

– البيت دا باسم مراته شرعي وقانوني يا سوسو.

– شرعي وقانوني؟ شرعي وقانوني؟ وهو شرعي وقانوني يخلوا البيت من حق واحد مجرم؟

– الشيخ علي راجل بطل.

– وهو شرعي وقانوني يخلوا الولية تكتب البيت باسم مجرم؟

– الحاجة كتبت البيت باسم البطل.

– ويخلوك انت، كحاج أبو أميرة، تدافع عن راجل مجرم؟

– انا بدافع عن راجل بطل.

°°°

سوسو يقدم لأبو أميرة نصف فرخة في يده وهما يتغديان. دوق دي يا حاج، هاتعجبك أوي. كل نعمة ربنا حلوة يا سوسو. أبو أميرة صحته لم تعد مثل الأول. يأكل نسيلة من الصدر ثم ينظر لأخيه:

– ماكانش يصح برضه يا سوسو تخرّج الرجالة والنسوان عريانين.

– يا عم وهو انا خرجتهم من الجامع؟! ماهو مكان نجس واللي فيه أنجس منه.

– أنا مش عاوزك تتجادل معايا، أنا عاوزك تروح تتأسف لعلي وتقوله انا اسف ياخويا وماعنتش اعملها تاني.

– طيب..

مكتبة عابث الإلكترونية

– الحمد لله.
– بس مين قالك إني ماعنتش أعملها تاني.
– (لا يرد)
– بعون الله ماحدش هيعلمه الأدب غيري.
– (لا يرد)
– شوف ياخويا. إنت اعتَبره القرد بتاعي. نتسلو بيه ولما نزهق نعملو الصلح اللي انت عاوزه. بس طالما اني لسة مازهقتش، يبقى ادينا بنلعبو معاه.
– (لا يرد. ينشغل بتسليك سنانه من نسيلة الفرخة)

°°°

– فين صور حربي يا سوسو؟
– حربي مين؟
– حربي. نسيت حربي يا ولا. ابو مراتك اللي انت قاعد ف بيته. المعلم محمد حربي.
– ايوة عارفه. بس سامحني ياخويا، متأسف خالص، آني مانعلقوش صورة حرامي في منطقتي.
– يعني دلوقتي حربي حرامي يا سوسو؟
– حرامي آه.
– يعني دلوقتي الحاج حربي أخو الشيخ حسن إنت بتقول إن هو حرامي.
– أيوة حرامي يا حاج.
– يعني دلوقتي...
– (يقاطعه بنبرة صوت متصاعدة) حرامي يا حاج، بلطجي، إنسان قذر، كل أفعاله قذرة زيه، (يسكت قليلاً. يهدأ) أجيبلك الشاي يا حاج؟

– خفيف يا اخويا الله يرضى عليك.

°°°

صينية عليها كوبا الشاي، مع شيشة. أبو أميرة لا يمانع هذه المرة. جالس على الأرض يشيش ويركن راسه على أسفل الفوتيه.
– أكنك مش عاوز تعلق صورة حربي في المنطقة تحت يا سوسو؟
– آه مش عاوز.
– (يصمت دقيقة) غريبة أوي، أصل زي ما تقول وانا جاي شفت صور ناس تانيين كدا، بس زي ما تقول شكلهم ماكانش غريب عليا.
– دول سيكا وسيد وسلطان يا حاج.
– (يشرد. ينظر جانباً) غريبة أوي. البلطجية؟
– (لا يرد. ينشغل برص حجر الشيشة)

°°°

يشربان الحشيش من الكوباية. الاثنان غائبان تماماً.
– شوف يا سوسو، ماتفكرش إن علي باعتني ليك.
– ماحدش يقدر يبعتك يا حاج.
– ماحدش يقدر يبعتني. صح. إنت قلت الصح. أنا إنشي مراته هي اللي باعتاني ليك.
– إنشي مين؟
– إنشي مرات علي.
– (يصحو قليلاً) عاوزة إيه إنشي مرات علي؟
– بتقولك يا سوسو هي بتحبك ومش عاوزة الشر ليك.
– (سرحاناً) بتحبني ومش عاوزة الشر ليا؟

مكتبة عابث الإلكترونية

– وبتقولك عشان خاطرها اقصر الشر من عندك انت.

– (ساهماً) عشان خاطرها؟

– هي مستنياك تروح عندها وتتفقوا مع بعضيكو.

– (شارداً) مستنياني أروح عندها؟

°°°

الإعصار يجتاح المدينة. منة زوجة سوسو تفتح الباب فجأة. يشعر هائش وقميص النوم والغضب في عينيها. وربنا المعبود يا حاج، إن ماحدش منا هيحط إيده ف إيد العالم الزبالة دي. وأقسم بالله إن جوزي اللي انت شايفه قدامك داهوّن، لو راح عندهم أني م النهاردة هانعتَبره مش راجل. ويبقى يوريني هيروح ازاي.

°°°

منة الله محمد حربي: عصبية، عنيدة، تحب الناس ولكن فيما لا يضر مصالحها. هي العامل الخفي وراء إحياء قصص التلاتة سين، وتقديم الوجه المظلم لقصة حربي، أبيها الذي لا تذكر عنه شيئًا ذا بال. تذكره جالساً في البيت يشيش باللباس القطن. تذكره وهو يضرب أمها حتى تعطيه عشرين جني ينزل يصرفها على القهوة، وهو يلعب الكوتشينة بالفلوس مع أصحابه في البيت ويخرج قزازة الخمرة من جيب الجلابية. اختصاراً، لم تكن منة تحمل ناحية أبيها ذكريات إيجابية كثيرة. ولكن هل كان هذا هو الدافع وراء محاولتها تشويه صورته وتصويره كمجرم وبلطجي ومواجهة قصته بقصص سيد وسيكا وسلطان؟ ليس بالضبط. الأمر قد يكون أبسط من هذا بكثير. عندما يحاول شخص ركن سيارته في مكان ويجد أن غيره قد سبقه إلى هذا المكان، فإنه على الفور يركن في مكان غيره. هذا لا يحتاج فذلكة. الأمر مشابه هنا. كل ما في

الموضوع أن علي وإنجي قد ربطا نفسهما بقصة حربي، وأصبح تحدي هذا الربط مهمة مستحيلة، ميشن امبوسيبول بمعنى أصح. لذا، قررت منة أن تركن سيارتها في مكان آخر. بدأ الأمر بدردشة مع سوسو. قال لها إن الوسخ علي يحاول التمحك في أبيها، فقالت له إن إنجي لا تقل وساخة، طول الوقت تتحامى في صورة حربي الطاهر، وانا اقولك مين حربي دا، مش دا ابويا، لكن انا عارفاه كويس، هو يعني الواحد هيروح النار لو قال الحق! ابويا كان راجل كويس وكل حاجة بس كان كله عيوب مثلاً. وكان فيه واحد اسمه سلطان كنا بنسمعو عنه من زمان، والمصحف برقبته. أخذ سوسو يقلب الأمر على أوجهه المختلفة، ويتذكر حكايات قديمة، أشخاصاً قابلهم، عركات شاهدها، وعركات تورط فيها، ودار ولف وسأل، وعاد بالتاريخ البديل الذي قام بتحريره بنفسه. مبتسماً وهادئاً وواثقاً بنفسه، نام سوسو في حضن مراته.

°°°

لسنوات طويلة ظلت منة تشعر بالامتنان لإنجي. أحبتها من كل قلبها. تذكر الآن بمرارة أن أول جريمة قتل قامت بها كان من أجلها هي. قتلت شيخ جامع غرر بإنجي وهي في بداية حياتها. قررت الانتقام لمعلمتها حتى لو رموها في السجن بسبب هذا. كل شيء كان جيداً في ذلك الزمان. لماذا إذن حدث ما حدث؟ لا أحد يستطيع إيجاد أسباب معقولة لتحولات الناس. المصالح ليست سبباً كافياً، ولا الغيرة، ولا الرغبة في الانتقام. كل شيء حدث فجأة. شعرت منة أن إنجي بتستهبل مع سوسو. والأهم أن سوسو لم يكن يمانع، والأكثر أهمية أن إنجي ملكت كل شيء، البرستيج والسمعة الجيدة والبيت الذي كان من حقها. طيب، ماذا نفعل؟ ولا أي شيء أبداً. سكتت منة، وكتمت في قلبها،

مكتبة عابث الإلكترونية

وقررت أنها في يوم من الأيام، كما انتقمت لعلمتها من قبل، فإنها اليوم ستنتقم منها.

لسنوات طويلة لم تنجب منة، ولم يلح أي أمل في الإنجاب. دمرها هذا. شعرت أنها متروكة في العالم وحدها، بلا أب ولا أم ولا طفل، وبزوج تمنت، بعد سنوات الحب والشوق والغرام، لو كانت قد تزوجت غيره. المشكلة طبعاً ليست في سوسو نفسه، سوسو أحسن من ناس كتير، ولكن منة، ابنة عالم الإنترنت والشات والفيسبوك، كانت تطمح في زواج ينقلها من عالم كرموز، منطقة معفنة وعالم رمة، ولكن مع كل خطوة تخطوها في حياتها يزداد تورطها أكثر فأكثر، يعني هي بقت كدا يعني خلاص يا دنيا؟ وتنزوي منة، تبكي بدموع العين، تبكي مرارة الوحدة وغدر الأيام وخيانة الإخوان، أو من كانت تظنهم إخوان. ولكنها سرعان ما تفيق، تقف، تنفض عن نفسها دموعها، تتحدى، تواجه نفسها في المرآة وتقرر: إذا كان قد حكم عليها بهذه الحياة، لتكن قوية إذن. كن ذئباً وإلا أكلتك الذئاب في الغاب. جمعت منة مع سوسو القصص عن سيد وسيكا وسلطان، تولت جمع صورهم وتكبيرها في مكتب كمبيوتر. وفي عقلها أقامت حواراً مطولاً مع المعلم سلطان.

لسنوات طويلة ظلت منة تقول لنفسها إن هناك أشخاصاً في حياتنا، رحلوا عن عالمنا أو مازالوا أحياء، نتمنى لو نقابلهم يوماً ما، أن نسمع لهم ونتعلم منهم. المعلم سلطان كان واحداً من هؤلاء الناس. بصفتها المسئولة عن إدارة حملة الدعاية للثلاثة سين، فلقد علقت على الجدران جملته "الإصبع المقطوع لا يدوحس"، بتنويعاتها المختلفة، المبتور بدلا من المقطوع، وتظهر فيه الدمامل بدلا من يدوحس، يعني، تنويعات ضرورية حتى لا تشعر الناس بالملل، ومع هذا الشعار مرسومة صورة لكف ممدودة وسكين تمتد على إصبعها السبابة

وتقطعها. كانت تنمو في رأسها الخطة، أي متعامل مع علي وإنجي وحمادة، وأي متعامل مع المتعاملين معهم، وأي متعامل مع المتعامل، كلهم مصيرهم مصير الإصبع المبتور. منة تعرف جيداً أن الخطة صعبة التنفيذ في البداية، ولكن كل حاجة بأوان، وما هو صعب اليوم لن يصبح صعباً بكرة أو بعد بكرة. تزامن هذا مع نمو دمل كبير في إصبع قدم منة، في البدء كان فسفوسة صغيرة، مجرد بثرة ينتهي أمرها بعد يومين. ولكن حماقة الإنسان لا تقف عند حد، لعبت فيها منة بأصابعها، كبرت البثرة وتحولت إلى دمل كبير. حاولت فرقعته بأظافرها، أخرج الدمل القليل من الماء الأبيض وظل مليئاً بكتلة صلبة لا تلين. تركته يومين، فعاد وصغر، فصعب عليها أن تنتهي الأمور بهذه السهولة. عادت ولعبت فيه بأصابعها مرة أخرى. كبر جداً. حتى لبس الصندل أصبح يضايقها من فرط تضخمه. احتاج الأمر في النهاية إلى عملية جراحية طفيفة. خدّر الطبيب الإصبع المدوحس ببنج موضعي ومضى يخرج الصديد من داخله. كانت قرفانة من نفسها ومن حياتها كلها، وشعرت أن الدكتور سيقطع إصبعها نفسه بالمشرط، وتمنت لو يفعل هذا ويرحمها من القرف. فجأة، فيما يشبه القدر، رنت في ذهنها الجملة الخالدة "الإصبع المبتور لا يدوحس أبداً". ابتسمت، وتأملت في عقلها حكمة الناس بتوع زمان. لقد كانوا يتنبأون.

مشهد مقتل المعلم سلطان كان أكثر من ملهم في حياة منة. الجميع تحالفوا ضده، رجالته وأصحابه والحكومة والإرهابيين، وعندما قُتل لم يعرف أحد من الذي قتله، ولم يأخذ أحد بثأره. تركوا جثته في الشارع يوماً كاملاً ولم يتطوع أحد بدفنها. حتى زوجته وأولاده خافوا الاقتراب منها كي لا تصيبهم رصاصة أخرى. المعلم سلطان الذي قتل بيده ما يزيد عن عشرين شخصاً في الأسابيع الأخيرة من حياته، فقط لتطهير المنطقة من الشرطة والمتعاملين معها، يكون

مكتبة عابث الإلكترونية

هذا جزاؤه؟ طول عمر منة وهي تكره الغوغائية والبشر الغوغائيين. لم تحبهم أبداً.

تصورت منة المعلم سلطان في أوضاعه المختلفة، يأكل ويشرب ويسوق سيارته ويمارس الجنس. ذهبت للقباري بنفسها لتتعرف على زوجته. شربت معها الشاي وحاولت دفعها لتفضفض في الكلام، ولم تقصر هذه. بدت في الأول مكسوفة، ثم قالت كلاماً تقليدياً عن الناس الذين لم يعودوا يقدّرون الناس الذين يظهرون كالشموع في حياتهم، ثم دخلت في التفاصيل، المعلم كانت أخلاقه وحشة خالص في بيته، يعني في الأول كان طيب وكويس، لكن بعدين جاتله حالة نفسية وبقى يكره مراته وولاده، بقى يقعد مع نفسه طول الليل والنهار يحسب حسابات ومين م الناس قابل مين ومين ماقابلش، وياويله ويا سواد ليله اللي يتجادل معاه ويقوله ليه عملت كدا ولا ماكانش يصح تعمله. ذات مرة، احتج ابنه عبد الله على مقتل زميله في المعهد على يد المعلم. اشتبك الأب وابنه في نقاش انتهى بأن أخرج المعلم طبنجته من جيبه وأطلق الرصاص، ولكن لحسن الحظ كانت الخزنة فارغة. المعلم كان كويس وكل حاجة، تضيف الزوجة، بس يعني ماكانش م النوع اللي بيخاف على ولاده وبيته ولا يراعي ربنا فيهم. تدوّن منة كل هذه الملاحظات وتخرج بنتيجتها اللامعة، حتى أولاد سلطان وزوجته لم يفهموه. الزمن كله تحالف ضده. وحمدت ربنا على نعمة عدم الخلفة، حتى لا تكتوي بنار جحود الأبناء كما اكتوى سلطان من قبلها. وواصلت مهمتها في نفض التراب عن هذا الإنسان النادر المتكامل.

٣

هناك دائماً تسع طرق للرد بالإيجاب على سؤال مثل سؤال "العصر هيدن لسة؟"، أن تقول آه، أن تقول أيوة، أن تهز رأسك هزة خفيفة وواثقة بنفسها، أن تهز رأسك هزة متشنجة وغير واثقة بنفسها، أن تكرر السؤال بنبرة التقرير، "العصر هيدن لسة"، أن تقول إن شاء الله، أن تقول بأمر الله، أن تقول إن كان لينا عمر، أن تقول إن كان لينا عمر إن شاء الله العصر هيدن بأمر الله. ما نريد قوله أن علي عندما دخل الجامع في ذلك اليوم وسأل هذا السؤال، فلقد تلقى الإجابات التسع من تسعة مصلين يجلسون في الجامع. كل واحد رد بطريقته، وكان في هذا ملمح كابوسي تماماً بالنسبة لعلي.

الإجابات التسع لم تتردد في نفس الوقت. دعنا نقول أنها ترددت بالتناوب. ينتهي هذا فيبدأ ذاك، وإذا افترضنا أن الجلوس في الجامع كانوا تسعة بالضبط، وهو افتراض سليم، وإذا افترضنا، وهو افتراض سليم أيضاً، لا يقل سلامة، أن هناك اثنين يجلسان متجاورين أمام المنبر، واثنين بجانب الباب القبلي، وثلاثة بجانب الباب البحري، وواحداً في قلب الجامع، وواحداً قرب المبضة، وأن هذه الردود التسعة، القادمة من أماكن متباعدة عن بعضها البعض، قد نُطقت كلها بصوت مرتفع، وبدون أن يغير أي من أصحابها قعدته، وبدون أن يوجه أحدهم بصره نحو علي، يمكننا بسهولة أن نفهم الملمح الكابوسي الذي رآه علي في طريقة الإجابة. أصحاب الإجابات التسع كانوا

مكتبة عابث الإلكترونية

يستهينون بسؤال علي. الردود كانت تحمل نبرة مستهزئة، أو على أقل القليل غير مكترثة. ولم تكن هذه هي المرة الأولى.

علي، الشيخ علي، المعلم علي، علي بيه، علي باشا، كل هذه المسميات بدا أنها تخص عصراً ماضياً، ذهبياً، عصراً كان فيه الكبار يتمتعون باحترامهم. ما لم تنجح الحكومة والأعداء في فعله ينجح فيه شوية صبع واقفين على النواصي. إلى هنا، بدت معركة علي وكأنها مع أخلاق الزمن الراهن، تلك الأخلاق التي لم يتعود عليها في حياته السابقة، هو الشيخ الذي يسير في عقده السادس الآن. يحارب الشيخ علي مفردات الحاضر بكل ما أوتي من قوة. ولكن "لم ينسجم"، "لم يتأقلم"، "لم يتكيف مع الواقع"، كلها تعبيرات ملطفة تحاول إخفاء حقيقة أبشع. حقيقة بدا أن علي لم يحب الاعتراف بها ولو أمام نفسه. لقد خبت أسطورته بالتدريج. لم ينطق أحد بهذا، استبعد الجميع هذه الفكرة بكل قواهم، ولكنها كانت تطل بين الوقت والتاني، في الأحلام والكوابيس وزلات اللسان. كان هذا هو جحيم علي، حتى حدث معه ما حدث، في أحد أيام شهر رمضان.

بعد صلاة التراويح، علي يتفرج على التليفزيون، وإنجي بجانبه. يأكل قطعة بسبوسة ويشد نفساً من الشيشة. إنجي تقطع برتقانة بسنانها ويدها اليمنى وباليسرى تتناول قطعة كنافة. وفجأة تظهر تترات برنامج للفتاوى في التليفزيون. علي غير منتبه تحت وطأة الإفطار والحلو والفاكهة والمشروبات والدخان. الشيخ في التليفزيون يتحدث عن شكوى أ. س. من أنها لم تعد تحب زوجها. ماذا تفعل؟ حواس علي تُستنفر كلها. ينظر بطرف عينه إلى إنجي التي وضعت البرتقانة والكنافة في الطبق وقامت إلى المطبخ. يبدأ في التفكير، ماعنديش تحبيني يا إنشي خلاص؟ خلاص على كدا؟ وبتشتكيني في التليفزيون؟ بدأ الأمر

يتضح في ذهن علي واحدة واحدة، ليست أخلاق الشباب الآن هي المشكلة، ولا تغير الزمن هو المسئول عن قلة احترام الناس. عدوه الأساسي الآن هو المدعوة إنجي سليمان عبد الله. هي التي تدير حملة دعائية ضده، تبدأ من كرموز ولا تنتهي في التليفزيون المصري. قرر الانتقام.

○○○

نخطئ، بل نخطئ جداً، لو تصورنا أن علي مجنون. صحيح أنه قد يكون مبالغاً في تصوره عن أ. س. صاحبة الشكوى، ولكن لا دخان بلا نار. إنجي كانت وقتها في مكان آخر. في مكتبها تكتب رسالة طويلة، مؤثرة، من أربع صفحات فولسكاب لمحرر باب صحفي جديد في صحيفة "الأهرام". الباب الجديد الذي حمل اسم "حلال المشاكل" عوض بوجوده باباً آخر، قديماً، كان يحمل اسم "بريد الجمعة". تابعت إنجي الباب الجديد بكل مشاكله ورسائله، بكل عذاباته وآلامه وأشواقه ولحظات يأسه ولحظات فرجه الإلهي، وفكرت لأيام وليال في أن تكون واحدة من بطلاته. تعلقت بشخصية محرر الباب وبردوده، ولم تجد حرجاً في أن تكتب له مشكلتها. كانت هي المثقفة المتعلمة تولي هذه الأشياء أهمية بالغة، على العكس من علي الذي لم يفتح جرناناً في حياته. كانت الصحف جزءاً من يومها. لم تعتبرها مضيعة وقت أو كلاماً فارغاً كما كان يعتبرها جميع أهل هذه المنطقة المعفنة. كانت هادئة تماماً، تكتب بقلم رصاص، تبريه وترمي البرّي في الباسكت. وتمسح على أجزاء معينة وتعاود كتابتها. قررت أن تكون أكثر حذراً من أي وقت مضى، فما تكتبه الآن ليس مجرد كلام، إنه مصائر متشابكة وأقدار ومعلومات قد تذهب بالجميع في ستين داهية. بدأت أولى فقراتها:

"عزيزي محرر الباب الشهير "حلال المشاكل"، تحية طيبة وبعد..

مكتبة عابث الإلكترونية

أولاً أهنئ نفسي وأهنيكم بحلول شهر رمضان المبارك، أعاده الله عليكم بالخير والبركات، وبعد..

فإنني أتمنى على الله أن تكون في أطيب حال أنت وأسرتك الجميلة، وبعد، فإنني اريد أن أحكي لك قصتي، وهي قصة لو أقسمت لك عشرات المرات على صدقها، ونحن في أيام مباركة، فإنك لن تصدقني، لأنها قصة غريبة وعجيبة، والأغرب والأعجب أنها حدثت لي أنا فقط دوناً عن جميع الناس في العالم."

"أحياناً ما أجد نفسي أتساءل، لماذا أنا، وهل لا يوجد أحد في الدنيا غيري، ولا يكون الرد سوى أن هذه حكمة ربنا عز وعلا، وإنني مهما وصلت إلى حكمته فلن أصل إليها أبداً."

"وبعد، فأنا لا أريد أن أطيل عليك، وأنا أعلم أن عندك مسئوليات ومشغوليات، فإن قصتي هذه بدأت منذ الكثير من السنوات، عندما تعرفت على شاب مجتهد ومكافح وحصلت بيننا قصة حب ملتهبة، وكان قد تصادف أن هذا الشاب يمت إلي بصلة قرابة بعيدة، ولهذا فلقد أسلمت له زمام أمري، وقررت أنه من اختارته لي الأقدار فارساً لأحلامي، فأنا كنت دائماً مثالاً للزوجة المؤمنة الصالحة، والآن وبعد أن منّ الله عليّ بلبس النقاب منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً وأنا أعبد الله ولا أعصاه أبداً. المهم أنني تورطت مع هذا الشاب في شيء لا أريد أن أذكره الآن واطضرينا (تمسحها ثم تعاود كتابتها بشكل صحيح) اطرينا للسفر معاً إلى الإسكندرية، وفي الإسكندرية ظل بحر الحياة بتقلباته العالية يحملنا عالياً ثم يقذف بنا إلى أسفل سافلين، ونحن في حيرة من أمرنا، ماذا نفعل، وكيف نواجه الحياة. فقد كنا شابان صغيران ليس عندهم خبرة من أي نوع. المهم إن ما أريد أن أقوله إني صدمت في زوجي المحترم صدمة عمري،

فلقد تعاركنا ذات يوم حول موضوع ما وانتهى الأمر بأن قررت مغادرة البيت الذي لم أسترح فيه لحظة واحدة من عمري، وذهبت لأعيش بعيداً في منطقة شعبية بالإسكندرية. ولكن مرت السنوات، وتدخل أولاد الحلال بيننا حتى رجعت لزوجي العزيز مرة ثانية، وهنا وجدته وقد أصبح شخصاً مختلفاً كل الاختلاف عن الشاب الرقيق المهذب الذي كنت أعرفه. لقد وجدته يا سيدي الفاضل وقد أصبح قليل الاعتناء بمظهره ونظافته الشخصية، حتى أن هناك رائحة سيئة تطلع منه دائماً، ولا جدوى أي جدوى من الكلام معه حول هذا، وعندما أتركه في البيت وأغادره فإنه لا يهتم بنظافة البيت وأرجع لأجد كل شيء في مكان غير الذي كان المفروض أن يكون فيه. حتى أن الترنج النوفيا الذي تركته في البيت عندما غضبت منه رجعت ولم أعرف له مكاناً حتى اليوم. هذا ما فعله زوجي بي بإهماله وقلة اهتمامه."

تضع إنجي القلم على الورقة، تخرج إلى الشباك. تسترجع تاريخها بكثير من المرارة، وفي داخلها سؤال يدوي عالياً، "لماذا أنا، لماذا أنا"، تلاحظ أن الفانوس الذي أوصت بتعليقه على باب الكافيه يميل بزاوية. فتستدعي أحد مساعديها وتطلب منه أن يعدله. تعود لأوراقها. تواصل الكتابة:

"اللهم لا أطيل عليك أن الله قد رزقنا طفل جميل عوضني به عن كل الحرمان الذي أشعر به وكل الحزن والهموم التي كانت قدري في حياتي الحزينة. ولقد تعهدت أنا وزوجي برعاية هذا الطفل حتى أصبح الآن شاباً يافعاً الطول ممتلئاً بالحياة، ولكن إذا كان رب البيت بالدف راقص، فإن هذا الطفل نشأ مهملاً كأبيه بالظبط. وبرغم أن مركزنا أصبح كبيراً في الإسكندرية، وأننا نملك العديد من المسئوليات والممتلكات، وأننا المفروض أننا نجهز ابننا الحبيب لكي يتولى مسئوليته في هذه الممتلكات، فإن زوجي لا يهتم مطلقاً بهذا. وهو لا

مكتبة عابث الإلكترونية

يفعل غير أنه يجلس أمام التليفزيون طول الوقت ويأكل، حتى أن وزنه أصبح ضخم جداً وأنا متأكدة أنه أصبح ٢٠٠ كيلو أو أكثر، بينما أنا أحافظ على رشاقتي وجمالي، حتى مع أنني أرتدي النقاب، هذا بالإضافة إلى نظافته التي يتركها ولا يحلقها منذ سنوات طويلة حتى أصبح مظهره سيئ جداً، مع إن المظهر عليه عامل مهم جداً في مهنتنا هذه، التي أرجو منك ألا تسألني عنها فهي مهنة شديدة السرية."

قامت إنجي بمسح كلمة "سرية" بالجومة، وكتبت بدلاً منها "خطيرة جداً"، ثم مسحت "خطيرة جداً" لتكتب "سرية" من جديد، هنا اكتشفت أن الورقة اهترأت من كل هذا المسح. فأخرجت ورقة جديدة. أعادت كتابة الفقرات الماضية عليها، ثم واصلت:

"أنا متأكدة يا سيدي أنك تتحرق شوقاً الآن لمعرفة من أكون، ولابد أنك تسأل نفسك من هذه المرأة الجميلة والمجهولة التي اقتحمت حياتي في هذا اليوم الجميل لتكتب لي مثل هذا الكلام الغامض والمجهول. وأنا أجيبك بأنني أرجوك بأن تعفيني من ذكر اسمي أو أي بيانات تدل عليه. حيث إن هذا فيه خطورة كبيرة علي وعلى زوجي الحبيب. ولكن ما أريد أن أقوله لك هو لم العجب، لم العجب في أن تكون حياة أمثالنا من المسئولين هي أيضاً تحوي على تفاصيل شخصية. أليس نحن بشر في نهاية الأمر؟"

فكرت إنجي أكثر من مرة في إلغاء هذه الفقرة. كانت تريد لرسالتها أن تكون مختصرة ومركزة وتتكلم في المفيد والمفيد فقط. ولكنها عادت وقررت تركها. ثم عاودت سرد قصتها الحزينة:

"المهم لا أخفيك القول يا سيدي إن حياتي مع زوجي هذا أصبحت جحيماً لا تطاق. فهو يقشر الفستق طول الوقت ويرمي القشر على الأرض. وكذلك

يقشر اللب، ناهيك عن كانزات البيبسي والميرندا، وعندما تتوسخ ملابسه يتركها في الدولاب ولا يكلف نفسه عناء أن يرميها في طشت الغسيل حتى، وذلك حتى تصدر منها رائحة كريهة. وهو يلعب في أنفه بشكل مقزز أمام طفلنا الوسيم الذي أصبح الآن شاباً يافع الطول، كما أنه يصدر غازات كريهة الرائحة طول الوقت، وهذا كله يضايقني جداً، حيث أنني أصلاً من عائلة في منتهى الأرستقراطية بينما هو من عائلة تعتبر من العائلات الشعبية في القاهرة، برغم أنني وأنه أقارب من الناحية البعيدة، ولهذا فأنا خائفة على ابننا أن يتأثر بمثل هذه السلوكيات، فماذا تنصحني أن أفعل يا سيدي؟"

كتبت إنجي هذه الأوراق ثم وضعتها في الظرف، وأرسلت عاملة عندها لترميها في البوسطة. لم تكن قد كتبت اسماً لها ولا عنواناً. فقط مشكلتها المكتوبة في أربع ورقات، ملفوفة فيهم ورقة من فئة المئتين جنيهاً، على وعد بمبلغ مالي أكبر في حال تم نشر المشكلة بسرعة. كانت تعي بالخطورة الكامنة في منحها الرسالة لشخص آخر لكي يرميها في البوسطة، فرسالة خطيرة، هكذا كانت تصف رسالتها، بالمعلومات التي فيها، لا يجب على الإطلاق أن يعرف أحد من الذي أرسلها. كانت إنجي تفضح برسالتها جميع العالم، وتعرض حياة عائلتها الصغيرة لخطر محقق، ولكن ماذا نفعل؟ نحن في النهاية بشر، وللبشر طاقة على الاحتمال، وإنجي نفدت طاقتها منذ زمن طويل.

هذا ما كانت تفعله إنجي، أما علي فقد كان ينتقم. علي كان يضرب ضربته الأقسى، والتي ظل يخطط لها منذ شاهد الحلقة إياها في البرنامج إياه. لأيام بعدها ظل علي يصف هذه الفترة برمضان المفاجآت، تأتيه الضربات من حيث لا يتوقعها، ويردها إلى حيث لا يتوقع خصمه، بدا له كأننا. كلنا، ليس هو وعائلته فقط، وإنما كل البشر، غارقون في غسالة عملاقة. الغسالة تهبد

مكتبة عابث الإلكترونية

الجميع بداخلها، ما كان فوق يصبح تحت وما كان تحت يصبح فوق، الدنيا زي الغسالة من تحت لفوق، ويخرج البشر منها في نهاية المطاف. صحيح أنهم مغسولون جيداً الآن، ولكنهم متعبون، ألوانهم باهتة، مقاساتهم مختلفة عما كانت عليه قبل الغسيل. حتى الصابون الجيد لا تخرج من تحته الملابس بنفس ألوانها القديمة. بهذه النظرية لم يكن يفكك البشرية كلها فقط، وإنما كان يقوم بتفكيك الإعلانات التليفزيونية أيضاً. في هذه المرحلة كان علي يحارب الجميع، من أول جوهر الإنسان وحتى شركات الصابون. علي كان نموذجاً للصوفي الفيلسوف في هذه المرحلة، والفيلسوف الصوفي لا يخشى شيئاً طالما أنه مقتنع بأفكاره.

فتح علي لحمادة ابنه محلاً بجانب محل سوسو القديم المهجور. سأل حمادة عن نوعية النشاط الذي يرغب في ممارسته فأجاب هذا بحماس، الرسم يا بابا. فتح علي مرسماً لحمادة، أطلق هذا عليه اسم "الفنون والألوان". المرسم كان ملاصقاً للمحل الذي ملكه سوسو يوماً والذي عرف باسم "كبدة الكرنتينا"، والمؤجر الآن رسمياً لشخص اسمه رمضان المعدول، ولكن فعلياً، لا يستعمله أحد بعد هجوم رجال علي عليه وسكبهم الكبدة على الأرض. وهكذا، في غفلة من الزمان، مضى حمادة يوسع في مرسمه، أتى بصنايعية أمام الجميع لفتح المحلين على بعضهما، في تحد صارخ لسوسو. وبدأ يمارس نشاطه الرسمي، رسم اللوحات للناس، وبيع بعض الحلويات والسجائر للأطفال، مع نشاطه الحقيقي، تكوين نواة الجيش الذي سيتمكن به من محاربة سوسو يوماً.

العدو الأول للرجال بالطبع كان سوسو، ولكن هناك أعداء آخرين. في الليالي الرمضانية، يتم رص الكراسي وتجهيز الشيش، ويجلس علي مع

الرجال في المحل. يحكي لهم تاريخ العائلة، وتاريخ الإسكندرية، ثم يسرب تلميحات بين السطور، مثلاً هل يعلم أحد أن إنشي، الشيخة إنشي المتنقبة التي تصلي الفرض بفرضه، تدير نشاطاً للدعارة في الكافيه. طبعاً لا أحد يعلم. طيب، هل يعلم أحد أن إنشي هذه، هي قاتلة أيضاً، كم قتلت من أبناء الإسكندرية المحترمين الذين طلبوا منها بكل أدب واحترام أن توقف نشاطها. لا أحد يعلم أيضاً. طيب هل يعلم أحد أن إنشي كانت لها قصة قديمة مع شيخ طيب اسمه خالد، وإنها سلمت نفسها له وهي على ذمة علي لا تزال، وأن لها قصة جديدة مع سوسو النجس، تحبه ويلتقيان سراً (يكرر)، تحبه ويلتقيان سراً، بعد كل ما فعله سوسو ضدهما وضد الإسكندرية كلها. أبو أميرة يهمس لعلي، ما كفاية حشيش النهاردة يا شيخ، فيبعده علي بقوة ويزعق، سيبني يا حاج، سيبني يا حاج، إنت أصلك راجل طيب مش فاهم حاجة. في النهاية، كما هي العادة، ينادي أبو أميرة حمادة لكي يسند أباه وهو يصعد البيت. علي لا يرى أمامه، أبو أميرة يقول هذا بسبب الحشيش، وعلي يقول هذه سكينة الغدر. سكينة الغدر انغرست في قلبه فطعنته، هو الشيخ الذي لم يعد يريد من الدنيا حاجة.

الكلام يصل لإنجي، فتجلس وتحاول كتابة رسالة أخرى للمحرر الصحفي، ولكن الدموع تغلبها. رقيقة لازالت إنجي، وتفهم إنه مهماً عمل زوجها فلا ينبغي أن تظهر خلافاتهما أمام الناس. فتصور علي بالكاميرا وهو يبلع حبابة فياجرا، ثم تصوره وهو مع إحدى الشرامط، ثم ترسل الصور إلى مباحث الآداب. تجلس أياماً وليالي تنتظر القبض عليه ولا أحد يتحرك. إنجي الغيظ يأكلها، ما هي بلد معرصة. تجلس في الجامع تعطي درساً للسيدات، تسألهن بالله عليهن، كيف يرضين بأن يدار في المنطقة أكبر بيت دعارة عرفته البشرية، وهن لا يتكلمن، طيب، كيف تكون الدولة على علم بكل شيء ولا

مكتبة عابث الإلكترونية

تتحرك، مش دي تبقى بلد معرصة؟ ولا ترد إحداهن، ربما تزوم واحدة وربما تهز أخرى رأسها. توقن إنجي أن هذه البلد لا تستحق، وأن ابن الناس لم يعد له مكان في هذا الزمان، فتعود لتكتب رسالة أخرى لمحرر الباب:

"عزيزي محرر الباب الشهير "حلال المشاكل"، تحية طيبة وبعد..

أنا زهقت خالص، أنا أفكر ساعات أن أموت نفسي ولكن أقول أني ست مؤمنة ولا يجب أن أفعل هذا، لكن الدنيا أصبحت صعبة، وزوجي، أو الذي كنت أظنه زوجي، يقول عني كلام سافل في كل مكان، وأنا لا أريد أن أرد عليه لأني ست مؤمنة. يقول عني أشياء اعفيني من ذكرها الآن. ولكنني أقول له من خلال هذا الباب الكريم، تصدق بالله يا أخي إنك إنسان قذر آخر قذارة. وإن حسبي الله ونعم الوكيل فيك يا رمة يا زبالة. يا زبالة الزبالة."

ترسل الرسالة تلو الرسالة ولا يتم النشر أبداً. إنجي مؤمنة كما وصفت نفسها، تعرف أن الدنيا فيها ابتلاء كثير، وأن الله سيعوض الصابرين في الآخرة، فلا تيأس. تبكي بدموع العين، ومع الوقت، ومع الصلاة الكثيرة، تتحول دموع اليأس لدموع فرح بفرج الله القريب، دموع محبة لله.

°°°

وكان لابد لرمضان المفاجآت أن ينتهي بأكبر المفاجآت: مات أبو أميرة.

بعد انتهاء صلاة التراويح في ليلة القدر، عاد أبو أميرة، واسمه الأصلي عبد الحميد رجب شحاتة، إلى بيته. لم يسهر في الخارج. بقي في البيت يقرأ القرآن ويتعبد. في النهاية، على الساعة الواحدة، تناول سحوره ونوى الصيام في اليوم التالي، نام، ثم لم يقم.

الميتة، كما نرى، هي ميتة نموذجية لرجل ظل يعبد ربنا طوال أيام حياته. رجل كرس عمره لخدمة الناس ولذكر الله. وهذه هي الرسالة التي يبدو

أن السماء أرادت إيصالها لأهل المنطقة: لقد خسرتم رجلاً صالحاً وعالماً فذاً من علماء الإسلام. يصعب التكهن برد فعل أهله وأصدقائه على خبر الموت، وبالأخص علي، الذي كان يكن لأبو أميرة محبة من نوع خاص. ربما بكى أو صرخ، وربما سكت وتجرع في نفسه مرارة الأيام. ذهب الذين تحبهم يا علي، فإما أن تكون، أو لا تكون، لا مفر. في العزاء التقى علي بسوسو للمرة الأولى منذ وقت طويل، بل وفرض الوضع عليهما أن يتصافحا وأن يتلقيا العزاء سوياً في الراحل العظيم. فكرة واحدة كانت تدور في خلد كل منهما، لقد راح الوحيد الذي كان يحوش بينهما. الآن يستطيع علي تدمير سوسو لو أراد، ويستطيع سوسو الرد بكل ما يمكن من قوة، ولن يفرض عليهما أحد أن يراعيا الشخص الذي كان يقف حائلاً بينهما. عاد علي من العزاء والدموع تبلل مقلتيه.

والآن لنحاول أن نستعرض سوياً بعض منجزات الراحل العظيم.

ولد عبد الحميد عام ١٩٦٥. في بيت فقير من بيوت حي الزنانيري، ولد لأب وأم صعايدة قادمين لتوهما من سوهاج. الأب كان يعمل بواباً. ورث منه عبد الحميد المهنة، وورث مهن أخرى. تعلم كيف يلاغي الزبونة الصاعدة إلى شقة عازب لتدفع له أكبر إكرامية ممكنة قبل صعودها، وكيف يحصل على إكرامية مماثلة من الشاب العازب بعد نزولها. بعد وفاة الأم والأب وبعد أن صار في رقبته أخوان عليه مراعاتهما وتربيتهما، توسع قليلاً في عمله، بالاتفاق مع أصحاب العمارات التي كان يعمل بها بالطبع. لم يفعل أي شيء بدون معرفة صاحب الملك. في أثناء هذا تزوج من إيمان حسني عبد الله، والتي قدر لها بعد ذلك أن تصبح أم أميرة، ثم، في النهاية، أن تصبح أم أميرة القرعة. تنقل بين الزنانيري والإبراهيمية والشاطبي، حتى انتهى به المطاف في كامب شيزار،

مكتبة عابث الإلكترونية

أنجب هناك أميرة ومات، ثم وقع الحادث الأهم في حياته، كما صار يصفه هو نفسه بعد ذلك، قابل علي.

(يدعي الكثيرون أن الصداقة التي نمت بين علي وأبو أميرة، والتي استمرت حتى الموت، كانت بفعل المصلحة، أن أبو أميرة كان يعرف جيداً أن مصلحته مع علي، وأنه دبر مقتل أخو علي بهذا الغرض، ليأخذ علي نصيبه من الميراث ويكبّر أبو أميرة معه. رداً على من يدعون هذا نقول لا. هذا ليس صحيحاً. صحيح أننا لا نملك معلومات كافية ترد على هذا الادعاء، ولكننا نملك يقيناً كاملاً، ومعرفة لا تحتاج دليلاً على سمو أخلاق أبو أميرة ورفعتها).

كبر علي، وكبر أبو أميرة معه، ظلا نموذجاً نادراً لصديقين وفيين لم يفرق بينهما سوى الموت. وعندما وقع الخلاف الأخير بين علي وسوسو، لزم أبو أميرة الحياد. كان صعباً عليه أن يرى كل جهده الذي أرساه من أجل بذر القيم الجميلة يضيع هكذا في خلاف على شوية متاع زائل. يقول البعض أن هذا هو السبب الذي عجل بموته. قبل موته قال لعلي أنه لن يحب أن يشارك في حرب بين أخيه وبين صديق عمره، ولكن إذا حكمت الظروف، فلن يجد فرصة أفضل لتأديب أخيه على قلة أدبه. ابتسم علي. ربت على كتف أبو أميرة، واعتبرها وصية. صحيح أن الصلح خير، ولكن على كل منا أن يحفظ أدبه.

مات أبو أميرة عام ٢٠٣٧، عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً، مكللاً بالمجد انتقل إلى الرفيق الأعلى، صارت روحه وديعة في يد من لا تضيع ودائعه. الفاتحة لروحه يا مسلمين.

في حياة الأمم هناك لحظات صعود وهناك لحظات تراجع. هذه حقيقة تاريخية.

السطور التالية هي سطور صعبة، يصعب الاعتراف بها، ولكن الاعتراف بالحقيقة هو جزء من واجبنا، وتقديمها – أي الحقيقة – بلا رتوش أو إضافات أو تجميل، إلى أيدي قارئنا الكريم، الذي سيعرف الحقيقة عاجلا أم آجلاً، سواء كنا نحن قائليها أو قالها غيرنا. ولذا، ولأن أقصر الطرق للإقناع هي الصدق، فإننا نعرض الصورة كاملة، في موضوعية وحياد.

يصعب القول أن هذه السنوات كانت هي أفضل السنوات بالنسبة لإمبراطورية علي وإنجي. كانت ثلاثينيات القرن الحادي والعشرين هي واحدة من لحظات التراجع بالنسبة للاثنين اللذين أخذا على عاتقهما تأسيس مدينة كاملة من لا شيء. بعد العشرينيات المزدهرة، والتي حققت فيها هذان الزوجان المتحمسان إنجازات على الأرض لا بأس بها أبداً، تأتي الثلاثينيات بفصلها الافتتاحي الكئيب، سوسو وهو يقود الرجال والنساء عرايا من الكرنتينا كافيه، وما أعقب هذا من امتناع الناس عن ارتياد مثل هذا المكان، خوفاً من الفضيحة المؤكدة، ولكن، وهو الأهم، ما أعقب هذا من تشكك الجميع في أهلية علي وإنجي الكاملة لقيادة عجلة التغيير التي طالما حلم بها السكندريون.

بدا وكأن الاثنين قد شاخا. أو أنهما تفرغا لمعاركهما الداخلية، وبصعوبة كان الواحد منهما ينظر حوله، إلى منطقته وأهله وأبناء مدينته. بدا كأن الإسكندرية تنفض عن نفسها حلماً جميلاً راودها لفترة قصيرة من الزمن. في البدء قال الناس أن علي وإنجي مايزالان كما هما، وأن ما يبدو بوصفه لحظة تراجع لم يكن إلا تكتيكاً، ولكن التكتيك طال، وطال معه الانتظار. وتدريجياً، بات على الجميع الاقتناع بأن الزمن الجميل يوشك على الانقضاء. في البدء ماتت الحاجة نادية، لم يتذكرها أحد عندما ماتت. بدا موتها موتاً هامشياً. لم ينتبه أحد لرحيل تلك المرأة التي كادت تصبح زوجة حربي في يوم من الأيام. عائلة

مكتبة عابث الإلكترونية

حربي كلها تقوضت: أخوه الشيخ حسن مات، واعتماد زوجته ماتت، والآن نادية حبيبته وأقرب الناس إليه، ومنة ابنته تزوجت سوسو ولم يعد أحد يراها. وعائلة أبو أميرة تأخذ في الانهيار أيضاً. أم أميرة ماتت. أبو أميرة مات. سوسو انعزل وقرر العمل لحساب نفسه. وعادل خرج من السجن وسافر إلى ليبيا. عائلة علي وإنجي كانت صامدة أمام الموت، ولكن بشكل كوميدي. علي يجلس في القهوة طول اليوم، يلعب جيمز على الموبايل وبين الوقت والآخر يخرج مقصاً صغيراً من جيب جلابيته الأعلى ويقص شعرات وهمية في أنفه. إنجي تصبح أكثر وأكثر انشغالاً بقراءة الجرائد والمجلات، تقص منها صور الفنانين والشيوخ وتعلقها في المكتب، ثم تجلس لتكتب رسائل لمحرر الباب. وحمادة يرسم الناس.

ولكن لا شيء يموت. علمنا أينشتاين زمان أن المادة لا تفنى، وإنما تأخذ أشكالاً أخرى. ثقل الكرنتينا تحول إلى حيث محل سوسو وبيته، والزوجان علي وإنجي نفسهما، يتحولان إلى الزوجين سوسو ومنة، وبطولة حربي تحولت إلى بطولة سيد وسيكا وسلطان. مع كل ما يستلزمه هذا، قيم الماضي، قيم الشرف والأمانة، تحولت إلى قيم الفهلوة والخطارة وجيبك سلاحك. أمام كل هذا الانهيار الحضاري الذي أصاب الإسكندرية في الثلاثينيات، مع الحروب الداخلية بين أبناء المدينة وبعضهم البعض، لم تقف الشرطة صامتة. كان يتم اقتياد الفتيات من الكافيه في أي وقت في اليوم، ومعهن زبائنهن، ويتم تلفيق قضايا المخدرات لرجال المنطقة، وتعذيب البعض أيضاً، بالإضافة إلى أنواع معينة من الشباب، هؤلاء الذين رأيناهم من قليل لا يقدمون لعلي الاحترام الكافي، كانوا يدخلون المنطقة، يشغلون الأغاني بصوت عال، يضايقون الرائح

والغادي، ولا أحد يقف أمامهم، لا أحد لديه النفس ليقف أمامهم. الجميع عينه مكسورة الآن.

بدأ التراجع السريع، رصيد كل من علي وإنجي يهبط في البنك. يسحبان منه بلا حساب، بدون إيداع مبالغ جديدة. اقترحت إنجي شراء أراض جديدة، في مناطق مثل أبو تلات وغيرها، ولكن هذا المشروع كان دوماً ما يتم تأجيله. الأسعار ولعت، صار من ينزل وفي جيبه ألف جنيه لشراء شوية جبن وبسطرمة من السوبر ماركت، يعود وليس في جيبه حق التاكس. وعلي كان عاشقاً للبسطرمة، ولم يكن عاشقاً لشراء الأراضي.

عدنا إذن إلى نقطة الصفر. كل الثلاثين عاماً الماضية كأن لم تكن. والناس عادت لمصالحها وأشغالها من جديد وهدأت فورة الروح الوطنية التي اندلعت فيهم لسنوات وسنوات. في هذه السنوات، توقف كاتب التاريخ العجوز عن التدوين. ذهب ليعد كوباً من الشاي، عاد وأشعل سيجارة، ثم فتح صفحة جديدة في كتاب التاريخ، ومضى يكتب عليها، بخط متردد وباهت: "هل انتهى كل شيء حقاً؟ هل أن هذه هي النهاية الحاسمة، والمروعة، لصفحة من أنصع صفحات تاريخ الإسكندرية والوطن في العصر الحديث؟ هل أننا نقول بهذا وداعاً، وليس إلى اللقاء، لحلم جميل عشش في الأذهان ثم ما لبث أن مات؟"

بدا كاتب التاريخ يعاني ألماً هائلاً وهو يكتب: "بلا شك، فإن الإجابة على كل هذه التساؤلات هي نعم. الله كريم".

وهكذا أطفأ كاتب التاريخ نور غرفته، وذهب للنوم.

مكتبة عابث الإلكترونية

٤

قبل مئة عام بالضبط من وفاة أبو أميرة، وبالتحديد في العام ١٩٣٣، كتب توفيق الحكيم رواية بعنوان "عودة الروح". يمكن لنا الحديث عن الرواية لساعات لو لزم الأمر، ولكن ما يعنينا فيها هنا هو فقرات كتبها وصاغ بها حواراً بين اثنين، مفتش ري إنجليزي، وعالم آثار فرنسي، حول طبيعة الشعب المصري. الإنجليزي كان ينظر للشعب بعين الاستعلاء والتعصب الأعمى ضد حضارات الشرق، أما الفرنسي فقد كان عاشقاً للجوهر الكامن للمصريين، وفوق هذا، كان هو الأكثر عقلانية في حديثه. سنقتطع هنا جزءاً من الحوار الدائر بين الاثنين، بخلاف الجزء الذي اقتطعه عبد الناصر بالطبع وهو يخطط لثورته. يقول الفرنسي بهدوء مخاطباً زميله الإنجليزي: "ثق يا مستر بلاك أن الفاسد من هذه الأخلاق ليس من مصر، بل أدخلته عليها أمم أخرى كالبدو أو الأتراك مثلاً، ومع ذلك فلا يؤثر هذا في الجوهر الموجود دائماً"، يرد عليه الإنجليزي، ويمكننا افتراض أنه أطلق صفيراً مندهشاً وأزاح قبعته عن رأسه ليهرش شعره ويستوعب فيض الحقائق التي تنهال عليه الآن: "قل لي ما هو هذا الجوهر؟"، فيجيب الفرنسي، ويمكننا افتراض أن ثمة ابتسامة حكيمة وهادئة على شفتيه: "إنك ترتاب في قولي! ولكني أكتفي بأن أقول لك احترس! احترسوا من هذا الشعب، فهو يخفي قوة نفسية هائلة!"

هكذا يقوم الفرنسي بوصف جوهر الشعب المصري في عبارات جامعة مانعة، تحوي الحكمة والإقناع والقوة والتحذير في نفس الآن. ولكن لا يمكننا أن نتجاهل للحظة أن كاتب هذه العبارات هو توفيق الحكيم نفسه، الذي عاش في باريس وأعجب بأهلها وبفكرهم، وعندما قرر خلق شخصية حكيمة متعاطفة مع المصريين، كانت الشخصية الفرنسية هي أول ما فكر فيه. وبالمثل، فقد كان حمادة أيضاً عاشقاً لباريس.

القوة النفسية الهائلة للمصريين، والتي تنبأ بها توفيق الحكيم منذ مئة عام، بدا وكأنها تجلت بالتحديد في حمادة، وفي مرسمه الفخم الذي حمل اسم "الفنون والألوان". بعد كل مظاهر الانهيار التي أسهبنا في وصفها في فترات سابقة، ظهر المرسم وكأن جذوة الحياة انتقلت إليه، يحافظ عليها حمادة، يخفيها عن الأعين ويحافظ على اشتعالها في الوقت نفسه، تأهباً ليوم تظهر فيه أمام الجميع.

القوة والحساسية كانا هما الجناحين اللذين اعتمد عليهما حمادة في عمله. القوة تأتي من الجيش الصغير الذي يربيه في مرسمه لتدمير سوسو، والحساسية تجلت في اللوحات التي كان يرسمها. لوحات فرنسية الإيحاء، رقيقة، تركز على العمق الداخلي للشخصيات وليس على الملامح الخارجية التافهة. بألوان رقيقة، مثل الأورانج والموف والتركواز كان يرسم أجمل اللوحات. يعاونه في هذا صديق عمره فاروق. يحضر له الألوان وينصب اللوحة ويدل الناس عليه. يتقاسم حمادة معه المال الآتي من الزبائن، ويمنحه نظرات محبة وتشجيع. فاروق إنسان موهوب، يقول حمادة لنفسه، جواه فنان كبير، لو كان القدر اتغير، كنت هابقى مكانه وهو يبقى مكاني. رسم حمادة لوحة كبيرة، فيها رجل كبير وضخم بجانبه رجل قصير ونحيل، ثم رسم لوحة ثانية، فيها نفس

مكتبة عابث الإلكترونية

الرجل الضخم وقد تحول إلى شخص قصير، والقصير أصبح هو الضخم الطويل. وضع عنواناً للوحتين يقول: "آه من هذا القدر الظالم".

قوى الشر حول حمادة كانت كثيرة ومؤثرة. بدا وكأن الجميع قد تواطئوا في تلك الأيام على إقناعه بحقيقة وحيدة، مفادها أن فاروق ليس إلا شخصاً وهمياً، ليس له وجود، وإنه مجرد خيال من خيالاته. رداً على هذه الادعاءات رسم حمادة لوحة لنفسه مع فاروق، يسلمان على بعضهما البعض ومن خلفهما البحر وقلعة قايتباي. ظهر فاروق في اللوحة بملامحه الحقيقية، ضئيل الحجم، نظراته منكسرة، تحوي بعضاً من "الخجل الجميل" كما أطلق عليه حمادة. في يوم ما، شرب حمادة القهوة مع صديق عمره في قهوة بسيدي بشر، قاده بعدها بالسيارة إلى كرموز، إلى مرسمه، فتح باب المرسم ودخل، قال لفاروق إنه سيشاهد الآن تحفة من تحف السنين. رفع الستار بقوة عن اللوحة التي ظل يرسمها لشهرين. رأى فاروق صورته بريشة صديقه الفنان، فتأثر وارتجفت ملامحه من فرط التأثر. رفع حمادة اللوحة وقال لصاحبه، دي هديتك، دي مني ليك، فامتدت يد فاروق لمحفظته كي ينقد صديقه ثمنها. أمسك حمادة يده وقال له، عيب يا روقة، عيب، إنت صاحبي، وانا رجل جدع. تعانق حمادة وفاروق في لحظة عاطفية مؤثرة.

أهم زبائن حمادة قاطبة في هذه المرحلة كانت صباح، الفتاة التي توله بحبها حتى ملكت عليه زمام أمره، تماماً. حدث هذا في نهار يوم حار من أيام شهر يوليو. كان منهمكاً في رسم لوحة جميلة عندما رن موبايله في جيبه، الرفاق حائرون، يفكرون، يتساءلون، مع بعض الفيبراشن القوى. كان لابد لحمادة أن يسب الدين لهؤلاء الذين يزعجون الفنانين ولا يقدرون نعمة

الإحساس. أخرج التليفون ورد، وكانت المفاجأة. صوت نسائي مرتبك وناعم، ألو، أستاذ حمادة؟ أنا اسمي صباح، أنا شغالة عند الشيخ علي في الكافيه، أنا كنت عاوزة خدمة من حضرتك، ممكن اجيلك في المحل إمتى؟

صباح، صباح، دق قلب الفتى بقوة. هاهي الأيام تحمل إليه أجمل هدية وتعوضه عن سنين الوحدة والحرمان. قال لها إنه ينتظرها الآن في المرسم، وأخذ يرتب المكان بشكل محموم. جرى نحو البيت، تحمم وتعطر وحلق ذقنه ولبس شيك، بدلة كاملة بكرافتة في عز الحر، ثم نزل المحل. شغل الموبايل على سلسلة من أغاني تامر حسني القديمة، وجلس في الانتظار، ثم قام، وأخرج اللوحة التي كان يرسمها، خلع ملابسه الشيك وارتدى لبس الشغل، بالطو مبقعاً بالألوان وبيريهاً، وأخذ يرسم، حتى تأتي وتجده مستغرقاً في الفن، ثم خرج من المحل، جرى حتى آخر كرموز ليشتري بايب، عاد ومعه كيس تبغ، ومضى يحاول إشعاله في المحل، فشل مرة ومرتين ونجح في الثالثة. الآن هو الفنان المكتمل. بعد لحظات ملّ من صورة الفنان المكتمل. خلع البالطو والبيريه، وعاود ارتداء البدلة والكرافتة، جلس على المكتب وفتح كتاب "أجمل قصائد نزار قباني" ومضى يرددها بصوت حالم وإن كان مسموعاً. بعد قليل قرر اتخاذ خطوة أبعد، وضع الكتاب مفتوحاً على حامل اللوحة، وأخرج من المخزن جيتاره القديم. وقف أمام حامل اللوحة ومضى يلحن على الجيتار قصائد نزار قباني، يا كل نساء الأرض أحبيني، يا من أحببتك حتى احترق الحب، أحبيني، وظهرت صباح.

ببساطة، ودون الدخول في تعقيدات كثيرة، كانت صباح تريد لوحة لها. الأيام الحالية أيام صعبة بالنسبة لمن يعملون في مهنة مثل مهنتنا، والزبائن قلوا ياما عن أيام زمان. أعدت صباح لنفسها عدة صور فوتوغرافية في براويز،

مكتبة عابث الإلكترونية

وقررت إضافة اللمسة الفنية، لوحة بالفرشاة والألوان الطبيعية، وكان حمادة هو المرشح الوحيد لمثل هذا العمل الفني الجبار. أخذت تشرح له وقلبه يدق بعنف. لم يكن يسمعها تقريباً. كان يحضر في ذهنه ما سيقوله لها بعد انتهائها من الكلام. لم يسعفه عقله بكلام كثير، هو ملك الكلمة الحلوة والتعبير الرومانسي. فقط في النهاية، أو قبل النهاية بقليل، عندما بدا أنها ستتوقف عن الحديث، خطر على ذهنه الرد الأقوى، الذي سيزلزل قلوب أقوى النساء. استأذن منها، ودخل المخزن، ثم خرج ومعه لوحة كبيرة، أراها لها وهو يهمس، طلبك عندي يا ست الكل.

لشهور طويلة كان حمادة يرسم لوحة لصباح، كان قد حصل على صورة فوتوغرافية لها من ملفها المحفوظ بإدارة الكافيه، ومضى يرسم اللوحة بالاستعانة بها. اللوحة كانت مليئة بقلوب صغيرة متطايرة، واللون الموف الفاتح كان هو المسيطر عليها. كل شيء في اللوحة كان رقيقاً، فرنسياً وباريسياً في نفس الوقت. بدت صباح في اللوحة وكأنها امرأة أخرى، بلا نمش على وجهها، وبأنف أقصر قليلاً، وروموش أطول كثيراً، وتفتح فمها فتحة كلها إغراء ورومانسية. وعندما طلبت صباح من حمادة طلبها هذا، أيقن أن هذه هي لحظته الذهبية. بهذا، كما سيفكر فيما بعد، كسب شيئاً وخسر آخر، كسب أن صباح لاحظت اهتمامه بها، وخسر كونها لن تأتيه مرة بعد مرة لتسأله عن اللوحة. لقد خلّص من أول مرة.

ولكن صباح جاءت مرة ثانية وثالثة. كانت خارجة لتوها من قصة حب عنيفة استغلها صاحبها فيها، وتحتاج إلى الصدر الحنيّن، وحمادة تطوع بآداء هذا الدور. حكت له عن ظروف حياتها الصعبة، عن الناس الطمعانين في جمالها في كل مكان في العالم. عن صاحبها الذي تركها لأنها كانت تحكي له

بحماس بعض التفاصيل عن عملها، عن أبيه – الشيخ علي – وأمه – الحاجة إنشي – اللذين يحيلان حياتها جحيماً إذا خرجت في شغل خارج الكافيه. العالم كله يتحالف ضدها، وحمادة، كفارس في زمن بلا فرسان، كان يتطوع بأن يطيطب عليها عندما تحتاج ذلك. قالت له إن الناس اللي زيها – هي، صباح – لا يجب أن يعملوا عند أحد، إنهم لم يتعودوا ذلك، وإن الناس اللي زيهم – هي، صباح، وهو، حمادة – لا يجب أن يتركوا بعض عندما يكونون بالعافية قد وجدوا بعض، فقال لها إن الحل لهذين المشكلتين هو حل واحد. لقد استيقظ بداخله الحلم القديم، سيتزوج صباح.

٭٭٭

سيكون من الصعب علينا القول إن هذا القرار من جانب حمادة قد قوبل بالترحاب. الناس في مصر ليسوا كلهم بهذه الطليعية الذي كان عليها حمادة. مواصفات النخبة وشروطها غير مواصفات وشروط رجل الشارع. في البدء لم تفهم أمه المطلوب. قال لها كلاماً كثيراً، مثل إنه أصبح رجلاً الآن وإن الدنيا تغيرت كثيراً، وإن زمنكو يا ماما غير زماننا، وإنه لازم يستمتع بشبابه. أشعلت أمه سيجارة، ومين بسلامتها التي فكر فيها، قال لها إنها صباح، فابتسمت بسخرية ودخلت أودتها. قال لأبيه فسأله أبوه إن كان أحب صباح الشرموطة لأنها صباح أم لأنها شرموطة، وارتبك حمادة. لم يعرف إن كان هذا رفضاً أم قبولاً. في اليوم التالي عاود الكرة. سأل أباه وسأل أمه، دخلت أمه أودته للمرة الثانية، وسأله أبوه نفس السؤال للمرة الثانية، مذكراً إياه بأنه لم يجب عليه امبارح. في اليوم الثالث عاود الكرة، مع إضافة جملة بسيطة، أنا هانتحر لو ماتجوزتش صباح. قالت له أمه، انتحر، وقال له أبوه، في ستين داهية، أما هو فلم يعرف ماذا يفعل. في اليوم الرابع قال لهما إن الرجالة الذين يجمعهم الآن

مكتبة عابث الإلكترونية

في المرسم، الرجالة المقرر لهم محاربة سوسو في يوم قريب إن شاء الله، لن يفعلوا هذا. وإنه وزع عليهم تعليمات بمهاجمة علي وإنجي نفسهما خلال أسبوع وقتلهما، وإنه يعتزم زيارة سوسو غداً لعرض التعاون معه. نظر إليه علي وتف قشرة اللب من فمه ولم ينطق، وإنجي قامت لتشغل التليفزيون. ولكن حمادة رفع فعلاً تليفونه، أدار رقماً، ألو، صباح الفل يا معلم سوسو، أنا بكلمك علشان موضوع مهم جداً، سري للغاية، لا يا سوسو بيه مش هينفع في التليفون، هاهاها، إنت قلبك كبير يا معلم، ولازم تكون سامحت. هجمت إنجي على تليفون حمادة. ألقته على الأرض، وطت عليه وأغلقته. وهكذا أمكن للنقاش حول صباح أن يبدأ.

كل الحجج من نوعية إن صباح ما هي إلا شغالة عندهم، وهي في النهاية، راحت أو جت، ليست الزوجة التي تشرفه في المستقبل، لم تؤت بثمارها. كان حمادة قد قرر خلاص، وكان في أقصى حالات عناده الآن. لم يرد، لم يناقش، فقط كان ينظر بثبات إلى أعين أمه وأبيه ويظل صامتاً. لم يشعر لدقيقة أنه ملزم بالرد ومقارعة الحجة بالحجة. ولأول مرة تشاهد إنجي هذه النظرة في عيني حمادة، كتكوتها المغفن، ثابتة، بلا تعبير، متحجرة، وجه قاس، وشفتان تختلجان كأنهما على وشك الانفجار. خافت إنجي، خافت الأم من ابنها، وخاف علي. هكذا تزوج صباح.

٥٥٥

لم تكن لحمادة مغامرات عاطفية من أي نوع من قبل. كان يحب بقلبه فقط، وكان واثقاً أن من أحبهن كن يحببنه بقلوبهن، ولكن لا شيء أكثر من هذا. حمادة كان قد اعتنق منذ فترة طويلة نظرية الروح والجسد، ظلت روحه تعشق، وظل جسده بعيداً. كان يمارس العادة السرية بالطبع. كان قد قرأ عنها

منذ كان في الابتدائية، ومنذ ذلك الحين وهو يحاول ممارستها. يحاول عصر قضيبه بيديه فلا ينزل شيء، فيعتقد أنه عاجز جنسياً، ويستسلم للاكتئاب. في الثانوية العامة استطاع أخيراً إنزال ماء خفيف بلل رأس قضيبه. ابتهج وقد ظنه الماء المنشود، وقرر أن يعزم نفسه على ثلاثة برجر كومبو، وعندما عاد من هذه العزومة، التي، بالمناسبة، دمرت ريجيمه الدائم والمتواصل على طول حياته، حاول معاودة الاستمناء فلم ينزل أي شيء. لم يزعل. طبطب على كرشه برضا وقال إنه جابهم النهاردة جامد.

تأخر الماء الحقيقي. جاء وهو في الكلية. جرب إذن ارتعاش قضيبه وصعود اللذة فيه وانفجارها. وهذه المرة، أدمن العادة السرية، مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وبناء على تجربته معها، فلقد تخيل لنفسه صورة ملك الفحولة، الوحيد الذي توفرت فيه رقة المشاعر العاطفية وفيضان الذكورة المكتسح. وذلك حتى نام مع صباح للمرة الأولى في دخلته. طبعاً، لن يكون ضرورياً أن نقول إنه في اليوم الأول لم ينتصب. إنه نظر إلى الجسد الهائل لصباح وبدأ يشعر بانتصاب من نوع ما، ولكن عندما بدأت مرحلة البوس والتحسيس، خطر على باله فجأة سؤال حزين. لقد تساءل في أعماق نفسه إن كانت الأنثى تلد أم تبيض، وهو يعرف إنها تلد، هو ليس غبياً، ولكن إذا كانت تلد ولا تبيض، فلماذا سُمي المبيض بالمبيض؟ أخذ يفكر في حل السؤال ولا ينتبه إن قضيبه يصغر ويصغر. في النهاية، قبل أن يؤذن الفجر، همس لنفسه بصوت منخفض: "السر في البويضة". صباح كانت تشخر، كرر الجملة مرة وثانية كي يثبت لنفسه عدم فشله في حل اللغز. صحت صباح، سألته، فيه حاجة يا حمادة؟ فقبلها على جبينها، نامي يا حبيبتي، أنا بافكر في موضوع جامد كدا. وعاودت صباح النوم.

مكتبة عابث الإلكترونية

مرة واثنتان وثلاثة حتى استطاع حمادة أن يدخلها، وكل مرة تطول مدة مكوثه بداخلها، وكل مرة يحتفل بانتصاره بزيادة عدد سندوتشات الكومبو. في هذه الأيام زاد وزنه أكثر وأكثر. بدأ يتحول إلى ذلك الإنسان كامل الاستدارة. كرة مستديرة هي الرأس، أسفلها كرة أضخم هي الكرش، أسفلها كرتان مدببتان من تحت هما الساقان، بالإضافة بالطبع إلى كرتي ذراعيه. بعد شهرين كان السكس بينهما قد أصبح عملية معقدة للغاية، بسبب تضخم حجمه بالتحديد. كان يلهث ويعرق مع كل حركة، وينام عليها فتبدأ في التأوه من فرط ثقله. وموضوع أنها ترضع حلمات ثدييه كما أنه بالضبط يرضع حلمات ثدييها كان يشعره ببعض الخزي. وبرغم الريجيم الدائم الذي قرر منذ سن الثانية عشر أن يُخضع نفسه له، فلقد كان كل شيء بلا طائل. عاوده الاكتئاب المزمن، وعاود ترديد قصيدته طول الوقت، قصيدته التي تقول إحدى أبياتها، تشوفني تقول دا مجرم وقاتل قتيل، وأنا في الحقيقة شاعر وإحساسي جميل. كان فاروق هو الشخص الذي أنقذه في تلك المرحلة.

بداية نقول، إن تضخم حجم حمادة إلى أبعاد جديدة وغير متوقعة، لم يكن مقلقاً في حد ذاته. ما كان مقلقاً هو نظرة السخرية التي كانت توجهها له صباح بين الوقت والآخر، وكان يشعر بها تخترق كرشه وثدييه. تشكك حمادة في كل شيء، في جدوى حياته وأهميتها وفي حب صباح له، حتى ذلك اليوم الذي التقى فيه بفاروق. بدا الأخير وكأنه يعاني أزمة نفسية هائلة. سأله حمادة عما به، فلم يرد، بحيائه المطلق وخجله الرقيق الذي عرفه عنه حمادة قرر التزام الصمت. نظر حمادة إلى ملابس فاروق غير المكوية وقميصه الخارج من البنطلون وشعره الهائش. سأله بمرارة: "إنت عاوز تنام مع صباح يا فاروق، مش كدا؟" لم يرد فاروق فواصل حمادة، "إنت حاولت دا، مش كدا؟" أطرق فاروق ونظر في

الأرض. وبدأ حمادة يحدث نفسه، لماذا، لماذا يحدث لي كل هذا يارب؟ وحانت منه التفاتة نحو فاروق الذي بدا وكأنه يريد أن يقول شيئاً، أن يدفع تهمة بحماس، أن يبرد غيبة شخص ما، أن يؤكد أن العالم ليس بكل هذه القسوة. فهم حمادة، فاروق حاول النوم مع صباح، ولكن صباح ردته، رفضته بكل قسوة وعنف وكبرياء. فجأة، عاودت الدنيا الإشراق في عيني حمادة. مال على فاروق وحضنه وقبله في خده، إنت جميل يا فاروق، أنا باحبك أوي يا فاروق. عاد إلى صباح وفي يده صينية بسبوسة كاملة. بدا في هذه اللحظة وكأنه يريد احتضان العالم كله. هكذا تأكد حمادة من حب صباح له.

٥٥٥

يمكن القول إن مركبة الحياة سارت بحمادة وصباح في هدوء وبلا مشاكل. الحياة تدير وجهها أخيراً لهذا الصبي المعذب، ومع عمله في مرسمه، ومع اجتماعه بالرجال الذين يفترض أن يحارب بهم سوسو يوماً ما، ومع قصة حبه الملتهبة لصباح، فقد كان حمادة الآن يحصد من الحياة أجمل ما فيها، وعندما أخبرته صباح يوماً أنها حامل بدا هذا تتويجاً لكل تلك السعادة. يومها لم يأكل حمادة شيئاً، ولا حتى سندوتشات الكومبو. لقد تسامت روحه فوق شهوة الطعام.

ولدت صباح، ولدت توأماً، بنتين جميلتين. وكشاعر، لم يتجاهل حمادة أبداً أهمية القافية في حياة الإنسان. أطلق على ابنتيه اسمين موسيقيين، "يارا" و"لارا". كانتا، بالإضافة لأمهما، بهجة حياته في ذلك الزمان. كم مرة شوهد حمادة وهو يلعب معهما، يرقد على ظهره ويضعهما على كرشه، والبنتان تضحكان. رسم لهما عشرات اللوحات، وكتب عنهما مئات القصائد، ولحن آلاف الألحان. وعندما كان يخلد إلى نفسه، كان يتذكر أغنية قديمة، أغنية

مكتبة عابث الإلكترونية

تقول كلماتها، بس قلبي لسة خايف م الليالي، وانت عارف قد إيه ظلم الليالي. كان يخطر على باله أن كل هذه السعادة قد تكون سعادة زائفة، وأن الأيام قد تنقلب عليه. كان هذا الخاطر يلوح له لوهلة فيستبعده بسرعة. ربما كان هذا هو الخطأ التكتيكي الأول الذي وقع فيه حمادة بتلك الأيام. حمادة لم يحسب حساباً لبكرة.

°°°

في اليوم الذي عرف فيه حمادة أن بنتين هما من ببطن زوجته ظل قلقاً، أصيب بالاكتئاب وانسدت نفسه عن الأكل. دعونا لا نتعجل إطلاق الأحكام، لم يكن حمادة من ذلك النوع من الرجال التقليديين الذين تسوؤهم خلفة البنات. إطلاقاً. في الحقيقة فحتى نفهم قلقه لابد لنا من الرجوع قليلاً للوراء، والنزول عميقاً للأسفل، في عمق هواجسه الطفولية. حمادة، بجسمه السمين، كان يعتقد أنه مخلوق غير محدد الهوية، شيء ما يقع في منتصف الطريق بين الذكر والأنثى، وربما كان هذا هو سبب مشاريعه الدائمة وغير المنتهية لتخسيس نفسه. ربى دودة قز ذات مرة وهو صغير، رأها وهي تتحول إلى شرنقة ثم تخرج فراشة منها وتطير بعيداً. اعتقد أنه، بنفس الطريقة، فسوف ينتهي من كائن مخنث، رخو، برمائي، يعيش بين تراب كرموز والبحيرة التي يقع في وسطها تمثال الفرخة، إلى الأنوثة الكاملة. تظل هرمونات الأنوثة تصارع هرمونات الذكورة داخل جسمه، تظل هرمونات الذكورة تخسر معاركها، تنسحب من مواقعها التي تسيطر عليها هرمونات الأنوثة فورياً، إلى أن يحدث الانفجار الكبير: ينفجر كرشه وثدياه ومؤخرته لتخرج من داخله أنثى كاملة، قوية وعنيفة وقادرة على فضخ العالم في أفكاره. خياله لم يقف عند هذا الحد، تخيل هذه الأنثى بمجرد خروجها من جسمه وهي تنفض عن نفسها بعنف

الكتل الدهنية الرهيبة التي جاورتها سابقاً في حياتها بداخل كرشه، تمسك رشاشين، كل واحد بيد، وتطلق طلقات متتابعة. تقنص جميع العابرين بالشارع، وهي ترقص على أسطح العمارات، مرتدية، طبعاً، جيبة قصيرة وكولوناً أسود شفافاً وحذاء ذا كعب مدبب. أنثى تقوم بتقبيل جميع الرجال في الشارع وتقتلهم بشفتيها المسممتين، أنثى تجتمع فيها الغواية بالقسوة بالرغبة في في تحطيم العالم. سر لا يعرفه أحد إطلاقاً: لقد سأل حمادة أمه وهو طفل عن كيفية معرفة المرأة أنها حامل، بل وقرر ذات مرة زيارة طبيب نساء للكشف عليه. لم يذهب، ولكن ظل هذا هو الخوف الأكثر تأصلاً بداخله، أن يتحول إلى أنثى.

ما نريد قوله إن ما حدث، بولادة صباح ليارا ولارا، لم يكن بعيداً تماماً.

°°°

يمكننا النظر إلى قصة حياة صباح بوصفها درساً مثالياً عن قسوة الحياة. لقد وُلدت لأم تبيع المناديل في محطة الرمل، وأب مسجون في قضية مخدرات اتهم نفسه بها ليدفع التهمة عن واحد من المعلمين الكبار، ويضمن في مقابل هذا مستقبلاً معقولاً لأبنائه. ومنذ صغرها استطاعت صباح شق طريقها بنفسها، منذ بيعها للمناديل مع أمها وحتى عرفت طريقها نحو ديسكوهات العجمي، وبدأت ذلك الطريق المظلم، المعروف باسم "البغاء" في الحياة الأكاديمية المصرية، وباسم "الشرمطة" في حياة الناس الطبيعيين. لم يستطع أحد التعرض لها بغير رضاها. كان يساعدها بلطجيان، فتوتان، مجرمان، الأسماء لا تهم، هما أخواها. رافقاها في كل مكان واهتما بها وكانا لها أفضل تعويض عن الأب السجين والأم المريضة. وعندما خرج أبوها من السجن بعد غياب خمس وعشرين عاماً، مهزوماً، نحيلاً، ولا يلزمه سوى عام حتى يعاود إدمانه للخمرة، كان

مكتبة عابث الإلكترونية

أخواها قد أتما السيطرة على العائلة. لم تعد العائلة معروفة باسم مؤسسها، حسني أبو صباح، وإنما باسم الأخوين، جابر حسني وعمرو حسني، المعروفين أيضاً بلقبي "جابر الوزير"، و"عمرو الشيخ".

بعد زواجها من حمادة، تمكنت صباح، في لفتة امتنان منها تجاه أخويها اللذين وقفا بجانبها، من تقديمهما لزوجها. أعجب بهما حمادة. وقرر الاستعانة بهما في حربه القادمة مع سوسو. لكل من الأخوين خبرة كبيرة في تقفيل الشوارع وتثبيت الناس وأخذ الحق بالذراع. سألهما في بداية معرفته بهما عما يعرفاه عن تاريخ الكرنتينا، فسارع كلاهما بترديد التاريخ الذي سبق وأن لقنتهما صباح إياه، بدءاً من حربي، مروراً بعلي وإنجي وأبو أميرة، وصولاً إليه، هو نفسه، حمادة، التجسد الأخير للبطولة السكندرية، مع فقرات مؤثرة عن وساخة سوسو ومنة التي خانت ذكرى أبيها. سألهما حمادة إن كانا مستعدين للعمل معه لتخليص كرموز من أمثال سوسو، فقالا نعم بحماس. ومنذ ذلك الحين، لم يعد أحد يراهما سوى في مرسم حمادة، يتناقشان معه حول أفضل الطرق لاقتحام غيط العنب. كلاهما، أحدهما بصوت مشروخ محطم، والثاني بصوت أبح، كانا يبهران حمادة بمعرفتهما الواسعة بغيط العنب وبيت سوسو ومحله وبنوعية الرجال الذين يعملون معه. كلاهما كان يختار الألفاظ بدقة، وكلاهما كان يراعي في أي جانب فرض عليهما القدر الوقوف الآن. اسم سوسو اختفى من على لسانهما، تم وصفه بصفات عدة، الوسخ، الخول، النتن، مع ألفاظ الاحترام المناسبة لأبطال الكرنتينا المعتمدين، حربي وأبو أميرة وعلي وإنجي واعتماد.

في هذه الأيام كانت ذكرى واحدة تهيمن على الجميع، سوسو وهو يقود رجال الكرنتينا ونساءها عرايا من الكافيه، وذكرى أخرى أقل هيمنة، رجال

علي وإنجي وهم يقتحمون محل سوسو ويسكبون الزيت والكبدة على الأرض ويطردون مستأجره، مع الاستعداد المتوقع لانتقام سوسو. ولكن لأن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع، هكذا قرر عمرو الشيخ، يبقى احنا مطلوب منا ومن الرجالة بلوقت نحرقو محل سوسو النتن، ويا حبذا يا رجالة لو قتلناه كمان. ولكن بيت سوسو ليس بهذه السهولة. البيت محاط بعدد من المحلات جميعها يستأجرها رجال سوسو، والوصول لهذه المنطقة مستحيل على الأغراب. على من يريد الوصول إليه اجتياز ثمانية محلات، كلها ملأى بالبلطجية وعيون سوسو، ثم عبور أرض فضاء واسعة مملوكة لشركة الإسكندرية للبتروكيماويات ولا يجتازها أحد إلا للوصول لبيت سوسو، والذي لا يزوره بالطبع سوى خمسة أو ستة رجال من أخلص خلصاءه.

"نحن نحتاج لعميل مزدوج"، بدأ جابر الوزير حديثه بجدية بالغة، محركاً يديه ومحدقاً في أعين حمادة وعمرو الشيخ، "حسناً. اسمعاني جيداً. الموضوع ليس بسيطاً أبداً. نحن نحتاج لشخص ثقة، نزرعه بداخل غيط العنب. وهذه وحدها مشكلة كبيرة. نحن نعرف جميعاً أن لا أحد يستطيع العبور هناك إلا بعد اختبارات عديدة، شيء مثل قفزة الثقة يعني. والأسوأ من هذا أنه لا أحد يمكنه الإقامة هناك إلا من يعملون عند سوسو نفسه". نظر إليه عمرو الشيخ، هز رأسه وأكمل على كلام أخيه: "نحن نحتاج جاسوساً. جاسوساً متمكناً. يثوت في الحديد. أفاقاً، أو بمعنى أصح نصاباً خفيف الظل. بلا ملة، لا تعرف إن كان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً. بجاسوس مثل هذا سنتمكن من إننا نفشخ أمه بأمر الله"، وحمادة، الذي كان يفكر بعمق، ركن رأسه على ظهر

مكتبة عابث الإلكترونية

الكرسي، نظر إلى البعيد، وغمغم كأنه يقول بينه وبين نفسه، نعم جاسوس، وأي جاسوس!

المرشح المثالي لهذا كان هو رمضان المعدول، رمضان يعمل عند سوسو واستأجر محله بالكرنتينا، وهو الذي ضربه رجالة علي وكبّوا كبدته على الأرض. بدا المعدول مثالياً لأمر مهم، أولاً بسبب عمله عند سوسو، وبالتالي فلن يتكلف الرجال شيئاً من أجل زرعه هناك، بالإضافة إلى أن رمضان طول عمره يتعامل مع المباحث. سوسو يعرف هذا، وعلي وإنجي وحمادة يعرفون هذا، ولكن لا أحد غيرهم يعرفه. لدى حمادة من الإثباتات على تعامله مع المباحث ما يكفي لتهديده، ولكن حمادة، الرقيق والمرهف، لم يفضل الدخول في سكة التهديد. الترغيب دايماً أحلى من الترهيب. قال حمادة إنه سيعرض على رمضان أن يرسم لوحة له مع زوجته، تبقى حاجة زي ذكرى جميلة أو سوفونير يفضل معاه العمر كله. بهذا يشتري إخلاصه.

في اليوم التالي جلس حمادة مع رمضان. سأله عن الفلوس التي يأخذها من سوسو. عرض عليه مبلغاً أكبر، كما عرض عليه اللوحة. حمادة كان يشاهد على موبايله مشاهد تصور لقاء رمضان بنقيب في مكافحة المخدرات، ولكنه لم يتكلم كلمة واحدة عن هذا التسجيل، تركه شغالاً وواصل كلامه مع رمضان. رمضان الذي فهم الدرس، رمضان الذي أخذ يغرز عرقاً كثيفاً وهو يرى نفسه على الموبايل المتروك بإهمال على ذراع الكرسي، رمضان الذي بدا طوال المحادثة وهو ينظر نظرة استعطاف ذليلة، رمضان هذا طلب من حمادة أن يعتبره من النهاردة ورايح بتاعه، واحداً من رجالته، وكل المعلومات عن منطقة سوسو في غيط العنب سوف تكون في يده أولاً بأول.

حمادة كان يحب الجميع، ولهذا أحبه الجميع.

في أسابيع معدودة أصبح رمضان واحداً من أهم رجالته. لم يلتق رمضان أبداً بحمادة أو عمرو الشيخ أو جابر الوزير داخل حدود كرموز. دوما ما كانوا يجتمعون في بحري أو المنشية أو محطة الرمل. يخبرهم المعدول عن التحصينات الجديدة التي أدخلها سوسو في منطقته، عن أسراره التي يبوح بها في سهرات الخمرة، ولكن الأهم من كل شيء، كان رمضان يخبرهم برجال سوسو المرشحين للعمل معهم. وكان يتفق معهم، ويحضر بعضهم للقاء الجماعة بنفسهم. مع توالي الأيام والليالي، بدت كربنتينة غيط العنب وكأنها في جيب الجماعة.

جميع الناس مستعجلة الآن. كم طلب عمرو الشيخ وجابر الوزير من حمادة في هذه الأيام تحديد ساعة الصفر بسرعة! الجميع كانوا متلهفين على وراثة الإمبراطورية التي كونها سوسو، إمبراطورية المخدرات والسلاح الآلي. حمادة أيضاً بدا متعجلاً، كان يريد أن يكتب بيديه أول سطر في تاريخ إنجازاته، ولكنه لم يستطع اتخاذ خطوة واحدة بدون إذن أمه وأبيه. أمه رفضت بحسم التنفيذ الآن، وأجلته لأجل غير محدد، وأبوه في هذه الأيام بدا مشغولاً بأمر آخر. سأل حمادة يوماً إن لم يكن قد لاحظ أشياء غريبة على إنجي الأيام الماضية. لم يفهم حمادة فتابع علي بأسى، إنت عارف امك مش عاوزاك تنفذ ليه؟ أمك خايفة على سوسو، أمك رجعت امبارح البيت الساعة حداشر. أمك ماكاتش ف الكافيه يا حمادة، أنا نزلت وشفت.

لم يرفض علي التنفيذ، ولم يطلب تأجيله إلى أجل غير مسمى كما فعلت إنجي. طلب تأجيله فقط حتى يتأكد من معلوماته حول علاقة إنجي بسوسو. وحينها يقتل حمادة الاثنين، في حضن بعض، بالملابس الداخلية، ويعلق فوق

مكتبة عابث الإلكترونية

موقع الجريمة يافطة كبيرة مكتوب عليها بالدم "هذه نهاية كل خائن". تعرف امك تعرف سوسو من إمتى يا واد يا حمادة؟ من زمان أوي، فاكر السُعبان الأفريقي يا حمادة. أمك عاوزة تقتلنا من زمان يا حمادة، من زمان أوي. وانا ع الناحية التانية عمري ما فكرت اقتلها.

الموقف، كما نرى، معقد جداً. هل يحتمل حمادة هذا الكلام على أمه، وإذا احتمل، فهل يجرؤ على قتل أمه؟ لأجل الهروب من شبكة العلاقات المتشابكة تلك، بدأ حمادة يفكر في اتجاه مختلف. سيقوم هو بالعملية، بموافقة أبيه أو بدون موافقته. لن ينتظر شيئاً. أبوه، الذي بدأ يفقد عقله شوية بشوية، لن يتحكم في حياتي منذ الآن، أنا إسمي حمادة. أنا إسمي ليس علي، أنا ليس علي. أنا حمادة. حمادة. حمادة. مشي يكررها وهو يشرح للرجالة كل هذا التعقيد، بمنتهى الأمانة والشفافية. الرجال أيضاً كانوا متلهفين للسيطرة على الكرنتينا بشتيها الآن. يوماً بعد يوم، كان القرار بسرعة التنفيذ ينتصر. ساد شعور، قومي أو وطني ذو صبغة ثورية، بأن القرار قرارنا والتنفيذ بأيدينا. الأرض لمن يزرعها، لا لمن يملكها.

الجميع اليوم في مرسم حمادة. عمرو الشيخ وجابر الوزير وصباح ورجالتهم، حتى رمضان المعدول كان بينهم، يحضرون لاقتحام كربنتينة غيط العنب في الفجر الذي سيحل بعد ساعتين. حمادة على وصول. المرسم مغلق من الخارج. يلتفت أحد الرجال إلى الاتساع البالغ الذي صار عليه المرسم. ينهمكون جميعاً في التنظيف. يسكبون البنزين على أرضيته وهم يغنون أغنية جديدة تبدأ بـ"هوبّا يا هوبّا"، ولا يتذكرون باقي الأغنية فيضحكون. رمضان يستند على باب المرسم من الداخل ويشعل سيجارة. ويرمي الكبريتة على الأرض. تلتحم نار الكبريتة بالبنزين المسكوب. يسارع واحد من الرجالة بمحاولة الإطفاء

فيعاجله رمضان بطلقة من طبنجته. يسارع آخر فيقتله رمضان أيضاً. الحقيقة الآن لا لبس فيها أمام الرجال المشتعلين بالنار. صباح تصرخ والنار تلتهم ذراعها العارية، عملتها يا رمضان، ورمضان يشتعل أمامها أيضاً. والجميع يهرعون إلى الباب لمحاولة فتحه ولكن رمضان المشتعل لا يتخلى عن طبنجته. يقذف الجميع بطلقات متلاحقة. محترق يطلق النار على محترقين. النار كتلة واحدة.

بعد نصف ساعة يكون كل شيء قد انتهى، رمضان وصباح وأخواها وعشرة رجال من خيرة من أنجبت الإسكندرية. عندما سيصحو الناس على الصريخ في الثالثة فجراً، وعلى الدخان المتصاعد من المرسم، سيكون قد قضي الأمر الذي فيه تستفيان، تماماً. أربعة عشر جثة متفحمة أمامهم. سيصل حمادة في الرابعة وعشرين دقيقة. سيرى المنظر أمامه، ثلاثة عشر جثة للرجال المتفحمين، وبعضهم برأس مثقوبة، وجثة رمضان تقف بعيدة، برأس سليمة، وملقى بالقرب منها طبنجة نفدت طلقاتها.

٭٭٭

طوال حياته السابقة، لم يكن حمادة يحلم وهو نائم أبداً، لحسن الحظ أو لسوئه.

في هذه الأيام حلم لأول مرة. عرف معنى الكوابيس. رأى صباح وهي تحاول التخلص من ملابسها المشتعلة، وهي تمد يدها إلى باب المرسم. رأى جابر وهو يتعارك مع رمضان للوصول إلى الباب. رأى رمضان وهو واقف يدخن سيجارته المتروكة في طرف فمه بإهمال ويخرج موبايله ويقول كله تمام يا باشا. رأى صباح وهي تنزل من البيت تضحك وتهزر مع أخويها، ومن خلفها يتردد هتاف، لا يفهمه حمادة في الحلم ولا يفهم مصدره، هتاف غريب، آت من زمن

مكتبة عابث الإلكترونية

غريب، ولا يا حربي، وتتقدم صياح من المرسم، تدخل، فيتردد الهتاف بشكل أكثر سرعة، ولا يا حربي، ولا يا حربي. الهتاف يتحول لجملة محمومة وهستيرية تتردد على مدار الحلم بينما باب المرسم يتم إغلاقه من الداخل. والدخان يتصاعد من المرسم المغلق والهتاف يتحول لجملة واحدة طويلة سرعان ما تتبدد في الفضاء، ولا يا حرباااااي. تموت الجملة بالتدريج. تحترق.

رأى حمادة لوحاته في الحلم، لوحاته التي ظل خمس سنوات يرسمها، رأى النار وهي تتدلع في قوائم مساند اللوحات، فتنهار وتسقط اللوحات على وجهها في قلب النيران. في وسط الناس الذين احترقوا، في وسط اللوحات التي رسمها منذ سنوات، رأى وجوهاً كثيرة، أبو أميرة، اعتماد، نادية، علي، إنجي، حتى أم أميرة، حتى مصطفى أخو علي، حتى سليمان أبو إنجي، كل هؤلاء رآهم حمادة مرسومين على اللوحات المحترقة. حتى سيد وسيكا وسلطان، حتى سوسو، رآهم يخرجون من اللوحات ويتبادلون أنفاس السيجارة مع رمضان الواقف بجوار الباب، يهزرون ويتعانقون ويزغد بعضهم بعضاً، ويطلقون النار على الآخرين.

كان حمادة يستيقظ في عز الليل. يطمئن على يارا ولارا النائمتين في السرير بجواره. يتحرك بحذر من لا يريد إيقاظهما. يطلب التليفون، يتصل بمحل بيتزا الشيخ. يطلب بيتزا مشكلة حجم كبير. تأتيه ويأكلها في عشر دقائق. يلقي قطعها المغموسة في السمن المجمد والمدهن في فمه، يكتل اللحمة المفرومة والسدق والسوسيس والبسطرمة والجبنة التركي. ثم يتصل بمطعم آخر، يطلب فرخة مشوية وبطاطس. يأكل ويأكل. وعندما يحمي الأكل على بطنه، يحاول شرب بعض البيرة، فلا يجد في بطنه أي مكان، يجبر نفسه على شرب ثلاث قزايز متلاحقة، ويعود لسريره وهو يميل على جانبيه مثل البطريق. فور

وصوله للسرير يميل على الأرض. يرجّع كل ما بجوفه. لا يمسح القيء. يرمي نفسه على السرير. في الصباح يكون القيء قد تجمد على الأرض، ورائحته الحمضية ملأت المكان.

يارا ولارا تبكيان طول الوقت الآن.

٥٥٥

تصوف حمادة.

ترك ذقنه تماماً. ارتدى الملابس المبقعة والممزقة. حرص على صلاة الفرض بفرضه في الجامع. بكى وهو يصلي، بكى وارتعش جسمه وأخذ يردد وهو ساجد بصوت عال، فيما يشبه الصراخ، مولاي إني ببابك. توقف عن الشرب. فكر في زيارة سوسو. فكر في وعظه بصوت هادئ. فكر في الانتهاء من كل شيء وإنهاء كل شيء. يارب، أنا أضعف من كل هذا، فلا تكلني إلى من لا يرحم ولا يدع رحمتك تنزل. اكتشف حمادة أن الصراع يحتاج شخصاً آخر. واجه نفسه بأن كل هذا فوق طاقته. تعرف على شيخ في الجامع اسمه الشيخ محمد. أعاد له الشيخ بعض الاتزان. حضرا سوياً الحضرات وليالي الذكر. وعزمه حمادة أكثر من مرة على الغدا في بيت أبيه وأمه، الذي سبق وأن انتقل للإقامة فيه مع ابنتيه. كان يقبض على قطع اللحم من الفتة ويعطيها للشيخ، ويرد الشيخ بجزاك الله خيراً، ويغرف بالمغرفة أرزاً بالصلصة ويضعه في طبقه، والشيخ يطبطب على كتفه. سأله علي يوماً، بتعمل إيه يا حمادة. رد حمادة، باعزم ع الشيخ محمد يا بابا. رد عليه، حمادة، مفيش هنا غير أنا وامك. نظر حمادة إلى الشيخ محمد. رآه يبتسم ابتسامة نورانية وهو يختفي شيئاً فشيئاً. الطاقية البيضا فالوجه الأبيض فالذقن البيضا فالجلابية البيضا فالصندل البني. اكتأب

مكتبة عابث الإلكترونية

حمادة. سب الدين لأبيه في سره ثم استغفر ربنا. انسدت نفسه عن الطعام، ونزل تحت ليكمل القعدة على القهوة مع فاروق.

كانت هذه مرحلة عابرة. تدريجياً، ومع الوقت، بدأت ستائر النسيان تنزل على المشهد. اكتملت إعادة ترميم المرسم من أول وجديد. حلق حمادة ذقنه، وخلع الجلابية البيضا وعاود ارتداء ملابسه القديمة، وعندما وجدها ضاقت بشدة عليه، اشترى أخرى جديدة. قال في نفسه إن الخسائر كثيرة، خسر زوجته وأخويها ورجالته ولوحاته، ولكن لكل شيء ثمن. كسب حمادة من هذه الحادثة معرفته بواحد مثل الشيخ محمد. هكذا كسب صديقاً سيكشف الزمن عن إنه واحد من أخلص أصدقائه بجانب فاروق.

بعد سبعة أشهر من الحادثة، بدأ حمادة في تكوين نواة أخرى لرجال آخرين، رجال ستكون كل مهمتهم في الحياة الآن قتل سوسو.

٥

في يوم بارد، سار الأمير رزق بن نايل في الصحراء وحيداً. كان مكروباً والبرد يخترق عظامه. الانتصارات لم تعد تهمه، باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح. يسترجع الأمير الماضي، فلا يقدر على حصر أعماله. يرنو إلى المستقبل، فلا يجد شيئاً، قفر، هباء كالصحراء، خواء في خواء في خواء. بماذا تفيد الدنيا والمعارك والحروب والانتصارات إن كانت كلها مصيرها لاشيء. حتى ذلك الحين، كان الأمير قد كبر في السن ولم يكن قد أنجب بعد، وكان يردد، رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً. بقية الحكاية نعرفها، سمع ندا من قِبَل الله، ياخي كل منا وسعيده، أي، كل منا وسعده، يا رزق اصغي على الله، تزوج بمكة السعيدة. تزوج رزق وأنجب فارس العرب أبا زيد الهلالي. شيء مثل هذا حدث هنا.

سوسو، مثل الأمير، كان فارساً من فرسان العرب. خالط العربان، عربان جبل أبو تلات، موردي الحشيش الأول في اسكندرية ومصر، أكل من أكلهم وشرب من شربهم وتطبع بعاداتهم، ومثل الأمير، وصل سوسو لسن الخمسين ولم ينجب. وهذه مشكلة كبيرة بالنسبة لقائد عظيم من قادة العرب. في عز انتصاره على سلالة علي وإنجي، في عز تأهبه للوثوب على تركتهما، كان سوسو حزيناً. ذهب مع منة لمئة دكتور، وأكد الجميع أن المسألة مسألة وقت ليس إلا، والوقت، ليس هناك أكثر من الوقت، ترك سوسو الوقت يمر، والوقت

مكتبة عابث الإلكترونية

مر، وليس من أمل في أي شيء. كان هذا سر نظرة الحزن والأسى العميقة والدائمة في عيني سوسو، إلى أن حدث ما حدث.

سوسو يصلي الفجر في البيت. عنده برد رهيب يمنعه من النزول للمسجد. يرتدي جلابية وتحتها لباس قطني سميك، وفوقها عباية وسويتر وكوفية. وهو ساجد يكتشف أنه برغم كل التحصينات، فلقد دخل سرسوب هواء إلى جسمه من تحت الملابس. يقوم ويسلم على الناحيتين قاطعاً الصلاة. يضبط ملابسه، يجفف المخاط السائل حول أنفه، ثم يأتي بلحاف سميك ويتغطى به ويعاود الصلاة. في سجوده هذه المرة يظل يردد، يارب هبني من لدنك الذرية الصالحة والمال والبنون، ثم بهستيريا، يارب ولد، يا رب ولد. بعد يوم عمل شاق، وبعد أكثر من يومين ظل سوسو صاحياً فيهما بلا دقيقة نوم واحدة، كان لابد أن ينام وهو ساجد. لم تكن هذه مجرد غفوة أو لحظة وسن، ربما كانت في البداية هكذا، ولكن سوسو سرعان ما انقلب على جنبه، وأخذ يشخر ويرفس بقدميه في اللحاف، ولم يصح إلا في ظهيرة اليوم التالي، مع حلم رقيق ظل يناوشه في النوم: طفل أشقر، يصعد على منبر جامع المرسي أبو العباس، والناس تحت يديه صفوفاً صفوفاً، ينادونه باسم أمير اسكندرية. عندما صحا على آذان الظهر عرف أنها رؤيا، نبوءة أو بشارة بمعنى أصح، ذكر يولد من صلبه أخيراً. طبعاً، في اليوم السابق على النبوءة، كانت منة قد أخبرته إنها حامل، وعندما نام تأكدت الرؤيا. طفل مقدس يولد بعد أشهر.

الطفل لم يأت طفلاً، أتى طفلة. كان هذا محبطاً لسوسو جداً، ولكنه لم يفقد إيمانه بالرؤيا. أطلق على ابنته اسم "أميرة" بدلاً من اسم أمير الذي رآه في الحلم، وبهذا انصاع للنداء الآتي من قبل الله، وبهذا قام بتخليد ذكرى ابنة أخيه الراحلة أيضاً، وبالتمهيد لتحويل نفسه إلى "أبو أميرة" آخر. قرر سوسو

تكريس عمره لأميرة من الآن فصاعداً. الوقت الباقي قصير، وما تدري نفسه بأي أرض تموت. نظر سوسو إلى ابنته، الوحيدة والمتأخرة على ميعادها، بوصفها وريثته المستقبلية، وعاملها على هذا الأساس. أورثها مرارته القديمة، خيانة علي وإنجي له وسطوهما على العمارة التي كانت من حقه هو ومراته، بعد كل الخدمات التي قدمها لهما، بعد قتله لمصطفى أخي علي، بعد غربته في الصعيد ليأخذ بتار علي. وكما أورث ابنته مرارته القديمة، فقد أورثها مرارته الجديدة أيضاً، رجال علي وهم يطردون رجله من محله ويكبّون زيته وكبدته على الأرض. نخدم الناس بعيوننا ثم يطلعون أوسخ ناس، هذه هي مرارته العامة، لا القديمة ولا الجديدة، المرارة المتعالية على الزمن.

مرارات سوسو كانت كثيرة، ولم يكن أي منها بمعزل عن إعادة قراءة التاريخ. حكى لأميرة ابنته الحكاية كلها. قال لها إن أي شيء يأتي من عند ربنا فيهو كويس. قال لها إننا لا نعترض لا سمح الله على شيء ولكننا فقط نسأل لماذا حدث ما حدث. قال لها إن كل شيء بدأ عندما صعب عليه جاره في المنطقة، جار أذي كثيراً من أهله في الصعيد. أهله وقرايبه أنوه. وكان باباكي يا أميرة، يا ميرة، يا مرمر، هو الذي أتى له بحقه. منة بجواره، تصحح له، رجل وزوجته يا حاج، فيلتفت لأميرة ويهمس لها، رجل وزوجته يا حاج. جئت لهما بحقهما، أنا غلطان؟ وتضيف منة على كلامه، قتلت أخاه أيضاً يا حاج، وهذا كان قبل موضوع الصعيد. فيهرش في رأسه ثم يقول، لأ، الصعيد الأول. فتكمل منة وكأنها لم تسمعه، وقبل الصعيد وقبل أخوه سكنتوه عندكو وصرفتو عليه هو ومراته. فيحول سوسو نظره عن طفلته تماماً. يدفن وجهه في كفيه، لخمس دقائق يدفن وجهه في كفيه، ثم يرفع رأسه ويقول، شوفي، الصعيد، ثم أخوه، ثم سكناهم عندنا، وتقول هي، لا، أخوه، ثم سكنتوه عندكو، ثم

مكتبة عابث الإلكترونية

الصعيد، ثم قتلت ظابط الشرطة علشانهم. فيصح لها، ظابط الشرطة هي قتلته، فترد هي مين؟ فيرد هي إنشي، فتقول له إنجي خوّافة، إنجي وسخة، إنجي لا تفعل شيئاً بيدها. أنا عارفاها.

يخرجان ورقة وقلماً ويحاولان تدوين الأحداث. ولكن الأحداث كثيرة. يمزقان ورقة تلو الأخرى. يقضيان الليل كله يحاولان ترتيب الأحداث، ولكن لا شيء ينفع الآن. تميل منة عليه وتهمس له، نسأله؟ فيميل عليها ويهمس لها، نسأل مين ياختي؟ فتميل عليه وتهمس له، نسأل الشيخ علي، فينتفض ويصرخ، انتي اتجنيتي يا ولية، تغور البتاعة ع اللي عاوزين يعرفوها. فتستعطفه، انا معايا تليفونه، فيزقها بعيداً، ينقض عليها، ثم يتمالك أعصابه ويخرج للبلكونة ويدخن سيجارة. حتى الولاعة لم تعد تولع في هذه الأيام.

°°°

عاد عادل.

عادل، الأخ الأصغر والغائب لسوسو والراحل أبو أميرة، عاد منهكاً وتعباناً، بعد سنوات طويلة من البهدلة، في السجن ثم في ليبيا ثم في الحياة. بحث عن أخويه في كامب شيزار فلم يجدهما، بحث عنهما عند كوبري كرموز فلم يجدهما. قرب تمثال الفرخة الكبيرة جلس وبكى. شاهده واحد من المارة، سأله عما يريد. فقال له إنه يبحث عن بيت أبو أميرة، قال له الشخص لا أعرف، فقال له طب وسوسو، فقال الشخص لا أعرف، فقال له طب والشيخ علي. أشار الشخص إلى بيت علي ثم انصرف. هذا الشخص كلم آخر، والآخر كلم آخر، حتى وصل الخبر إلى حمادة.

في بيت علي جلس حمادة مع أبويه. قال لهما إن عادل رجع أخيراً، وإنه أمامهم حلان، واحد سهل، وهو طرده من المنطقة، والثاني صعب وهو احتواؤه

حتى يصبح عوناً لهم ضد سوسو (الاحتواء كانت الكلمة التي استعملها حمادة). علي بدا قرفاناً من كل هذه الذرية، قال نذبحه وندفنه في الأرض. قالت إنجي نتركه حتى يتجدد من البرد. وقال حمادة أهم حاجة في المرحلة دي إننا نكسب الناس. عادل من النهاردة ورايح هيبقى بتاعي أنا. وانتصر رأي حمادة. حمادة بالتدريج كان يتحول ليصبح هو صاحب القرار، مع كامل الاحترام لمؤسسي العائلة.

برداناً، والماء يقطر من جاكته القديم، وحذاؤه مفتوح من جنبه ويغوص في الوحل، دخل عادل بيت الشيخ علي. شرب كوباً من الشاي وحكى عن ليبيا وسرت ورجال القبائل، حكى عن الحشيش والصحراء، حكى عن زوجته الليبية وطفليه المقيمين في بني غازي. قال إنه انقطع عن كل شيء يحدث في مصر الآن، باستثناء بعض طراطيش الكلام. قيل له إن علي انتهى، وإن حمادة مش عارف يعمل حاجة، وإن سوسو أخاه الآن أصبح شيئاً آخر (يتكلم بحماس وبحسن نية، ينظر لحمادة وعلي ويضحك ببراءة. على قرفان. إنجي تتف. حمادة غضبان، ولا أحد يرد). الأيام دوّل، يومٌ لك ويومٌ عليك، وانت دلوقتي يا شيخ علي ناوي تعمل إيه؟ ينظر علي للرجل ذي الملابس المقطعة الجالس أمامه ويتمتم بينه وبين نفسه، ناوي ابعبصك. يقطع حمادة كلامه ويقول، شوف يا دولة، إنت من النهاردة ورايح معانا هنا، هنقعدوك ف شقتي، وتبعت تجيب مراتك وعيالك. إحنا بنحبوك يا دولة وعاوزينك تستريح وتشتغل معانا. يوافق عادل. لا يملك إلا أن يوافق. يبتسم حمادة برضا، شكرا يا دولة، روح دلوقتي.

°°°

(بعد شهرين)

– دولة. مين أول ناس قابلوك وانت جاي من ليبيا؟

مكتبة عابث الإلكترونية

– إنتو يا معلم حمادة.
– كان معاك فلوس وقتها؟
– لأ يا معلم.
– اوصفلي كدا حالتك ف كلمتين اما جيت.
– كنت متبهدل خالص يا معلم.
– واوصفلي كدا حالتك دلوقتي.
– رضا ونعمة.
– ومراتك وولادك حد يقدر يقربلهم؟
– ماحدش يستجري.
– دولة. مين خيره عليك يا دولة؟
– انتو يا معلم حمادة.
– يا ترى احنا مستفيدين حاجة من دا؟
– الثواب والعمل الصالح بس يا معلم.
– شكراً يا دولة. روّح دلوقتي.

°°°

(بعد شهرين من الشهرين)
– دولة. إنت شغال إيه يا دولة؟
– مش شغال حاجة يا معلم حمادة.
– يعني إنت عايش معانا شفقة مننا؟
– أيوة يا معلم حمادة.
– ليه إن شاء الله؟
– علشان قلتلي هتشوفلي شغل وماشفتش.

– ولو قلتلك إن فيه شغل؟
– يبقى هشتغله يا معلم.
– شكراً يا دولة. روّح دلوقتي.

°°°

(بعد شهرين من الشهرين الأخيرين)
– مين أوسخ بني آدم ف الدنيا يا دولة؟
– إبليس الملعون.
– بس إبليس مش بني آدم يا دولة.
– أومال مين؟
– أني اللي بنسألك، مين أوسخ من إبليس؟
– ماحدش يا معلم.
– فكر كويس. مش عاوزك تستعزني.
– الولا سوسو النتن.
– شكراً يا دولة. روّح دلوقتي.

°°°

(آخر شهرين)
– إنت لسة مش شغال يا دولة، صح؟
– صح يا معلم.
– ليه؟
– علشان قلتلي إن فيه شغل بس ماقلتليش عليه.
– مين صح يا دولة؟ الشيخ علي ولا الولا سوسو؟
– الشيخ علي يا معلم.

مكتبة عابث الإلكترونية

– والمعلم حمادة صح ولا الولا سوسو؟

– المعلم حمادة.

– صح كدا.

– صح كدا إيه؟

– صح كدا. إحنا عاوزينك تشتغل معانا.

– اشتغل إيه؟

– هتبقى العين بتاعتنا على سوسو. هنزرعك هناك، وهتجيبلنا أخباره.

– ...

– خايف؟

– شوية.

– دا إحساس طبيعي.

– هأذي أخويا؟

– لأ. هتجيبلنا أخباره واحنا هناخد حقنا منه. مش أزيد مليم.

– يعني هتأذوه؟

– دولة. مين خيره عليك يا دولة؟

– إنتو يا معلم حمادة.

– شكراً يا دولة. روّح دلوقتي.

هكذا بدأت خطوات زرع عادل داخل إمبراطورية سوسو.

°°°

لقاء عادل بسوسو كان حاشداً بالعواطف والمشاعر الفياضة. قال عادل لسوسو أنقذني يا أخي، جئتك من بلاد لا تعرف ربنا. اتبهدلت ياما يا اخويا. وسوسو سالت الدموع من عينه. قالت له أين مراتك يا عادل، أين ابنك يا عادل،

فقال عادل تركتهم وجئت. قال سوسو طيب، عليا الطلاق تلاتة ماهتقعد في حتة غير عندي، وابعت جيب الولية والواد. دا احنا لحم ودم يا اخويا. لم يخبره عادل أن لديه طفلاً آخر، وأن الطفل الآخر موجود في بيت حمادة. أي حركة غدر من عادل سيقابلها ذبح الطفل أحمد ذبحاً، ليس هزاراً. حمادة كان قد تعلم من تجربته السابقة، لن يسمح لنفسه بعد ذلك بتربية عميل مزدوج الولاء.

أقام عادل عند سوسو، لثلاثة أشهر لم ينزل من البيت. أتى بطفله محمد وزوجته الليبية فاطمة، منذ البداية قيل محمد ابن عادل لأميرة بنت سوسو. والطفلان قاما بدعم هذه النبوءة. لقد أبديا اهتماماً ملحوظاً ببعضهما البعض، وكل شيء تحت عيون الأب والعم والمرأة. عادل كان يتعافى تدريجياً من رحلته الطويلة، بالسجن وبليبيا وببيت حمادة. امتلأ جسمه قليلاً وردّت الدماء في وجهه، ولكنه أبداً لم ينس الهدف الذي لأجله جاء هنا، أن يكون عيناً على أخيه. نصيحة حمادة له كانت أن ينشغل بتدعيم مركزه في البداية، ألا يلفت الأنظار إليه، ومع الوقت، سوف يطلعه أخوه على أعماله، وهذا ما حدث. إيمان سوسو المطلق بعائلته كان يدفعه للشد من أزر أخيه، اصطحابه معه في رحلاته المتكررة إلى الجبل والوردبان، وحتى إلى مطروح نفسها. عادل كان صامتاً أغلب الوقت. يراقب ويتعلم ولا ينطق. فقط بعد ستة أشهر من بداية إقامته عند أخيه التقى بحمادة في قهوة بدمنهور، بعيداً عن جميع العيون. قال له يا حمادة الوضع كذا وكذا واقتحام المنطقة سيتطلب واحد واتنين وتلاتة وهكذا. وحمادة كان يريه مشاهد فيديو لابنه التقطها على موبايله. الطفل يعيش في نعيم ما بعده نعيم. ولكن أي غدر سيدمر كل شيء. كل شيء يا دولة، مش هاكررها، روّح دلوقتي.

°°°

مكتبة عابث الإلكترونية

حمادة هذه المرة كان واثقاً من الانتصار. استرد صحته وخف وزنه الذي كان قد تضخم إلى أبعاد غير مسبوقة. علق الزينات في منطقته وأمر بإعادة طلاء تمثال فرخة الكرنتينا.

في الحقيقة، فإن هذه الفرخة كانت أكثر من تمثال. لقد تمحورت حولها آمال وأحلام أبناء المنطقة لسنوات طوال. تم بناء الفرخة في أيام الازدهار، وقتها لم تكن هناك إلا كرنتينا واحدة، لقائد وقائدة واحدين. بدت الفرخة وقتها عفية، ناظرة إلى أعلى، متطلعة للمستقبل، وكثيراً ما كانت تداري بجناحيها عشاقاً يسيرون متشابكي الأيدي في طريقهم للكازينو، وبيضاتها الأربع كانت تحمل أسماء تتغير كل يوم. كل من يرغب في تسجيل اسمه في تاريخ اسكندرية كان يكتبه على واحدة من البيضات. بدت كتابة الاسم هنا وكأنها نوع من توق المرء لأن يتم الاعتراف به، وتوق الحبيبين لأن يتم الاعتراف بحبهما. تصدرت صورة الفرخة المحتضنة بيضاتها صفحات الجرائد لدى الحديث عن كرموز أو عن الكرنتينا. لقد اجتمعت حولها أحلام الثوار وآمال المحبين. ولكن الوضع اختلف الآن.

تحت وطأة السيول المتلاحقة سنوياً على الإسكندرية فلقد تشقق التمثال وسقطت بعض أحجاره. بدا هذا رمزاً لزمن يتساقط أبطاله الواحد تلو الآخر. والفرخة، التي طالما شهدت صعود الثوار عليها لمراقبة عربات البوليس القادمة، ولبعض تبادل النيران من فوق جناحها، نفضت عن نفسها كل هذا الزمن برموزه. نادراً ما يكتب الآن أحد على بيضاتها شيئاً، كما أن مظهرها الذي تحول للكآبة مع الأيام لم يعد يشجع أحداً على اتخاذها رمزاً. فاروق كان هو أول من لفت نظر حمادة لهذا. قال له مشيراً إلى رأس الفرخة: "الفرخة باصة لتحت شوية يا حمادة"، وهو التصريح الذي كان أكثر من موجع بالنسبة

للأخير. جاء هذا التصريح في أعقاب مذبحة المرسم، في أعقاب مقتل زوجة حمادة وصهريه ورجاله. اعتبره وقتها حمادة سخرية مضمرة منه. كانا يجلسان على القهوة، التفت له حمادة، تقصد إيه يا فاروق، ولم يرد فاروق. فجأة عاودت حمادة نوبات الهستيريا التي طالما انتابته زمان. رفع الطاولة الحديدية وضرب بها فاروق في وجهه، ثم شاط حذاءه بعنف في خصيتيه، زأر بصوت هادر، وعزة جلالة الله يا فاروق الخول لو قلتها تاني أنا هاقتلك، هاقتلك يا فاروق، هاقتلك.

ولكن فاروق معه حق. هكذا فكر حمادة وهو يأوي إلى فراشه تلك الليلة. الفرخة تنهار فعلاً، وربما كان تطاول أبناء المنطقة عليه وعلى أبيه وأمه حدث من جراء هذا الانهيار، الرمزي والواقعي. لأيام طويلة فكر حمادة في إعادة طلاء الفرخة وترميمها. ولكن تلك الأيام لم تكن هي أيامه الأفضل من الناحية الاقتصادية. سأل أباه عن هذا فقال له أبوه مافيش فلوس، ومش هاتيجي فلوس، سأل أمه فقالت له باباك عاوز يقتلني يا حمادة، إنت لازم تحميني. ظل حمادة في هذا الغلب حتى مجيء عادل وبدء تشغيله عيناً على سوسو. وقتها امتلأت قلوب الجميع بالأمنيات في مستقبل مزهر سيأتي سريعاً، وأصبح الآن ممكناً الحصول على قرض من البنك بضمان العمارة. وبدأ العمل بالترميم.

واحد من العمال الذين أتوا لطلاء الفرخة كان غريب. شاب مخلص، مستقيم، يحفظ التاريخ جيداً ويردده دائماً على مسمع الرجال. المقصود هنا هو التاريخ السليم، التاريخ بحسب علي وإنجي لا بحسب سوسو ومنة الله. يومياً كان حمادة يمر على الرجال فيجده يحدثهم عن أيام زمان والخير الذي كان في أيام زمان. اقترب منه حمادة، سأله ماذا يعرف عن علي وإنجي فقال له غريب يحماس إنهما شابان سكندريان قاما ببناء جامع وسبيل للفقراء ثم ماتا، ولذلك

مكتبة عابث الإلكترونية

كل الناس تحبهما وتدعي لهما. انبسط حمادة بالإجابة، فحتى وإن عازتها بعض الدقة التاريخية، فهي تشهد على وجود جيل جديد يمكن استثماره في إعادة بناء إمبراطورية الكرنتينا التي كانت يوماً. قام بدعوة غريب على شاي يشربانه في القهوة، وفي القهوة أتى فاروق والشيخ محمد.

لم ينقطع حديث غريب طول القعدة، أما حمادة وفاروق والشيخ فقد بدوا مسحورين بحديثه. قال غريب إن الزمن القادم هو زمن حمادة. هو يعرف هذا لأن أباه قال له هذا، وأبوه يعرف هذا لأن أباه أخبره بهذا، هذه هي سنة الحياة. قد يزول العز للحظة، للحظتين، يا أخي قول ثلاثة، ولكن دائماً ما يعود الأصل لصاحب الأصل. طبطب حمادة على كتفه. في نهاية القعدة طلب غريب أن يدفع هو الحساب تعبيراً عن امتنانه لكونه التقى بحمادة نفسه، ولكن حمادة رفض، وألح غريب، وألح حمادة في الرفض. سأله غريب عن السبب فانتحى به جانباً، وقفا بجانب مبولة القهوة. وطى حمادة على أذنيه وهمس له، شوف يا خويا، هنا المعلم صاحب القهوة مش هيصدق إنك موجود، ممكن يبقى شايفك بعينيه بس هيكابر ويقولي لأ، صاحبك دا مش موجود وانت متخيله وكدا، دي هتبقى ف وشي انا يا صاحبي، مش كدا؟ ابتسم غريب باقتناع، وطبطب على كتف حمادة. في هذه اللحظة مر المعلم صاحب القهوة. نظر إلى حمادة وقال له بسخرية، بتكلم نفسك يا حمادة؟ لم يلتفت حمادة له، همس لغريب مبتسماً، مش قلتلك، جالك كلامي دلوقتي؟

الجديد هذه المرة أن غريب لم يختف من أمام حمادة. ابتسم بعرفان وعاد الاثنان معاً إلى جلستهما. بعد قليل فقط سيكتشف حمادة أن صاحبه الجديد

اختفى، لم يعد موجوداً، سيسأل نفسه متى مشى، ثم سيواصل حديثه مع فاروق والشيخ محمد.

بعدها بأيام اختفى علي. لم يعثر له أحد على أثر. لف حمادة على جميع المستشفيات ولم يتم العثور عليه. إنجي كانت راقدة على السرير في البيت تعاني نوبة برد حادة وتنظر كل دقيقة لتليفونها المحمول. عاد حمادة لها في الثانية بعد منتصف الليل يخبرها ألا أثر له. لاحظ دموعاً نزلت من عينيها وبللت اللحاف. قالت إنجي والنبي يا حمادة شوفهولي فين يا حمادة. أنا عيانة أوي يا حمادة. وعطست عطسة ضخمة سال على إثرها مخاط بلل اللحاف هو الآخر.

في صباح اليوم التالي رن التليفون في البيت. سأل المتصل إن كان هذا بيت علي محمد سيد، فأجاب حمادة بالإيجاب. الصوت الآتي من الناحية الأخرى بدا متردداً، قال إن علي قد تم العثور عليه غرقاناً في ترعة المحمودية. أملى العنوان على حمادة، وركض هذا إلى العنوان المذكور. هناك شاهد جثة أبيه. بكى قليلاً وكلّم أمه.

مرت أيام الحداد سريعاً. الشتاء يومه قصير وليله للنوم. فيما بعد، ستُمحى هذه الفترة نهائياً من ذاكرة حمادة، سيتذكر تفاصيل متناثرة، مثل العزاء الذي لم يحضره سوى قلة، على رأسهم فاروق وغريب والشيخ محمد، سيتذكر عراكاً مع المقرئ حول أجره الذي يطلبه، سيتذكر ليلة طويلة سهر فيها، وكان المطر يهطل بالخارج بضراوة، وأمه جالسة على الكنبة تعطس وتشغل بلوفراً من التريكو وتسأله فجأة، حمادة، إنت فاكرني هاموت دلوقتي، صح؟ لا يرد حمادة. حمادة، أنا مش هاموت دلوقتي، خلي بالك، والبيت مش

مكتبة عابث الإلكترونية

هاتورثه يا حمادة. إنت هاتموت وانا هافضل عايشة، والبيت دا هيفضل باسمي لحد آخر ثانية ف عمري.

تفصيلة أخرى من هذه الأيام يتذكرها حمادة بكل وضوح: رفع الستار عن تمثال الفرخة بعد أن انتهى طلاؤها وترميمها من جديد. يتذكر حمادة هذه التفصيلة بدقة بسبب جملة انطبعت في رأسه عن الأحداث الثلاثة المتزامنة، موت أبيه وافتتاح الفرخة وزرع عادل داخل إمبراطورية سوسو. تأمل حمادة هذا وقال ببطء: شيء يموت وشيء يولد وشيء في طور التكون. هذه حكمة الحياة.

°°°

لا شيء يعطل أهل الكرنتينا عن الوصول لهدفهم. حتى في عز الظلم والموت والدمار، لا ينشغلون عن إعادة البناء. قديماً قال توفيق الحكيم: "احترسوا من هذا الشعب، فهو يخفي قوة نفسية هائلة". والآن يحقق أهل الكرنتينا هذا الدرس القديم بأجسادهم. طول الوقت، حتى في أيام الحداد الباردة، كان حمادة يلتقي بعادل أخي سوسو، في محافظات أخرى بعيدة، دمنهور وطنطا مثلاً، وعادل لا يبخل عليه بأية معلومات يحتاجها. كان يمده بخرائط المنطقة وأسماء الرجال وطباعهم، وبنقاط الضعف في القلعة الحصينة التي بناها سوسو عند كوبري غيط العنب.

يجدر بنا أن نتساءل عن مشاعر عادل في ذلك الوقت. هل كان ذلك الفتى الذي ذاق مرارة الغربة والحرمان والسجن وملاحقة البوليس ينظر إلى نفسه بوصفه خائناً، خائناً لأخيه في المقام الأول، ولكن أيضاً خائناً للشخص الذي استضافه في بيته وقام بإيواء زوجته وطفله؟ في الحقيقة، يصعب العثور على دلالات مباشرة لشعور مثل هذا لدى عادل. لدينا فقط إشارات متفرقة. عادل

وهو يحشش مع سوسو ليلاً ويقول له بهمس، لو مت ابقى سامحني يا اخويا. يسأله سوسو يسامحه على ماذا فلا يرد. عادل إنسان، يشعر بعذاب الضمير ولا يرضى بأن يخون بياً امتدت له في لحظة ضيق، ولكنه أيضاً أب قبل أي شيء، أب لديه ابن محبوس ومعرض للقتل إن هو رجع عن تنفيذ مهمة ارتضى على نفسه في لحظة ضعف أن ينفذها. قال عادل لسوسو سامحني يا اخويا، واشتعلت لمبة حمراء في ذهن الأخير.

في يوم آخر، غلط محمد ابن عادل أمام سوسو، تحدث عن بيت حمادة من جوا. سأله سوسو أين رأى بيت حمادة من جوا، فغير عادل الموضوع. في يوم ثالث، كانت فاطمة زوجة عادل تتحدث مع منة زوجة سوسو، وقارنت بين الأنتريه في بيتها والأنتريه في بيت إنجي. نقلت منة الكلام لسوسو. الأخطاء كانت تتوالى، وسوسو إنسان ذكي.

في أيام سريعة استطاع سوسو تأمين مدخل الكربنتينا الخاصة به، وتبديل مواقع رجاله، وتكليف أحد معاونيه بتتبع خط سير عادل بدون أن يشعر الأخير. قدم الرجل تقارير لسوسو عن لقاءات تتم بين أخيه وبين حمادة في كفر الدوار. في هذه الأيام أكثر سوسو من الصلاة. كان كمن يستعين بربه على هذه الأيام الرهيبة، التي أتت والتي لازالت ستأتي. لأكثر من مرة بكى في حضن منة زوجته ليلاً. لأكثر من مرة ردد على مسامعها بشكل محموم، أخويا بيخوني يا حاجة. أخويا، ابن ابويا، باعني للشيطان. وهي كانت تمسح دموعه بيديها. بدا وهو يسير في المنطقة، بزكته الخفيفة، والتي تحولت إلى ما يشبه العرج الواضح بساقيه، وبشاربه الخشن الذي ابيض، وبتجاعيد وجهه المتكاثرة، وكأنه كبر عشرات السنوات. لم يعرف أحد ما الذي ألم بالمعلم سوسو. المعلم

مكتبة عابث الإلكترونية

سوسو، رابع الثلاثة سين ومحقق ما فشلوا في تحقيقه وصانع الإسكندرية الجديدة، كان يعاني ألماً هائلاً، لم تعرفه إلا منة.

°°°

بعد رفع الستار عن التمثال المرمم لفرخة الكرنتينا، فوجئ أهل المنطقة، في الأسبوع التالي، بالبيضات الأربع ملوثة بالدم.

تساءل الجميع عن مصدر الدم، حتى وإن تم تنظيف البيضات بسرعة، وإن تمت إعادة الفرخة إلى نقائها الأصلي، فإن السؤال ظل مطروحاً. بعد يومين عرف الجميع مصدر الدم. تم العثور على رأس عادل مقطوعة وملقاة بجوار الفرخة، وعلى إحدى بيضاتها مكتوب بالدم بخط واضح "سوسو: ٢-١-٢٠٤٤". رآها أحدهم فسارع بإبلاغ حمادة. نظر حمادة لها وارتج بداخله. رسالة سوسو إليه كانت واضحة. جن حمادة. فقد أعصابه، صرخ في الهواء الطلق وتحت الأمطار "كفاااية"، وركض نحو البيت. إنجي نائمة ويارا ولارا تبكيان، ويبكي معهما أحمد ابن عادل. لم يعرف ماذا يفعل. كان يصرخ ويخبط بقبضته على الجدار، وتظهر أمامه أشكال كثيرة لأشخاص كثيرين ثم تختفي. أيقظ أمه بالعافية وبكى في حضنها، وهي تعطس وتمسح أنفها. فكر في إلقاء نفسه من فوق سطح العمارة، كما سبق وأن ألقى أبوه نفسه في عمق الترعة. ولكن أشخاصاً آخرين ظهروا لإثنائه عن الفكرة ثم عاودوا الاختفاء. بعد ساعة كاملة هدأ. ظهر الشيخ محمد فاستكان حمادة. نزلا معاً إلى القهوة. في الطريق قال له الشيخ لا تحزن يا حمادة، لم يكن من أهلك ولا ناسك، كل ما في الموضوع أن الحرب تأجلت قليلاً. نظر حمادة له وابتسم. أصبح أكثر وأكثر هدوءاً وهما يجلسان على القهوة. لم يتكلم حمادة لدقائق طويلة. تذكر شيئاً فابتسم، وسأله الشيخ لماذا تبتسم. رد حمادة، تلعب بنك الحظ يا شيخ؟

يلعبان مع بعضهما الآن، أوراق البنكنوت حولهما، والشيخ محمد يحتل مدينة، وحمادة يحتل اثنتين، والشيخ يؤجر جراجاً، فيؤجر حمادة سوقاً، وعلى صوت الزهر الذي يلقيانه على اللوح، يبدآن في التخطيط للجولة الجديدة ضد سوسو.

°°°

"أنا قتلت ابن أبي، أنا قتلت ابن أمي، أنا خنت أبي وأمي وروح أخويا الطاهرة. أنا أستطيع أن أسامح حمادة لإنه قتل رجالي أو حاول أن يقتلهم بمعنى أصح، ولكني لن أسامحه أبداً لأنه جعلني قاتل. أنا قتلت ابن أبي، أنا قتلت ابن أمي". كان هذا ما كتبه سوسو بدفتر يومياته في تلك الأيام. في ورقة أخرى كتب: "لا أحد كسبان في الحرب. كل الناس خسرانة".

مكتبة عابث الإلكترونية

٦

القاهرة هي عاصمة مصر.

بعد كل حلقات الصراع التي شاهدناها على مدار العقود السابقة، بعد شلالات الدم المتدفقة، بعد البطولات والخيانات والنضالات، بعد التاريخ الجديد والقديم الذي كُتب، والتاريخ الجديد والقديم الذي مُحي، بعد كل هذا ظلت القاهرة عاصمة مصر، لا الإسكندرية.

إن السكندري يا أخي يتهيب شيئين، القاهرة، والآلة الحاسبة. يمكن القول إن السكندري، قبل ظهور علي وإنجي في حياته، وبعد ظهورهما، لم يتخل عن حلمه القديم، أن تعود الإسكندرية، مدينته الحبيبة التي تحتضن العالم الحر في الشمال، لتكون هي العاصمة، كما كانت في أيام مجدها الغابر، لا القاهرة.

لا يمكننا فصل هذا الحلم عن احتضان السكندريين لعلي وإنجي في العقود الأولى لوجودهما بالثغر. كما سبق وأن أشرنا، فإن هذا الظهور قد صاحبته نبوءات وبشارات بعودة المجد القديم لأصحابه. ولكن الأيام مرت، وتولت الحكم في مصر أسرة جديدة جاهلة، لا تقرأ التاريخ ولا تعبأ بثقافة المكان. الأسرة الجديدة، المكونة من أخ أكبر يطمح لتوريث الحكم لأخيه الأصغر، لم تهتم إلا بصراعاتها الداخلية في أماكن سكناها بالشيخ زايد، ولم تر، أو أنها تجاهلت رؤية، التاريخ الجديد الذي كان يولد في الإسكندرية. كل هذا ولّد

إحباطاً لدى المواطن السكندري العادي. يقول عم مصطفى، بائع بطاطا على الكورنيش، لجريدة "صوت الثغر" التي صدر أول أعدادها في بداية ثلاثينيات القرن الحادي والعشرين: "إحنا يا أستاذة عايشين زي الأرزقية، لا حد بيفكر فينا ولا حد بيسأل علينا، وطول الوقت عمالين نقولو اسكندرية اسكندرية، لكن الواقع ماحدش مستعني يكلمنا ولا يقولنا هانديكو حتى كرسي في مجلس الشعب"، أما محمود رجب ريحان، وهو بائع سمك في بحري، فيقول لجريدة "بحر ونورس": "إحنا كشعب عايش في اسكندرية، احنا نعتبر شعب غلبان، لكن الخوف إن الغلبان مايبقالوش مكان، اقول لحضرتك ليه، لما حضرتك تاخدي بالقلم مرة واتنين وتلاتة، مش اللي قدامك هيعتبر إنك كإنسانة، لامؤاخذة ماتزعليش مني، مالكيش لازمة، وهيفضل يديكي بالقلم كل شوية". الصور الملحقة بالتحقيق الصحفي كانت لصخور الكورنيش المكتوب عليها: "عايزة ثورة يا بلادي".

في منتصف الأربعينيات صعد عدة ممثلين إلى صدارة المشهد الفني في مصر. سهير نجيب كانت هي النجمة الأولى، لقبها هو "الزعيمة" تيمناً بالنلقب الذي أطلق على نجم السينما القديم عادل إمام. وبجوارها برز عدة نجوم شباب احترفوا آداء الأدوار الكوميدية، محمد بخيت وأيمن عبد الحميد وسلامة سلامة. أطلق على هذه الظاهرة ظاهرة "المضحكين الجدد"، واعتبر النقاد أنهم يكرسون لعصر من الانحطاط بإفيهاتهم الصارخة ذات المنحى الجنسي في الغالب. حتى سهير نجيب تنازلت عن أدوارها الميلودرامية التي رافقت ظهورها في العشرينيات، وانجرفت في تيار سينما الشباب. كتب أحد النقاد وقتها يتساءل: "هناك عصر جديد يظهر، عصر بلا ملامح، فهل سيكون هذا الانحطاط هو الذي سيتربى عليه أبناؤنا في المستقبل". لا يمكننا فهم دلالة هذا

مكتبة عابث الإلكترونية

من دون الإشارة إلى حقيقة مهمة، فهؤلاء الممثلون، نجيب وبخيت وسلامة وعبد الحميد، جميعهم أتوا من أصول سكندرية واضحة، ومن أحياء لا يمكن التشكك في "سكندريتها"، رشدي وباكوس وسيدي بشر وبحري وغيرها. هذه الظاهرة التي صرخ بسببها واحد من رؤساء التحرير قائلاً في افتتاحية مجلته شهرية: "السكندريون يغزون مصر، بانحطاطهم الشديد".

إذن، على عكس ما كان يفترض أن تؤدي هذه الظاهرة إليه، أي تحول مركز الحياة المصرية إلى الإسكندرية، فلقد ساهمت الظاهرة في النقيض، أي ظهور موجة من العنصرية ضد الإسكندرية والسكندريين. ومحاولة التضييق على أي من يخرج منهم إلى القاهرة. شخص وقع باسم جمال الدولي، وإن كان أكيداً أنه ليس هو، كتب على جدار ترام الإسكندرية قائلاً: "بعد الشيوعوفوبيا، والإسلاموفوبيا، هناك الآن الألیكسوفوبيا"، ووضع علامة :) بجوار عبارته تلك.

لا يمكننا في الحقيقة فصل صراعات سوسو وحمادة عن هذا التيار الجديد من الكراهية العمياء ضد كل ما هو سكندري. في الواقع، فلقد تم في الصحف استغلال صراعات الكرنتينا لإبراز همجية السكندريين. شيء ما على غرار، انظروا، هؤلاء هم شعب الحضارة الإغريقية والتفتح، شعب خالد سعيد والثورة والمليون الشهيد، إنهم يقتلون بعضهم بعضاً، والشرطة تقف عاجزة. حتى المواطن العادي، المواطن الذي لا تحركه حسابات سياسية بعينها، نظر إلى الإسكندرية في تلك الأيام وكأنها غابة كبيرة لا يعيش فيها إلا المجرمون المتوحشون. قلّ بشكل ملحوظ عدد المصطافين بالمدينة، وبالتالي فلقد أغلقت مقاه كثيرة كانت تعيش على السياحة الداخلية، كل هذا، مع إهمال المحافظين للمدينة التي أخذت القمامة تتكوم بشوارعها يوماً بعد يوم، والتي تزايدت فيها

جرائم القتل الوحشية، ومع هجرة الكثير من السكندريين خارج مدينتهم، إلى القاهرة ولكن أيضاً إلى مدن أخرى، مثل دمنهور وبنها والقليوبية وحتى إلى مدن الصعيد، كل هذا أدى إلى النتيجة التي افتتحنا بها كلامنا هنا: بعد كل الأحلام العريضة، فإن القاهرة لا تزال هي العاصمة المصرية. وكان هذا محزناً جداً.

يمكن للبعض بالتأكيد القول إن سوسو لا يختلف جوهرياً عن علي. مثل علي، فلقد بنى سوسو إمبراطورية كبيرة، ومثلما اعتمد علي على نشاط غير مشروع –قانوناً – وهو البغاء، فلقد اعتمد سوسو على الإتجار بالمخدرات، ومثلما تم تعميد علي بقتله لأخيه مصطفى، فلقد تعمد سوسو بقتله لأخيه عادل. شيء واحد كان يختلف بين كليهما: سوسو لم تكن لديه أحلام قومية بخصوص الإسكندرية.

سوسو، الذي لم يكن إلا ابن سوق يريد النجاة في عالم رأسمالي متوحش، وتأسيس تجارة ضخمة، لم يعن أبداً مثل سابقه بافتتاح عصر جديد في الإسكندرية. وحتى قصص سيد وسيكا وسلطان التي أعاد إحياءها، لم تكن إلا حيلة لمواجهة قصة جبارة أحياها علي، قصة الشهيد حربي. على العموم، فنحن لا ندعي الموضوعية. ليست هناك موضوعية في العالم. نحن نتحدث عن التاريخ من وجهة نظر علي وإنجي. نحن منحازون لعلي وإنجي.

بعد مقتل أخيه بأيام، بدأ سوسو يخطط لخبطته الأقوى، اقتحام كرنتينة حمادة، قتل إنجي وقتل حمادة والاستيلاء على التركة الجبارة التي كانت أصلاً، هكذا يرى، من حقه هو وزوجته. دبر سوسو رجالاً من كل مكان، وحصل على سلاح يكفي لتفجير الإسكندرية كلها، الصراع الآن يصل إلى حده

مكتبة عابث الإلكترونية

الأقصى، وبعد أن دفعه حمادة لقتل أخيه عادل، لم يبق مكان للصبر ولا التسامح. دقات قلب كرموز تتسارع. الساعة تدق، والحسّابة تقوم بالحساب.

حمادة لا يفقد الأمل، بين الرجال الجدد الذين يعاونون سوسو الآن، زرع حمادة شخصاً ينتمي له. مع الوقت، وعدم انكشاف أمر هذا الشخص، زرع شخصاً آخر، وشخصاً ثالثاً. لم يلتق بهم هذه المرة. كلف رجاله بالالتقاء بهم، وفي محافظات بعيدة تماماً، القاهرة وبني سويف والمنيا على سبيل المثال. الآن جميع المعلومات حول سوسو كانت في يديه، ولكن ما الذي تجديه المعلومات، إذا كانت كلها انتهت إلى نفس النتيجة الكئيبة: لا يمكنك الآن يا حمادة أن تقتحم كربنتينة سوسو، والأخطر من ذلك، سوسو يخطط للهجوم على منطقتك، ولن تستطيع حياله شيئاً. لدى سوسو الآن سلاح بالهيل، لديه عربات مدرعة، ولديه، كما تناقل الناس وقتها، طيارة هيلوكبتر. جواسيس حمادة اكتفوا بالتأكيد على الميعاد الذي سيتم فيه دك الكرانتينا، وعلى حمادة أن يجلس مثل الولايا في انتظار قدر ربنا.

في هذه الأيام، انشغل حمادة بأمر مهم، بالأمر الأهم في حياته. بعد أن جرب طريق الفن، وبعد أن جرب طريق التصوف، ولم يجد فيهما الشفاء لروحه الحائرة والمعذبة، انشغل بمشروع أخير سيقدر له أن يحتل المساحة الباقية في حياته: الوصول للحكمة.

في انتظار الهجوم الكاسح لسوسو، صار حمادة يجلس يومياً على سور تمثال الفرخة. يتشمس، هكذا بدا، ولكنه في الحقيقة لم يكن يتشمس. كان يحاول الوصول لسر الوجود. لم يتحرك حمادة من مكانه لأيام طويلة. تلقى زخات المطر على رأسه بالليل وهبات الريح الساقعة بالنهار. وجهه موجه

دائماً باتجاه الفرخة، ينظر للأسفل، حيث صحن التمثال مليئ بماء المطر، يتطلع إلى الديدان التي تسبح في الماء، يتساءل إن كانت سمكاً أم بسارية. يتساءل عن حياة كل بسارياية منها، ويحاول الإصغاء إلى الأصوات المختلفة للوجود. بدا وكأنه قد كبر عشرات السنوات، هو الذي بالكاد بلغ الأربعين. نبتت لحيته، وبدأ يخس بشكل سريع. كان جسمه ينضهر.

كانت هذه هي أكثر فترة في حياته شرب فيها الخمرة. كان يصعد إلى البيت مرة واحدة في اليوم، يحمل ثلاث أو أربع قُرَص وقزازة مية وقزايز البراندي والويسكي، وينزل، يتخذ موقعه على سور صحن التمثال. يفتح كيس القرص ويبللها قرصة وراء الأخرى بالماء ويبلعها. ثم يبدأ في عبّ قزايز الخمرة، وعندما تنتهي يرسل واحداً من العيال في المنطقة لكي يجلب له أخرى. ينظر إلى الماء وديدان الماء. طول الوقت ينظر إلى الماء وديدان الماء أسفل قدميه، ويفكر. من أجل الوصول للحكمة لابد من التأمل، وحمادة لم يكن مقصراً، كان يتأمل كل ذرات المياه أسفل منه. يا هلترى هذا الدود له حياة مثل حياتنا، ويا هلترى هل هناك ناس أكبر منا ينظرون إلينا كما ننظر نحن إلى هذا الدود، يضحكون علينا ويستخفون بنا ولا يهتمون بقصصنا. ويا هلترى هل ممكن أن ننظر نحن إلى أنفسنا كما ننظر إلى الدود، يعني، هل ممكن أن نعرف بنفسنا الحقيقة التي عرفتها الكائنات الأكبر منا؟ نحن دود، قالها حمادة، جرع بق براندي، وأطلق بشفتيه صفيراً قصيراً، ثم عاود النظر إلى الماء.

من بعيد، سيبدو حمادة وكأنه واحد من الشحاذين فاقدي العقل المنتشرين في كل مكان وزمان، بملابسه المهيبة ولحيته السوداء النتنة وشعره الطويل الذي بدأ يثمر عن حشرات ترعى على قفاه. يأكل عند الفرخة ويشرب عندها وعندما يحتاج للتبول يقف ويخلع البنطلون ويخرج مثانته ويطرطش بها على الماء.

مكتبة عابث الإلكترونية

ولكن كل هذا ليس إلا المظهر فحسب، وإن كان الوصول للحكمة ثمنه أن يبدو المرء مجنوناً، فما أرخص الثمن. يقول حمادة. من مكانه هذا، كان يشير للعيال الصغيرة، في البدء كانوا يخافون، ثم أخذوا يقتربون شيئاً فشيئاً، ويحدثهم حمادة عن الماء وعن الفرخة وعن الدنيا. قال مرة لواحد من الأطفال، هذه الدنيا كتابٌ أنت فيه الفكرُ، قول إنت يعني إيه. لم يرد الولا. نظر حمادة للأسفل طويلاً ثم قال، يعني هذه الدنيا، الدنيا اللي احنا عايشينها، كتاب، وإنت فيه الفكر. قام نصف قومة ليعدل جلسته، والولا لم يحرم نفسه من هذه الفرصة، بعبصه بسرعة ثم هرب.

لأجل اتقاء موقف كهذا، ولأجل اتقاء أمواج العيال التي تقذفه بالطوب وتضحك عليه طول اليوم، صعد حمادة يوماً إلى بيته، لم يكتف بالقرّص وقزازة المية التي يأخذها كل مرة. عرج على الكنبة بغرفة النوم. فتح الصحارة وأخرج منها الطبنجة، ونزل الشارع. في البداية، كان يطلق ناراً في الهواء عندما يتجمهر العيال حوله. ولكن ذات مرة استفزه عيل منهم ولم يهرب. أطلق حمادة طلقة ثانية في الهواء، وظل الولا واقفاً بسماجة أمامه. حينها شد حمادة الأجزاء وأطلق النار على كتفه. صرخ الطفل وركض بعيداً. أما حمادة فقد جرى إلى البيت. أخرج مدفعاً آلياً من تحت الصحارة ونزل به. وأمام الأهالي الغاضبين لإصابة ابنهم وقف مشرعاً مدفعه الآلي ومهدداً بقتل كل من يقترب.

تعلم حمادة من هذا اليوم درساً مهماً، صحيح أن الحكمة قد تكون كائناً ذا عقل راجح، ولكنها ذات جسد ضعيف. الحكمة تحتاج دائماً لمن يدافع عنها، لمن يدافع عنها ويتمكن من إيصالها للناس. تحت تهديد مدفعه الآلي، استطاع حمادة قيادة عدد من الأطفال إلى قعدته عند الفرخة ليحدثهم عن الحكمة والوجود وعن الموت والميلاد. الآن يتكلم ببطء كمن وصل إلى الحقيقة، يؤكد على

كل كلمة، ويفكر كثيراً قبل النطق، ولا ينظر في عين محدثه وهو يتكلم، وإنما إلى البسارية السابحة في الماء. يصيغ على الدوام جملاً قصيرة على شاكلة، "المال يزول، لكن الأخلاق تبقى هي تاج الإنسان"، أو "الطائر له جناحين، أما الحب والرضا بالنصيب فهم جناحين الإنسان"، أو "النجاح لا يأتي صدفةً". كان يلقي بالقول ثم ينظر بطرف عينه إلى الأطفال الجالسين أمامه ويتمم على سلاحه ثم يعاود النظر في الماء. بعد قليل يرفع رأسه ويطلب من الأطفال فهم هذا الكلام جيداً لأنه سيسألهم فيه في اليوم التالي.

أول مدرسة في العالم لتعليم الحكمة، هكذا نظر حمادة إلى نفسه في هذه الأيام برضا. ولأنها مدرسة للحكمة، فالمنهج التعليمي فيها مختلف. لم يكن حمادة يسأل الأطفال عما قاله لهم بالأمس، وإنما عما فهموه من حكمة الحياة على مدار يومهم الماضي، وكل واحد كان يتطوع، وحمادة يتمم على سلاحه ويبتسم. ولكن الأطفال، الذين كانوا في البداية خائفين من السلاح، سرعان ما عادوا إلى استهزائهم القديم به. قرر حمادة يوماً أنه يحتاج لإعادة فرض سطوته. سأل واحداً من الأطفال عن الحكمة التي تعلمها امبارح في حياته، فقال الطفل إنه تعلم أن الزعل وحش. أطرق حمادة قليلاً، اعتبرها إجابة خاطئة، وأخرج المدفع الآلي وأطلق رصاصة على رأس الطفل. مات الولا.

الأيام القادمة ستكون أياماً صعبة. قتل طفل لم يعد أمراً سهلاً كما كان أيام زمان. أحاط حمادة جلسته بأنابيب البوتاجاز. حمل طبنجة في جيبه الخلفي وسلاحاً آلياً في ذراعه، وصار يكب البنزين كل يوم في صحن التمثال، لتهديد كل من يقترب منه بإحراق المنطقة كلها، أنا مابقتش باقي على حاجة، بس اللي قدامي باقي، وباقي أوي كمان. الآن يجلس في قلعة حصينة. في النهار يطلع خارجها، يسحب عيلاً أو اثنين أو ثلاثة، وتحت تهديد السلاح يسوقهم أمامه.

مكتبة عابث الإلكترونية

يفتح باباً في دائرة أنابيب البوتاجاز. يدخلهم. يغلق الباب. يجلسهم حوله، ويمضي في تأمل الوجود، صامتاً، مهموماً، مغرقاً في التفكير. وعندما يسأله أحد من الأطفال عما يفكر فيه، يشير إليه أن يسكت. ويقول بعد قليل بنبرة بطيئة شيئاً على غرار: "الدنيا دي بقت مش ممكن خلاص". ثم يلتفت إليه ويبدأ في تفصيل كلامه، مع فواصل زمنية طويلة بين كلمة وثانية. ذات مرة قال فترة واحدة في سبع دقائق ونصف كاملين. الفقرة كان نصها:

"قلتلها ياما إنتي مش قد الناس دول. خافي منهم. دول ناس كبار وإنتي طلعتي ولا نزلتي حتة شرموطة بخمسين جني. بس هما ولعوا البنزين. وبعتوا راسها في علبة، هنا، في الحتة دي، تحت رجلي. انت ماجيتش ليه يا فاروق. ولا انت يا شيخ محمد؟ هو إنتو مابتجوش ليه، مش تبقوا تيجو؟! خيرارارايا. هيهيهي. فيه حاجات كتير انا مابقتش نقدر عليها خلاص. يعني الصراحة انا كنت تعبان شوية، تعبان نفسياً يعني، بس دلوقتي أنا بقيت حلو، ماعُنتش تعبان نفسياً زي زمان. بس انا الدنيا قالتلي عافر فيا وانت تعبان كدا. وهو دا اسمه كلام؟ وهو دا يعني ينفع مثلاً؟"

لم يأكل حمادة إلا أقل القليل في هذه المرحلة، فقط كم قرصة بالجبنة كل يوم، مع بحار من الخمرة المضروبة. يشرب من أول النهار حتى نهايته. في بداية النهار، على العاشرة أو الحادية عشر صباحاً، يكون كلامه سلساً، مع تقدم الوقت، يبدأ في إمالة رأسه على كتفه ويغمغم. يسأله واحد من الأطفال عما يقول فيواصل الغمغمة، ثم يرفع رأسه ويقول مثلاً: "كل الناس حلوين، ف عينيا حلوين"، ثم يركن رأسه على كتفه، أحياناً ما يقيء بسرعة في صحن التمثال، ثم يواصل إغلاق عينيه. فقد الكثير من وزنه في هذه الأيام. تبقى له فقط وجه مستدير، ذقين شبه بارزين وكرش صغير. وطول الوقت كان يهرش

في عانته وإبطه. ويغمغم بالجملة التي كانت سابقاً رنة موبايله: "الرفاق حائرون، من تكون، حبيبتي من تكون".

إنجي كانت تسمع عما يحدث. لم تكن سعيدة. هي أيضاً ابتليت في هذه الفترة بلعنة أن ترى كل شيء، منذ البداية الخالص، إلى اللحظة الراهنة. ولكن إنجي قادرة على مواجهة كل شيء، بما فيها الذكريات. هي أيضاً، مثل حمادة، كانت تعرف أن النهاية هي مسألة وقت ليس أكثر. تعرف أن سوسو قادم بدباباته ليدك المنطقة تماماً، ولكنها، على عكس حمادة، لم ترض بالانتظار حلاً وحيداً. نزلت مرة والفجر يؤذن، تتوكأ على عصا وتتغطى بشال سميك. حمادة كان نائماً يشخر عند قاعدة التمثال. فتحت فتحة في دائرة أنابيب البوتاجاز ودخلت، حمادة لا يزال يشخر ولا يشعر بشيء. صفعته بخفة على خده حتى يصحو. بدأ يفيق وهي جلست جنبه: "هانت عليك ماما يا حمادة؟ هانت عليك علشان تضحّك علينا الناس؟ مافكرتش ف الست اللي خلفتك وتعبت فيك؟" رائحة نتنة كانت تنبعث من كل سنتيمتر في جسمه، وتنبعث بقوة أشد من عانته، برغم هذا انحنَت إنجي على فخذيه، دفنت وجهها في حجره ومضت تتكلم، كأنها تكلم نفسها: "يعني لما انت ابني تعمل فيا كدا، يبقى الغريب هيعمل ايه؟ يا حمادة دا بدل ما تدافع عني وتقول امي ست كبيرة وعاوزاني جمبيها، يا حمادة دا بدل ما تراعي ولادك؟ دا بدل ما تروح تزور ابوك في تربته؟ بتوجع قلبي عليك، انا امك يا حماده؟" كانت تغمغم بهذه الكلمات بصوت منخفض تماماً، وفي نفس الوقت كانت تحاول أن تكشط بأظافرها بقع الوساخة على بنطلونه، تتف تفة على إصبعها وتفرك فيها البنطلون، ولا شيء يروح طبعاً. القمر طالع ومكتمل، والجو لطيف، نحن الآن في الربيع. فجأة يقوم حمادة، يتنتر من جلسته. يصرخ: "ابعدي. هاقتلك يا

مكتبة عابث الإلكترونية

ماما، هاقتلك، وربنا هاقتلك". يشهر فجأة مدفعه، ويطلق عدة طلقات متوالية في الهواء. إنجي تنتفض. تجري عائدة إلى بيتها. يلاحقها بطلقاته. تتمكن من الصعود للبيت وإغلاق بابها عليها. حمادة يركن السلاح خلف ظهره ويعاود النوم. بعد قليل يعلو صوت شخيره.

°°°

قُتل واحد من رجالة سوسو في خناقة ببحري.

حظى هذا الحدث بأهمية خاصة في سلسلة الأحداث المتعلقة بصراعات الكرنتينا، ليس لأنه كان وراء اتخاذ سوسو أخيراً القرار باقتحام كرنتينة علي وإنجي، ولكن لأنه كان وراء قراره بأن ينزل هو إلى الكرنتينا، أن يحضر عملية الاقتحام بنفسه، بعد أن كان قد خطط لإيكال العملية كلها لواحد من رجاله. كان الدم يغلي في عروق سوسو، الذي اعتقد أن مقتل رجله ببحري كان من تدبير حمادة. قرر الانتقام وقتل حمادة بيديه.

جهز سوسو الرجال والسلاح وانطلقوا. اقتحمت عربتا نقل محملتان بالرجال المنطقة. نزل الرجال منها. تصدت لهم مجموعات ضئيلة ومتناثرة لم تستطع الصمود لوقت طويل. ثم أطل فجأة رجال آخرون من شبابيك بيوت الكرنتينا، يطلقون النار على رجال سوسو بكثافة. الجحيم اشتعل فجأة. واحد من الضحايا كان بائع فاكهة يفرش بضاعته في الشارع. شاهد أمام عينيه تراقص حبات البرتقال واليوستفندي تحت وطأة الرصاص، وتناثر السائل الحمضي منها وإغراقه جلابيته. تساقط بعض رجال سوسو، ولكن عربات النقل المحملة بآخرين لم تنته، ومن إحداها نزل سوسو نفسه. مسبوقاً بعدد من رجاله الذين يفسحون له الطريق ويحمونه صعد إلى بيت الكرنتينا. دخل على إنجي التي كانت جالسة بجوار أم صلاح الشغالة تراقبان الأحداث من الشباك الموارب.

نظرت إنجي لسوسو، ونظر لها. ابتسمت، ماتغيرتش كتير يا ولا يا سوسو. أخفى عينيه في الأرض. تعرف يا ولا، المرحوم كان على طول ف سيرتك، كان يكرهك أوي. هل يفعل الزمن كل هذا؟ يتساءل سوسو وهو ينظر إلى الوجه المتغضن والسافر لإنجي. يتذكر إنجي أخرى، من أربعين سنة، بيضاء وجميلة، بنظارة صغيرة ونصف كلامها إنجليزي. تميل الحاجة عليه بدلع، تتحسس صدره وهي تقول، أصله كان فاكرني بحبك. يصل إصبعها إلى حلمة صدره فتقرص عليها بخفة، تتأوه كلبوة، تغمز بعينها اليسرى فيتغضن الجلد المحيط بها، تقول، بحبك إيه، هو دا كلام! دانت اخويا الصغير. ثم تنظر إلى عينيه وتبتسم، مالك يا ولا، مش على بعضك ليه يا ولا؟ ينثرها فجأة بعيداً، غوري يا ولية يلعن شكلك. يجري إلى البلكونة. من هناك يرى حمادة نائماً يشخر محاطاً بأنابيب البوتاجاز. يضرب الأنابيب بالنار فتنفجر. حمادة الآن في قلب النار. والنار سرعان ما ستلتحم بالبنزين المسكوب على صحن تمثال الفرخة. حمادة، الذي حصن نفسه بالنار والغاز والبنزين لكي يمنع أحداً من التقدم إليه، سيكون مصيره الموت بنفس النار والغاز والبنزين.

يفيق حمادة. في ثوان يستطيع استيعاب كل شيء. يمد يده إلى سلاحه ويطلق النار على سوسو الواقف في البلكونة. يسقط سوسو من البلكونة. يجري حمادة، مشتعلاً بالنار المندلعة من ملابسه، يخترق أنابيب البوتاجاز، ويجر سوسو جراً على الأرض. يرميه في وسط النار. وسوسو يعافر، يجذبه من بنطلونه. حمادة، الذي بدا للحظة وكأنه إله يشتعل، خلع كل ملابسه، بسرعة ومهارة فعل هذا. لم يخف من النار على أصابعه التي تفكك زرايز القميص وتفتح سوستة البنطلون. خلع كل ملابسه ومضى بعيداً. صعد راكضاً على السلم. دخل الشقة ومضى يطلق النار بجنون على رجال سوسو المنتشرين هناك.

مكتبة عابث الإلكترونية

عرياناً، عرقاناً، ملتحياً ووسخاً كان يطلق النار على الجميع بلا تمييز. في النهاية، دخل غرفة البنتين الصغيرتين، يارا ولارا، حملهما بيديه، ومعهما أحمد ابن عادل. وضعهم جميعاً بجانب أمه المختبأة في غرفتها مع أم صلاح الشغالة. نظر من البلكونة. لم يصدق المنظر. المعجزة تتحقق أمام عينيه، رجاله يلقون برجال سوسو في النار. سوسو نفسه جثة متفحمة الآن. إطلاق النار يخف بدرجة كبيرة، والنصر محسوم لحمادة ورجال حمادة. القدر يلعب لعبته.

يبتسم حمادة برضا. ينظر إلى الكرنتينا المختبئة تحته. يتحسس جسده المجروح والنازف. تخرج يده ملوثة بالدماء والعرق والطين المتراكم. ينظر إلى البعيد. يشعر بدوار خفيف. يلمح واحداً من رجال سوسو يتحرك تحت. يخرج سلاحه بصعوبة شديدة. يحاول التصويب عليه ولكن توازنه يخونه. يسقط على أرض الكرنتينا.

عارياً، نازفاً، مشتعلاً، وسخاً، شاباً، بكرش صغير، مات حمادة، ولكن أيضاً مكللاً بهالة من بهاء سيظل يذكرها التاريخ.

هدوء تام ساد كرموز في الأسبوعين التاليين. نادراً ما سُمع صوت عركة أو حوار أو شباب يضحكون. حتى الدجاج والبط لم يصدر صوتاً. لا يتردد الآن في كرموز سوى صوت الأذان وصوت أجراس الكنيسة، متعانقين متلاحمين، الكنيسة والجامع بناهما علي وإنجي يوماً ما. يتاح الآن لكرموز أخيراً كتابة تاريخها وتمجيد أبطالها، بهدوء ورواق.

بدا للجميع أن عهداً جديداً على وشك البدء، عهداً نعيد فيه بناء كل شيء من الأول. بعد مقتل سوسو وحمادة وعادل، بعد انتحار علي، بعد موت أبو أميرة، بعد كل هذا بدا وكأن كرموز تتحرر من ثقل تاريخها، وتعود إلى ما قبل

تاريخها. الجميع الآن هادئون ونائمون، وادعون كالأطفال. في هذه الليالي أيضاً نامت وزارة الداخلية بهدوء، بعد أن تم أخيراً التخلص من سوسو، إمبراطور غرب اسكندرية، وبعد أشهر طويلة استطاعت فيها الوزارة تربية كوادر داخل الكرنتينا تتمكن من التخلص من سوسو عندما يقوم هذا بهجومه الحتمي عليها.

الأيام التالية كانت محملة برياح وأتربة شديدة حجبت الرؤية في الإسكندرية كلها. بعدها أتت بلدوزرات عملاقة. قامت بهدم تمثال الفرخة تماماً. انهار التمثال أمام الأهالي المشدوهين، كما قامت البلدوزرات بهدم بعض البيوت غير المرخصة، أما بيت الكرنتينا نفسه، الذي تسكنه إنجي مع حفيدتيها، بطوابقه الأربعة، فلم تقترب منه، البيت بأسطورته مازالا يفرضان سطوتهما.

في الأيام التالية قامت أم صلاح الشغالة بحمل أحمد ابن عادل، وذهبت به إلى كربنتينة سوسو، أعطت الطفل لمنة أرملة سوسو. ابتسمت تلك وجهزت لها غداء وشاياً. لم تتحدثا عن أي شيء. تجاهلتا كل بحار الدم والدموع وشربتا الشاي. قالت منة إنها مشغولة الآن بتربية أميرة ابنتها وبتربية أحمد ومحمد ابني عادل الخائن، هما مالهمش ذنب، الحاج سوسو كان راجل يعرف ربنا، وعارف إن ماحدش بيتاخد بذنب حد. رشفت رشفة من الشاي وأكملت، الولية مرات عادل اني طردتها، مرة لبوة ونجسة.

عندما عادت أم صلاح إلى بيت إنجي، وفي الطريق الذي سلكته بكربنتينة سوسو السابقة، شعرت أنها آمنة، أن هذه المنطقة لم تعد مأوى للأوباش كما كان علي يحكي عنها. شعرت بالحرية. ونظرت للبيوت المهدومة والعربات التي تعمل على سفلتة الطريق وضحكت، وأخذت تضحك كثيراً، تضحك كمن

مكتبة عابث الإلكترونية

شعر بالتحرر أخيراً. قبل أيام، كانت الشرطة قد قامت بتطهير المنطقة أيضاً، ومثلما حدث في الكرنتينا الأصلية، فلقد تم الإبقاء على بيت سوسو، البيت القديم لحربي، المحمل بالتاريخ الثقيل والكئيب للصراع. وأم صلاح تضحك، تضحك وتتقافز في الطريق كالدبة.

ولأن آفة حارتنا النسيان، كما يخبرنا المثل الشعبي، فلقد مُحيت تفاصيل هذا الصراع من أذهان سكان كرموز. تبقت صور وحيدة وقليلة، على رأسها صورة حمادة، وهو عريان ومشتعل ويخلص المنطقة من الأشرار برشاشه من البلكونة، وحمادة وهو جالس قرب الفرخة مثل بوذا، يعب الخمرة الرخيصة ويلقي بكلمة كل خمس دقائق تشرح أسرار الحياة والموت، ثم يعود ليتأمل الديدان العائمة في ماء المطر، وصور أخرى كثيرة.

الأعوام السابقة كلها كانت مليئة بالدم، ولكن هذا العام وحده من حفل بمقتل كل هؤلاء الرموز في وقت متقارب للغاية، علي وحمادة وسوسو وعادل وغيرهم. لهذا السبب، ولأسباب أخرى، ظل العام الرابع والأربعين بعد ألفي عام من ميلاد المسيح هو العام الأكثر حسماً في تاريخ المنطقة، ما لم تتلوه أعوام أخرى أكثر حسما.

تمكين المرأة

"قصة سبع نساء يحكمن العالم"

مكتبة عابث الإلكترونية

١

في أواخر الثلاثينيات تم افتتاح ثقب شانجهاي، وكان هذا هو الحدث الذي شغل بال العالم بأسره في تلك الحقبة من القرن الحادي والعشرين.

"ثقب شانجهاي" كان عنوان مشروع ضخم بدأ العمل فيه من ٢٠٢٨ تقريباً، ثقب طويل محفور في الكرة الأرضية يبدأ من شانجهاي بالصين ويمتد حتى الطرف الآخر من الكوكب، في المحيط الأطلنطي، بجوار الأرجنتين. المشروع يهدف بالطبع إلى اختصار المسافات بين آسيا وأمريكا اللاتينية، ولكنه يهدف أساساً إلى إلى توفير المتعة للأثرياء الراغبين في مشاهدة جسم الكوكب من الداخل. قامت بالإشراف على المشروع شركة سياحة أمريكية، لم تكتف الشركة بثقب الأرض، وإنما قامت أيضاً بتصميم مركبات زجاجية مصفحة بحيث يمكنها تحمل الضغط والحرارة الشديدين بداخل الأرض، وصارت هذه المركبات تقوم برحلات يومية ذهاباً وإياباً في ست حارات تكون منها الثقب، من الصين إلى المحيط الأطلنطي بجوار الأرجنتين وبالعكس، وتم وضع سعر ثلاثة ملايين دولار لتذكرة الانتقال. هكذا استطاعت الشركة تغطية نفقات إنشاء المشروع في أقل من شهرين.

الشركة، التي كان اسمها "بينيث" واتخذا شعارا لها "نحن ننظر تحت أقدامنا"، استطاعت صرف أنظار العالم كله من فوق إلى أسفل. بعد أن كانت صرعة القرن العشرين هي الفضاء والكواكب الأخرى، فلقد أصبحت صرعة القرن

مكتبة عابث الإلكترونية

الحادي والعشرين جسم الأرض نفسه. أنتجت هذه الشركة مسلسلاً يدور حول طفلين ركبا إحدى مركبات ثقب شنجهاي، وانفجرت المركبة بالداخل ولكنهما نجيا، في شبه معجزة، وقررا مواصلة حياتهما داخل الكرة الأرضية. اكتشفا الحياة داخل الأرض وهما مرتديان ثيابهما المضادة للضغط والحرارة، شاهدا شعوباً مختلفة وقاما بمغامرات مضحكة في كل حلقة. المسلسل كانت حلقاته لا نهائية، وأقبل كل العالم على مشاهدته، وزادت الطلبات على مركبات "ثقب شنجهاي".

هكذا فكر الناس في أوائل الأربعينيات، بلا استثناء تقريباً. المسلسل شاهده الجميع، وحفر مزيد من الثقوب في الكرة الأرضية أصبح هو حلم جميع الدول. أعلن رجل أعمال مصري عن عزمه على أن يكون هو من يحقق المعجزة في مصر. صمم شعاراً لشركته عبارة عن الكرة الأرضية وهي مليئة بالثقوب في كل مكان ومياه المحيطات تتسرب بين الثقوب وفوقها عبارة "دا هدفنا". الجميع الآن منبهرون بالمعجزة الأمريكية الصينية. وكرة أرضية مثقوبة كالمنفاة هو الخيال الجنسي لشعوب العالم.

هكذا إذن، لم تكن مصر بعيدة عما يحدث. مجموعة مسلسلات وأفلام مصرية كثيرة حاولت تقليد المسلسل الأمريكي، بل يمكن القول إن بعضها كان ناجحاً وجيداً فعلاً، ولكن ما ظل ناقصاً هو المعجزة نفسها. معجزة النظر للأسفل، معجزة اختراق الكرة الأرضية. شيئاً فشيئاً، بدا أن الحلم قابل للتحقق على أرض مصر، وفي مدينتها الشمالية بالتحديد، الإسكندرية.

في الثالث عشر من نوفمبر عام ٢٠٤٨ تم افتتاح الخط الجديد لشبكة مترو الأنفاق بالإسكندرية.

تم تصوير حدث افتتاح المترو، وتم بث صور وزير المواصلات وبجانبه محافظ الإسكندرية وهما محاطان بالأطفال من أبناء المنطقة. بنتان من المرحبين بالضيوف ظلتا تضحكان بينما الوزير يمسك بالمقص ويقص الشريط. لاحظ الوزير ضحكهما فنظر إليهما بعد انتهائه من قص الشريط ولوح بالمقص في وجهيهما وضحك. نظرتا في الأرض بخجل وواصلتا الضحك.

نزل المحافظ والوزير وباقي المسئولين ومعهم الأطفال المرحبون النفق وركبوا أول مترو إلى المعمورة. الكاميرات التي صاحبت الحدث صورت هذه اللحظة الإنسانية الدافئة: المحافظ وهو يصنع تعبيرات مضحكة بوجهه للطفلتين. ثم تقترب إحداهما منه وتسأله، عمو، احنا هنرجعو تاني؟ فيقول المحافظ، انتي عاوزة نرجعو تاني؟ وترد، أصل تيتا لوحدها وانا وأختي عندنا هومووورك إنجلش في البيت. أختها، التي كانت تقف في الخلف، تشجعت وتقدمت. لاحظ المحافظ والوزير، ومعه المشاهدون، التطابق التام في الملامح بين الأختين التوأم. سأل البنت، انتي اسمك إيه. فأجابت، أنا يارا، ودي لارا. لارا صرخت، لأه، دي متخلفة، ماتصدقهاش، الهوموورك اللي عندنا ساينس مش إنجلش، أما يارا فعقدت حاجبيها وقالت بعد لحظة تردد، أنا إنجلش، وهي ساينس.

عُرفت الطفلتان لسنوات طويلة فيما بعد باسم "فتاتي مترو كرموز"، بسبب هذه المشاهد التي أعيد بثها مراراً وتكراراً على التليفزيون المصري. أينما كانت تسير واحدة من الطفلتين، كانت الناس في الإسكندرية تتعرف عليهما، وتردد، أنا إنجلش، وهي ساينس. كان هذا ممتعاً للطفلتين يتيمتي الأب والأم واللتين تعيشان حياة مملة مع جدتهما وتخلو حياتهما من أية متعة أو تسلية.

مكتبة عابث الإلكترونية

"أنا إنجلش، وهي سايبنس"، حتى هذا اليوم مازالت كل من يارا ولارا تبتسم عندما تتذكر هذه الجملة، وحتى الآن تغرق كل من الشابتين الناضجتين في الضحك إذا ذكرهما أحد أحد بلقب "فتاة مترو كرموز".

°°°

هدم تمثال الفرخة عام ٤٤ لم يكن المقصود به الهدم في حد ذاته، بعد عام كامل بدا واضحاً أن ثمة محطة مترو أنفاق سيتم بناؤها هنا، في هذا المكان، أمام البيت الذي كان سابقاً بيت علي وإنجي والآن لا تسكن فيه سوى إنجي، الجدة الكبيرة، مع حفيدتيها والدادة أم صلاح، بالإضافة إلى عدد من المستأجرين العابرين في العمارة. هناك محطة أمام بيت علي وإنجي، ومحطة أخرى في غيط العنب، قرب بيت سوسو الراحل، سميت الأولى بـ"الكرنتينا"، وسميت الثانية، والتي تقع في نهاية الخط، باسم "الكربنتينة". المحطتان قريبتان مع بعضهما البعض، ويومياً يركب الناس من الأولى للنزول في الثانية أو العكس.

لقد انتهى الحظر الواقع بين المنطقتين. لقد أصبح جزءاً من التاريخ.

°°°

تعرفت أم صلاح على إنجي وعلي في بداية حياتهما. عملت عندهما بعض الوقت. تبهدلت كثيراً. وقتها كانت شابة يافعة اسمها غادة. تركت علي وإنجي بعد أن استطاعت فتح محل صغير لبيع السمك بكوم الدكة. هناك تزوجت وأنجبت صلاح وتركت العمل نهائياً بالكرنتينا. ولكن الظروف لاحقتها، سُجن زوجها واضطرت للجوء لإنجي من جديد. طلبت منها مراعاة وضعها الحالي وأنها صارت زوجة وأماً. أقامت عندها، تمسح وتكنس وتطبخ، وعندما مات علي وحمادة أصبحت دادة للبنتين يارا ولارا. لقد تخلصت من تاريخها الأسود كامرأة لها ماضي.

قصة حياة أم صلاح قصة حزينة. عاصرت الحروب وعرفت من البداية أين يقع الخير وأين يقع الشر. كانت متعلمة، تخرجت من تجارة الإسكندرية، لا يمكن لأحد اتهامها بعدم الوعي. لذا أصبحت عنصراً فاعلاً في إدارة الصراع. دورها كان صغيراً ولكن محورياً. بالنصائح التي كانت تسديها لحمادة، وهدهداتها التي تغنيها ليارا ولارا في مهدهما، وردشتها مع علي وإنجي، تحولت أم صلاح الشغالة إلى شخصية مركزية في البيت. ولكن تغيراً حدث مع مذبحة عام ٤٤، بعد أن انتهى كل شيء وقُتل حمادة وقُتل سوسو، وبالتحديد في اللحظة التي عادت فيها أم صلاح من بيت منة. في هذه اللحظة انجلت بصيرتها إذا جاز التعبير. رأت كل شيء بوضوح أكبر وتسامت روحها فوق فساقس الدنيا الصغيرة. شعرت بالحرية، أنه يمكن لأي من كان أن يجول في أي مكان يحبه. شعرت أيضاً أن لا شيء يستحق كل هذا. يومها كانت الشمس مشرقة بعد أيام طويلة من الرياح المحملة بالأتربة، ومادامت الشمس تشرق، والدنيا مازالت بخير، فعلى أي شيء يتقاتل العالم؟ منذ هذه اللحظة وأم صلاح مصابة بمرض النسيان المتعمد لكل ما حدث في العقود السابقة. الآن تتكلم كما يتكلم جميع الناس، عن غلاء الأسعار وصعوبة الحياة وزحام المواصلات. قامت أم صلاح بنقل نسيانها هذا لإنجي أيضاً، والتي بدا أن المذبحة قد طهرتها. إنجي الآن امرأة حكيمة في منتصف عقدها السادس. خلعت النقاب أخيراً، لقد أصبحت من "القواعد من النساء"، وظهر وجهها المتغضن الأبيض، وضحكتها التي لا تزال جميلة. وجهها الآن مشرق بنور الله.

لم يكن هذا هو كل شيء. جميع سكان كرموز بدوا كأنهم نسوا، أو يحاولون نسيان الأيام الصعبة الماضية. حتى صور أبو أميرة والحاجة اعتماد ومدام نادية تمت إزالتها من مدخل عمارة الكرنتينا. المنطقة كانت كشخص فقد

مكتبة عابث الإلكترونية

الذاكرة، وهذا كان أفضل. ومع افتتاح الخط الجديد لمترو الأنفاق، وظهور محطة مترو أمام البيت فلقد تغيرت ملامح الحياة تماماً، وساعد هذا على تنامي حالة الزهايمر. بدا أن الحكومة وحدها هي التي لم تنس، هي التي أطلقت على المحطة اسم "الكرنتينا"، وبهذا قامت بتثبيت قدر المنطقة وهويتها المستقبلية. على العموم، ليس هناك في عالمنا نسيان تام، ولا ذاكرة مطلقة. الأشياء تقع دائماً في المنتصف، غالباً يعني.

°°°

وعلى الناحية الأخرى، لا يمكننا أن نصف ما حدث في الأعوام التالية على العام ٤٤ إلا بتعبير واحد: معجزة الأم. في الحقيقة، فلقد أثبتت منة جدارتها بحمل شرف الأمومة المقدس. لقد قامت بتربية ابنتها أميرة أحسن تربية، أدخلتها أحسن مدارس، وتجاهلت جميع مرارات الماضي. نشأت أميرة خفيفة كالفراشة، محلقة، وإذا جاز لنا أن نصف طفولتها فسوف نصفها باستخدام تعبير الطفولة السعيدة، وهو اسم مدرستها أيضاً.

أميرة، مثلها مثل يارا ولارا ابنتي حمادة، وأحمد ومحمد ابني عادل، وكانوا يدرسون جميعاً في مدرسة الطفولة السعيدة الابتدائية، لم تكشف عن أي اهتمام بمعرفة أي شيء عن أبيها الراحل. كل ما كانت تريده هو شرب أكبر عدد من زجاجات الحاجة الساقعة في أقل وقت. لقد أدمنت أميرة الحاجة الساقعة، بالضبط مثل يارا، التي كانت أسمن قليلاً من أختها التوأم. الأختان التوأم أيضاً لم تهتما بمعرفة أشياء كثيرة عن أبيهما الراحل. بالإضافة إلى أن صورة حمادة نفسها في ذاكرة أهل المنطقة لم تتضمن معلومات مهمة. دوما ما كان يقال إن حمادة بطل، لكن البطولة عادة تكون بطولة مع ناس وضد آخرين.

وحدها بطولة حمادة كانت بطولة في المطلق، بلا أصدقاء أو أعداء. الشيطان لم يكمن في التفاصيل. لأن التفاصيل لم تكن موجودة أساساً.

التقى الخمسة في الذهاب من المدرسة والعودة منها. المرح واليهجة هما اللذان سيطرا عليهم في هذه المرحلة. يضحكون طوال الوقت، يحدفون الناس بالطوب، يقذفون أكياس الكشري في وجه بعضهم، يتبادلون مسبات رقيقة تبدأ من الأم ولا تنتهي عند الأعضاء التناسلية والدين. الود والمحبة الطيبة جمعتهم، وفرقتهم حرب القصب والسحالي.

°°°

مثل جميع الأطفال، كان أبطالنا الخمسة يشربون عصير القصب في أكياس. سبقت يارا أصدقاءها في تجربة السائل الأصفر، الذي كانت تعبه عباً بجوار زجاجات البيبس والكولا. وقتها أطلقت على نفسها اسم عاشقة القصب، عاشقة القصب الأولى في مصر والعالم العربي وأفريقيا وآسيا والأمريكتين. صارت تشتري كيسين في الصباح، تشرب واحداً في طريقها إلى المدرسة، وتضع الآخر في شنطتها. اكتشفت لارا هذا، فأخذت تسرق شفطات من الكيس المخبأ أثناء انشغال أختها عن الشنطة، ثم انضم لها أحمد ومحمد وأميرة. وعندما اكتشفت يارا تناقص مشروبها الأصفر حرص الجميع على سكب بعضه في الشنطة، وادعوا بأن العصير يتناقص لأنه يندلق كله. قابلت يارا هذا بالغضب، ثم بمحاولة التطيعة. أختها لارا كانت أذكى من الجميع. أخذت يارا على جنب وأخبرتها أنها رأت أميرة وهي تشرب العصير، وبعدها رأت أحمد ومحمد يشاركانها. وثقت يارا بأختها التوأم، وقررت الاثنتان تنفيذ حيلة جهنمية: تعبئة الكيس بالبول بدلاً من العصير، ووقفتا قريباً من الشنطة المتروكة وحدها لتراقبا ردود الفعل.

مكتبة عابث الإلكترونية

الضربة جاءت في محمد، أو حمًا، كما أُطلق عليه. شرب شفطة وبصقها بعنف ويكى وهو يغسل فمه عشرات المرات خلال اليوم. وعندما شاهد يارا ولارا تضحكان عليه فيم اللعبة. مسك البنتين وأخذ يضربهما بقبضة يده الصغيرة. برك فوق لارا وأمسك يارا من ساقيها وهي تحاول الفلفصة. انضم له أخوه أحمد وابنة عمه أميرة. مسك الثلاثة الأختين من ذراعيهما وسحلوهما على أرض الحوش المليئة بالرمل والزلط الجارح. صرخت البنتان، يا خولات، هانفشكو، والمصحف هانفشكو. ولكنهم لم يرحموهما. أخذوا يجروهما على الأرض إلى خارج حدود المدرسة، والبنتان تلوحان بسيقانهما وتظهر ملابسهما الداخلية المسودة والمهببة، وأميرة تضحك وتهتف مخاطبة كلاً منهما: يا ام لباس معفن. عند باب بيتهما تركوهما وجروا إلى بيتهم، وصعدت يارا ولارا إلى البيت تبكيان. ركضتا نحو جدتهما وحكيتا لها، بنفس واحد، ما حدث.

إنجي، التي برق في ذاكرتها مشهد قديم، من قديم الأزل، لأبو أميرة وهو يسحل امرأة ما، لا تذكرها، على أرض شارع لا تذكره، قالت في نفسها إن هذه العيلة النجسة كلها فصيلة واحدة، وكلمت منة في التليفون. هبت فيها قائلة إن هذا لا ينفع. إنه إذا كان لديها شيء ضدها فلتكلمها هي، لا تسلط العيال على بعضهم. ومنة خافت. زارت إنجي في اليوم التالي، لأول مرة منذ سنوات طويلة، وباست راسها. قالت إنها هزأت العيال جامد. وإن يارا ولارا إخواتهم في النهاية. وقالت منة إنها تذكر فيما تذكر، وإنها إن تنسى لا تنسى، إن إنجي هي اللي علمتها الإنجليش، بالإضافة إلى كل حاجة أخرى. أنصتت البنتان لهذه المقابلة من وراء الباب، ويبدو أنهما رأتا فيها نوعاً من التعريص المثالي على موقفهما، فلم تقوما بالرد في حينها. انتظرتا قليلاً. جهزتا لانتقامهما الخاص.

منذ سنوات طويلة، وبيت علي وإنجي مليء بالحشرات من كل نوع. يعود هذا إلى أيام مغرقة في القدم، حاول فيها حمادة تربية أنواع من الحشرات والزواحف في البيت. انتهى المشروع بالفشل، بسبب قلة بصيرة أبويه اللذين لم يفهما المقصود من هذا. ولكن تبقت السحالي. في كل مكان بالبيت كانت ترتع سحالي وأبراص من كل نوع، تنط من نمليات المطبخ، تسرح تحت الكنب، وتخرج من البلاعات، وتدربت نساء البيت على معايشتها. لقد صارت السحالي جزءاً من ثقافة البيت. وأصبحت هي السلاح الذي استطاعت به الطفلتان الانتقام لكرامتهما. في اليوم التالي، وقبل المرواح، ملأت البنتان شنطة محمد بالسحالي التي حملتاها في كيسة بلاستيك، ثم انتقلتا إلى شنطة أحمد وأميرة. وعند عودة الأطفال إلى بيتهم سرحت السحالي في البيت، وفي اليوم التالي خرجت سحلية من شنطة أحمد. ضحكت الطفلتان، وسارعتا بزرع سحلية في شعر أميرة. ضحك الفصل كله، ونظرت يارا ولارا إلى بعضهما بامتنان.

برغم إن كل شيء قد تم نسيانه بالفعل، أو أنه أوشك على أن يتم نسيانه، إلا أن شيئاً واحداً ظلت إنجي واعية له، تأمين مستقبل البنات، والدرس الذي انحفر في ذهن إنجي على طول حياتها السابقة، هو أن المستقبل يتم تأمينه بالفلوس، لا بشيء آخر. المرسم القديم الخاص بحمادة "الفنون والألوان" تحول إلى محل كشري ضخم، وضعت فيه إنجي كل مدخراتها بالبنك. حمل محل الكشري اسم البنتين "يارا ولارا"، بالعربي والإنجليش. تدريجياً، تحول محل الكشري المقام أمام محطة المترو بالضبط، إلى واحد من أكثر الأماكن شعبية في كرموز، بدأ عهد الازدهار يرجع للكرنتينا، ولاح الأمل في أن التاريخ لم يتوقف

مكتبة عابث الإلكترونية

عند سنة ٤٤، أن هناك فصولاً، قد تكون أكثر إشراقاً وقد تكون أكثر إظلاماً، قادمة في التاريخ. المهم أن الزمن لم يتوقف.

علقت في مدخل محل الكشري صورة كبيرة للبنتين وهما تحتضنان المحافظ. تضحكان ضحكتهما التي يعرفهما كل أهالي الإسكندرية. وتحت الصورة، وتحت اسم "يارا ولارا"، كتب بخط جميل "كشري لوكس وعادة، هدية ولاد حمادة".

٥٥٥

طفولة الإنسان هي جزء لا يتجزأ من حاضره ومستقبله. والصفات التي تبدو علينا في طفولتنا هي بالضرورة صفاتنا في مراهقتنا وشبابنا. العكس من هذا تماماً حدث هنا. كبرت يارا ولارا، كبرت أميرة، كبر أحمد ومحمد. ونُسي صراع القصب والسحالي، بل وأفسح مكاناً لود خفيف بين محمد، حمّا، وبين يارا. هذه الشابة السمينة، بعينيها الواسعتين وبالشارب الخفيف أعلى شفتيها وبخيط الشعر الواصل بين حاجبيها، كانت هي من حاز اهتمام حما في المرحلة الثانوية. راهن نفسه على حلقها لشاربها في الشهور القادمة. لم يطلب منها هذا بشكل مباشر. حرص على تضمين ادعاءاته بين السطور. قال لها أختك على فكرة شكلها معفن خالص، دي شبه أخويا، ماتقوليلها تحلق شنبها. أما هي فداعبت الكلمة أنوثتها. قالت له، صحيح يا واد يا حما، أختي بقت شبه الرجالة، إنما انا غيرها خالص. يومها، وفي حمام محطة المترو، تبادلا قبلة طويلة. كانت تقطعها كل ثانية بتأوه صارخ، أحبه يا حمّا، أحبه عليك صحيح.

في هذه الأيام نظرت إنجي بتسامح إلى قصة الحب التي نمت بين الولد والبنت. لم تقف أمامها. ربما فكرت في إن قصة الحب هذه ستكون نهايتها الزواج، وإن ورث سوسو سيلتحم بورث علي وورثها هي، وبهذا يمكن

للعائلتين، بعد تصافيهما، أن يكونا إمبراطورية مشتركة جديدة، يتلافيان فيها أخطاء الماضي التعيس. سألت إنجي حفيدتها لماذا لا يأتي الولا حما ليزورهم في البيت. وأتى حما، تغدى معهم سمكاً وجمبري، وتحاشى الكلام عن أي مستقبل مشترك يجمع بينه وبين يارا، بل وعندما طلبت منه إنجي أن ياخد باله من البنت، قال لها إنها تعتبر أخته وف عينيه. ويارا أخذت هذا التصريح على صدرها، قالت له فيما بعد، يعني اني اختك دلوقتي يا ولا، يعني انت لما بستني كنت بتبوسني زي اختك. طبطب هو عليها وقال لها يا بت ماتبقيش عبيطة، دانا كنت محضرلك هدية كبيرة أوي.

ما هي هذه الهدية؟ في الحقيقة، فلقد كانت هدية حما ليارا كانت غير مسبوقة من نوعها. في الثالثة فجراً كلمها بالتليفون، سألها إنتي فين، فقالت له إنها في البيت. قال إنه طالع لها. عاوزها في كلمتين خصوصي. قال إنه عارف إن اختها في رحلة للفيوم مع المدرسة، وستها نايمة من زمان. وبهذا سد عليها طريق الرجوع. فتحت له الباب مترددة، واجتاز هو الطريق سريعاً نحو غرفتها. هناك أخذها في حضنه جامد، همس لها، يعني اني دلوقتي اقولك اني طالع وتقوليلي لأ، يعني انتي مش عاوزاني دلوقتي يا بت؟ وهي وضعت إصبعها على شفتيه كي لا يكمل، وهمست له، ادعكلي صدري يا حما. فرك صدرها بقوة، ثم أخرج ثديها الأيمن من تحت قميص البيجامة، ومضى يلحس حلمتها ويعضها. ويده تلعب في شعرات إبطها الطويلة والمرقة، ويدخل يده الأخرى تحت كيلوتها تلعب برشاقة هي الأخرى. هي كانت تشعر بقضيبه ينتصب، وتخيلت هذا الشيء يقسمها، وطول الوقت تهمس في أذنه، يا ابن الإيه يا جامد.

مكتبة عابث الإلكترونية

حما أحب يارا، ومن قلبه. في الليل كان يجلس يكتب لها أبيات شعر، ويؤلف لها أغاني. لم يرغب في مصارحة أخيه بهذا، ولا زوجة عمه. ظل الأمر مكتوماً في قلبه كجمرة تستعد للاشتعال. ما كان مقلقاً له في هذه المرحلة فقط هو عدم اهتمام البنت بمظهرها، بينما المظهر عليه عامل مهم. أحب جسمها المليان بدون فَشْوَلة، وشعرها الميال لأن يكون فاتحاً. كما أحب طريقتها في الكلام، وطريقتها وهي تقول له، أحبه عليك يا حما. طبعاً، وبكل المقاييس، فقد كانت يارا، مثل أختها لارا، فتاة معفنة. ولكن دعونا لا نسقط سن حما من حساباتنا. حما كان في الخامسة عشر من عمره، والمراهقة سن خطر.

في هذه السن الخطرة إذن قرر حما أنه سيتزوج يارا. ومثل حمادة في الزمن القديم، فلقد قرر أن لا شيء سيمنعه من الزواج بمن يحب. صحيح أنه كانت تنقصه الإرادة الحديدية التي كانت لحمادة، وصحيح أنه كان مصاباً ببعض التشوش في الرؤى العامة بخصوص الحياة والوجود والمصير، وصحيح أنه كان يحب أي فتاة تقع عليها عيناه (على نقيض تمسك حمادة الفولاذي بصباح)، إلا أن الحب يصنع المعجزات، هكذا آمن.

كلم حما زوجة عمه في موضوع زواجه بيارا. سكتت منة، كانت تفكر في أميرة وبختها الوحش في الدنيا. نظرت له فجأة وقالت، والبت بتي مش عاجبك ف إيه يا ولا؟ فكر قليلاً في رد مناسب ثم قال لها إن أميرة حلوة وكل حاجة، بس تعتبر زي أخته تماماً. وإنه يخاف عليها زي أخته. وسكتت هي، لم ترد. بعد قليل قالت له إنت صغير يا حما. روح اشغل نفسك بحاجة تنفعك. إلعب رياضة يا حما. اختارلك لعبة حلوة والعبها.

لم تكن هذه هي نهاية قصة الحب العاصفة بين حما ويارا. والتي تواصلت بأشكال مختلفة، يطلع لها البيت، يخرجان المنتزه مع بعض، يتناولان حمص

الشام والهريسة على البحر، يزنقها في حمام شط جليم، وأشياء أخرى. حكى حما لبارا قصة غريبة، ذات مرة، كان متاحاً لأي شاب أن يهيّج البت اللي معاه، بل وأن ينام معاها حتى، حدث هذا في مكان قريب، في مكان قريب جداً، فوق بيتكم بالظبط، الشقة اللي فوق بيتكم يا يارا. يارا لم تعرف عم يتحدث حما، وسألت جدتها فلم تعرف جدتها، دارت على الناس تسألهم في الشارع والمدرسة فلم يعرفوا.

في لياليهما الطويلة، كانت يارا تحكي للارا عن حما، وحنيته وجدعنته معها. كانت تستشهد أمام أختها بكلام حما، حما قعد ساعتين يتكلم عنك، بيقول عنك مش مهتمية بمظهرك، بيقول ماتفرقيش حاجة عن الولا احمد اخوه. ولارا، التي كانت تنظر لنفسها بوصفها الأجمل، كانت تدفن رأسها في الوسادة الخالية وتضع ستين جزمة في بقها ولا تنطق. كانت في هذه الأيام بالتحديد مصابة باكتشاف الجسد. ألم رهيب في ظهرها، ثم انفجار قطرات دم منها تغرق ملابسها، صدر صغير يتكور، وألم في حلمتيها. ولكن معلش، أن تكون الإنسانة منا امرأة فهذا ليس قليلاً أبداً، هذا مؤلم وله تبعات. لارا كانت تنظر لنفسها بوصفها ملكة الأنوثة في الإسكندرية. وبدأت، لأول مرة في حياتها، تزيل شاربها، شعرات كثيفة تنمو أعلى شفتيها، تضع أطناناً من الميكاب فوق وجهها، تختار ألواناً كثيرة للفات حجابها المتراكمة فوق بعضها، ليس انصياعاً لرغبة حما، ولكن انصياعاً لقرارها هي الخاص.

لعبة لارا بدأت باستغلال أختها، سألت حما مرة في الشارع إنت مابتكلمنيش ليه يا ولا يا حما، دانت تعتبر دلوقت زي خطيب اختي، إنت مكسوف مني يا ولا؟ في هذا اليوم تكلما كثيراً، حكا لها عن بيتهم، عن أبيه وأمه اللذين لم يرهما في حياته، واحد لأنه قُتل وواحدة لأنها في ليبيا، وحكى

مكتبة عابث الإلكترونية

لها عن عمه، سوسو الشهيد، وهي بالمقابل حكت له عن حمادة البطل، عن محل الكشري، وعن تيتا العجوزة. لساعتين ظلا يتحدثان، في الآخر فقط نطق بما كان يختنقه طول الوقت الماضي. أختها، يارا، ليست امرأة بما يكفي، جامدة، ناشفة كدا، وبشنب. ابقي علميها يا أوختي. انصحيها. ابتسمت لارا.

بدأت قصة حب لارا وحما من هذا اليوم. لارا، فتاة الألوان الكثيرة والمبهجة، قررت خوض الطريق حتى النهاية، وسحق أختها التوأم التي طالما ما لمحت لها بأن ثمة علاقة جنسية ملتهبة بينها وبين حما. طيب، إذا كان ذلك كذلك، فماحدش أحسن من حد. وحما من جانبه كان مبهوراً بفكرة أن يكون معشوق الأختين في نفس الوقت، الدونجوان الأول، ملك الليل والحريم، ومثلما فعل مع يارا، فقد حكى للارا عن المكان القديم، فوق بيتهم بالظبط، الذي كان أي شاب يريد أن يزيط البت بتاعته يطلع فيه. كان ينام معها في مطبخ محل الكشري. تغلق لارا المحل من الداخل بعد انصراف جميع العاملين، وترن له رنة على موبايله فيتسحب داخلاً إليها. يقضيانها بوس واحضان. لارا كانت بنتاً، وقالت له إنها تريد أن تظل بنتاً. في البداية لم يلحظ أحد هذه العلاقة. فيما بعد تطوع يحيى بركان، رجل في الأربعين يفرش سفرة للزبائن في محل الكشري، بإخبارها أن بعض الناس يلاحظون تكرر زيارات حما لها في المحل.

انتبهت لارا لهذا، ونبهت على حما بأن يغيرا المكان. ولكن يحيى بركان، الذي كان يريد الخير للأختين، أخبر يارا أختها بهذا، ويارا لم تتكلم. كتمت جرحها واستسلمت للصمت النبيل. هنا فقط، اقتنعت يارا بأهمية أن تزيل شعر شنبها وحواجبها. بدأت تتحول إلى نسخة ثانية من أختها. وضعت حجاباً زاهياً، والكثير من الألوان على وجهها، وعادت الأختان التوأم لتتطابقا مرة أخرى في الملامح. وقفت كثيراً في المحل، لتراقب الداخل والخارج. وعندما

تأخر حما في المجيء، عندما انتظرته ثلاثة أشهر متوالية، هنا فقط أرسلت له مسج على الموبايل، قالت له عاوزة اشوفك النهاردة ضروري يا حما.

التقيا في المنتزه. قالت له إنها لم تتوقع أبداً أن يفعل ما فعله، وإنها سبق وتوقعت الغدر والخيانة من كل الناس، لكن ما عدا من أقرب الناس. وسألها هو مندهشاً أي غدر وأي خيانة. سكتت، فحضنها جامد وهمس لها أنا أغدر بيكي إنتي؟ إنتي اتجنيتي إنتي؟ حاولت التملص من حضنه ولكنه تمسك بها بقوة، فقربت كفها من وجهه وتحسسته. يعني انت لسة بتحبني يا حما؟ ولا عمري حبيت غيرك. أحست وهي في حضنه بقضيبه ينتصب، فنظرت له وابتسمت بدلع. دلوعة كانت يارا، دلوعة بشكل لم يسبق له مثيل.

استطاع حما إذن تحقيق المعادلة الصعبة. الحفاظ على علاقته بيارا وبلارا في نفس الوقت. لم يحتج لأكثر من كلمة حلوة ونظرة برمش العين. والمرأة لا تريد إلا الحضن الدافي. على مدار السنوات التالية، حافظ على جودة ودفء الحضن الذي يقدمه للأختين. ينتهي من كليته ليزور كلاً منهما بالتناوب في المحل، حال خلوه من العاملين، وفي البيت، حال خلوه من جدتهما، وفي حمام محطة مترو الأنفاق، في حال خلوه ممن يردن قضاء حاجتهن. كل منهما كانت تعرف العلاقة التي تربطه بالأخرى، ولكن لم تتحدث أي منهما. لقد رضيتا بالنصيب والقدر المقسوم.

رفضت إنجي إدخال حفيدتيها الكلية. إنجي، سليلة البرجوازية القاهرية العريقة التي لطالما آمنت بأن التعليم هو أحسن استثمار في الدنيا، رفضت أن تكمل البنتان تعليمهما. قالت إن التعليم لم يعد مجدياً، هاهو حمادة، تعلم أحسن تعليم، وأصبح فيلسوفاً كبيراً، وفي النهاية مات على الأرض زي كلاب السكك. لم ينفعه التعليم. اكتفت البنتان إذن بالثانوية العامة

مكتبة عابث الإلكترونية

وأشرفتا على محل الكشري. الحب كان بديلاً لهما عن التعليم العالي. الحب الذي يصنع المعجزات، والذي وجدت فيه كل منهما نفسها ومستقبلها وحياتها الماضية. وفي لياليهما التي كانا يتفرجان فيها على أفلام السكس، مرت في ذهن كل منهما بالتأكيد فكرة الجنس الجماعي. كل منهما كانت تنظر للأخرى، تتحفز، تنوي النطق بها، ولكن الكلمة تعلق على شفتيها، تنحبس، ثم تخرس خالص. ربما كانت الفكرة لتُطرح لو تطورت الأمور في اتجاهها السليم. ولكن الرياح تأتي دائما بما لا تشتهي السفن.

تخرج حما، حمل شهادة الحقوق، عُد هو الأمل الزاهي للأسرة، ومخلص أخاه أحمد من السجن الذي ألقي فيه ظلماً بتهمة الإتجار. حما الآن شاب وسيم، طويل، بعينين عسليتين، وشعر فاتح، ومثقف، ومواطن صالح، يعرف حقوقه وواجباته نحو بلده. وعدته منة إذا استطاع أن يتدرب عند محام كبير أن تفتح له مكتباً في البيت. وهكذا ضمن الولد مستقبله. الخطوة التالية لمنة كانت زيارتها لإنجي. طلبت منها، وحياة عينيها، ورحمة الأستاذ حمادة، أن تبعد البنتين عن طريق ابن أخيها. أني مانقصدوش حاجة يا ست إنشي، بس الولا عاوز يلتفت لمستقبله، وبعدين بيني وبينك يعني معروفة من زمان، حما لأميرة بتي، و اني مجهزاله مكتب كبير يفتحه لما يكتب عليها ان شاء الله. الحق مايزعلش يا حاجة، مش كدا؟ إنجي من جانبها ابتلعت الإهانة، يعني مين حما المعفن دا اللي بناتي يبصوله، وسكتت، وبعد أن سكتت، واصلت التعريص، قالت إن كلام منة هو الصح، وإن الصح مايزعلش حد. منة من جانبها كانت امرأة زنانة، بكل معنى الكلمة. تحقق بالزن ما لا يمكن تحقيقه بالعنف. ظلت وراء ابن أخيها، ووراء بنتها. تزوق بنتها بنفسها، وتختار لها ملابسها، ومثلما تختار لها ملابسها، فلقد اختارت لها كلية الحقوق لتدرس

بها، وطلبت من حما أن يقوم هو بالتدريس لها في البيت. بهذا أتيحت له ساعات إضافية ليجلس مع عروسته المستقبلية، بعد أن كان قد انفصل عن عائلة عمه ليسكن غرفة فوق سطح العمارة. منة كانت ترى كل شيء يتكون أمام عينيها.

لأيام طويلة حاولت كل من يارا ولارا الاتصال بحما، وكان الرد دائماً هو الرقم الذي طلبته غير متاح. لقد غير حما تليفونه. كان هذا جارحاً جداً لمشاعر الأختين، اللتين استشارتا جدتهما. وإنجي، لأول مرة منذ سنوات طويلة، خرجت عن دبلوماسيتها. كانت تقوم بتقطيع الطعام للسلطة. غرست السكينة في لحم الطماطماية وقالت وديني وما أعبد إن الواد دا ما هيكون لحد غيركو. محتويات الطماطماية تناثرت على ملابس البنتين. نظرت كل منهما إلى الأخرى. وتقريباً دارت في خلدهما فكرة واحدة: ليس شرطاً أن يكون لواحدة منهما، يمكنهما أن تتشاركا فيه. لقد فعلتا هذا من قبل وهما مستعدتان لفعله ثانية. إن كان أمل العشاق القرب، فإن أملهما في حب حما هو الحب.

لم يتأخر الحدث المرتقب. اتصلت منة بإنجي لتعزمها على حفلة صغيرة على الخيق كدا لخطوبة محمد – حما – وأميرة. نقلت الجدة الخبر لحفيدتيها، وسألتهما ماذا ستفعلان؟ استندت يارا على الكنبة. مضت تفكر. أشعلت لارا سيجارة ومضت تفكر. إنجي هي من قطعت الصمت.

إنجي: الواد دا خسيس طول عمره، ومن زمان أوي. (تشرب شفطة من كوباية الشاي)

يارا: تعلي كان يخطف السندوتشات ويفتن للمدرس.

لارا: السندوتشات بس يا هبلة؟

يارا: وعصير القصب.

مكتبة عابث الإلكترونية

إنجي: لا، اني مابنتكلمش على كدا. الواد دا خسيس واصله خسيس، من أيام ابوه.

لارا: ماله أبوه يا تيتا؟

إنجي: أبوه؟ ماله أبوه؟ ابوه كان سكر. ياريتها جت على ابوه. عمه كمان خسيس. عمه هو الأصل.

(يارا ولارا تنظران لبعضهما البعض)

إنجي: أني ست عجوزة دلوقتي. اني كبرت. ويمكن تقولوا اني خرفت. قولوا، مابتقولوش ليه، مانتو أوساخ انتو الجوز. بس انتو لازم تعملوا حاجة.

يارا: حاجة يعني إيه يا ستي؟

إنجي: حاجة يعني حاجة. يعني جايز اني مانقدرش نتكلمو دلوقت. بس اسألوا المرة اللي اسمها منة. اسالوها جوزها مات ازاي، ولما تقولكو ايقوا تعالولي، واني هنقولكو ابوكو مات ازاي.

هذا الحوار كان منقطع الصلة بما قبله وبما بعده، كأنه حلم، صرخة في الظلام، كان كالذنبت، لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع. لم تبن عليه البنتان معلومات كثيرة. ولكن بالتأكيد، ولأن المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم، كما أشرنا من قبل، فإن تأثيره لم يرح من ذهن أي منهما.

في اليوم التالي جلست يارا مع يحيى بركان، عامل المحل. قالت له يرضيك اللي حصل دا يا عم يحيى؟ قال لها شوفي يا ست يارا، انتي واحدة كويسة، والولا دا اني نعرفه من ساعة اما كان عيل صغير، ونعرف ابوه وعمه. ناس من أوسخ ما يكون. اني بصراحة حبيت ننصحك بس لقيت الواد داخل دماغك. فماقدرتش نتكلم. ارتعشت يارا، وظبطب يحي بركان على كتفها، فارتمت على صدره وأخذت تبكي. البكا حلو. البكا بيريّح.

تم تحديد ميعاد الخطوبة، في سبعة وعشرين من شهر مارس الحالي، وإمعاناً في الإذلال اتصلت أميرة بكل من الأختين لتدعوهما. إجابة كل من الأختين كانت موحدة، طبعاً يا حبيبتي دا فرحك فرحي والمصحف. يارا أضافت جملة، أوعي تفتكري إني زعلانة، دانا فرحانالكو بس النعمة. ولارا في نهاية المكالمة اختنق صوتها وسألتها أميرة عما بها فقالت، دي دموع الفرح ياختي، مش مصدقة نفسي أبداً. في نفس اليوم جلست كل من الأختين مع الأخرى ونظرت كل منهما إلى الأخرى. كانتا تفكران في فكرة واحدة. ستذهبان إلى البحر. تجلسان قليلاً أمامه. نزلتا وركبتا المترو.

إلى هنا والقصة تقليدية، تقليدية جداً، قصة إنسان زبالة يحب ثلاث بنات في الوقت ذاته. ولكن ما كان غير تقليدي هو شكل الانتقام.

مكتبة عابث الإلكترونية

٢

في أحد المسلسلات القديمة يهدد الزوج – واسمه تامر– زوجته – واسمها شوقية– بأن يقذف نفسه في قلب البركان. تشير عليه الزوجة ببرود وهي تكمل طعامها بأن يستقل باراشوتاً. يصمت الزوج للحظة ثم يسألها بسخرية عن سبب النصيحة، وهل تريد له مثلاً أن يُشوَى على مهل، أن يُشوَى بالراحة؟! ثم يقطع سؤاله بالسؤال الأهم عن تصورها لمفهوم البركان أصلاً. الزوجة في المشهد السابق تتصور البركان مجرد جرف هائل، شق صخري، شلال ضخم، ولكن لا. الحقيقة هي أن البركان هو أقظع ما عرفه البشر. هو المستوى الثالث والأخير من لعبة غضب الطبيعة. البركان هو النار والإعصار.

الاسم الذي عُرف به يحيى عبد الله سلطان في كرموز كان يحيى بركان. بدا هذا الاسم مناسباً لقوته البدنية الهائلة، ولكن لا يعرف أحد متى ولا كيف التصق الاسم به. وبالمناسبة، فهذا ليس مهماً أيضاً. رجل ضخم، في الأربعينيات من عمره، ليس عن ترهل وإنما عن عضلات، بشارب ضخم، لا يرتدي إلا الفانلة الحمالات وينطلون ترنج رمادياً وكالحاً، طول الوقت لا يرتدي سواهما، في عز الشتاء يضيف زُنطاً عسكرياً فقط فوق الفانلة الحمالات. لا يعرف أحد شيئاً عن ماضيه. هناك لغز في حياة يحيى بركان، يقول الجميع، ولا أحد يسعى لكشف هذا السر. هو من جانبه لم يكن يتكلم. صامتاً مصمتاً كان يحيى بركان.

كان يتقن كل شيء. بداية ظهوره في كرموز كانت في ورشة خراطة تحت بيت سوسو، في كربنتينة سوسو. منظره وهو يعمل على الحديد والنار، بفانلته الوسخة وشعر صدره وعرقه وصمته الشبيه بصمت الإلهة كان يثير الشهوة في نفوس بنات المنطقة، بنات المدارس أو الكليات أو المعهد، وهو عن نفسه لم يكن يشغل باله بهن. دائما كان مشغولاً بعمله، وعندما استفزه مرة صاحب الورشة واضطر يحيى بركان لأن يرفع عليه آلة الخراطة ويفتح بها دماغه، كان هذا عنصراً أساسياً في تأسيس أسطورته، الشخصية ولكن الجنسية أيضاً، كإنسان سكسي موت. غادر يحيى بركان كربنتينة سوسو ليلتحق بالعمل في ورشة أخرى بالقرب من بيت إنجي. ولكن صاحب الورشة سرعان ما طرده بعد أن علم بسابقته الدموية في الورشة السابقة. وقتها كان يتم افتتاح كشري بنات حمادة. انضم للعمل بالمحل كصبي عادي يفرش السفرة. قنع بهذا المصير. لم يرغب في تغييره. وفي الليل، عندما كان يعود للغرفة التي يسكنها أسفل بير السلم، كان يحمد ربنا على كل شيء، لو عرفتم الغيب لاخترتم الواقع، يتنهد وينام.

يحيى بركان، هذا أوان كشف السر، هو حفيد المعلم سلطان، معلم قديم ظهر في القباري منذ عقود طويلة، يقولون عنه تاجر مخدرات ويقولون عنه مصلح اجتماعي، ولا يذكره أبناء الإسكندرية المحدثون. مثل جده ومثل أبيه، عمل يحيى بركان في تجارة المخدرات لفترة ما. حُبس لسنوات طويلة، ثم خرج. عاد للقباري فوجد معلمين آخرين يقرفونه في عيشته ويزاحمونه في لقمة عيشه. قيل إنه تعرض لمحاولات قتل أيضاً. على فجراً فاتاه نور أبيض ينصحه بالعمل الحلال، فخرج إلى كرموز.

ليست هذه فقط مؤهلات يحيى بركان. لقد تطوع بمعهد ضباط الصف بعد حصوله على الإعدادية مباشرة. التحق بسلاح الصاعقة في الجيش. أبدى هناك

مكتبة عابث الإلكترونية

نبوغاً خاصاً. يذكر زملاؤه في الجيش اجتيازه للتدريبات والاختبارات بمهارة غير طبيعية، أتاحتها قوته الهائلة وجسمه الشبيه بجسم ثور. وعندما أصيب في كتفه تمت تسوية معاشه وخرج من الجيش على درجة شاويش. لدى خروجه عمل بالمخدرات، على خطى أبيه وجده، ولكن ظلت ملامح من فترة الجيش تناوشه كل فترة. وهو في السجن، وهو يعمل خراطاً في الكرنتينة، وهو يعمل بمحل الكشري. مثل الغول المستأنس، يبدو أن الحياة الحالية، حياة الاستقرار والدعة والهدوء، لم تناسب يحيى بركان أبداً، حتى وإن أقنع نفسه بالعكس.

أدمن يحيى بركان الخمرة والقمار في فترة متأخرة من حياته، وهو في كرموز. عوضه هذا عن إحساسه بأنه لم يعد مجدياً للحياة. بعد انتهائه من عمله، كان يقضي سائر الليل على القهوة يلعب الكوتشينة مع أصحابه ويعب الخمرة. كان لعيباً محترفاً. يكسب كثيراً، ما يمكنه من شراء الخمرة ومواصلة اللعب. الخمرة كانت ترقق روحه. على الرغم من منظره المخيف، وعضلاته التي تبطّ من كل زاوية في جسمه، كانت ليحيى بركان روح طفل. يبكي إذا ما رأى فرخة مذبوحة، فما بالك برؤية إنسان يتعرض للظلم. والخمرة كانت تضفي المزيد من الصفاء على روحه. هكذا إذن راقب قصة حب حما ويارا من بعيد، وبعدها قصة حب حما ولارا، وعندما قرر حما أن يوّسخ مع البنتين، كان هذا جارحاً له كثيراً. طبطب على يارا. وعدها بأن ينتقم لها. وكان واثقاً من تحقيقه وعده.

°°°

كل من رأى يارا ولارا في شبابهما ظن أن يارا هي الأكبر، وعندما تشرح له إحداهما أنهما توأم كان يجزم بأن يارا هي التي خرجت من بطن أمها قبل أختها. يارا كانت حكيمة وذات شخصية قوية، بخلاف لارا التي لم تستطع أن تربي لها شخصية مستقلة بعيداً عن أختها. "مين فيكو مولود قبل التاني، مين فيكو كان ف حبه أناني؟" كان هذا هو السؤال الاستطرافي الأكثر شيوعاً الذي يتم توجيهه إلى الأختين.

بالإضافة إلى تكوين مستقبلهما الخاص، وإلى الانتقام من حما وأميرة ومنة الله، فلقد كانت لدى الأختين مهمة مقدسة، إزالة السمعة السيئة لأمهما في المنطقة. بدا أن الجميع قد نسي كل شيء، إلا أن يارا ولارا هما بنات حمادة البطل وصباح الشروطوطة. حمادة البطل لم يكن يحتاج للدفاع عنه، أما صباح فهي المشكلة الأكبر. والمهمة نهضت بها يارا، وكانت أهلاً لها، حتى مع تعقيدها الظاهري، ليس سهلاً أن تدفع عن نفسك تهمة أنك ابن عاهرة، خاصة لو كانت هذه هي الحقيقة، كما أنه ليس سهلاً أن تدافع عن شخص لا تعرف شيئاً عن حياته. لم يكن أحد يتحدث عن هذه المرحلة ولا ملابساتها. إنجي لم تكن تتكلم، ولا أم صلاح الشغالة، ومن كان يمكنه الكلام لم يكن يعرف شيئاً. وبقدر ما كان هذا يزيد من تعقيد المهمة، فقد كان هو حجر الأساس في دفاع يارا عن أمها الراحلة: "انت تعرف حاجة عنها؟ انت تعرف هي كانت مين ولا جت منين؟ احنا كشعب احنا بنموت ف الفتّي، كلنا بنفتي ما شاء الله. احنا بقى اسمنا جمهورية دار الإفتا العربية"، ولارا كانت تعقب على كلام أختها: "آه. كلنا بنحب الفتّي أوي". كان هذا الدفاع ناجحاً في فترة ما، في البداية، وفيما بعد لم يكن من بديل عن العراك. تقف يارا في وسط محل الكشري وتصرخ في إحدى الزبونات: "والنبي ياختي خليكي ف حالك"، وتوجه كلامها إلى

مكتبة عابث الإلكترونية

الزبائن كلهم: "واني أي واحد هيقول نص كلمة عن امي اني هنطلعو دين أمه قدام الزباين أجمعين، والراجل فيكو يورييني نفسه". مرة أخرى تعاركت مع زبونة أخرى، جامعية في الغالب، دقيقة الحجم وترتدي نظارة وبنطلون جينز وتيشيرت نص كم. يارا كانت تقف من بعيد تراقب المحل ولفت نظرها أن هذه البنت بالتحديد تشير إليها وتغمز لصاحبها. سواء كانت صباح هي موضوع الغمزة — وهو الغالب – أم لم تكن، فإن يارا اقتحمت المشهد بعنف. لا تذكر البنت سوى أنها فوجئت بامرأة تطير فوق رأسها وصرخة هادرة تتردد في المكان "يا واطية يا زبالة". شاطتها يارا من على الكرسي، طرحتها أرضاً وبركت فوقها وهي تلطش فيها وتعض ذراعها، "يا زبالة يا معفنة يا كلبة". صاحب البنت حاول التدخل، كان مرعوباً، يهتف بين الحين والآخر "يا مدام ماينفعش كدا، عيب يا مدام، يا آنسة". البنت، في محاولة للدفاع عن نظارتها، وضعت يدها أمام وجهها، فما كان من يارا إلا أن اقتحمت اليدين المتشابكتين واختطفت النظارة بقوة ومضت تطبقها وتعصرها، وهي تصرخ بجنون "اهي، مش دي النضارة! يا زبالة يا واطية". قبل أن تغادر البنت المحل مع صاحبها، تم إلزامهما بدفع حق التكسير في المحل، ورد شرف ليارا عن الإهانة التي لحقت بها، وتعويض للمحل عن الضرر الذي أصاب سمعته من جراء العركة، ويضاف إلى هذا حق الوجبة التي طلباها بالطبع.

هذا ما كان يحدث أمام الناس، ولكن بينها وبين نفسها، فلقد تعاطفت يارا مع شخصية أمها، حتى وإن لم تعرف عنها الكثير. لأسباب مجهولة، ارتبطت أمها في ذهنها بصورة محددة: امرأة بريش ملون مثل ريش البغبغان. لم يخطر على بالها اسم "صباح" إلا وكانت هذه هي الصورة التي تقفز لذهنها، على رأسها ريش مثل الهنود الحمر، وعندما تخلع ملابسها أيضاً يظهر ريش

ملون كثير ملتصق ببطنها وكتفها وثدييها. وعندما تنطق صباح فإنها لا تقول شيئاً من تأليفها، بل تكرر المقطع الأخير الذي سمعته. لقد مثلت صباح بالنسبة لابنتها صورة نموذجية للمرأة البغبغان، وقد جعلها هذا تتعاطف معها أكثر. كانت تزورها كل جمعة في قبرها وتقرأ لها الفاتحة، وتهتم بتزيين القبر من فلوسها الخاصة، وتخوض المعارك مع إنجي جدتها حول أمها. إنجي لم تكن تحب صباح، وهذا من زمان، ويارا مستعدة لأن تموت في مقابل رد أي كلمة وسخة تقال عن أمها. تركت يارا البيت لأسبوعين كاملين غضباً من كلمة كهذه قالتها إنجي. وعندما عادت عادت بشروطها هي: "أمي احسن ست ف الدنيا كلها، واللي يقول غير كدا يبقى هو اللي يسيب البيت". كل هذه المعارك خاضتها يارا، لا أختها.

المعركة حول الأب أيضاً خاضتها يارا. صور حمادة التي كانت منتشرة في البيت لم تكن مرضية لها. كانت موقنة بأن أباها لم يكن سميناً لهذا الحد. وإن هذه الصور هي لعب فوتوشوب قام به أشخاص يكرهونه لتشويه صورته. ومبررها كان منطقياً: "ازاي يبقى واحد جسمه مليان بالشكل دا ويقدر يدمر الأعداء؟"، بهذه الحجة استطاعت إقناع أختها بالبدء في حملة لإعادة قراءة التاريخ من وجهة نظر مغايرة. تذكرت الأختان مشاهد جمعتهما بأبيهما الذي كان طويلاً وعريضاً وجسمه كان منتفخاً بالعضلات. طيب، مادام الحال هكذا، فلماذا لا توجد صور تعبر عن هذا الجسم إذن؟ رد يارا كان جاهزاً: "حضرتك انت تعرف انه كان فنان. الراجل دا صور ورسم الناس كلها في المنطقة، وماكانش يرضى ان حد يصوره ولا يرسمه، كان يقولي يا بت يا يارا انا ماحدش هيعرف يصورني زي ما انا باصور الناس. انا عاوز اللي يصورني يصورني بأسلوبي انا، مش بأسلوبه هو"، لهذا، فإن كل محاولة لالتقاط الصور خلسة

مكتبة عابث الإلكترونية

لحمادة كانت محاولات فاشلة وأسفرت عن ظهور صور ملعوب فيها للشخص الذي غير تاريخ المنطقة كلها. لارا كانت تتابع الحوار وتهز رأسها مصدقةً على كلام أختها.

عانت الأختان من خيانة حما لهما، ولكن يارا كانت هي الأكثر تأثراً، وهي التي أقنعت أختها بأهمية الانتقام. والأسباب يمكن وصفها بأنها نسوية بحتة، مش عشان احنا بنات يبقى يفتكرنا هفية، لا يا حبيبتي، بكرة يشوف البنات دول هايعملوا فيه إيه. ولارا، الأخت التي تبدو صغرى، لا تقاطعها. فقط عند انتهاء يارا من الكلام، تهمس لها لارا، وهما على سريرهما، وعلى النور الخافت للأبجورة، عارفة ياختي انا نفسي ف إيه؟ إن كل حد ف الناس دول يلزم حده. وبابا يرجع علشان الناس تعرف مقامها، إحنا زهقنا خالص ياختي. ما لم تقله لارا هو أنها، في الليلة السابقة، رأت أباها حمادة في الحلم. كان يجلس مع فاروق صديق عمره. وكان فاروق يشير إلى حمادة ويقول لها: التاريخ هيثبت بالمستندات ان انتو ضيعتو الراجل المحترم دا من إيديكو. بجد يا لارا انتو خسرتو كتير أوي. انا ماقدرش احدد حجم الخسارة، بس الثابت عندي إن انتو خسرتو ياما، حوالي ملايين الجنيهات، إن لم يكن أكتر أو أقل بحاجة بسيطة.

○○○

نزلت البنتان لتركبا المترو. في طريقهما التقيتا بيحيى بركان. أخبرهما إنه ذاهب إلى المنشية، فقطعوا التذاكر سوياً. في المحطة دخلت يارا الحمام. هناك تذكرت المشاهد الساخنة التي ضمتها مع حما، ويبدو أنها تأثرت قليلاً، لدرجة إن عينيها التمعتا من فرط الحنين، وعندما خرجت سألها يحيى بركان عما بها فانفجرت. قالت له سامحني يا عم يحيى، انا مقهورة جامد من اللي

حصل. التصقت لارا بكتفه وسألته، ليه الدنيا مافيهاش أمان يا عم يحيى؟ هو من جانبه لم يحتمل كل هذا. فاضت مشاعره ولولا العيب وبصة الناس لكان قد بكى هو الآخر. ركبوا جميعاً.

في منتصف الطريق بين الكرنتينا والمنشية تعطل المترو. اهتز بعنف ثم توقف تماماً. لربع ساعة ظل المترو واقفاً. الجو كان خانقاً بالداخل، نحن على مشارف الربيع، نحن في قلب النفق المظلم، والتكييف عطلان كالعادة. الرجال يهوون على وجوههم بورق جرائد، ونساء سمينات يفترشن أرض العربة في انتظار فرج قد لا يأتي، وأطفال يبكون، وامرأة حامل تصرخ من الألم والخنقة. قرر يحيى بركان أن يفتح باب العربة بيديه. حاول مرة واثنتين دفع الباب بعضلاته القوية، والباب لا يستجيب، في النهاية فقط انفتح الباب. دخل بعض الهواء. توقف الأطفال عن البكاء والحامل عن الصراخ والرجال عن التهوية ووقفت النساء. مال يحيى بركان على أذن يارا وهمس لها، تعالوا نمشوها لغاية المحطة. أخبرته إن السير في النفق خطر، ولكنه كان قد زهق من الخنقة والقرف. قال إنه طالع، وخرج. تبعته يارا ولارا، ثم ركاب آخرون.

اجتياز النفق المظلم بالطول نحو محطة المنشية كان خبرة مهمة في حياة الثلاثة، الذين أناروا موبايلاتهم لتعينهم على رؤية الطريق. ضحك الثلاثة وقهقهوا وهم يسيرون في طريق لم يحلموا يوماً باجتيازه، على الرغم من قربه لهذا الحد منهم. توزع الركاب الآخرون على خَطِّ المترو، الذاهب والقادم. الذاهب اطمأنوا إليه، العربة نائمة كالقتيل ولن تتحرك الآن فيما يبدو، ولكن القادم هو ما كان مخيفاً، وفي حواري النفق المئوية قد يأتي مترو مسرع فيدهس الجميع. سمعت لارا صوتاً من بعيد فصرخت، ثم تبين إنه صوت طفلة تبكي. ضحكت وضحك الجميع معها. ثم، فجأة، وعلى حين غرة، المترو القادم. صرير

مكتبة عابث الإلكترونية

عجلاته على الأرض، زمارته، وفي رفة عين انتهى كل شيء. توقف المترو بعد قليل. جميع من وقفوا على خطه قد ماتوا، اندهسوا تحت عجلاته. هم، يارا ولارا ويحيى بركان، كانوا يراقبون من بعيد. خرج السائق، لم يجد سواهم ورجلين آخرين. وجه السائق كان ممتقعاً — هكذا رأوه على ضوء الموبايلات المفتوحة — وصوته كان مبحوحاً. كان مرتبكاً ولا يعرف كيف يتصرف. صرخ فيه يحيى بركان: اطلع ياخويا. كمل طريقك. انت ماشي في آمان الله ولقيت ناس واقفين قصادك. هتعمل ايه يعني؟ انت ماعليكش حاجة يا بن عمي. عاد السائق لعربته. تحرك المترو. وانزوت لارا على جدار النفق وأخذت تنهنه، وبجوارها أختها، تهديها وتنهنه، أما يحيى بركان فقد جلس بعيداً عنهم بستتيمرات. أخرج قزازة الخمرة من جيب جاكته، يشرب منها وينهنه. قضى على ثلاثة أرباع زجاجة البراندي المكتملة، سبك، بلا شيء بجانبها. حاول القيام فاهتز توازنه، عاود السقوط بجانب الأختين، ونام. نظرت يارا للجثة الممددة بجانبها وحاولت إفاقته. يا عم يحيى، يا عم يحيى، اصحى والنبي، هنموت احنا كمان. لم تنجح. في النهاية، قبضت على قزازة البراندي ومضت تشرب منها، أعطت لأختها شفطة أو اثنتين، وتكومتا هما الاثنتان على جسد يحيى بركان.

ربما نامت يارا ولارا قليلاً، ربما غفيتا، ولكن هذا لم يطل. بعد عشر دقائق أفاق يحيى بركان. شد الأختين من ذراعيهما ومضى ليكمل المشوار نحو النور الصاعد من محطة المنشية. عند باب المحطة كان قد أفاق قليلاً. مترنحاً بعض الشيء وتفوح من فمه رائحة الكحول، مال على يارا وهمس لها: الولا حما هيموت، هيتقتل، بنفس الطريقة اللي شفتيها كدا، زي الناس اللي ماتوا

دلوقتي. وصل صوته إلى لارا. نظرت الأختان إلى بعضهما ثم إلى يحيى بركان. كتمتا ابتسامة مظفرة كادت تظهر على شفتيهما.

°°°

أمة بلا ذاكرة وتاريخ هي أمة بلا مستقبل.

ما الذي حدث لسكان كرموز؟ استسلم الجميع على ما يبدو للنسيان. لم يعد أحد يذكر شيئاً عما حدث من قبل. الجميع يرفضون التذكر، وإذا ما تذكروا، فهم يرفضون الحديث. بهذا نشأت أجيال شابة لا تعرف ماضيها، انغمست في واقعها المشوه ورفضت رؤية ما عداه. لسنوات طويلة، حوالي خمسة عشر عاماً، لم تعرف يارا ولارا شيئاً عن صراع العائلتين — عائلة سوسو وعائلة علي — مع بعضها البعض. الآن فقط، تقرران كسر حاجز الصمت. في ليلة مقمرة، جلست فيها الأختان مع أم صلاح الشغالة، جميعهن يحشش، في البلكونة التي شهدت من قبل سقوط حمادة على أرض الشارع واستشهاده. يارا ولارا كانتا صاحيتين، حرصتا على ألا تزوداها في الحشيش. ظلت كوباية الحشيش مع أم صلاح طول الوقت. حدثينا يا أم صلاح عن سوسو. فتحدثهما أم صلاح، يا بناتي، يا حبيباتي، ذات يوم من الأيام كان هناك شخص جبار، جبار جداً، اسمه سوسو، كان كافراً، ليس عنده أي إسلام. وأبوكم يا أولادي كان رجلاً طيباً. لم يكن يرضى الظلم. أبوكم حلو. وحياة النبي ابوكم حلو. أنا رأيت كل شيء، رأيت المذبحة. انفجارات وضرب نار. رأيت أبوكم يستشهد لأنه قال لا في وجه الظلم. سوسو لم يحتمل، من هذا الذي يقول لي لا، أنا الملك الكبير والهيلمان وهذه الأنهار تجري من تحتي، هاتولي اسمه هذا الذي قال لأه، وأبوكم كان الكل يعرفه، قالوا لسوسو يا معلم هذا رجل قوي وصالح، ولكن سوسو ركب دماغه. تعاركا، واحد على حق والآخر على غير حق. هنا يا

مكتبة عابث الإلكترونية

بناتي، هنا، في هذا المكان الطاهر، استشهد أبوكم، رأيته وبكيت، وتحت منا، في الشارع، مات سوسو، قتل أبوكم ثم مات.

ولماذا لم تخبرينا بهذا يا أم صلاح من قبل؟ لإن الحقيقة صعبة، لإنكم بنات، والبنات حقها مهدور هذه الأيام، لأنكم لن تنعلوا شيء. أنا كنت بنت مثلكم وأعرف. أنا تعبت كثيراً. أنا رأيت كل شيء (يختنق صوتها) أنا تعبت على الحقيقة. أعرف بشراً. هل عرفوني؟ أبداً واللهي. لم يعرفوني. تعبت من الذكريات، تعبت من الكلام، تعبت من الحشيش. أنا راحة أنام. تقف، تسند على سور البلكونة. تسندها لارا. الآن تجلس الأختان بجوار بعضهما البعض. تنظران لبعضهما. إذا كانت أم صلاح تعبت، فهما لم تتعبا بعد. التاريخ سيواصلاه، بسواعد قد تكون ضعيفة ولكن بإرادة من حديد. صامتتين وجادتين، رصينتين ومفرقتين في التفكير، تتبادلان أنفاس الحشيش بينهما.

°°°

حما كان مشغولاً هذه الأيام بالتحضير للخطوبة. اشترى الدبل، وبدأ في التحضير للشبكة. اقترض حقها من منة، ومضى يشاهد مع أميرة ويختار. كل شيء كان جميلاً بالنسبة له، التحق بالعمل في مكتب محام كبير في محطة الرمل، وينتظر الآن افتتاح مكتبه الخاص، إذا صدقت منة وعدها. السؤال الآن: في خضم كل هذه الأحداث السعيدة، ما الذي مثلته يارا ولارا في ذاكرته؟ السؤال سألته إياه أميرة خطيبته، سألته إن كان قد أحبهما، فنفض عنها الفكرة. ابتسم، قال حب إيه اللي انت جاي تقول عليه، ثم حكى لها إنهما كانتا تتخرشان به في كل مناسبة. وبعدين انا شاب. يعني لو أي واحد ف مكاني كان يعمل كدا. أنا قرفت يا يارا خالص وحياتك. ابتلعت أميرة خطأه في اسمها

بابتسامة، أما هو فارتبك. طبطبت على كتفه وقالت له معلش يا حما. كلنا ممكن نغلط. ولم يفهم أي غلط بالضبط الذي تقصده، وابتسم هو الآخر.

أميرة لم تحمل ضغينة أبداً تجاه أي من الأختين. كانت تتعامل طول الوقت بنفسية المنتصر، الذي لا يلقي بالاً للحاجات الصغيرة. احلوّت في هذه الأيام كثيراً. راعت اختيار بنطلوناتها وجواكتها وإشارباتها، ومسحت بجرة قلم كل الشعر الشارد في وجهها، وصارت تكلم الجميع بحساب، وبين كلمة والأخرى تقول "خطيبي قالي"، أو تشكو من مشاكلها في اختيار الشبكة "أنا لو اعرف ان الموضوع كدا ماكنتش اتجوز خالص"، وحما بجوارها يصدق على كلامها ويمنحه الشرعية. وبالمناسبة، ألحت عليه أميرة أكثر من مرة أن اسم حما لم يعد مناسباً له. طلبت منه أن يعود إلى نفسه كمحمد. ولم يعرف هو كيف يفعل هذا، هي التي ساعدته، لم تعد تتكلم عنه أبداً بوصفه حما. محمد خطيبي بيحب اللون دا، محمد خطيبي بيغير عليا موت. اصل أنا مش عاوزة ازعل محمد. وهكذا. والناس موافقة وراضية. اتعودت على الجميع بكلامها، ولكنها مع هذا لم تحمل ضغينة أبداً تجاه أي من الأختين. كانت أقرب للملاك وقتها.

التشابه بين الأختين التوأم لم يكن فظيعاً، ليس كما تصور الدراما التوائم. لماذا إذن أحبهما حما في نفس الوقت؟ يأتي هذا التساؤل على خلفية واقعة حب أخرى. في الإعدادية، أحب لارا زميل لها في الفصل. كان يطيل التحديق بها ويسلفها كراريسه حتى اعترف لها ذات يوم بحبه. هي من جانبها انكسفت موت، وذهبت لتشتكي للبس في المدرسة، قامت البس باستدعاء الولد وهزأته أمام جميع التلاميذ، ومنهم لارا وأختها. البس كانت تصرخ: بتعاكس البنت واختها؟ التفتت لارا ليارا، فأخبرتها الأخيرة أن الولد كان يعاكسها طول

مكتبة عابث الإلكترونية

الوقت ويقول لها إنه يحبها. في المغربية، تبادلت الأختان جرحهما المشترك. اكتشفتا أن كل الكلام كان مكرراً بينهما. التاريخ يتكرر، مرة كمأساة والأخرى كملهاة. على نهاية الليل وصلتا لمرحلة الملهاة، ضحكتا كثيراً وهما تكتشفان المزيد من التفاصيل المكررة.

الحب جمعهما، والتفاصيل الصغيرة، عندما تفكر يارا في شيء تفكر لارا فيه في نفس الوقت. أحياناً ما تنطقان الكلام في نَفس واحد. والمرارة جمعتهما أيضاً، بعد خيانة حما لهما، عاودتا عدم الاهتمام بمظهرهما، نمت من جديد شعرات شاربيهما وحاجبيهما. لبستا كيفما اتفق، واعتصمتا بجدتهما وبأم صلاح الشغالة. أم صلاح كانت تحكي لهما عن كل شيء، كانت تحكي لهما التاريخ بحسب من رآه ولم يشارك فيه. تفصيلة واحدة شاركت فيها أم صلاح قديماً، عندما كان اسمها لا يزال غادة. وحكت عنها للأختين: جدكوا يا بنات كان اسمه بخيت. أنا عرفت أصله. جدكو الكبير. دا زي ما تقولوا أساس العيلة. سافرت الصعيد انا وسألت واتقصيت وعرفت. جدكوا كان صعيدي. كان زي عمدة. كان راجل صالح. في الصعيد انا قابلت أم أميرة بقى (تقاطعها البنات: طنط منة؟) لا يا بنات. لأه. أبداً. خالص والله. ديّت كات ست تانية، صالحة برضه زي جدكو بخيت. كات بتحب الخير للناس. هي شافت جدكو، هي من عيلتكو، زي بت عمكو أو بتاع. هي بقى حكتلي على بخيت. ايوة كدا. حكتلي عليه. قالت لي بخيت كان ملك الصعيد، عظيم وكبير وحاجة يعني عظيمة جداً. لكن بقى عمره ما أذى حد. صحيح قتل ناس ياما، لكن بالحق، كانوا اللي عاوز يموته واللي عاوز يسرقه واللي عاوز يغشه. هذا جدكم يا بنات وهذه حكايته.

ooo

يوم سبعة وعشرين مارس يقترب. بعد أسبوع بالضبط. حما في مشوار إلى المعمورة. يلتقي بيحيى بركان. يركبان المترو سوياً. في محطة المنشية يمتلئ المترو بالركاب. حما عرقان. يناوله يحيى بركان جرناناً ويقول له، هوي بيه يا خويا. الحر صعب. والمترو يتوقف فجأة، في منتصف الطريق بين الرمل والأزاريطة. لمدة ربع ساعة يظل المترو عطلاناً حتى يتمكن يحيى بركان من فتح الباب الحديدي بقبضة يده، كما تمرن على فعلها من قبل. ينزلان سوياً مع ركاب كثيرين. يسيران في النفق وصولاً إلى محطة الأزاريطة. يلاحظ حما أن المترو عطلان بسبب جذع شجرة ضخم ملقى أمامه. الرجال يحاولون إزاحته. يعرض على يحيى بركان أن يشاركا الرجال فيصرخ هذا، على إيه يا بن عمي، دقيقتين ونوصلو المحطة ونركبو مشروع من فوق. يواصلان السير إذن. زحام شديد ورجال يخبطون في بعضهم البعض. بعض الرجال يسيرون على قضبان الخط الذاهب والبعض على الخط القادم. وعندما ترن زمارة المترو القادم، فجأة، هوب، وبسرعة، يقوم يحيى بركان بدفع حما إلى الخط القادم. هكذا، مع بعض الرجال الآخرين، يتحول حما إلى ذكرى إنسان، لحم ملتصق بحديد القضبان ودم يتشربه الحصى.

يعود يحيى بركان إلى فوق الأرض، يحكي لكل من شاهده عن صديق عمره الذي استشهد تحت عجلات القطار. كان معايا، وحياة النبي كان معايا خطوة بخطوة، هو مات واني فضلت. يبكي، ويسب الدين مئة مرة للشخص الذي وضع الشجرة أمام القطر ولزقها بغراء في القضيب. يبدو للجميع وكأنه خارج من صدمة عصبية لن تروح أثارها بسرعة. تعاطف معه الجميع. حزنوا لحزنه وبكوا لبكائه. وعندما تغيب في بيته أسبوعاً لا يذهب للعمل زاره الناس. كان يبكي، هو مات واني فضلت، آني اللي قتلته. أنا اللي قلتله يالا بينا ننزلو.

مكتبة عابث الإلكترونية

طبطوا على كتفه وقالوا له، وانت كنت هتعمل ايه يا عم يحيى، نصيبه كدا. والكلمات لا تواسيه، يصمت طويلاً ويحدق في الحائط، ويخرج قزازة الخمرة.

لشهرين سادت أجواء الحداد في بيت منة. أميرة صامتة لا تتحدث. وأمها تحاول مواساتها ولا تفلح. يارا ولارا تزوارنهما وتعتذران عن غياب جدتهما الكبيرة والتعبانة، فتجيب منة باستهزاء، تعبانة؟ ربنا يشفي. (ثم بنظرة حادة) ستكو مبسوطة، صح؟ تنظر يارا للأرض ثم تقول بثبات، عيب اللي بتقوليه دا يا طنط. وتواصل لارا، عيب أوي. وأميرة ترد بفتور، أنا امي تقول اللي على مزاجها. تنصرف البنات وتشكو كل منها للأخرى في الطريق من جحود هذه الناس، يعني نزورهم ونطيبو بخاطرهم ومستخسرين فينا كلمة عدلة. وهو يعني فيه حاجة اسمها حد يفرح ف حد عشان الموت؟

°°°

منة كانت إنسانة رقيقة، برغم عصبيتها الزائدة أحياناً. ظلت تذكر بالخير الناس القدامى الذين وقفوا بجانبها، والناس القدامى الذين وقفت بجانبهم. من ضمن الفرقة الأخيرة كان المعلم سلطان الله يرحمه. تذكر منة عندما كانت تزور أرملته وتواسيها، وتحاول إعادة كتابة قصة حياة زوجها الراحل. تذكر عبارة "الإصبع المبتور لا يدوحس أبداً" التي تولت هي تعليقها في المنطقة مرفقة بصورة سلطان وبنبذة عن حياته. وعندما يخبرها أحد أولاد الحلال عن نسب يحيى بركان، الحفيد الوحيد المتبقي للمعلم سلطان، تشعر بسكين من نار يخترق ظهرها. من جانبها، لم تستبعد أبداً احتمال تورط يحيى بركان في مقتل العريس المستقبلي لابنتها، ليس فقط أنها لم تستبعد، هي كانت متأكدة من هذا. ولذا فلقد قررت اتخاذ خطوة حاسمة. زارته في بيته. طلبت منه أن يحكي لها بالتفصيل مشهد المترو وهو يدهس جسم حما. يحيى بركان

صامت. الحزن يقتله. يسرد لها الحدث بمنتهى الأمانة، لا يغير في أي تفصيلة، باستثناء تفصيلة واحدة بالطبع: مشهده وهو يزق حما على القضيب. تتناول منه قزازة الخمرة، تشرب منها بقاً ضخماً. ثم تقول، فيه ناس شافوك يا يحيى وانت بتزق الولا. لا يرد. هو حزين أو مذهول. ولا ترحمه هي، وناس شافوك وانت ف الليلة اللي قبليها بتقلع الشجرة اللي قدام محل الكشري. ينكر، فتواصل أسئلتها، أومال مين اللي قطع الشجرة يا يحيى؟ فيبدأ في الهلفطة، تعاوده النوبة العصبية ويبدأ يبكي بشكل محموم، هو مات، واني اللي فضلت، أنا حاسس إني انا اللي قتلته يا حاجة. فترد الحاجة بصرامة، لأ مش حاسس يا يحيى، إنت قتلته فعلاً.

"شوف يا يحيى، اني مش جاية هنا علشان افتح معاك مواضيع وحوارات، بس اني عاوزاك تفتكر حاجة واحدة، جدك يا ولا، جدك اللي لما مات ماحدش قرب لجثته ف الشارع. الناس خافوا. واني اللي عملته بطل، اني اللي فكرت الناس بيه وقلتلهم انه كان فيه هنا واحد اسمه المعلم سلطان، واحد لازم تحترموه وتعاملوه كويس وتفتكروه، لإنه كان إنسان جدع. لإنه كان يعرف ربنا ويعرف إن الحق أحق أن يُتبع".

بصوت خافت جداً قال يحيى بركان، إنتي ماعملتيش حد بطل، هو كان إنسان بطل من غير حد.' هنا فقط صرخت منة. ألقت بقزازة الخمرة على رأسه، يا خول لما اني نتكلم ماتردش عليا، الراجل اللي بتقول عليه إنسان بطل كان إنسان زبالة، اني قابلت ستك وكلمتها. إنت كنت عيل بشخة، إنت كان لازملك سنين وسنين عشان تتولد أصلاً. لم يتفاد يحيى بركان القزازة. مسح على جبينه فامتلأت يداه دماً، وواصلت هي، ولما ييجو شوية بنات غرة يضحكو

مكتبة عابث الإلكترونية

عليك ويقولولك اقتل لنا بني ادم تبقى تسأل مين البني آدم دا يا رمة، تعرف مين أهله ومين ناسه.

"شوف يا يحيى، اني مش هنجيب البوليس، ولا هنكلمو اي حد ف الحكومة. اني نعرف ناس كبيرة هناك، بس مش هانكلمو حد. مش عشان أنا كويسة. لأ، اسأل عني وانت هتعرف اني مرة بنت كلب. الكل هيقولك دي واحدة ست وسخة ماتسيبش حقها ولو عند مين، أنا كدا، ربنا خلقني كدا (تصمت قليلا، ثم بنبرة هادئة) يا يحيى خليك عارف اننا لينا حق عندك. وانت ماتبقاش تشتكي". انصرفت منة، صفقت الباب الخشبي وراءها فانخلع في يدها. نحن مازلنا في بدايات الربيع. السقعة لم ترح نهائياً. في نومه عانى يحيى من الكوابيس ومن صواريخ الهوا التي سمح الباب المخلوع بدخولها.

تجنباً للسقعة ربما، قرر يحيى بركان ألا يبيت في البيت. استأذن من يارا أن يبيت في مطبخ محل الكشري، بعد أن يغلق الباب الصاج عليه، فسمحت له. نام ولم يرتح، لليلتين متتاليتين ظل يحاول النوم فتهجم عليه السقعة والكوابيس وصوت منة الثائر. لا أحد يعرف متى بدأت هذه الفكرة بالبزوغ لديه، أو لماذا، أو كيف، ربما بدافع من نومته غير المرتاحة أو بدافع من عذاب الضمير تجاه من قامت من قبل بإحياء ذكرى جده الراحل. المهم أن يحيى بركان لمّ بطاطينه وقزايز الخمرة في الثانية فجراً من مساء إحدى الليالي وسار نحو مدخل محطة المترو. نزل درجات السلم، وقفز فوق الباب المعدني، ومشى، مثقلاً بثلاثة بطاطين لف جسمه كله بها، باستثناء عينيه. نزل النفق. أشعل ولاعته طول الطريق ليتغلب على أمواج الظلام التي حاصرته، وفي منتصف النفق بين الكرنتينة والمنشية، جلس. أخرج قزازة الخمرة، شرب منها ثلاث جرعات متتالية، ثم أغمض عينيه. نام يحيى بركان بعمق لم يعتده من قبل في

أية ليلة من ليالي حياته الكئيبة. صحا في الخامسة والنصف صباحاً. رجع من نفس الطريق. وبينما كان قطار المترو الأول يتحرك، كان قد وصل إلى بيته. أكمل نومه هناك، بعد أن اكتشف الحل السحري لأرقه المزمن.

اعتاد يحيى بركان إذن النوم في النفق. أدمنه، مع الخمرة والقمار. بل واصطحب معه رفاق القهوة ليشاركوه اللعب، هناك، تحت الأرض، حيث لا يمكن لأحد أن يضايقه ولا حد له عنده أي حاجة. يلعبون ما شاء لهم، ثم ينامون ساعة أو ساعتين، ثم ينصرفون، كل واحد إلى بيته، قبل خروج القطار الأول. استمر الأمر بوتيرة منتظمة، حتى محاولة الاغتيال الدامية.

خرجت مجموعة من الرجال، من مكمن لم يلاحظه يحيى بركان، وأطلقوا النار على الرجال اللاعبين. إطلاق نار سريع ومكثف كالحريق. ولكن يحيى بركان لم يكن الرجل الذي يفاجئه لعب عيال كهذا. أخرج من تحت بطانيته سلاحاً آلياً ومضى يرد على النار بالنار. وبسرعة محمومة أمر الرجال العزل حوله بالتوزع على الفجوات بسور النفق كي يصبحوا في مأمن من النيران، باستثناء واحد منهم أخرج طبنجة من جيب جاكته ومضى يطلق النار معه. في النهاية انحسرت النار. اقترب يحيى بركان بحذر من مصدرها، وسلاحه بيمينه، ليجد جثتين لشابين صغيرين. فحص جميع أركان النفق وصولاً إلى محطة الكربنتينة، آخر الخط. وعندما لم يجد أحداً آخر، أعطى أحد رجاله السلاح وطلب منه الوقوف لحراسة الجثتين. هتف زي عسكري الخدمة، ماتتحركش يمين ولا شمال لغاية أما أقولك، ولو حد ظهر ثبته واضرب نار عليه، عاوزك تعوره، بس ماتموتهوش يا حودة. ماتموتش حد. واني هنطلع نجيبو سلاح. ادينى باقولك اهو، لو حد مات أنا بنفسي هاموتك. هكذا، انصرف يحيى بركان، وبقى حودة وحده يحرس الجثتين، وعندما عاد يحيى

مكتبة عابث الإلكترونية

بالسلاح كان الوضع مازال كما هو. ساعتان وانصرف كلٌ لحال سبيله. تم دفن الجثتين تحت حصى الأرض، وجلس حودة نهاراً على كراسي محطة الكربنتينة يراقب أي شخص ينزل إلى أرض النفق، وفي مقابله شخص آخر يجلس على كراسي محطة الكرنتينة، كل منهم يحمل تحت ملابسه سيفاً ومدفعاً آلياً. وعندما دقت الثانية عشر بعد منتصف الليل نزل كل منهما إلى أرض النفق. وافاهما يحيى بركان ومعه عدد من الرجال الآخرين. لا يشربون اليوم. فقط يلعبون الورق، وعينا كل منهم في وسط رأسه.

الانتظار صعب. يحيى بركان كان واثقاً أن رجال منة سوف يعودون في الأيام التالية، على الأقل لمعرفة مصير رجليهم، وبالكثير لسحب الجثتين. لذا بقى على أهبة الاستعداد. لم ييأس. يبقى في النهار مع يارا ولارا في المحل، ثم يزور إنجي على المغربية. يُطلع النساء الثلاث على تطورات الوضع. يتهدج صوته ويتحمس ويشوح بيديه كثيراً. تنظر له يارا بإعجاب، إلى جسمه القوي كالحيطة وفانلته المتسخة ولحيته القصيرة السوداء والمشعثة، إلى شعر ذراعه وشعر رقبته وشعر صدره وصدره نفسه الذي يطلع وينزل كلما انفعل في الحديث. يارا كانت مفتونة، وهذا ليس عيباً ولا حراماً. ويحيى بركان كان يستحق أن تُفتن به الحريم. هو أيضاً كان يسترجع أبهى اللحظات في تاريخه. الصاعقة، مشاريع الحرب، الصحراء، العرب، ضرب النار في كل مكان، الصراع مع الحكومة. الغول المتأنس يعود ليصبح غولاً متوحشاً وبرياً من جديد. والله زمان يا يحيى يا بركان، هكذا كان يردد لنفسه طول الوقت.

احتاج الأمر خمسة أيام كاملة حتى ينزل ثلاثة رجال للبحث عن الجثتين الضائعتين. هنالك استلقتهم مدافع يحيى بركان وزملائه. الوقت كان

قبيل الفجر. القطار الأول يستعد للتحرك. المعركة مشتعلة. القطار الأول يتحرك فعلاً. واحد من رجال يحيى بركان يضرب ناراً على سائق القطار. يتهشم الزجاج الأمامي ويسقط السائق على أرض كابينته صريعاً. تنتهي المعركة بتقييد رجال منة الثلاثة وإلقائهم على أرض النفق تحت تهديد المدافع المشرعة، وبركض يحيى بركان الهستيري نحو إدارة المحطة وأمره للمدير بتحريك القطارات إلى محطة المنشية. القطورات كلها هتطلع على هناك وهتتحرك من هناك. احنا مسيطرين على نفق الكرنتينة كلها، من أول غيط العنب لغاية المنشية. القطر اللي عاوز يفضل في مكانه هنا هيبقى بتاعنا. هانفكه ونبيعوه خردة. تحركت القطارات، لم يستطع السائقون ولا إدارة المحطة فعل شيء حيال السلاح الذي انبثق من كل مكان في النفق ليهددهم. مع رجلين من أعوانه صعد يحيى بركان لإغلاق الباب الحديدي للمحطة، بعد صرف جميع العاملين هناك.

رحلت قطارات المترو إلى المنشية إذن. تبقى قطار واحد. القطار الذي قُتل سائقه في المحطة. اعتبره يحيى بركان غنيمة حرب، وقرر فتح أبوابه لرجاله، كي يتدفئون ويأكلون ويحتمون من الشتا المنهمر. يحيى في هذه اللحظة كان يتصرف كقائد جيش من النوع الدراماتيكي، يعرف جيداً أن التاريخ يُكتب في هذه اللحظات باسمه، وأن أي تصعيد قد ينتهي بمقتله وبمقتل رجاله، ولكنه مع هذا حريص على مجده، على أن تُكتب اللحظات الأخيرة في حياته وفي حياة رجاله بحروف من ذهب.

هل كان يحيى بركان انتحارياً؟ أبداً. لقد كان شخصاً حساساً يريد الخير للجميع. يتحرك قلبه لأي مشهد إنساني أو مقطوعة موسيقية. ولكنه مع هذا، كان يسعى إلى حياة عظيمة. لا يعرف كنهها بالظبط، ولكنه يعرف أنه سوف

مكتبة عابث الإلكترونية

يجد الصيغة المناسبة يوماً للعثور عليها. في الليلة التالية للسيطرة على محطتي مترو الكرنتينة والكربنتينة، كان يتعشى مع إنجي وبنتيها وأم صلاح الشغالة. يكوّر كتل الأرز ويلقيها في فمه بلا كلمة، صامتاً ومغرقاً في التفكير، ويغمس لقمة العيش في طبق الملوخية ثم ينظر إلى البعيد. فجأة يلتفت إلى إنجي ويقول لها: عارفة يا حاجّة؟ أنا كنت قبل كدا عايش مش عايش. زي البهيمة، باكل وباشرب وبنام، زيي زي البهيمة. بس النهاردة أنا عرفت اني عملت حاجة. وحق النعمة دي (يرفع اللقمة المغموسة بالملوخية عالياً) إني ما هنام ولا يهدالي بال لغاية اما ارد افضالكم عليا يا ست الكل. تبتسم إنجي برضا وتغرف له في طبقه المزيد من الملوخية. تحلف عليه أن يأكل نص الفرخة كله.

يحيى بركان كان يبحث عن معنى لحياته، وكل شيء في هذه الأيام كان يؤكد أنه قد وجده.

٣

على مدار تاريخهم، دأب المصريون على اختراع عدة تركيبات صوتية، في محاولة منهم لاختزال جملة طويلة وشائعة للغاية مثل، "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته". اعتاد الشعب المصري البطل تحدي الطول البالغ للجملة بصناعة تركيب مثل "عليكم السلام وكاته"، أو "عليسّركاتُه"، أو حتى "عَسَاكتُه". جملة "السلام عليكم" نفسها – والتي يفترض أن الجملة السابقة جاءت لترد عليها – ليست استثناء. كثيراً ما تتحول "السلام عليكم" إلى "ساموليكو"، و" ساعليكو" وصولاً إلى "ساليكو". وحدها أميرة بنت منة الله كانت خارج المعادلة. وحدها كانت تقول بكل بطء وثقة وتأن "السلام عليكم"، "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"، بكل مقطع، بكل صوت، بكل حركة تشكيل. لقد كانت برنسيسة حقيقية.

مثل يحيى بركان، كانت أميرة تبحث أيضاً عن معنى لحياتها، ولكنها، على خلافه، لم تجده أبداً. في طفولتها، كانت لها خناقة صغيرة مع يارا ولارا في المدرسة. كانت تجلس بجانب البنتين، اللتين كانتا تتوشوشان فيما بينهما، ربما قالتا شيئاً عن "سميرة" أو "خميرة"، ولكن أميرة داخلها الشك في أن البنتين تتحدثان عنها. التفتت لهما فأنهت البنتان حديثهما ضاحكتين. وأميرة امتلأت بالغضب. قالت، أنا سمعتكو وانتو بتتكلمو عليا. يارا ولارا لم تكونا

مكتبة عابث الإلكترونية

تتحدثان عنها فعلاً، ولكن أميرة كان الغضب قد أعماها. في حركة عنيفة رمت كراسة يارا على الأرض وروحت البيت. هناك أخذت تبكي.

ثمة جمل تظل ملاصقة لنا. يحدث هذا لفترات معينة من حياتنا. الجملة، بنبرتها الخاصة، تتردد في عقلنا طول الوقت، نتخيل نفسنا نقولها، ونخترع، نعم نخترع، طول الوقت نخترع، نخترع الموقف المناسب الذي سيتيح لنا نطقها كاملة، بنبرتها، العنيفة أو الساخرة أو الراضية أو المتذللة، حسب. جملة "سمعتكو وانتو بتتكلمو عليا" كانت ملازمة لأميرة طول الوقت. لم تعرف متى قامت بتركيبها في عقلها، ولا لماذا ظلت هذه الجملة، دوناً عن الجمل الأخرى، تتردد بوضوح كهذا في رأسها. جملة كتلك تلقي الضوء على شخصية أميرة، نجمة النجمات كما كانت ترى نفسها. الجميع يتحدثون عنها، وهي، مثل النجمات، لا تهتم إن كان الحديث بالخير أم بالشر. المهم أن الناس يتحدثون. منذ صغرها، كانت أميرة ترنو لمستقبلها بترقب كبير. رددت دوماً جملة أخرى، هي "أنا عاوزة ابقى حاجة". ما هي الحاجة التي كانت أميرة تريد أن تكونها؟ لا أحد يعرف، ولا هي نفسها. ولكنها بالتأكيد رأت في نفسها شيئاً كبيراً ومهماً، إن أتيحت لهذا الظروف. أنهت دراستها في كلية الحقوق بتقدير مقبول، فشطبت على إمكانية أن تصبح حاجة في القانون، ومات خطيبها في حادث مأساوي، فشطبت على إمكانية أن تصبح زوجة حاجة مهمة. وجلست في البيت، وضعت يدها على خدها، وبدا لها أن الزمن لن يتيح لها أبداً أن تبقى حاجة. وهكذا، مع كل الثقة التي تعكسها طريقة نطق أميرة لـ"وعليكم والسلام ورحمة الله وبركاته"، ومع كل عدم الثقة التي تعكسها عبارة مثل "أنا عاوزة ابقى حاجة بقى"، أو "سمعتكو وانتو بتتكلمو عليا"، يمكننا أن نصف أميرة بسهولة بأنها كانت امرأة تتغذى على التناقضات، ولن تكون في هذا مبالغة.

من قبل، حاولت أميرة، ولم تخبر أحداً بهذا، التمثيل. تعرفت على ممثلين كومبارس يجلسون على قهوة في بحري، ولكنها زهقت. في هذه الأيام كانت مخطوبة، وانصب جهدها على أن تظهر لخطيبها أنها العروس المستقبلية الممتازة. مؤدبة وذكية وشيك وجامعية مثقفة. وعندما مات خطيبها نسيت حلم التمثيل. رجعت للبيت، دمعتها على خدها، وتلفت مواساة أمها بصبر. ولكن الحلم لم يفارقها. تسرح نهاراً مع أحلام اليقظة. ترى نفسها تسير في كرموز والجميع ينحنون لها، الجميع، بمن فيهم، أو وفي أولهم، يارا ولارا وإنجي. ربما كانت أحلام اليقظة هذه هي الدافع الأساسي الذي واصلت بفضله أميرة الاهتمام بمظهرها. تذهب للكوافير كل أسبوعين، وتعمل مانيكير وبوديكير، وتتابع الوصفات الجديدة لإزالة شعرها الزائد. هذا وحده كان يمنحها العزاء.

منة أمها لم تكن تنظر إلى هذا بارتياح. حاولت شد أي كلام معها، ولكن أميرة طول الوقت ساهمة. بتفكري في إيه يا أميرة؟ ولا حاجة يا ماما. مش هتاكلي يا أميرة؟ مش جعانة يا ماما. وهكذا طول الوقت. أسبوعان مرا على موت حما وأميرة جالسة بجانب الشباك تتأمل العابرين. في يوم ما كانت سهرانة تتأمل الطريق ومجموعة من الشباب السكرانين واقفون تحت الشباك. همس واحد منهم لصديقه بشيء ما فهتف آخر، ماتزعليش يا آنسة. وأميرة كانت متأكدة أنهم يتحدثون عنها. أغلقت الشباك وانسحبت إلى عمق الشقة. فتحت اللفتح روم المغلقة على الدوام وجلست فيها، هناك حيث لا يمكن لأحد أن يراها أو يشعر بوجودها. اكتئابها كان من النوع القاتل.

جلست أميرة في اللفتح روم لأيام متتالية. تأكل وتشرب وتنام هناك. حاولت أمها بكل الأشكال إخراجها منها، ولكن محاولاتها باءت بالفشل التام. منة كانت تشعر أن ثمة شيئاً ينبغي أن يُفعل، لا من أجل أميرة، ولكن بمساعدة

مكتبة عابث الإلكترونية

أميرة. كانت تشعر أن شخصاً لابد أن يُقتل في الأيام القادمة، ليكن اسمه إنشي، يارا، لارا، أو يحيى بركان. المهم أن هذا كان مستحيلاً بدون مساعدة أميرة، ليس لأن منة تعوزها الخبرة في هذه المواضيع، لا، منة كانت امرأة بمئة رجل، تربت على يد سوسو وعرفت كيف تُدار الحرب، ولكن من الناحية النفسية يعني، اني مش هنقدرو نموتو حد من غير ما بتي تبقى ف الصورة. هي اللي هتكمل المشوار. واكتئاب أميرة كان يسبب لها الاكتئاب، حتى ذلك اليوم الذي خرجت فيه البنت من غرفة الليفنج روم، وتعشت مع أمها. هناك نطقت بأول جملة حقيقية لها منذ أسابيع، ماما، هو جدي كان بيعمل إيه بالظبط؟ جدك مين يا أميرة؟ جدي حربي يا ماما. قالتها بحسم، ونظرت بثبات في عيني أمها.

حسناً، هكذا إذن، ربطت منة الأمور في عقلها: الليفنج روم، التي اعتكفت فيها أميرة لأسابيع، هي الغرفة التي كانت مخصصة زمان، زمان جداً، في بدء الخليقة، إذا أمكننا أن نصف الماضي السحيق بهذا الوصف، لحربي، وهي التي منحتها عشيقته لهما، لمنة ولسوسو في بداية الزواج. الغرفة مرت بتقلبات عديدة، منذ أن كانت مجرد غرفة برية، متوحشة وغير مستأنسة، يحوي كل ركن من أركانها سيفاً أو مطواة أو باكيتة بانجو، حتى أصبحت هي الليفنج روم. ما الذي عرفته أميرة في الغرفة؟ الإجابة غير مهمة طبعاً. التمعت عينا منة، وبدأت تحكي.

لساعة ونصف ظلت منة تحكي عن أبيها، عن حربي البطل، الشخص الذي أنقذ الإسكندرية زمان من المصير الأسود، عن الناس الذين كانوا يعادونه بصراحة، علي وإنشي وحمادة، وعن الناس الهايفة الذين قفزوا على ثورته، سيد وسيكا وسلطان، سلطان دا يبقى جد يحيى بركان، الراجل اللي موّت حمّا خطيبك، وتحكي عن نبوءة حربي قبل أن يموت. وهو يغمض عينيه استعداداً

للقاء رب كريم، قال حربي، خلوا بالكو على منة بتي، هي وبتها اللي هيجيبولي حفي لغاية عندي. يتهدج صوت منة وهي تحكي. تلتمع عيناها ويختنق صوتها وتطبطب على كتف ابنتها. وأميرة صامتة طول الوقت. عيناها متعلقتان بأمها بثبات حديدي، وقلبها فرح. الأم كانت تتذكر جذورها، والبنت كانت تكتشفها. عندما انتهى كلام الأم، عانقتها البنت بلهفة حقيقية، هو يا ماما قالك اني هاجيبله حقه؟ أيوة يا أميرة. انا كت عيلة صغيرة، صغيرة صحيح بس فاهمة كل حاجة. أنا شفت ابويا بيموت قصاد عيني يا أميرة. ولما انتي اتولدتي عرفت ان ربنا هيكرمني بيكي. بكت أميرة. لأول مرة تبكي أثناء الحوار. وعاودت نفسها، بينها وبين نفسها، على الانتقام لجدها. الانتقام كان كلمة السر، الانتقام ممن سبق وأن شوهوا صورته وقتلوا خطيبها، وكرهوها وكرهوا الخير لها ولأمها. قائمة مرارات أميرة كانت طويلة للغاية.

٥٥٥

بخصوص أميرة، لم تكن تلك البنت، ذات الشعر الأسود والعينين الفاتحتين، حبيبة أمها، كما قد يتبادر من المشهد السابق. في الحقيقة فلقد رددت منة الله، في أكثر من مكان وأكثر من مناسبة، أن بنتها هي سبب غلبها في الحياة. أشياء كثيرة أدت بالأم إلى هذا التصريح الخطير. مثلاً، لقد أصرت أميرة، بالرغم من تحذيرات أمها المتكررة، على المشي في الشقة حافية، بلا شبشب، وعلى شرب الماء من الشفشق مباشرة، بلا كوباية، كما أصرت على عدم إطفاء النور أثناء نومها، برغم علمها أن كل هذه تكاليف على أمها. أمها العجوز، ٦٨ عاماً، التي تشكو من متاعب في ركبتها وظهرها، كانت تمشي في الشقة وتنوح طول اليوم بجمل من نوعية: إنتي عاوزة تموتيني؟ هو أنا الجارية اللي ابوكي جايباهالك؟ أنا سايباهالك وماشية. استريحتي؟ طبعاً الأمور لم

مكتبة عابث الإلكترونية

تتوقف عند هذا الحد. في واحدة من تلك العركات، صرخت أميرة، يارب، انا مابقيتش عاوزة اعيش خلاص، انا قرفت منك. وصرخت فيها أمها بالمقابل، ما تموتي نفسك ياختي، ما تموتي نفسك وتريحيني. ركضت أميرة نحو نملية المطبخ وهي تصرخ أنها ستكب البنزين على نفسها عشان أمها تستريح. فتحت النملية ولم تجد البنزين. أمها التي جن جنونها، لم تبخل عليها بالمساعدة. أخرجت البنزين من تحت الحوض وقدمته لابنتها بنظرة تحد. ترددت أميرة قليلاً في الإمساك به ولكن أمها عاجلتها بأن كبّت هي عليها منه. أشعلت الولاعة وقربتها من ملابس ابنتها المبتلة بالبنزين. نظرت أميرة إلى أمها برعب وجرت نحو غرفتها وأغلقت على نفسها بالترباس. في الليل، عندما تصافت الاثنتان، باست الأم على رأس أميرة، اوعي تزعلي مني يا مرمر. اني مش عاوزة غير مصلحتك. تعلقت البنت بحضن أمها وياستها على خدها.

خناقة أخرى متكررة: موضوعها كان الحلاوة التي تستعملها أميرة والتي يلتصق بعضها بتعر الطاسة. قررت الأم أن ترمي نفسها من البلكونة، فتحت شيش البلكونة ورفعت ساقها، وأميرة من جانبها مشت تدفعها من مؤخرتها تجاه الشارع. فجأة نترت الأم ابنتها جانباً، جلست راكنة ظهرها على سور البلكونة، ومشت تنهنه بصوت منخفض. أما أميرة فأخذت تطبطب عليها وتبتسم، فجأة قالت، أصلاً يا ماما لو عاوزة ترمي نفسك ماكانش هينفع. نظرت أمها لها. إحنا في الدور الأرضي يا ماما. سكتت مدة قليلاً ثم انقلبت نهنهتها بكاء حاراً، لطمت على وجهها وصرخت، يارب خدني يارب، أني تعبت يا رب.

كل هذا كان معطلاً لروح أميرة، التي كانت تطمح في أن يكون لحياتها معنى كبير، والمعنى يتم تأجيله على الدوام. فقط، هكذا يمكننا الادعاء بثقة،

عندما ظهر هذا المعنى من قلب الفراغ، عندما أدركت أميرة أن وجودها من الآن فصاعداً سيكون مرتبطاً بالانتقام ممن سبق وأذوها وأذوا أمها، فقط عندها، توقفت البنت والأم عن المناقرة. اتحدت الاثنتان الآن، نسيتا خلافاتهما القديمة. وضيتا تخططان لما سيحدث في الأيام المقبلة.

°°°

مثل كل الفتيات، انبهرت أميرة سابقاً بيحيى بركان، وبالتأكيد داعبت رأسها خيالات جنسية بخصوصه، تشاهدها في مرحلة سابقة من حياتها، في المراهقة، وهي تمارس العادة السرية بإظفرها وطرف إصبعها وهي تتذكر منظره وهو يعمل في ورشة الخراطة. ما الذي حدث إذن حتى ينقلب افتتانها هذا إلى تقزز؟ قرفت أميرة من كل شيء يتصل به، من عرقه ورائحته الوسخة وصوته الأجش، مع الأخذ في الاعتبار أن تغير مشاعرها هذا حدث قبل مقتل خطيبها بوقت طويل، بمعنى أن مشاعرها لم تكن مرتبطة برغبتها في الانتقام. الأرجح أن أميرة قد نضجت. كانت قد بدأت في التعلق بحما، الشاب المثقف المتعلم الوسيم، وبدأت ترسم لنفسها صورة بعيدة تماماً عن يحيى بركان، صورة الفتاة الجامعية التي سوف تتزوج زواجاً مناسباً يليق بها ويرفع رأسها أمام أهل منطقتها المعفنة. وعندما قُتل خطيبها، وانعزلت هي في الليفنج روم، محاطة بذكريات أبيها وتاريخه البطولي، بدأت تداهمها الكوابيس في أي وقت تنام فيه، نهاراً وليلاً وما بعد الظهيرة. تسير في الشارع وتسمع صوت أقدام تطاردها، تلتفت لتجد شخصاً بلحية كبيرة، تتعرف فيه على بركان نفسه، تحاول الهرب ولكنه يسد الطريق أمامها ويضحك ضحكته الشعواء، التي تتكشف معها أسنان سوداء ومتناثرة كثيرة. أو تركب عربة الحريم بالمترو، غارقة في جحيم النسوان العرقانة، وتكتشف فجأة أن كل النساء حولها هن نسخ

مكتبة عابث الإلكترونية

متكررة من يحيى بركان، ويهتز المترو، يبدو على وشك الانقلاب على جنبه، وتستيقظ هي. عندما خرجت من الغرفة أخيراً، وواجهتها أمها بالتاريخ الزاهر لجدها، كانت قد اتخذت القرار بقتل يحيى بركان، على أن يكون هذا مجرد خطوة أولى. كرنتينة علي وإنجي، كرنتينة يارا ولارا وحمادة، الكرنتينة الأثرية والقديمة والمشحونة بالمعاني، سوف يتم تفجيرها، وهذا النسل الوسخ سوف يباد من جذوره.

مكان المعركة لم تختره، ولا اختارته أمها. مكان المعركة فُرض عليهما: نفق المترو. في هذه الأيام كانت أمها تعاود الاتصال برجال زوجها الراحل، أسود سوسو القدامى وأشباله، أو الذين كانوا أشباله في العام أربعة وأربعين، وأصبحوا الآن وحوشاً مخضرمين، وبالإضافة لهذا، فإن كلاً منهم يملك ذكرى سوداء ناحية حمادة وعلي وإنجي. في العام أربعة وأربعين تم هدم المنطقة تماماً، ومن امتلك كشكاً أو ورشة أو محل اتصالات، تشرد في الشوارع هو وعياله، كل هذا بسبب علي. يحفظ التاريخ كل من ولد وعاش بكرينتينة سوسو. صحيح أنه على مدار السنوات السابقة لم يسترجع أحد التاريخ، مما أعطى الانطباع بأن كل شيء قد نُسي، ولكن هيهات. بسرعة اشتعلت النار، وقفزت الذكريات المريرة على السطح، وتحفز الرجال المتعطشون للدم بسيوفهم المشرعة.

امتلأ بيت منة بالرجال من كل نوع، يتوزعون على كراسي الصالة والأنتريه، بيد كل منهم سيجارة، وأكواب الشاي تعدها لهم أميرة التي تروح وتجيء بينهم. رأس الحربة هو يحيى بركان، هكذا قرر الجميع، وقتل يحيى بركان لا يحتاج الكثير. ديتها تلات رجالة ينزلوا عليه وهو سكران ويدغدغوا النفق على دماغ أمه. الصعب هو ما سيأتي بعدين، مواجهة الحكومة، ومواجهة إنجي وحفيدتيها اللاتي لن يسكتن. بس همتك معانا يا ست الكل،

هنحتاج بس الغلوس منك. السلاح ماتنعيش همه. ومنة الله ترد على جميع الاقتراحات بابتسامة واثقة، الله ينور يا رجالة. كدا مية مية. شوّة شاي للرجالة والنبي يا أميرة. وأميرة تتعلم الحياة من أول وجديد.

٥٥٥

ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. الرجال الذين ذهبوا لاغتيال يحيى بركان في النفق لم يعودوا. انتصر عليهم بركان وأصحابه. ولكن منة الله لا تستسلم للإحباط بسهولة. في هذه الأيام تعرفت على بائعة سمك تصلي معها في الجامع. بائعة السمك، واسمها الشيخة صالحة، كانت امرأة بشوشاً. لم تشعر منة من قبل أبداً بهذا النقاء النفسي الذي تشعر به معها. صلت مرة العصر وراءها، وبعد الصلاة تحدثتا سوياً. قالت لها الشيخة صالحة إنها تعرفها جيداً، وتدعو لها بالهداية في كل صلاة. لم تفهم منة. منة لم تفعل شيئاً في حياتها يغضب ربنا، وفوق هذا تصلي بانتظام. الشيخة صالحة قالت لها إن ما ينقصها هو أن تقرب من ربنا. ابتسامة الشيخة صالحة، وبشاشتها، ووجهها المضيء بنور الله، كل هذا منع منة من أن تتخذ موقفاً عدائياً حيالها.

مرة في مرة، وبدأت منة تزور الشيخة في بيتها. كانت تريد أن تسمع منها أكثر. كما بدأت تشاركها تفاصيل حياتها، تفاصيل قليلة في البدء، ثم بدأت تحكي عن كل شيء، عن مقتل رجالها الذين ذهبوا لاغتيال يحيى بركان، وعن أسر رجالها الذين ذهبوا لاستعادة جثث رجالها الذين ذهبوا لاغتيال يحيى بركان، والشيخة صالحة تعرف كل هذا، كما يعرفه كل من يعيشون في المنطقة. نصيحتها الودود كانت واحدة لا ثاني لها، مش بالعافية يا ام أميرة، مافيش حاجة بالعافية. كل حاجة بتنفع بذكر الله. منة سألتها عما

مكتبة عابث الإلكترونية

تعنيه فتحت الشيخة صالحة الشباك. شوفي الناس دول. شوفي كل الناس اللي ماشية في الشارع دول. كل دول مخاليق ربنا، وانا وانتي مخاليق ربنا، ربنا سبحانه وتعالى قالك إني جاعل ف الأرض خليفة. يعني احنا خلفاء هنا. اني عاوزاكي تفكري ف دا كويس، ولما تيجي تبصي ف عين حد من الناس دولا عاوزاكي تفكري ان دا مخلوق من مخاليق ربنا، زيه زيك.

هكذا حددت منة التمرين الروحي الذي كان واجباً عليها في الأيام المقبلة. أصبحت تنظر إلى جميع الناس، تتأمل صورة ربنا فيهم، وتذكر الله عندما تشاهد إنساناً. صفت روحها في هذه الأيام كثيراً. أكثرت من الصلاة، ودعت أميرة ابنتها للاستماع للشيخة صالحة في الدرس الذي تلقيه بين المغرب والعشاء يومي الاثنين والخميس. أميرة من جانبها انبهرت أيضاً بالشيخة. حرصت على معرفة رقم تليفونها وصارت تتصل بها في أي وقت لتسألها عن أمور تافهة تعن لها. الرجال الذين زاروا بيت منة الله في هذه الأيام قُتلوا بالنور المشع من عينيها. كانوا يجأرون بالسؤال بعد مقتل زملائهم، هنعمل إيه يا ست الكل دلوقتي؟ فترد بأن يتركوا التدبير لله. هو وحده الذي سيكرمهم. وحددت موعداً للهجوم على النفق – الذي سبق واستولى عليه يحيى بركان – بعد أسبوعين من الآن. كيف ومتى وأين؟ لم تشغل منة أو أميرة بالها بالخطة الدقيقة للهجوم. آمنت الاثنتان بأنهما إذا أخلصتا النية لله فسوف يساعدهما. الشيخة صالحة من جانبها أكدت على هذا، رقت البنت وأمها وقالت لهما اتوكلوا على الله دلوقتي. وتوكلت الاثنتان على الله. لم يعملا حساباً لبكرة. بكرة بتاع ربنا.

المعجزة بدورها لم تتأخر. عندما انتهيت منة وأميرة من صلاة العشاء في المسجد، سلمت عليهما الشيخة صالحة. ابتسمت وقالت إن الصبر آخره جميل، وإنها رأت رؤيا لهما وهي ساجدة. وبينما هما على باب المسجد عائدتين إلى

البيت أتاهما أحد الرجال وقال إن الخطة نجحت. اقتحم الرجال النفق وضربوا ناراً. قتلوا ثلاثة من رجال يحيى بركان وعادوا بجثثهم معهم، كما استعادوا جثتي رجليهما مع الأسرى الثلاثة. نزل آخرون إلى نفق محطة الكريتينة وعسكروا هناك بالسلاح. سلاح ياما يا ست الكل، اللي هيقرب من الرجالة دلوقتي هيقطعوه حتت ويرموه للقطط. ابتسمت منة، امتلأت بفرح داخلي عميق، ولكنها لم تدع نشوة الانتصار تسكرها. عادت أدراجها مع ابنتها إلى الجامع، صلّتا صلاة الشكر، وأمرتا بذبح خروف للغلابة.

لأول مرة من زمان يتم إقامة صوان فرح في كربنتينة سوسو. أغاني وبانجو وحشيش وبيرة ولحمة للصبح. راقصات ومزامير. ليس هذا فقط، بل قرعة أيضاً بين ناس المنطقة، ومن ترسو عليه القرعة له من عند الحاجة أم أميرة أن تزوجه إن كان غير متزوج، أو تزوّج ولاده إن كان متزوجاً. حاولت منة أن تهدي الشيخة صالحة شيئاً، أي شيء، اللي تطلبيه ليكي عليا اعملهولك يا شيخة. ولكن الشيخة صالحة رفضت بأدب، هديتي إنك تبقى مبسوطة انتي وبتك يا ام أميرة. انحنت منة على كفها وباستها.

°°°

روح أميرة كانت تشف في هذه الأيام، تصفو وتترقرق. كانت موقنة أنها وضعت قدمها على أول الطريق الذي سيجعل منها حاجة، وحاجة مهمة كمان. صحيح أن الناس لا ينحنون لها كلما مرت من الشارع، كما كانت تحلم سابقاً، لكنها كانت ترى في أعينهم الحب لها ولأمها. تجلس الآن بجانب الشباك. الشباب السكرانة يعاكسون الرايحة والجاية، ولكن عندها، عندها فقط، ستوب، يخفضون أعينهم، خجلاً من سكرهم ومن رائحة الكحول المتطايرة حولهم.

مكتبة عابث الإلكترونية

تبدو أميرة الآن ملكة متوجة، بالذوق والأدب والاحترام، ولكن أيضاً بتاريخ جدها المشرف. صارت تحدث الناس عن حربي الذي موّت نفسه عشانهم وعشان يعيشوا في ستاندر أفضل في الحياة. والناس لم ينسوا حربي أبداً. طول الوقت يسترجعون سيرته، ويذكرون بالخير منة الله بنته وأميرة بنت بنته.

تولت أميرة بنفسها تعليق صور حربي في المنطقة. يجلس بالقهوة ويشرب شيشة، يفتح مطواة على بنته الصغيرة المعلقة على كتفه، ينظر لها نظرة غضب كوميدية، يقود قطيعاً من البهائم استطاع تحريره لتوه من الحجر الصحي، ويجلس منفرداً على كرسي البحر بشارع الكورنيش والسيارات المسرعة تتفاداه بمعجزة، بالإضافة إلى صورة له وهو يصطاد من البحر، بيمينه السنارة وبيساره قزازة البراندي. وجوه كثيرة دخلت المنطقة منذ العام أربعة وأربعين، شباب تولت وزارة الإسكان إسكانهم في مبان شعبية ورخيصة، أنجبوا الآن وأصبح أولادهم شباباً، ولكن القصص تنتقل من جيل إلى جيل. وبعد سنوات طويلة لم يعد أحد يتذكر فيها شكل حربي، كانت الصور الفوتوغرافية هي أفضل اليوم للماضي المشرق بالنسبة للسكان الجدد وأولادهم.

القصة كانت تولد من جديد، تتدافع وتكبر ولا يوقفها أحد، وهي التي أعطت الشرعية لكائنات ما تحت الأرض الذين كانوا يحرزون انتصاراً وراء الآخر. يغير الرجال المعسكرون بالنفق ليلاً على رجال يحيى بركان، يسلبون قطع السلاح، ويعودون لموقعهم بالنفق. والأخبار تصل إلى منة وأميرة. مع أخبار أخرى مؤسفة: مثلاً، عرفت منة أن بعض الرجال كانوا يبيعون السلاح الزائد عن حاجتهم. وهو ما رفضته بعنف. السلاح الزائد يُخزن، لا أحد يعرف الأيام الجاية فيها إيه. حاولت مواجهة البعض بهذا ولم تنجح. فيما بعد قنعت بهذا، والتمست العذر للرجال، يعني الواحد بيكون مزنوق في خمس تلاف

جني، خلاص، يجيبهم بمعرفته، أحسن ما يسرق مني. لم تستطع التحكم في هذه التجارة السوداء، فضلت الطرف عنها، مثل أية سلطة ذكية.

ولكن منة بشر في النهاية. كانت تشكو من أوجاع كثيرة، بظهرها وبساقيها، وفي السنوات الأخيرة لم تعد تستطيع دخول الحمام إلا مع أقراص ملينة. بدأت تتعب، هي الموشكة على دخول السبعين من عمرها، وبان هذا عليها طول الوقت. أميرة تقوم بمهامها الآن في اللقاءات مع الرجال وإعداد خطط الهجوم، التي كانت لا تزال في أولها، طالما أن يحيى بركان وإنشي ويارا ولارا لا يزالون بعيدين عن مرمى النيران. والسعادة ليست من نصيب البشر طول الوقت: ذات يوم كانت أميرة تزور الشيخة صالحة في بيتها، وأمها تستحمى في البيت. عندما عادت أميرة فوجئت بباب الحمام مفتوحاً وأمها مرمية على الأرض عارية وتغمغم بكلام غير مفهوم. وقعت منة الله في الحمام ولم تجد من يسعفها. اتصلت أميرة بالشيخة صالحة على الفور، ووافتها هذه في ربع ساعة. قرأت قرآناً على رأس الست واتصلت بالدكتور. والدكتور أعلن كلمته ببرود: شلل في المخ.

أميرة كانت تتصرف بثلاثة عقول في هذه الأيام، عقل مع أمها المريضة، وعقل مع الرجال بالنفق، وعقل مع الشيخة صالحة. الشيخة كانت تزورها يومياً. تقرأ القرآن وتتحدث مع أميرة وتوجه كلاماً بلا معنى إلى الأم الراقدة على السرير والتي ترد بالغمغمة غير المفهومة. قالت الشيخة لأميرة مرة، لما امك تقوم بالسلامة... ولم تكمل. قاطعتها أميرة: أمي مش هتقوم يا شيخة. خلاص. وأدارت وجهها. الشيخة من جانبها ارتعبت من هذا الكفر المضمر برحمة ربنا. قالت لأميرة إنه لا يصح أن تقول هذا. ولكن أميرة لم ترد، والأيام أثبتت أن الحق معها.

مكتبة عابث الإلكترونية

الشيخة تقرأ القرآن للست، تقول قل يا أيها الذين آمنوا لا تيأسوا من، فترد منة الله بغمغمة واضحة هذه المرة، تقول، رحمة الله. وتبتسم الشيخة. تشعر أنها بدايات التحسن في حالة الأم، وتنصرف مستبشرة. بعدها بساعتين تتصل بها أميرة وتقول لها البقاء لله. تتذكر الشيخة بوضوح كلمة الأم الأخيرة التي عبرت فيها عن شعورها بقرب دنو الأجل. تدعو للراحلة بالرحمة، ويستمر العزاء ثلاثة أيام.

°°°

لم تكن هذه الأيام هي الأفضل بالنسبة لأميرة بالطبع، ليس فقط لوفاة أمها، بل لتجرؤ رجال يحيى بركان عليها، تحت الأرض، وفوقها أيضاً. تم تثبيت واحد من رجالها وهو سائر في الطريق، في عمق كربنتيتة سوسو. أخذ منه مجهولون بطاقته وخمسمائة جنيهاً كان يحملها معه، بالإضافة إلى أحداث صغيرة من هذا القبيل. الرجال نفسهم تذمروا من أن تسيطر عليهم واحدة مثل أميرة، بنت صغيرة لا تعرف عن الدنيا شيئاً وتبدو كأنها مولودة امبارح. لم تعد أميرة تسيطر، صحيح أنها حاولت، ولكن الدنيا كانت أقوى منها. الآن يجلس الرجال في الأنتريه عندها، يدخلون بأحذيتهم بعد أن كانوا يخلعونها احتراماً عند باب الشقة. وأميرة، المهووسة بالنظافة مثل أمها، كانت تكتم في قلبها ولا تنطق. الرجال يطفئون سجائرهم على السجاد، ويهزرون مع بعضهم هزاراً وسخاً، يسبون الوالدين والدين وكل شيء، وأميرة لا تتمكن من إيقافهم عند حدودهم.

أصيبت أميرة في هذه الأيام بحالة نفسية. قررت مرة الانسحاب والدخول لغرفتها. هناك أغلقت على نفسها بالترباس وحاولت النوم ولم تستطع. مضت تتنصت لكلام الرجال بالخارج. فجأة فتحت الباب بعنف. عيناها محمرتان

وشعرها سافر وهائش. صرخت في الرجال: إنتو كنتوا بتقولوا عليا إيه؟ الرجال كانوا نائمين، تحت تأثير الخمرة الملقاة قزايزها في كل مكان حولهم. نظر إليها أحدهم بعينين نصف مغمضتين. حرك ذراعه، وحاول قول شيء ما ولكنه كسّل فركن ذراعه بجانبه مرة ثانية وعاود النوم. صرخت بهستريا: أنا سمعتكوا وانتو بتتكلموا عليا. ولم يرد عليها أحد. أمسكت بفازة كبيرة وألقتها على الأرض، فانتبه الرجال. يالالا اطلعوا برة دلوقتي. اطلع برة يا بغل انت وهو. لم يتحرك واحد منهم. كانوا فاقدين الوعي تماماً. أمسكت بقطعة من فخار الفازة المكسور وقربتها من رقبة أقربهم لها. جرحته وهي تصرخ، انا هاقتلكو دلوقتي. هنا فقط انتبه الرجل. قام وصفعها على وجهها صفعتين تلتهما عدة لكمات في كتفها وبطنها. ارتعبت أميرة. دخلت غرفتها راكضة. حاول الرجل متابعتها لغرفتها. أغلقت على نفسها بالترباس. ظل الرجل يدق عليها من الخارج ثم همد ونام بجانب الباب. تكلفتت هي في ملاءة السرير. ظلت ترتعش لساعتين. سقطت من على السرير واكتشفت تحته زجاجة ويسكي كاملة. الرجال يشربون في غرفتها أيضاً إذن. واصلت ارتعاشها وهي تفتح الزجاجة وتشمها، ثم وهي تشرب البق الأول في حياتها منها، ثم الثاني، ثم الثالث. انتهت ثلاثة أرباع الزجاجة، شربته بلا إضافات، ثم تساوى كل شيء في عينيها. نسيت كل شيء، ابتسمت، ونامت كالقتيلة.

°°°

نحن الآن في شهر سبعة. الجو حر ورطوبة قاتلة. حاولت أميرة يوماً النزول للنفق. عند مدخل النفق وقف أمامها أحد الرجال، رايحة فين يا آنسة؟ أجابته، رايحة اشوف الرجالة. ردد الرجل ببرود، ممنوع. علّت صوتها، ممنوع ازاي؟ كرر بعنف، ممنوع يا آنسة بنقول. علّت صوتها أكثر فأكثر. هنا

مكتبة عابث الإلكترونية

ظهر رجل آخر من داخل النفق، شَحَط في الأول وقال له، ممنوع ازاي يا حيوان؟ دي الآنسة أميرة يا بهيم. وقال لأميرة برقة، طبعا يا فندم تنزلي بكل احترام، بس عاوزين تحقيق الشخصية لو تكرمتي حضرتك. أعطته أميرة بطاقتها الشخصية. قال لها، علّقي دي على صدرك عشان ماحدش يكلمك. أعطاها باتج مكتوب عليه "عبده الأمير". علقته على صدرها ونزلت.

الجو تحت النفق خانق، وخاصة في عز رطوبة يوليو. لم تحتمله أميرة في البداية، ثم تعودت عليه. رجال من حولها في كل مكان. هي الأنثى الوحيدة بالمطلق. الرجال، ومنهم الأطفال والكهول والشباب، يجلسون ويلعبون الكوتشينة مع بعضهم. وثمة رائحة عفنة تخنقها، كتل الخراء في كل الأركان مع بحيرات البول وفوقها أسراب من الذباب المحلق. حاولت أميرة تحاشيها ثم اكتشفت عبث محاولتها فمضت تخوض فيها وهي تخطو للأمام. عيون الرجال كلها معلقة بها. اقترب منها أحدهم. نظر إلى صدرها مطولاً بنظرة عابثة، وعندما لمح البادج تراجع. عاد إلى أصحابه وتهامس معهم. كانت موقنة أنها محور الحديث، ولكنها تجاهلت هذا. مضت تسير وتسير، حتى وصلت إلى سور حديدي كبير، هناك رأت لافتة معلقة مكتوب عليها "هنا النهاية"، وكتابات بخط اليد، "أمير ورشا، الحب الخالد، ٥-٦- ٢٠٦٣"، "أضباح الكربنتينة.. المصري ومصيلحي وكروانة"، "لا للهوبنة"، "أهي أيام وبنعيشها" "تحنو هنا، والأعداء هناك"، وغيرها. عادت أميرة أدراجها. كانت قرفانة وفي حالة نفسية سيئة. عند باب النفق أعطت الحارس البادج واستعادت بطاقتها الشخصية. قبل أن تمضي سألته عمن يكون عبده الأمير هذا. أجابها بابتسامة بإنه لا شيء، لا أحد اسمه عبده الأمير، هذا فقط سيم بين الرجال ليعرفون من تبعنا ومن ليس تبعنا. هما، التانيين (يشير بعيداً. يقصد يحيى

بركان وأهل كرنتينة إنجي) عارفين ومتأكدين ان فيه حد اسمه عبده الأمير. احنا بس اللي عارفين الحقيقة. ابتسمت بارتياح، كانت مرعوبة من فكرة أن يكون شخص قد استحوذ لنفسه على السلطة تحت النفق بدون علمها ولا علم أمها. في بيتها نامت، مع فكرة مريحة خطرت ببالها، الأمور لا زالت تحت السيطرة.

هل هذا صحيح، هل كانت الأمور فعلا لا تزال تحت السيطرة؟ نعم ولا. كي نكون منصفين، فإن ثمة ادعاء قد تردد كثيراً في هذه الأيام. قال كل الناس إن أميرة خلاص، فقدت السيطرة على رجالها وعلى الصراع، ولكن هذا الادعاء، مثل أي ادعاء، كانت تعوزه الدقة. لدى أميرة حساب ضخم في البنك، ومازالت هناك رواتب شهرية تُدفع للرجال، ونفحات تُمنح من حين لآخر، صحيح أنها قلت عما كانت عليه قبل موت منة الله، ولكن الرجال في حاجة إليها. مازالت تملك في يديها أوراقاً إذن. كما أنها لازالت تملك العزيمة، وهذا ليس أمراً سهلاً بالنسبة لامرأة في ظروفها.

عندما سمعت أميرة آذان الظهر وهي عائدة من النفق، تذكرت أن لها زمان لم تزر الشيخة صالحة. قالت في نفسها إن الشيخة صالحة هي ورقة غير مستثمرة أيضاً في الصراع، بقوتها الروحية الهائلة وابتسامة الأمل التي تمنحها لها في أصعب المواقف. زارتها ليلاً، فضفضت معها بالكلام وبكت. قالت لها إنها شربت خمرة منذ أيام، وإنها كانت قرفانة منها لكن شربتها. وإنها تشعر إن ربنا غضبان عليها بسبب هذا. الشيخة صالحة من جانبها لم تعقب. فقط ابتسمت ونطقت بالجملة التي لم تكن أميرة تحتاج أكثر منها في هذا الظرف القاسي: ماتخافيش يا حبيبتي. ربنا معاكي.

مكتبة عابث الإلكترونية

٤

الحرب صد ورد. يوم لك ويوم عليك، لطالما آمن يحيى بركان بهذا.

ذات يوم، قررت حكومة الصين الشيوعية المنتخبة حديثاً – بالاتفاق مع الحكومة الأرجنتينية– تأميم ثقب شنجهاي. القرار كان صادماً لشركة "بينيث" الأمريكية التي تولت حفر النفق بين طرفي الكرة الأرضية وتسيير المركبات فيه من الصين إلى المحيط الأطلنطي. معاداة شركة "بينيث" لم تكن سهلة. فالشركة كانت لها أسهم كثيرة في الحكومة الأمريكية. هذا يحدث الآن. عادي جداً، نحن نتحدث عن حقبة ما بعد بعد الرأسمالية. لم تتأخر الضربات الأمريكية. حشدت الولايات المتحدة صواريخها في باكستان والمكسيك الخليفتين. وعلى مدار سنوات طويلة اشتعلت أسيا والأمريكتان بالحرب. ضربتان في الشمال وضربتان في الجنوب. أمريكا كانت تترنح بالفعل، وكل العالم يتابع هذا. يحيى بركان كان يقرأ الأخبار ويفكر في همه الذاتي، الكرنتينا.

عندما استولى رجال منة الله على نفق الكربنتينة، لم ينزعج. الأيام دول، قالها وابتسم. وعندما أصبح يتكبد هو ورجاله الهزيمة تلو الأخرى احتسبها عند الله أيضاً. الحرب تحت الأرض ليست لعبة، وعلى من يحاول التصدي لها أن يدرك أنه قاتل أو مقتول، مع احتمال ثالث نادر الوجود، شخص مقتول

اليوم ويستعد ليكون قاتلاً غداً. هذا الاحتمال الثالث كان هو خيار يحيى بركان الحاسم في تلك الفترة.

لم يكن يحيى بركان مطالباً بتسويق انتصاراته أمام إنجي. كانت هذه متفهمة، تعرف بوحي من خبرتها العسكرية الطويلة أن الانتصارات الأولى لم تكن تعني إلا أن القادم أصعب. بالإضافة إلى أمر آخر، إنجي كانت مهتمة بعائلة سوسو من زمان. لم تحبها، ولكنها أيضاً لم تكرهها تلك الكراهية الشعواء. لقد خلقت الحرب المتواصلة بينها وبين العائلة الأخرى نوعاً من التماهي. شعرت في وقت ما أن وجودها متعلق بوجود منة الله وأميرة. هذا يحدث، ويعرفه كل دارس للفكر السياسي في فترات الحروب، ولكن ما حدث هنا لم يكن مجرد تماه قائم على استمرار الصراع بينهما منذ عقود طويلة، لقد كانت تجمع بين العائلتين الذكريات الطيبة أيضاً. في هذه الأيام تذكرت إنجي بقوة مشهدها وهي تذاكر لمنة الله، الطفلة، دروس الإنجليش، وتذكرت سوسو وهو يدافع عنها وعن زوجها في المنطقة، وتذكرت سوسو وهو يذبح بسكينه الناس الذين قتلوا عائلتها من قبل، وتذكرت، وهو الأهم في حالتنا، سوسو وهو يكلمها في التليفون ويحكي لها قصة بخيت جدها. لهذا كله لم تكن إنجي متحمسة زيادة عن اللزوم لضرب منة الله بقسوة. قامت هي بدور الحمائم في صراع ما تحت الأرض، ومثّل يحيى بركان بجانب يارا ولارا جناح الصقور.

كل هذا أدى للمشاهد الأخيرة. عندما سمعت إنجي بخبر موت منة الله لم تصدق. طلبت من حفيدتيها اصطحابها للعزاء، فرفضت الاثنتان بعنف. كذلك رفض يحيى بركان، الناس هتقول علينا إيه بس يا حاجة؟ ولكن الحاجة لم تستجب للتحذير. قامت من النوم مرة، في الثانية بعد منتصف الليل، وتحركت في الشقة. استيقظت لارا على صوت خطواتها. فتحت النور فأخفت إنجي

مكتبة عابث الإلكترونية

عينيها مصدومة. سألتها لارا رايحة فين يا تيتا؟ فأجابت رايحة اعزي ف منة. لارا تعلم أن لا عزاء يقام في الثانية بعد منتصف الليل، ولكن إنجي لم تكن تعلم. قادت البنت جدتها نحو السرير وهي تقول لها، بكرة، هنعزو ونعملو كل حاجة انتي عاوزاها. وقاومت إنجي. دفعت حفيدتها بعيداً وقالت أنا لازم اعزي دلوقتي. ماحدش يحوشني. سقطت لارا على الأرض فاستيقظت يارا. أصيبت إنجي بحالة هياج. لم تقدر عليها أي من الحفيدتين. اتصلتا بيحيى بركان. تيتا تعبانة أوي. تعالى الحقنا. حاولتا تقييدها ولكن قوة هائلة اندلعت في جسدها، اندفعت نحو باب الحمام، دخلته ثم خرجت منه، وإلى باب المطبخ، ثم خرجت منه. فجأة نظرت للبنتين وسألتهما، هو باب البيت منين. في هذه اللحظة سقطت على الأرض. مضت تغمغم، انا اللي قتلتها، رميتها تحت عجل القطر وماتت، انا موّتها في رمسيس. الرؤية أمامها كانت مشوشة. رأت وجهي البنتين غارقين في الدموع. قالت، بس أنا ماكنتش اقصد، كانت بتعاكس الشيخ علي، كانت قاعدة على حجره وبتتدلع، انا مش عاوزة أقول اكتر من كدا. كانت تغمغم ونظراتها معلقة بالبنتين بثبات، ثم راحت في النوم. عندما وصل يحيى بركان كانت نائمة وعلى شفتيها ابتسامة.

تأخرت مرة في الحمام، ظل الباب مغلقاً عليها لساعة ونصف، وعندما خرجت نادت البنتين. أجلستهما أمامها وقالت إنها حاولت الانتحار في الحمام. خبطت راسها أكثر من مرة في الحيطة ولم تمت. في الحمام، فوق الحوض مباشرة، كانت ثمة نقاط من الدم. مسحتها لارا، ثم قالت لأختها إن باب البيت يجب أن يُغلق من الآن فصاعداً بالمفتاح. اكتشفت إنجي هذا فقررت البقاء في غرفتها تكلم نفسها. قالت، هي اللي كانت عاوزة تموتني، حطت لي

تعبان أفريتي في الأودة، وخطفت مني الترنج بتاعي. ولما لقيته كان مليان حاجات فظيعة. أنا مش ضد الحاجات الفظيعة والله، بالعكس والله، هي اللي طول الوقت كانت ضد الحاجات الظيعة، وهي اللي خبت مني المفتاح. ام صلاح الشغالة كانت تسعفها بالحقن المهدئة فتنام. وتصحو قرب الفجر لتبحث عن باب البيت، كانت تصرخ، بت يا منة، انتي زعلتي من خالتك إنشي يا بت؟ دا انا والله ما كنت اقصد. اوعي تكوني زعلتي. حاولت فتح شيش البلكونة وفشلت، وحاولت مرة ثانية ونجحت، تبقي هبلة يا بت صحيح لو زعلتي مني، وهو انا يعني اكرهلك الخير؟ خطت بداخل البلكونة، وخيط من الدم يسيل منها وينطبع أثره على البلاط، نسيتي يا بت مين علمك تقولي سَنك يو وميرسي بور فوتر كومبليمون، مش خالتك إنشي يا بت؟ ومين جابلك حقك منهم؟ رفعت ساقها فوق السور. أغمضت عينيها ولم تتردد. ألقت بنفسها من البلكونة.

كانت أم صلاح هي من أيقظت البنتين. قالت لهما إن ستهما ألقت بنفسها من الشباك. نزلت البنتان مسرعتين. وجدتاها تحت جثة ساكنة، على شفتيها ابتسامة وعلى معصمها الأيمن شق عرضي بالسكين فوقه دم متجمد. أقيم العزاء في اليوم التالي. امتلأ بالناس من كل نوع. تلقى يحيى بركان عزاء الرجال بالجامع وتلقت البنتان عزاء النساء بالمنزل. همست النساء لهما ولارا، البركة فيكم، وكذلك قال الرجال ليحيى بركان. ساد شعور بأن عصراً انتهى ليحل محله عصر آخر. يارا نفسها انفردت بأختها في المساء وقالت لها إنها ترغب في زيارة النفق من تحت. احنا ولا مرة رحناه. ودلوقتي الحمل بقى علينا. دلوقتي الست اللي كانت شايلة عننا راحت خلاص. هنعملو إيه؟ وردت لارا، يا إما

مكتبة عابث الإلكترونية

نتشاركو ف المسئولية يا إمّن نقعد ونحطو إيدينا على خدنا. واتفقت الاثنتان على أن تتشاركا في المسئولية.

لم تكن الدولة المصرية بعيدة عما يحدث في النفق. كانت تراقب من بعيد، وكانت تؤجل الصراع. كان ملف نفقي الكرنتينة يُطرح كلما ثار التساؤل عن حدود فساد وزير النقل ووزير الداخلية ومحافظ الإسكندرية، الذين كان رجالهم يقبضون من الفريقين المتحاربين تحت الأرض، وكانت أي محاولة لإقصاء هؤلاء الرجال ستنتهي بمذبحة لا يقدر عليها الوزيران أو المحافظ. صحيح أن الدولة المصرية كانت غارقة في الفساد، إذا أحببتم هذا الوصف، ولكنه كان نوعاً من الفساد الذي لا يمكن تجنبه، الميزانية منصرفة للتنمية في الصعيد وشمال سيناء، والإسكندرية تتراجع إلى المكان الأخير على جدول الأولويات. كل هذا جعل النفق بالأسفل يبدو مجتمعاً كاملاً متكاملاً في هذه الأيام.

عندما نزلت يارا ولارا إلى نفق الكرنتينة كان الواقع يفوق الخيال. نزلتا برفقة يحيى بركان. كان هو دليلهما السياحي بالأسفل. أخبرهما أن ثمة هدنة الآن. الفريقان ضعيفان معنوياً، بسبب الموت المتتالي لقادة كل منهما. ولكن هذا لا يمنع من مناوشات بين الوقت والتاني (يبتسم) ضرب نار ع الحدود يعني. ستكو كانت بتنزل هنا كل يومين تلاتة، والرجالة كانوا بيتفاءلوا بييها. دلوقتي أنا اللي شايل الشغل لوحدي، ودا يُعتبر عيب أكتر منه ميزة. قادهما إلى غرفة العمليات، كما أسماها، واحدة من عربات المترو المفككة، يجلس فيها مع ثلاثة من أعوانه ويخططون للمعركة.

مثل جولة أميرة السابقة بالنفق، فلقد قرأت البنتان لافتات عديدة معلقة على جدران النفق، "ازرع تحت الأرض مقاومة"، "لا لرأب الصدع"، "لا لرأب الصدع"، "لا لرأب الصدع"، "الإصبع المبتور.. ماله بقى؟"، "الكاماسوترا بيحييكو"، وغيرها. وبخصوص اللافتة الأخيرة: عرفهما يحيى بركان على كاماسوترا، وينادونه باسم "جَمَصَة" أيضاً، مراهق في الخامسة عشر من عمره ويعلق مدفعاً رشاشاً على كتفه. الولد دمه خفيف، مرح وفكاهي ويغني أغاني هندي طول الوقت. أخيني باتشي خان الله أكبر. كاما سوترا نينجن عبدالله أكبر. روي مينكا نينجا ماني أكبر. تشينو باشي مهراجا عظيم أكبر. بالأكبر الأخيرة يختتم مواله الحزين، وهو يجلس على باب عربة المترو. ينقلب فجأة، بعد وصلة الشجن التي قدمها، إلى بهلوان. ينظر إلى الفتاتين بابتسامة، ثم ينزل. والآن يا حضرات بعد فقرة الأغنية الجميلة حان ميعاد فقرة اختبار الذكاء. هنسألكو سؤال واللي تجاوب تبقى بت حمادة صحيح. تنظر البنتان لبعضهما البعض. يواصل سؤاله. مين اللي يبقى ابو البت وعمها في نفس الوقت؟ لم ترد إحداهما فعاجلهما بحسم وبنبرة مسرحية. غلط. أكبر غلط. إجابتكو غلط. غلط. غلااط. ثم يعود لعربة المترو وهو يضع فوهة البندقية في فمه كأنها ميكروفون: ضيفنا العزيز، علشان تقدر تبقى أبو البت وعمها في نفس الوقت مش هنطلبو منك حاجة كبيرة. طلبنا بسيط وسهل وجميل خالص. خلّف أميرة. انتهت الفقرة والآن مع فقرة أووووخرى. تبتسم البنتان رغماً عنهما وتتذكران سوسو أبو أميرة، الذي هو، في نفس الوقت، أخو أبو أميرة، أبو أميرة الأصلي، بتاع زمان.

هذا هو الوجه المشرق من النفق، ولكن النفق له جوانب أخرى. أحد الرجال أخذ يحكي. هنا حلو ماحدش قال حاجة. بس لما المعلم يحيى قالنا

مكتبة عابث الإلكترونية

تعالوا قالوا هيبنولنا عشش، الواحد مش عاوز يسكن في قصر كبير. بس برضه بصي حواليكي حضرتك، الناس هنا والله عايشين ف غلب، بنّامو ف الشارع والله، ولو واحد حب يعني يعمل حمّام بيبقى هنا ف الشارع وقدام الناس، مش منظر حضرتك خالص يعني، والريحة والقرف والخنقة. فور أن سيطر يحيى بركان على النفق أعلن في المنطقة أن من يريد السكن في مكان، ليس قصراً ولا فيلا ولكنه على الأقل يقضي الغرض وخلاص، فيمكنه السكنى في النفق. تدافعت أعداد من المشردين والبلطجية واستوطنت النفق، بعد استثناء النساء والأطفال وكبار السن والمعاقين. الأعداد لم تكن رهيبة، يعني في ذروة ازدهاره، لم يضم نفق الكرنتينة ما يزيد على الخمسين شخصاً. مع شرط بسيط: على كل من يسكن أن يتعلم استخدام السلاح، ولو مبادئ أولية، ولو حاجات بسيطة، كدفاعاً عن النفس يعني، هكذا قرر يحيى بركان.

"هنا حلو، بس الدبان هو المشكلة بقى"، يبدأ أحدهم حديثه، "الدبان دلوقت بقى ف كل حتة، والدبانة كبيرة وبجحة، اني نفتكرو الدبان زمان كنّي حضرتك تقوليله هش يتهش، دلوقت لأ" (يضحك الواقف بجانبه فينظر إليه ويؤكد على كلامه) "آه والله. مش مصدقني؟ (يبتسم بسخرية) دلوقت الدبان بقى هو اللي عاوز يهش البني آدمين. والله زي ما بنقولك كدا".

أينما كانت البنتان تسيران كان الذباب يرافقهما. حتى هما، اللتان تربتا وسط الصراصير والسحالي، انزعجتا للغاية. للحظة خيل ليارا أن الذباب يراقبهما، قالت، الدبان بيبص علينا، وأكملت لارا، بيبص علينا أوي. ارتكنتا على جدار النفق. وريحت يارا رأسها على كتف يحيى بركان. نظرت إليه وعابثته قائلة، انت مش ناوي تتجوزني بقى يا عم يحيى؟ فتلجلج ثم قال مرتبكاً، دا شرف لينا يا ست البنات. ست البنات قنعت بهذه الإجابة ووضعت

ذراعها خلف كتف يحيى بركان وأغمضت عينها. وأختها التوأم كانت مشغولة بتحليل جسم صرصار كبير مضى ينظر إليها ويهز شاربيه، قلبته على ظهره، وأخذت تراقب سيقانه وهي ترفّص في الفضاء، وتخبط.

°°°

المشهد من بعيد بدا عبثياً. واحد من الناس، واسمه سامح كَزرونة، استطاع إخفاء ورقة بخمسمائة جنيه تحت فرشته التي ينام عليها، وعندما استيقظ لم يجدها. اشتعلت المنطقة. هو نفسه ذهب ليشكو ليحيى بركان أمام البنتين فزعق فيه هذا أنه مش فاضي وإن ماحدش حاشه عشان يجيب حقه بدراعه. الرجل أخذ يتوعد، هي بقت كدا؟ طب ماشي، ماشي يا يحيى يا بركانة، اني هنجيبو حقي من بق التخين. بس ماحدش يزعل. الرجل ذهب بنفسه لاسترجاع الخمسمائة جنيه من كل سكان النفق. مضى يلف ويدور عليهم واحداً واحداً مثل الأهبل. كان يبدأ استقصاءه بسؤال هجومي، طلع الخمسميت جني يا أفريقي. اني شفتك امبارح يا عربي وانت بتاخدها. ماتشتغلنيش. فلوسي ترجعلي دلوقتي يا أشرف يا زمبابوي، ومش هكررها تاني. الولا جمصة (الكاماسوترا) كان يراقب من بعيد المشهد. بدأ يدور خلف سامح كزرونة ويطبل بيديه على دبشك السلاح. عندما اتخنق منه كزرونة أمسك بذراعه ولواها بعنف، ثم قبض على رقبته وجره جراً ليدفس رأسه في كتلة خراء بجانب الجدار. انتفض جمصة بقوة ونظر غاضباً إلى كزرونة، هي بقت كدا يا عم سامح، خليك انت فاكرها بس. ومضى.

°°°

– ولا يا جمصة.

– إيه يا عم سامح؟

مكتبة عابث الإلكترونية

– انت زعلت مني النهاردة؟
– اني مابنزعلش يا عم سامح، وانت عارف.
– أومال قلبت وشك ليه يا ولا؟
– اني مازعلتش منك. اني زعلت عليك.
– انت زعلت عليا انا؟
– اه. صعبت عليا. وضحّكت عليك الناس، وبقى منظرك عرّة خالص.
– (بغضب) انت عيل خول أصلاً وماتستاهلش الواحد ييجي يعبرك.

°°°

– يحيى يا بركانة!
– إيه.
– فكك مني يا بركانة.
– وانا جيت جمب أمك دلوقتي؟
– احترَم نفسك يا بركانة ادينى بنقولك، وماتخليهيش نزعل منك.

°°°

– هما الناس لما يهجموا علينا.
– ناس مين؟
– الناس اللي ع الناحية التانية يا أخي.
– مالهم؟
– لما يهجموا علينا.
– هيعملوا إيه؟
– انا اللي بسأل يا أخي.
– طيب اسأل.

– لا خلاص. نفسي اتسدت خلاص.

°°°

– يا آنسة.
– أيوة.
– هو انتي بنت حمادة صحيح؟
– أيوة.
– وهو حمادة كان جدع زي ما الناس بتحكي عنه؟
– انت تعرف ايه عن حمادة؟
– اعرف انه كان جدع.
– (آخر يقترب منها معاتبًا) بذمتك يا آنسة. هو احلى ولا أنا؟
– (تبتسم) انتو الاتنين حلوين.
– (بغضب) أنا ماحدش يقولي انت شبه حد. أنا أفريقي. أنا أفريقي (يضرب بقبضته على صدره. ينظر لمن حوله. يضحك) من النهاردة مافيش أفريقي. أنا أفريقي. أفريقي للأبد. أفريقي يتحدى الزمن. أفريقي فوق الجميع. أفريقي يقول لأعدائه: خليها تاكلكو. (يأخذ في الهتاف وتحريك يديه بعزم ساخر مقلداً مشهداً من إحدى الأفلام القديمة) هاتلنا ريري هاتلنا ريري.. مطلب ثوار التحريري.
(ضحكات صاخبة).

°°°

في اليوم التالي ليوم الزيارة طلبت يارا ولارا الجلوس مع يحيى بركان. قالتا له إن الوضع في النفق لا يحتمل. القذارة في كل مكان. ف يوم م الأيام يا عم يحيى، الناس كلها كات بتشكّر في نضافة الكرنتينة. دلوقتي لما نوسعوها ونبقى

مكتبة عابث الإلكترونية

خدنا م الحكومة حتة الارض اللي تحت النفق يبقى فيه قدارة كدا؟ الوضع دا انا مش مبسوطة منه. وانا شايفة انه وضع لازم يتحل. دي مهزلة. وأكملت لارا، مهزلة كبيرة.

"يا عم يحيى، انت عامل زعيم وكل حاجة تحت، انا مش معترضة والله، ولا حد يكره الخير لحد، بس يا أخي لا مانع من شوية تذنيف. يعني عيّن فرقة كل يوم تيجي تعمل نضافة. انت مش غريب يا عم يحيى، أنا بصراحة في منتهى الاشمئزاز من المنظر". قالت يارا هذا، ولوت لارا شفتيها قرفاً.

يحيى بركان كان يأخذ كلاماً مثل هذا على أعصابه. كان شديد الحساسية تجاه الملاحظات الموجهة إليه، وخاصة الملاحظات المتعلقة بكيفية عمله وكيفية إدارته للمشهد تحت الأرض، وخاصة إذا جاءت هذه الملاحظات من يارا. حسناً. الآن نجد أنفسنا ملزمين بالاعتراف أن ثمة شيئاً قد نما في قلب يحيى بركان تجاه يارا، سته الحالية وحفيدة سته السابقة. ليس الأمر أن يارا كانت رامية نفسها عليه. ربما كان الوضع هكذا في البداية، ولكنه عندما كان يخلد للنوم في عربته بالنفق كان يحدث نفسه، أنا يحيى بركان، شاب مصري تجاوزت الأربعين سنة بسنتين وحتى الآن لم أتزوج، لأن دماغي تكون دايماً في الشغل ولإني ماكنتش فاضي لشل هذه الأمور، والآن فإني أفكر طول الوقت في عروسة المستقبل، فتاة الأحلام التي سوف أجعل دنيتها جنة بعون الله. ولا أخفي عليك يا سيدي (انتبهوا. يحيى بركان يكلم نفسه) إن هناك واحدة ست تحاول إنها تلفت انتباهي من سنين وسنين، وأنا أيضاً مهتم بيها. فهل سيحكم القدر بأن يجمعنا معاً على الصحبة الطيبة والعشرة الصالحة؟ (انتهى كلامه لنفسه).

يحيى بركان كان رجلاً. يتعامل مع نفسه بجدية، ولا يقبل أن يوجه له أحد كلمة (وهذا سبب حساسيته من كلام يارا له)، ولهذا، فلقد قرر أن يكون

هو البادئ بالتلميح. أطال في تليفوناته ليارا. حكى لها النكت الجديدة، كان يطمئن كل ليلة على وصولها البيت بالسلامة، وكان يحرص على إنهاء مكالماته الليلية بـ"تصبحي على خير يا ست الكل". ويارا استقبلت هدية السماء هذه إليها بمحبة. حرصت على إعداد طعامه بنفسها، وعلى زيارته في النفق يومياً، حتى اعترف لها إنه، سامحيني يا ست البنات، يحس ناحيتها بحاجة. اني خايف أكون عديت حدودي. تحسيس يارا على فخذه، ودخول أصابعها عميقاً، أكدت له أنه ليست أمامه حدود أصلاً. ولكن يحيى بركان كان رجلاً، لم يكن يحب الغلط.

– يمكن اني مش اكتر واحد بيحبك، ولا احسن واحد بيحبك...

– (تبتسم بتفهم وتسامح).

– (يصمت. لا يكمل).

– (تنظر له باستغراب) ماكملتش ليه؟ بس إيه؟

– بس إيه إيه؟

– عاوز تقول ايه؟

– عاوز أقول ان يمكن اني مش اكتر واحد بيحبك، ولا أحسن واحد بيحبك.

– بس؟

– اه بس.

– مش فاهمة، يعني، طيب (تصمت طويلاً. ثم تحسم أمرها. تطبطب على كتفه) لا يا يحيى. أوعى تقول كدا تاني. انت كويس يا يحيى.

°°°

مكتبة عابث الإلكترونية

تأسس مركز يارا بسرعة داخل النفق. صحيح أنها كانت هي المرأة الوحيدة هناك، وصحيح إنها كانت، حتى بشعر شاربها وحواجبها، حتى بريحة عرقها المقرفة، حلم رجال النفق، إلا أنها كانت طول الوقت بصحبة الزعيم الأوحد، الملقب بحسب ساكني النفق بـ"يحيى بركانة"، وتحت حمايته المطلقة. لم يستطع أحد الاقتراب منها، وحتى إذا استثنينا الحماية التي كانت تتمتع بها، فقد كانت ليارا شخصية قوية، يمكنها فرض موقفها على الرجال. صحيح أن أحدهم قد يتساخف في البداية، ولكنه سرعان ما يعرف أن الحديث ليس عن أي امرأة. امرأة من نار وحديد، كانت هذه هي يارا.

يومياً كانت يارا تعد العشاء ليحيى بركان. داخل عربة المترو التي قرر أن ينام فيها. تحضر العشاء ثم تعود لبيتها. لم تحاول مرة البقاء بعد الأكل، ولم يحاول ولا مرة استبقاءها، يحيى بركان كان رجلاً. صحيح اني يمكن الدنيا مرمطتني كتير يا أستاذة يارا (نبهت عليه أكتر من مرة إنه بلاش أستاذة. ولم يستطع) بس اني عمري ما غلطت ولا عملت حاجة تزعل حد مني. تصدقي بالله، مش أنا فيه ناس زعلانة مني، وناس بتقولك يحيى بركانة مزعلنا جامد وفيه اللي يقولك قاتلنا عيالنا وكلام من دا، انما اني عمري ما عملت حاجة إلا بنية صافية، بس يمكن تكون ظروفي كات صعبة حبتين، بس الواحد لازم يتسلح بالنية الطيبة طول الوقت. مالت عليه يارا، وطبعتْ على خده قبلة. هي القبلة الوحيدة منذ أن اعترف لها بحبه. علاقتهما كانت نظيفة، في منتهى النظافة. وإن كان هناك شخص يريد لهذه العلاقة أن تنجرف داخل حدود القذارة، فهو لم يكن يحيى بركان، لإن يحيى بركان كان رجلاً، رجلاً من الطراز الأول.

اقتراح الزواج جاء على لسان يحيى بركان. كانت تأكل سندوتش فول وهما في النفق تحت. قال لها إنه خايف مما سيقوله لها ولكن الظروف تحتم عليه أن يقوله. انا راجل كبير. يعني فوق الاربعين سنة، وانت مدمازيل صغيرة، بس أقسم بالله إنه ما فيه أي فكرة غلط خطرت على بالي من ناحيتك، وانك طول الوقت أخت بالنسبالي، واني بنخافو عليكي زي اللي من لحمي ودمي والله. سكت ونظر في عينيها، وهي أيضاً نظرت في عينيه، ظلا ينظران في عيني بعضهما إلى أن تشجع، انا بفكر لو ربنا أراد إننا نتجمعو فو الخير. ابقى انا لقيت الحد الطيب اللي هيهتم بيا ويرعاني لما نكبر، وتبقى انتي والآنسة لارا في حماية راجل معاكو. الناس مابترحمش يا ست البنات. ابتسمت يارا. حاولت أن تقول شيئاً ما رومانسياً ولكنها عطست، عطسة ضخمة ترتب عليها أن أخرجت منديلاً من جيبها ومضت تجفف مخاطها. كانت خارجة من دور برد صعب جداً. نظر إليها وهو لا يفهم موقفها، ولكنها كانت ملبوخة في المنديل والمخاط وعطست عطسة صغيرة أخرى مضت تطلقها بقوة كأنها مدفع رشاش. في وسط العطسات انتبهت إلى أنه ينظر إليها، فقالت بصوت متقطع: "آ.. نا.. م.. وافقة". عطست عطسة أخيرة، ثم ضحكت، وعندما ضحكت داهمتها نوبة كحة. تفتفت عليه ومضى يمسح بارتياك رذاذ الفول الذي انطلق نحو فاتلته.

مهر يارا لم يكن نقوداً ولا شقة ولا عربية. اني مش عاوزة غير حاجة واحدة بس. عاوزاك تنضف لي النفق. النضافة التي كانت يارا تقصدها لم تكن فقط نضافة الجسم، وإنما نضافة الروح بالأساس، وهي الأهم من أي شيء تاني. كانت تعلم جيداً إن هناك ناس مالهاش لزمة يعيشون في النفق، وإن يحيى بركان يأخذ منهم اللي فيه النصيب، كما كانت تعلم إنه يتاجر بالسلاح، مع الحشيش وخلطات خاصة من المخدرات، بالضبط مثلما يفعل الناس في الجانب

مكتبة عابث الإلكترونية

الآخر للنفق، يعني احنا كدا مانفرقوش حاجة عنهم، صح؟ وكانت تريد لكل هذا أن يتوقف. ولوقتي الحمد لله احنا هنبقو واحد، والمطعم بيجيبلنا اللي فيه الكفاية وزيادة. يبقى إيه لزوم الحاجات الوسخة بقى؟ وعدها يحيى بركان بكل شيء، طرد من ليس له لزوم، واستبقاء فقط من له قدرة على القتال، وتفريغ الناس لمحاولة استعادة الحق المسلوب: احنا لينا حتة أرض هنا يا أستاذة، وهما خدوها مني، وبالعافية وقلة الأدب. يعني هما لو جم قالولي احنا عاوزين حتة الأرض دي يا عم يحيى مانا كنت عطيتهالهم من زمان. بس انا مابحبيش بقلة الأدب. وإن شاء الله بأمر الله كل حاجة هترجع لأصلها وكل واحد هنا هيعرف مكانه. وانا كفيل بذلك قدامك وقدام رب العالمين. لم ترد يارا. نظرت له نظرة امتنان عميقة.

°°°

ولكن يحيى بركان لم يُخرج الناس. صحيح إنه كان يحب يارا أكثر من حبه لنفسه، ولكنه كان عديم الثقة في المستقبل أيضاً. تعلم من تاريخه السابق إن الأيام الحلوة لا تدوم، وإنه، وأولاده من بعده إن شاء الرحمن، أولى بالمرتشين اللي بيطلعوله من النفق. كانت يارا تلاحظ وجود ناس معفنة في النفق في كل مرة تزوره فيها. هؤلاء الناس، بسلوكياتهم المقرفة، كانوا هم من وجهة نظرها من يعجلون بنهاية مملكة ما تحت الأرض التي أقاموها بعرقهم. انما احنا لو نخلو النفق واجهة حضارية جميلة لاسكندرية، ماحدش هيقدر يكلمنا، لا حكومة ولا بتاع. كلمته أكثر من مرة في هذا الموضوع، وكل مرة كان يعدها بتغيير الوضع قريباً، ولكن فيما بعد أصبح الأمر يستفزها فعلاً. تغيبت عن زيارة النفق لثلاثة أيام كاملة. حاول الاتصال بها ولم ترد. كلم أختها لارا واستفسر عن سر غيابها، فأرسلت يارا له مع أختها إجابتها الغاضبة: هي مش زعلانة منك يا

عم يحيى، هي بتقول انها زعلانة عليك. بس هي اختي والله بتحبك جامد، هي طيبة يعني. تلجلجت قليلاً ثم قالت، هي محملاني رسالة ليك يا عم يحيى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. يعني بتقولك انها فتحت بيتك طول السنين اللي فاتت، وبتقولك كلام اني نتكسفو نقولوه، ومش صعب عليها تفتح البيت السنين الجاية كمان يعني، يعني ماتخافش على رزقك، وبعدين قعدت تشتم شوية كدا.

اليوم التالي شهد إخراج رجلين من النفق. زعق فيهم يحيى بركان إن التكية اللي فاتحينها خلاص شطبت، وجرهم على زلط النفق بذراعيه، كل واحد ممسوك بذراع، إلى الخارج. شهدت يارا المشهد الأخير من شباكها في البيت. ابتسمت وأرسلت له رسالة على الموبايل، انا قلبي صفالك خلاص يا يحيى، ابقى تعالى اتغدى معانا النهاردة. مع ابتسامة رقيقة.

°°°

زيارة يارا التالية للنفق كانت مثالية تقريباً، نقول تقريباً لأنه ليس هناك شيء مثالي على الأرض، ولا تحت الأرض، ولكن نقولها أيضاً بسبب المشهد التالي: عندما ودّعت يارا يحيى بركان إيذاناً بعودتها للبيت، لفتت نظرها عدة أصوات قادمة من عربة مترو بجانبهما. سألته عن هذه الأصوات فلم يرد، فقفزت داخل العربة. هناك فوجئت بعدد من الستائر الفاصلة بين الكراسي وبعضها. أزاحت ستارة منها فوجدت بنتاً تجلس على حجر شاب. حجاب البنت منحسر عن نصف شعرها وصدرها بين يدي الشاب وهو يرضع من حلمتها. الولد والبنت نظرا إليها ولم يبد أنهما تفاجآ، وعدد من قزايز الخمرة ملقاة بجانبهما. أغلقت الستارة وفتحت أخرى. رجل يدخل عضوه في مؤخرة امرأة سمينة. نظرت يارا ليحيى بركان فأخفى عينيه في الأرض. إيه دا يا

مكتبة عابث الإلكترونية

يحيى؟ رفع رأسه وقال مبتسماً بخجل، أيوه عليكي يا ست الكل! يعني بلاش نكسبولنا قرشين؟ ابتسمت لرؤية ابتسامته، راقت، اكسب يا يحيى يا بركان، بس مش كدا. دا مش منظر خالص.

يسيران سوياً. يدافع عن نفسه. يقول إنه لا يستطيع أن يعدها بما لا يقدر عليه، وإنه محتاج فلوس تدخل في جيبه الشخصي، ولا يريد أن يكون عبئاً عليها. هي متفهمة الوضع. ولكنها لم تقصر. يا ستي انا عارف، وهو حد قال ان فيه تقصير ولا حاجة.. تتوقف فجأة. يقطع كلامه. يتابع اتجاه نظراتها. شاب في العشرين يتبول بجانب الجدار، سلاحه مرمي على بعد نصف متر منه. تصرخ، كفاية كدا أوي، اني مابقيتش قادرة خلاص. يحاول تهدئتها فلا يستطيع. تجري خارجة من النفق. تتعثر وتقوم. تواصل الركض.

°°°

– هما معذورين برضه يا ست الكل.

– يحيى. ماتستفزنيش ادبني بتقولك. معذورين ازاي؟

– يعني حطي نفسك مطرحهم. لما الواحد منهم يقضل اربعة وعشرين ساعة ف النفق، مش هيموز يعمل كابَنيه.

– يطلع برة يشخ زي ماهو عاوز يا خويا. الجامع لازق ف السلم.

– والناس الكبار ف السن. الناس التعبانة؟

– الناس الكبار ف السن والناس التعبانة انت قلتلي انك مشيتهم، ولا انت كنت بتكدب عليا؟

– اني عمري ما كدبت عليكي، بس اني مانقدرش نمشي راجل كبير ف السن وملزوم مني.

– يحيى!

– (ينظر في الأرض) أنا آسف يا يارا. اعذريني خالص. مانقدرش نمشي راجل قد ابويا.

– يارا؟! انت ماتستفزنيش. انت! (تكتم غضبها بقوة) هيغوروا يا يحيى ف ستين داهية.

– (ببطء وهو ينظر بعيداً) انا اسف. مانقدرش.

°°°

كان هذا هو التوتر الثاني في علاقة يارا بيحيى بركان. انصرفت يارا غاضبة، وهو ظل في عربة المترو يفكر فيها. يحاول الاتصال بها ولكن كبريائه يمنعه. طول الوقت كان يسمع كلاماً من الناس حوله. الناس الذين حاولوا التسرية عنه، طول الوقت، كلام يقال بشكل غير مباشر. كان غاضباً جداً، ولا يعرف إلى من يتوجه بغضبه، والغضب جاء في الكاماسوترا، الولا جمصة. اقترب منه وقال له سامحني يا يحيى ف الكلام اللي هنقولهولك دَوّت. يحيى كان على شعرة. نظر لجمصة وسكت، فواصل هذا. يعني هي الست يارا مع كل احترامي لكن أنا شايف انها بتستغلك. بتستغلني ازاي؟ يعني هي بصراحة واحدة مش حلوة. وانت هنا تعتبر زي زعيم وقائد. وهي عارفة انها لولاك انت معاها كان زمانها هتضيع. والمطلوب؟ يمكن أنا اصغر منك بكتير يا يحيى، بس انت اعتبرني زي اخوك الصغير اللي الدنيا علمته ياما. يعني مش هما دول بنات صباح الشرموطة؟ سيبها يا يحيى، سيبها يا يحيى وريح بالك. انتفض يحيى بركان عندما سمع الجملة الأخيرة. أمسك بالولا. سحب سونكي سلاحه وغرزه بقوة في نراعه. كان يصرخ كالمجنون، انت نسيت نفسك يا خول؟ انت نسيت اللي لك م الشارع وعملك بني ادم؟ زق الولد بعنف في اتجاه الخروج من

مكتبة عابث الإلكترونية

النفق. أخذ الولد يجري ويحيي بركان يرميه بالطوب. ورحمة أمي اتي لو شفتك تاني هنموتك يا خول.

خرج الكاماسوترا إذن من النفق. في ثوان انهار عالمه عليه. بعد أن مثل له النفق الجنة المثالية والحلم والمعنى الكامل لحياته، طُرد منه، كأي كلب شوارع. جلس على سور المحطة ينظر إلى النفق بالتياع. تسيل منه دمعة حزينة. ويمشي. ولكن هذه لم تكن نهاية الرحلة. مثل من سبقوه، مثل من طُردوا قبله من النفق، لم يقف الكاماسوترا عاجزاً. عزم أمره وتوكل على الله. سار باتجاه بيت أميرة بنت سوسو. قال لها هناك اعتبريني عبدك وملك إيديكي. أنهت أميرة صلاتها. سلمت على الملائكة الجالسة على اليمين وعلى الملائكة الجالسة على الشمال، ابتسمت له وطبطبت على رأسه بحنيّة.

٥

يوماً ما رأت لارا نفسها وحيدة في المنام، وحيدة بلا عزاء. تسير في طريق مظلم، وفجأة يضاء المشهد. ترى حمادة من بعيد جالساً مع صديقيه، فاروق والشيخ محمد. تقترب منهم فيطوي حمادة لوحة بنك الحظ التي كان يلعب عليها ويمسح على شعرها. يقبل جبينها ويسألها زعلانة ليه؟ تكاد تنطق فيتشنج ويصفعها بالقلم على وجهها. يحاول فاروق تهدئته بلا جدوى. فجأة يخرج فاروق مطواة من جيبه ويجرح وجه حمادة. يظهر مدفع رشاش في الحلم. مدفع يطلق ناراً عنيفة تجاه الجميع. كراسي القهوة تنقلب والطاولات ترتج، وحمادة يسقط على الأرض ويتضخم حجمه إلى أبعاد غير مسبوقة حتى يملأ شاشة الحلم ويفيض عنها أيضاً، والشيخ محمد يقف فوق كرسي ويهدد الجميع إن لم يعودوا فسوف يغتصبهم واحداً وراء الآخر، ويلعب في بتاعه الذي يبرز بقوة من تحت الجلابية. استيقظت لارا عرقانة وخائفة.

كانت الأيام هي الأيام التالية لزواج أختها يارا بيحيى بركان. لارا لم تكن تنام. كانت تسمع صوت السكس يتم بينهما بمنتهى العلنية وبلا كسوف من أي نوع، ويمكن بسهولة استنتاج أنها كانت تتحرق رغبة وغيرة في نفس الوقت. في هذه الأيام اقتربت كثيراً من أم صلاح الشغالة. كانت تسمع الأصوات فتتسحب من غرفتها لتلتحق بغرفة الشغالة، تشعر بها هذه فتأخذها في حضنها وهي نائمة. ذات مرة لم تجدها، كانت عند قرايبها. عادت لارا إلى

مكتبة عابث الإلكترونية

غرفتها مخذولة وقررت الاتصال بها. قالت لها إنها تريدها في موضوع مهم جداً، وإنها سوف تزورها الآن في بيتها بكوم الدكة.

طوال الطريق إلى كوم الدكة فكرت لارا فيما عساها أن تقول لأم صلاح. لم تكن تعرف. كانت خائفة وحسب. استقبلتها أم صلاح بابتسامة. أعدت لها كوب شاي ولم تتكلم، ولارا أيضاً لم تتكلم. بعدها قطعت أم صلاح الصمت قائلة، الرجالة بقوا صعبين أوي. ولم تشرح. اقتربت لارا منها ووضعت رأسها على حجرها. بدأت أم صلاح الحديث، عارفة المشكلة فين، المشكلة ان الناس الكبيرة مابقوش موجودين خلاص، اللي مات واللي اتقتل واللي اتحبس، انا جوزي محبوس أديله ياما. دلوقتي اللي فاضل بس جيل الشباب. والشباب مايعرفوش حاجة.

وما الذي ينبغي على الشباب أن يعرفوه؟ لم تكن لدى أم صلاح إجابة محددة بدقة. استفاضت في مونولوجها بلا مقاطعات، الرجالة زمان ماكانوش كدا، كان فيهم اللي تلاقيه حنين واللي تلاقيه طيب واللي ابن ستين ف سبعين كمان. بس دلوقتي مابقاش فيه الا الوحشين خلاص. مش كل الرجالة وحشين. بس كغالبيةٍ يعني. احسن حاجة ان دلوقتي مابقاش فيه رجالة كتير، خدي عندك، (تعد على أصابعها) فيه إنتي، وفيه اختك، وفيه أميرة، وفيه الست إنشي الله يرحمها، وفيه كمان من الناس اللي ماتوا منة أم أميرة. وفيه أم أميرة الأصلية، القديمة ديّت. الرجالة خلاص، مابقاش عليهم العامل الكبير. (تنظر لارا إليها. تبدو على وشك النطق بشيء) لا يا بنتي. يحيى بركان اني مابنعتبروش راجل. مش علشان هو وحش. انما عشان هو من غيركو مش حاجة أصلاً. يحيى دا تربية ستك، وبقى جوز اختك، عقبال ما نفرح بيكي ان شاء الله. يعني هو بقى يعتبر منا وعلينا.

على العموم، فهذه لم تكن سوى مقدمة القصة التي أرادت أم صلاح أن تحكيها. متن القصة نفسه لم يأن أوانه سوى بعد الانتهاء من الشاي ورص أحجار المعسل فوق الشيشة. القصة كانت قصة امرأتين دوختا الإسكندرية يوماً ما. عجزت الشرطة عن ملاحقتهما وتلاعبتا بالرجال كما تتلاعبان بالعرايس اللعبة. اني عاوزاكي تاخدي بالك كويس. لإن يجوز في يوم من الأيام تقدري انتي واختك تعملي اللي الستتين دول عملوه في يوم من الأيام. اني عاوزاكي تقربي من اختك وماتكرهيهاش وماتكرهيش الخير ليها. افتكري الستتين دول وافتكري هما عملوا ايه لما حبوا بعض جامد. اسم هاتين الستتين كان نادية واعتماد.

شدت أم صلاح نَفَساً من الشيشة، أعطت اللي للارا، ومضت تحكي. حدث هذا من زمان. وأتتها كان من يريد أن ينام مع واحدة في أي مكان في اسكندرية يمكنه هذا بسهولة. الكل كانوا يفعلون هذا، كان فيه أماكن معروفة بالاسم للي عاوز ينتي واحدة وينام معاها. ستك كات شغالة ف حاجة زي كدا، ماتزعليش يا بنتي، الناس كلها كات بتعمل كدا. كات حاجة عادية يعني. ولا كان فيه حد بيزعل. الناس كات بتعتبر دا ترفيه، زي ما تقولي كدا تبييع عن النفس.

لم تشعر لارا بالإهانة. المعلومة كانت تعرفها، بدرجات مختلفة من الوضوح، من مصادر متنوعة. المهم أن نادية واعتماد هاتين كانتا تعملان عند إنشي. لم تكونا جميلتين، ولكن بملابس معينة وميك أب معين كان يمكنهما أن تبدوا كذلك، وكانتا تثيران شرائح معينة من الشباب وكبار السن على حد سواء، الشرائح المتوسطة أو الأقل، وهي شرائح مهمة بالنسبة لعمل إنشي، التي لم تنشغل كثيراً بسؤال من الأكثر ثراء وإنما بسؤال من الأكثر استحقاقاً. ولكن حتى المبادئ العظيمة تسقط أمام مبادئ السوق. كان عدم جمال نادية

مكتبة عابث الإلكترونية

واعتماد هو السبب المباشر وراء تركهما هذه المهنة سريعاً. وظفتا جهدهما إذن لاجتذاب الزبائن، تشرحان لهم مميزات الكازينو عن غيره من الكازينوهات، كما عملتا على اجتذاب النساء المستعدات للعمل هناك.

نادية واعتماد كانتا أختين تبيعان الخضار بالزنانيري، قالت أم صلاح، بدأتا العمل وهما شابتان عند علي وإنجي في حوالي سنة ٢٠١٥. تعرفت عليهما إنجي في السوق. أخذت أرقام تليفوناتهما واتصلت بهما في اليوم التالي. عزمتهما عندها ليشربا الشاي. سألتهما عن أحوالهما، وعرضت عليهما العمل عندها. فكرتا قليلاً، كل منهما متزوجة، واعتماد عندها بنت صغيرة أيضاً. ولكن الظروف قاسية جداً.

"الست مننا يا لارا يا بنتي لازم تفكر جامد قبل ما تاخد الخطوة دي، يعني أنا من رأيي إن لو واحدة ست متجوزة وعندها عيال يبقى تقعد ف بيتها أحسن لها. عندك أنا مثلاً، اتجوزت وخلفت وقلت اني ماعنتش اشتغل الشغلانة دي أبداً. وأنا صغيرة كان ماشي الحال، انما دلوقتي لأه. بس ارجع واقولك الناس مش زي بعضيها. هما فكروا جامد، وسألوا أمة لا إله إلا الله عشان ياخدو منهم النصيحة. ناس كتير قالتلهم بلاش، بس كان فيه اللي شجعهم برضه. النسوان الشرامبط كانوا ف كل حتة ساعتها. والواحد ماكانش يعرف يميز بينهم وبين النسوان الكويسة".

بناء على تشجيع البعض لها، بدأت اعتماد العمل في كازينو الكرنتينا، بينما رفضت نادية. لم تخبر اعتماد زوجها طبعاً بقرارها. أخبرته أنها تعرفت على ست كويسة تقوم بتحفيظ القرآن في الجامع، وإنها تزورها يومياً، وكان هذا هو الستار الذي بدأت العمل تحته. سنة واثنتان وثلاث واشترت اعتماد عربية بالقسط، كما استبدلت السجاير الكيلوباترا بالمارلبورو، وفرشت بيتها من أول

وجديد. ونادية اختها كانت تشاهد كل هذا، والغيرة تأكلها. زارت اختها المقيمة فوقها في شقة بشارع السبع بنات باللبان، رأتها وهي تضع الميك أب أمامها وأمام زوجها، تلبس بادي بحمالات وجيبة قصيرة تظهر فخذيها، وتضع فوقهما عباءة سوداء طويلة. هنا أيقنت أن زوج اختها صار يعرف الحقيقة. عادت للبيت وكلمت زوجها عن حياة أختها، والفرش الجديد في بيتها، وطريقة كلامها التي اختلفت كثيراً. قالت له إن ربنا فتح عليها جامد. صمتت قليلاً ثم قالت إن أختها تعمل الآن عند إنجي. قالت إنها تعمل ويتر، تحضر الطلبات للزبائن، ولكن الزوج لم يخدع، كان يعرف من هي إنجي ومن هو علي. سكت وقال، وانتي مابتفكريش تشتغلي عندهم انتي كمان؟ صارحته بأنها تفكر، وصارحها بأنه موافق.

تعاود أم صلاح التأكيد: الناس كلها كات بتعمل كدا. كات حاجة عادية خالص. الناس كات بتعتبر دا زي ما تقولي ترييح عن النفس كدا. تسخن قطعة حشيش، تغرسها في قلب سيجارة وتدفسها بداخل كوباية طويلة. ثم تواصل الحكاية:

اجتذبت كل من اعتماد ونادية شباب كرموز. ومع الوقت صارت إنجي تعتمد عليهما أكثر من ذي قبل. راجت البضاعة، وتعلمت كل من المرأتين أسرار المهنة. عرفتا أين يقع الزبون المفلس وأين يقع الزبون الراقي، وركزتا على النوع الأخير، والذي لم يكن متوافراً للأسف في كرموز. الفلوس كانت قليلة بالنسبة للعرق. حادثتا إنجي في هذا فابتسمت وقالت إن ما يسري عليهما يسري عليها هي وزوجها وابنها. هي لا تأخذ أكثر منهما. هي دي شغلانتنا يا جماعة ودا رزقها. الزبون بتاعنا على قده. قنعت اعتماد ونادية بهذا التفسير. ولكن

مكتبة عابث الإلكترونية

طلبات البيت كانت كثيرة، والناس تضطر تحت وطأة الظروف لأن تفعل أشياء لا تقتنع بها.

أم صلاح كانت سرحانة مع الحشيش. تحكي وهي تناول الكوباية للارا، تصمت وهي تكتم الأنفاس بداخلها، تغمض عينيها بقوة، تكح كحة أو كحتين ثم تعاود الكلام. ولارا من جانبها كانت تستمع، تتذكر أشياء بعيدة سمعتها في طفولتها عن امرأتين باسم نادية واعتماد. لم تعرف من هما وما حكايتهما، والآن، تتحرر كل الحكايات من قلب القبو السحري.

"اعتماد ونادية اتعاركو مع ستك. كات عركة فظيعة خالص. هما كانوا مفكرين ان فيه تحت القبة شيخ وان ستك بتاكل عرقهم، وقمدوا يقولولها انتي حرامية واحنا بنخدموكي بعينينا ومابيجيلناش منك غير فتافيت. وستك كات ست صعبة خالص. ماترضاش على نفسها كلمة مالهاش لازمة. يعني الصراحة وماتحبش الغلط. قالتلهم خلاص، روحوا شوفوا شغلكو بعيد عني. أنا كبرتكو وعلمتكو وانتو عاوزين تشوفوا نفسكو بعيد عني. خلاص يعني اني مش هنتحايلو عليكو، ف ستين داهية."

بدأت اعتماد ونادية العمل من بيتهما بحي اللبان. هناك كانت الزبائن أفضل. فتحتا الشقتين على بعضهما، أزالتا السقف الذي يفصل بينهما ووصلتاهما بسلم داخلي. في أشهر معدودة تحول بيتهما إلى مركز لجذب رجال المنطقة، وعندما زاد الحمل عليهما لجأتا لتجنيد النساء. من قام بهذا الدور كان الزوجان بالتحديد، للسبب الأول، لأن الحمل أصبح ثقيلاً على الزوجتين، ولكن أيضاً بسبب عدم ارتياح عبر عنه الزوجان عنه تجاه نظرة سكان العمارة لهما. الزوجان كانا مبدئيين من هذه الناحية. قررا سوياً، في عشاء عاصف، أنهما لن يسمحا بأن تكون زوجاتهما عرضة لأي كلمة تقال من أي شخص مالوش لازمة.

بالإضافة إلى سبب ثالث كان الزوجان يعرفانه ولم يصرح به أحد. كانا موقنين أن فرص الكازينو ستكون أفضل في وجود نساء أخريات أكثر جمالاً من زوجتيهما. قاما بوضع يافطة على العمارة تشير إلى وجود "كازينو الحرية"، بالداخل. وتولى الرجلان البحث عن النساء والزبائن، في البداية من غرب الإسكندرية، مركز خبرتهما السابقة، ثم من شرقها فيما بعد.

"كل حاجة مشيت حلوة يا بنتي. الناس كات ف حالها وماحدش بيسأل حد عن حاجة. كات فيه ناس بتضايقهم، معلش، ماهو لما انتي تبقي ساكنة ف عمارة انتي من حقك تسألي مين اللي رايح ومين اللي جاي، ماحدش قال حاجة. بس مش أكتر من كدا، كلمة بتتقال ولا كلمتين ولا خناقة والدنيا بتهدا بعديها، بس الطمع بقى يا لارا، الطمع اوحش حاجة ف الدنيا يا بنتي، اني عاوزاكي انتي واختك تحرصي م الطمع جامد، مابيجيش من وراه خير أبدا".

ما الذي كانت تقصده أم صلاح بالطمع؟ وكيف أدى الطمع إلى النهاية المأساوية لنادية واعتماد؟ هذا ما تحكيه في الفقرات القادمة. الدنيا شتاء، والزبائن قليلة كما هي العادة في الشتاء. وسمعة الإسكندرية تنزل في الحضيض بسبب صراعات عائلة علي وعائلة سوسو، والناس في بيوتها خائفة. هناك إيجار متأخر للشقة وأقساط من كل نوع تحاصرهم. زوج اعتماد كان عنيفاً، كان الأكثر عنفاً والأقل حذراً منهم جميعاً. قاد رجل أعمال إماراتياً إلى البيت، أدخله غرفة بعيدة حيث ينام مع بنت من البنات، وفي الغرفة، وبينما رجل الأعمال عريانا ومؤخرته في الهواء الطلق، دخل عليه، (تستدرك أم صلاح بابتسامة وهي تفتح كفيها لتصور الحجم: كان عليه هاتش باسم الله ما شاء الله الله أكبر!) صوره بكاميرا موبايله ثم طلب منه إخراج النقود التي معه، بالإضافة إلى الفيزا كارد ومفتاح سيارته وشقته. رفض الإماراتي. رفض بعنف

مكتبة عابث الإلكترونية

وحاول ضرب الزوج. نشبت بينهما مشاجرة، وعندما بدأ الإماراتي بالصراخ كمله الزوج بقوة. دقائق معدودة مرت وسقط الإماراتي قتيلاً في الغرفة أمام عيني البنت المرعوبة.

أم صلاح مسطولة تماماً الآن، تسقط على الأرض. تقترب منها لارا. دقيقة وتفيق، تهز رأسها بعنف ثم تعاود الحكاية: "مرة ف اتنين وتلاتة والجماعة دول احترفوا الموضوع دوّت، بقوا يجيبوا الزباين المستريحين ويموتوهم. البت اعتماد ماكانش مبسوطة. طول الوقت كان بتقول يا حسب الله احنا كنا ماشيين تمام، إيه اللي خلانا نمشو ف السكة دي دلوقت. (تستدرك) حسب الله دا جوزها، اسمه احمد حسب الله، بيقولوله حسب الله، والتانية جوزها اسمه عبد العال، محمد عبد العال. الرجالة كانوا هما اللي ابتدوا الموضوع دوت، بس الستات ماكانش معترضة يعني، وبعدين الستتين دول هما اللي بقوا يمشوا الموضوع. يجيبوا ناس عندهم، زي زباين وبتاع، وياخدوا فلوسهم، ويخلوهم يمشوا تنازل عن حاجتهم، وبعدين يموتوهم. كان قصة كبيرة وقتها. كل الناس كان عارفاها".

هل كانت أم صلاح تخرف وهي تحت تأثير الحشيش؟ لا تعرف لارا بالضبط. الأرجح أن الخط العام للقصة كان حقيقياً، ولكن التفاصيل كانت محل اختلاف. بعض الناس أخبروا لارا في الأيام التالية أن حسب الله كان زوج نادية لا اعتماد، وأن عبد العال زوج اعتماد لا نادية، والبعض قالوا إن نادية لم تكن متزوجة من الأصل، وإن اعتماد كانت متزوجة من شخص اسمه بخيت يعود أصله لسوهاج. عموماً، الأسماء لم تكن تهم. ما كان مهماً وقتها هو الأحداث، هو أن الكرنتينا لم تكن هي البؤرة المشتعلة الوحيدة في الإسكندرية. لا أبداً مين قال كدا، تعاود أم صلاح، اسكندرية كلها عن بكرة أبيها كانت مولعة، من

ميامي لحد بحري وم العجمي لغاية المعمورة. الحكومة ف مصر كانت هتتجن، مين الناس دول، إيه الشعب دا اللي مولع الدنيا دي كلها كدا. إيه الشعب اللي كله رجولة وجبروت دا؟ الناس بتوع اسكندرية مش سهلين يا بنتي. برضه دا شعب عريق وله حضارة جميلة كلنا بنفتخرو بيها.

أربعة قتلى هي حصيلة كازينو الحرية في اللبان. رجلان وامرأتان، الست زي الراجل، ماعندناش تفريق (تبتسم). المباحث كانت بطيئة جداً في إجراءاتها، مما سمح لنادية واعتماد بأخذ احتياطاتهما، ياعتا الشقتين، اللتين كانتا قد سبق وتملكتاهما، وانتقلتا مع زوجيهما إلى المنصورة. وهناك عاودتا سيرتهما، سيرة اختلط فيها القتل بالدعارة بأنين الحيارى والثكالى ودموع الأمهات.

تحكي أم صلاح قصة أخرى: مع الوقت بدأ حسب الله وعبد العال، يعاونهما بلطجي ثالث اسمه عربي، في الضغط على نادية واعتماد. زادت طلباتهم بينما المجهود الذي يبذلونه لا يستحق. فكرت المرأتان في التخلص منهم. خافت نادية وظلت اعتماد وراءها تحاول إقناعها. نادية جبانة وخمورجية ذات شخصية مهزوزة، واعتماد امرأة قوية لا تخاف غير من اللي خلقها. في النهاية توصلتا لتسوية، ستقومان بتسميم عربي، وسيشكل هذا رسالة قاسية لحسب الله وعبد العال. وقد كان. عربي يتغدى معهم السمك، ويتلوى فجأة على الأرض صارخاً. ينظر حسب الله لعبد العال وقد فهما، وفي رد فعل تلقائي، تهبط المرأتان وزوجاهما على ركبهم لكتم صرخاته، وعندما يفارق الحياة تماماً ينشغلون بإخراج ما في جيوبه، طبنجة تسعة مللي، ثلاثة آلاف جنيه مصري، فيزا كارد، موبايل، جاكت جلدي وجلابية وحذاء وساعة فاخرة. يحملونه جميعاً لإلقائه في الخرابة تحت البيت. بالليل، سيجلس

مكتبة عابث الإلكترونية

الزوجان مع زوجتيهما في البيت. حسب الله يلف سيجارة حشيش واجماً ويردد بين الوقت والتاني وهو ينظر للسقف، الميتين اللي تحت، الميتين اللي تحت، أما عبد العال فيدفن وجهه بين كفيه ويدمع كالعيال وتخرج من حنجرته جملة غير واضحة، شيء ما مثل، كل شيئ هينكشف ويبان. وطول السهرة ينظران إلى زوجتيهما بريبة. الرسالة وصلت.

نادية واعتماد، اسمان شقا سماء الإسكندرية والعالم عندما بدأت التحقيقات مع أهالي المفقودين تشير إليهما. تم القبض عليهما بعد أشهر قليلة من أول جريمة قتل يقوم بها حسب الله. والتحقيقات كشفت عن شبكة إجرامية واسعة المدى، وكشفت عن التهميش المتعمد الذي وقع الرجلان، عبد العال وحسب الله، ضحية له، بحيث أصبحت نادية واعتماد هما كل شيء، تقودان الزبائن وتقومان بقتلهم وتستوليان على أغراضهم ونقودهم، مما أدى بالزوجين إلى اعترافهما ضد زوجتيهما في النهاية. الرجالة بتغير م الستات جامد يا لارا، مايحبوهمش ولا يحبوا الخير ليهم. وماحدش وقّع نادية واعتماد غير اجوازهم. هنا وصلت أم صلاح إلى خاتمة قصتها والدرس المستفاد: الستات لو اتسابت لوحديها ممكن يعملوا حاجات ياما. وعشان كدا أنا مش عاوزاكي تخافي انتي واختك. صحيح انتو بنات، بس البنات دلوقتي بقوا حلوين وجدعان، ربنا سبحانه وتعالى يبقول عنهم انهم كانوا زينة الحياة الدنيا.

الجمل الأخيرة كانت متقطعة، ألقتها أم صلاح وهي تكاد تكون نائمة، تغفو قليلاً ثم تصحو لتكمل الجملة. رأتها لارا على هذا الحال. أحضرت لها بطانية. غطتها وخرجت من البيت. الساعة الآن التاسعة والنصف صباحاً. الباعة يفتحون محالهم، والشمس تشرق على الجميع، ولارا تشعر بنفسها قوية الآن، قوية وحرة وقادرة على كل شيء.

٥٥٥

كانت هذه هي أفضل أيام يارا بلا جدال. تعيش في بيتها تحت حماية شخص تحبه، يحرز رجالها الانتصارات على رجال أميرة بنت منة الله، ويعاملها الجميع بما هي جديرة به من الاحترام. نخالف الحقيقة لو قلنا أن الزواج لم يكن يشغل بال يارا من قبل. في الحقيقة، فهي لم تكن تفكر إلا به. يشهد على ذلك سريرها الذي طالما مارست العادة السرية عليه، ومواقع السكس التي كانت تبحث عنها بشق الأنفس على شبكة الإنترنت. الآن، تشعر يارا كما لو أنها قد حققت كل ما تتمناه، لم يعد ناقصاً غير استرداد أرض النفق التي استولى عليها رجال أميرة، وهذا لم يكن شيئاً سهلاً. هذا كان مقلقاً، خاصة في ظل أخبار عن تجدد الهجمات على رجالها، وكميات ضخمة من السلاح يحوزها الأعداء. بدأت يارا في القلق، نظرت ليحيى بركان من الشباك فوجدته جالساً مع أصدقائه في القهوة يشربون ويلعبون بالفلوس، يلعبون بمبالغ ضخمة. انتاب يارا هاجس سريع، خفيف وطارئ: شعرت أنها وحيدة في الدنيا. كانت هذه هي أسوأ أيام يارا بلا جدال.

لهذا كله كان حديث لارا معها مشجعاً. حكت لها لارا قصة نادية واعتماد. قالت لها إنه صحيح إن نادية واعتماد كانتا امرأتين، ولكن هذا لا ينفي أنهما استطاعتا فعل أشياء كثيرة. ولولا غدر زوجيهما بهما لاستمرتا في العمل سنوات وسنوات. صمتت الأختان ثم قالت لارا، تفتكري يحيى بركان ممكن يغدر بينا؟ فعاودت يارا النظر من الشباك وقالت، الغدر مقدور عليه، بس ادعي ربنا بس يفوق م اللي هو فيه. الفكرة الكئيبة التي كانت تلوح في رأس يارا في ذلك الوقت أن يحيى بركان أصبح مدمناً كاملاً للخمرة. أنه لا يستطيع الحياة الآن بدون الكحول.

مكتبة عابث الإلكترونية

الحكمة المستخلصة من قصة نادية واعتماد كانت أن يتم تحييد يحيى بركان تماماً، نظراً لأنه غير قادر على إدارة المعركة، ولأنه لو أصبح قادراً فسوف يقوم بالغدر، بالضبط مثل زوجي نادية واعتماد. الحذر واجب في هذه الظروف. نزلت يارا ولارا إلى النفق بدونه، وعاودتا النزول مرة واثنتين وثلاثاً، وفي كل مرة كانتا تتعرفان على رجال آخرين ممن يصلحون لقيادة المعركة. فكرت الأختان في نفس الشخص بالتزامن: أفريقي. شاب في أواخر العشرينيات. ظريف ويلعب بالسلاح وذو شخصية قيادية. جلست معه لارا. قالت له احنا عاوزينك يا أفريقي تبقى انت دراعنا اليمين. سألها، طب ويحيى بركانة؟ قالت له بالحرف، سيبك من يحيى بركانة دلوقتي. هو مايُعتبرش زعيم عليكو إلا بفضلنا احنا، واحنا عاوزينك انت تبقى انت الزعيم بتاع الناس.

٥٥٥

الخمرة وحشة. ليس صدفة أن ربنا سبحانه وتعالى يسميها أم الخبائث. رأينا في العقود الماضية كيف دمرت الخمرة حمادة، والآن نراها وهي تدمر يحيى بركان. يحيى بركان يجلس طول الوقت مع أصحابه، يلعب ويشرب، ولا ينزل النفق إلا نادراً. جيبه امتلأ بالمال من جراء عدة تجارات صغيرة احترفها تحت الأرض، من أول العسلية وسندوتشات الفلافل وحتى السلاح الآلي، مروراً بساعات المتعة في عربة المترو التي يؤجرها للرجال والنساء. المال لا يفارق جيبه، يشرب ويلعب وتجارته تمشّي نفسها بنفسها. ولكن هذا كان خطراً، على صورته قبل أي شيء. شوهد مرة وهو يتقيأ في شارع مظلم ببحري، وشوهد أخرى وهو نائم على الأرض بابو سليمان لا يتمكن من القيام. قلب يارا كان يتمزق. حاولت كثيراً الكلام معه فبصق على الأرض ودخل لينام، وعندما

لاحقته صفعها على وجهها. يارا كانت حاملاً منه. آلمها ضربه لها وفي بطنها طفله المستقبلي. يارا كانت تختزن كل هذا. لم تكن تنسى.

لا أحد يعرف بالضبط ما الذي كان يفكر فيه يحيى بركان هذه الأيام. هل كان يشعر بأن الإمبراطورية التي بناها بالسلاح توشك على الانهيار، هل كان يشعر بالاشمئزاز من نفسه، أو بالعكس، هل كان فخوراً بنفسه؟ لا أحد يعرف. الدخول إلى مكنونات نفس يحيى بركان صعب للغاية، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار وجهه الجامد وكلامه المبتسر. ولكن يمكننا استنتاج أنه كان يتعزق يومياً بسبب نظرة الاستهانة التي صار يقابله بها الكثيرون، ولم يكن قادراً على مواجهتها. هو شخص عاجز الآن. كلامه هو هو، ونظراته هي هي، ولكن الفارق أنه لا يستطيع فعل شيء. حتى عندما عرف باستعانة زوجته وأخته بأفريقي لقيادة المعركة تحت الأرض، لم تخرج منه ولو كلمة عتاب حتى. فقط سألها وهما على السرير، هو أفريقي دلوقتي اللي ماسك النفق؟ هزت رأسها بالإيجاب ببرود، فحوّل وجهه بعيداً وأطفأ النور.

الأيام التالية شهدت تراجعاً شديداً في موقف الرجال تحت النفق. ليومين كاملين ظل إطلاق النار موجهاً من رجال أميرة إليهم. أنهك الرجال، جُرح الكثيرون ومات البعض، واضطروا للتراجع إلى الوراء عدة أمتار سرعان ما احتلها رجال أميرة. تعشى أفريقي مع يارا ولارا في البيت وأخبرهما إن الرد على هذه الضربة سيكون قاسياً، وبالفعل، ارتج النفق بعدها بسبب هجوم رجال يارا على رجال أميرة. قنابل المولوتوف ملقاة الآن في كل مكان، وفوارغ الرصاص، والخراطيش، والنبل المعدة لقذف الحجارة. استطاع رجال يارا تحرير الأمتار التي سبق وأن سُلبت منهم. وثقت يارا في أفريقي أكثر من ذي

مكتبة عابث الإلكترونية

قبل، أعطته صلاحيات أكثر، وأعلنت هي وأختها عنه بوصفه الزعيم العسكري للنفق، بدلاً من يحيى بركانة الذي كان وقتها يتقيأ في الشارع مثل الكلب.

يمكن القول إن هذا كله لم يكن مفصولاً عن الشأن العام. أنظار العالم كلها متعلقة بالإسكندرية وبصراعاتها. بدأ الاهتمام الإعلامي بالمدينة عندما زارت صحفية أمريكية الكرنتينا، استطاعت أن تصور بكاميرا تليفونها مشاهد من حرب الأنفاق، وجلست مع يارا ولارا ويحيى بركان وأميرة لتحاورهم، هي التي تتقن العربية بلكنة فلسطينية. في النهاية، خرج التقرير الصحفي عن المدينة في خمس صفحات من "النيويورك تايمز" تحت عنوان: "الإسكندرية: قصة سبع نساء يحكمن العالم". بدا التحقيق بجملة مؤثرة: "في الوقت الذي حفر فيه الإنسان ليصل إلى قلب الكرة الأرضية، إلى مركز الجاذبية، فإن أهل مصر لم يكونوا بعيداً عما تحت الأرض أيضاً، وفي الوقت الذي تتصارع فيه حكومات العالم الكبيرة، حكومات الأرجنتين الصين وأمريكا بالتحديد، على امتلاك قلب الأرض، فإن المصريين كانت لديهم صراعاتهم المشابهة أيضاً".

التقرير تضمن صور يارا ولارا وإنجي ومنة وأميرة، مع سيرة ذاتية لكل منهن ودورها في القصة، كما ضم صندوقاً صغيراً يحكي قصة يتداولها أهل المدينة، ولم تثبت صحتها تاريخياً، حول امرأتين احترقتا البغاء وقتل الزبائن وعرفتا باسم نادية وامتماد. صفحة أخرى من التقرير الصحفي تضمنت صوراً من الأنفاق وحكت عن المحاربين الصغار الذين يأتمرون بأوامر قائداتهم. كان التحقيق بمثابة زلزال في الإعلام العربي. اندفع جميع المراسلين الصحفيين إلى المنطقة. استطاعت بعض المحطات العربية عرض أفلام توثيقية قصيرة عن الكرنتينا،

وبعدها تم إغلاق الباب تماماً أمام الإعلام. تشدد أهل المنطقة في سؤال الغرباء عن هدفهم وتفتيشهم بدقة.

صار اجتياز المنطقة مستحيلاً الآن، وهو ما دفع الإعلام الرسمي للاختلاق، ومحاولة سد الثغرات في القصة التي نقلتها النيويورك تايمز والفضائيات العربية. مثلاً، ما الذي يفعله الرجال والنساء تحت النفق سوى ممارسة الجنس، وما الذي يبغيه سكان المنطقة سوى تنفيذ مخطط لتشويه صورة عروس المتوسط. كتب أحد الصحفيين غاضباً من تلك الكائنات الشيطانية التي تسللت إلينا في غفلة من الزمن لتحرق الأخضر واليابس في حياتنا، وبينما الدولة المصرية مشغولة بالتنمية في الصعيد، فإننا نجدهم يدمرون جهد عقود وعقود في النهوض بالمدينة التي كانت يوماً منارة المعرفة والحرية في الشرق كله. ولّح أحدهم إلى ملامح الوجه الغريبة للنساء السبع، كلهن قبيحات، بعيونهن نظرة شر رهيبة، بمن فيهن تلك المتنقبة (يقصد إنجي)، التي يبدو وكأنها قائدتهن ومحركتهن الأساسية.

كل هذا كان له تأثير على الوعي الجمعي المصري. تُذكر الإسكندرية الآن مقترنة بالصفات الحيوانية لأهلها، أحد رسامي الكاريكاتير تفنن في رسم صورة للشخص الكسندري بوصفه كائناً من ذوي الذيول، وآخر صار يرسمه دائماً ملوناً بالأخضر. وكتب أحد علماء الأنثروبولوجيا عن الشخصية الكسندرية قائلاً: "الكسندري هو شخص محب للدم والعنف. تفتنه طبول الحرب أكثر من الموسيقى الكلاسيكية الراقية، ويعشق السلاح أكثر من قصائد السلام. الكسندري بطبيعته لا يحب النكتة إلا إذا كانت موجهة ضد أعدائه، ولا يستمتع بالأعمال الفنية إلا تلك التي تحتقر من الآخرين وتقوم بتمجيده هو شخصياً. ليس للكسندريين قضية عامة يتوحدون حولها، ولا مبدأ ملهم، بل يمكن القول إن

مكتبة عابث الإلكترونية

لكل واحد منهم قضية ومبدأ يخصانه هو شخصياً، ولكن يجمع السكندريين كلهم تعصبهم الأعمى والدموي لقضاياهم ومبادئهم المختلفة. تدلنا عيادات الطب النفسي أن أكثرية السكندريين يعانون من السادومازوشية، وهو مرض التلذذ بتعذيب النفس والغير على حد سواء. نحن طبعاً لا نقوم بالتعميم هنا، فنحن نثق في وجود قلة من السكندريين الشرفاء الذين يضع صوتهم للأسف وسط جحافل الهمجية والانتقام والبدائية". يمكن القول إن هذه الفقرة التحليلية كانت من أكثر التحليلات شهرة في تلك الحقبة. تم اقتباسها في كل الصحف، وصار الجميع يعرفونها ويرددونها ويضيفون إليها من تحليلاتهم الخاصة. لقد كانت ستينيات القرن الحادي والعشرين هي أسوأ العقود بالنسبة لسمعة الإسكندرية.

تأثير هذا على الدولة المصرية، ممثلة في وزارة داخليتها، كان واضحاً. كثيراً ما تم توجيه اللوم إلى وزير الداخلية على سماحه بوجود منطقة الكرنتينا بما تمثله من خطر على الشخصية المصرية المسالمة والطيبة، وكثيراً ما خرج محافظ الإسكندرية ليؤكد أنهم في المحافظة بصدد إعداد مشروع للقضاء على البؤر (وهو الاسم الحركي المعتمد للكرنتينا). ولكن أحداً لم يفعل شيئاً. وفجأة، وفي خطوة غير مسبوقة من رئاسة الجمهورية، تمت إقالة وزير الداخلية ومحافظ الإسكندرية سوياً. لاحظ أهل المنطقة اشتداد النبرة. تمت محاصرة الكرنتينا بلافتات عدة تحمل توقيع وزارة الداخلية. الرسائل التي بثتها اللافتات كانت مباشرة، "احترم رجال الشرطة"، "من النهاردة، هاتدمّر البؤر بنفسك"، بالإضافة إلى لافتة شعرية: "لما بتهل البشاير/ خمسة وعشرين يناير/ كل عام/ نحب البوليس/ ونخاف م البوليس/ ونسمع الكلام". هكذا إذن، أتى وزير داخلية جديد، ومحافظ جديد، وتعهد كلاهما بالقضاء على الكرنتينا،

تماماً ونهائياً. كانت لهجتهما عنيفة وتدل على نفاد صبر. بل ولقد طرق وزير الداخلية على الطاولة بقوة وهو يصرخ في لقطة تم تسريبها على الإنترنت: "أم التعريص دا لازم يتوضع له حد بقى".

٥٥٥

كل هذا الشرح كان ضرورياً للوصول للفقرة التالية. في اليوم ٢٠٦٤/٣/١٤ تم نشر إعلان في الصحف المصرية جميعاً كان هذا نصه:

"أيها المواطنون

نحيط حضراتكم علماً أنه بعد أسبوعين من الآن، وفي تاريخ الجمعة ٢٠٦٤/٣/٢٨، سوف يتم إخلاء منطقة الكرنتينا الواقعة بحي كرموز بمحافظة الإسكندرية تماماً. وعلى المواطنين المقيمين بداخلها سرعة الانتقال إلى خيام الإيواء لحين الانتهاء من تشطيب مساكن المحمودية المعدة لاستقبالهم. كما نهيب بالسادة المواطنين عدم التعرض لجنود وضباط ومعدات الشرطة التي ستقوم بإخلاء المكان بالقوة إن لزم الأمر. والدولة المصرية تعلن إخلاء مسئوليتها عن أي ضحايا سيقعون جراء محاولة استعمال العنف مع رجال الشرطة الشرفاء الذين يؤدون واجبهم نحو وطنهم بكل الإخلاص والتفاني.

والله الموفق

مجلس حي كرموز"

مكتبة عابث الإلكترونية

٦

امرأة منقبة اجتازت الشارع وحيدة في ظلام الواحدة بعد منتصف الليل، لتصل من كربنتينة سوسو إلى كرنتينة علي وإنجي. لا أحد يعرف ما الذي كانت تفكر فيه، خاصة مع وجهها المغطى، ولا لماذا تسير في هذا الوقت المتأخر من الليل، ولا كيف، وهو الأهم، تعبر الحواجز الفاصلة بين الكرنتينتين بهذه الثقة، بدون أن تلقي اعتباراً للجان التفتيش المقامة بين المنطقتين. امرأة منقبة كانت تسير بعباءة سوداء واسعة أمام الشباب السهران وعندما تفاجئها لجنة تفتيش تتجاوزها بثقة بدون الرد على الواقفين عليها. امرأة منقبة تسير وحيدة حتى تصل إلى محل كشري "بنات حمادة"، الموشك على إغلاق أبوابه. تقف أمام المحل حتى خروج أحد العاملين وسؤاله إياها عن طلبها. تقول له إنها تريد الحديث مع مدام يارا لأمر هام. هكذا طلبت وأصرت إنها لن تنطق بحرف إن لم تأتها مدام يارا شخصياً. خرجت يارا. فقالت لها المرأة باختصار، ازيك يا يارا. أنا أميرة بنت خالتك منة. وعاوزة اتكلم معاكي ف موضوع ضروري.

في البيت أعدت يارا الشاي لأميرة بعد أن خلعت نقابها. استيقظت لارا وشاركتهما الجلسة. ثلاث نساء، لم تتعد أي منهن منتصف عقدها الثاني، ولكنهن يحملن على أكتافهن مهمة تشكيل العالم، وبداخل بطن إحداهن، يارا، جنين في شهره الرابع. نستأذن هنا في نقل الحوار الذي دار بينهن بشكل كامل، لأن أي قطع لن يساعد على فهمه ولا فهم الشحنة النفسية الهائلة التي احتشد

بها. نعتذر لاضطرارنا لإيراد كل كلمة، كل حركة، كل نَفَس في الحوار، فبدون التفاصيل لن يكون للموضوع أي معنى. شربت الثلاث نساء الشاي، وتأملت كل منهن ملامح الأخريين. الزيارة لم تكن متوقعة من قبل يارا ولارا، ولكن أهدافها لم تكن غامضة كذلك أيضاً. الفكرة نفسها فكرت فيها كل من النساء الثلاث قبل يومين، الفكرة التي صار على أميرة الآن أن تشرحها بوضوح: الداخلية قالت هتفضّي المنطقة بالعافية يا جماعة.

غمغمت يارا: مش هيعرفوا.

أردفت لارا: لو كانوا عاوزين يفضوها كانوا فضوها من زمان. ونظرت إلى أختها.

قالت أميرة إن الجرايد اليوم تحوي أخباراً عن إعداد خطة سرية للهجوم على الكرنتينا، وان الريس طلع من شوية وقال ان الناس اللي عايشين هناك يا إما يشوفولهم حتة تانية يا إما هما مش مسئولين. نظرت يارا ولارا لبعضهما البعض. كانتا تعرفان هذا، وكان القلق يأكلهما أيضاً.

أميرة: انا مش عاوزة اخوفكو يا جماعة. لإن احنا معانا الحق. احنا اللي ساكنين هنا ونعرفو مصلحتنا احسن من أي حد تاني، وربنا معانا مش معاهم، وربنا كبير.

صمتت يارا ولارا. كان وجه أميرة وجهاً جديداً تماماً بالنسبة لهما. وجه تشرب بالإيمان بالله والثقة بقدرة الذات المؤمنة على تحدي الصعاب. وجه تربى جيداً عند الشيخة صالحة ولا يعرفانه هما جيداً. وجه بزبيبة صلاة ضخمة بحجم الفطيرة في منتصف الجبهة. حاولت يارا صد هذا الهجوم الروحاني عليهما. قالت، هما ياختي ما التفتوش لينا غير لما ابتديتي انتي والأوباش بتوعك يضربوا نار. الهجوم الروحاني من قبل أميرة لم ينقطع. نظرت بثبات

مكتبة عابث الإلكترونية

إلى الأختين وقالت، جايز يا جماعة انا غلطت فيكو كتير. واكيد ربنا هيحاسبني على كل حاجة وحشة عملتها ف ناس ما أذنبوش ف حقي حاجة. كل اللي بتمناه من ربنا انه يغفرلي ويغفرلنا جميعاً. أنا بس بطلب منكو تقفو إيد واحدة دلوقتي قدام الداخلية يوم الجمعة اللي بعد اللي جاية. وبعد كدا ممكن نعملو اللي احنا عاوزينه. انشالله نموّت بعض حتى". كانت تقول هذا وهي تقرض طرف إظفرها، ثم عاودت الحديث:

"لما نتحد ونبقى إيد واحدة يا جماعة ماحدش هيقدر يقربلنا. احنا مش عاوزين مشاكل عشان خاطر المشاكل. احنا كل واحدة فينا بتفكر ان ليها حق عند التانية. بس احنا لو اكلنا ف لحم بعضينا دلوقتي حقنا كله هيروح، وهينقلونا على مساكن زبالة. انا رحت مساكن المحمودية دي وشفت بنفسي. حاجة قمة في القذارة والتخلف."

"انتو جايز تفكروا ان انا ست ضعيفة دلوقتي عشان انا جيت وطلبت منكو نهدي الحرب بيننا. بس لأ، أقسم برب العزة إني لو عاوزة أفجر المنطقة عن بكرة أبيها مافيه حاجة هتوقفني، واسألوا الناس اللي عندي في الكربنتينة".

وحده دقيق الملاحظة كان سيلاحظ إصبع أميرة وهو يدق بتوتر فوق ركبتها في هذه اللحظة.

مالت يارا على لارا، همست لها بشيء. ربما قالت لها إن أميرة مازالت تفكر في نفسها بوصفها أميرة بتاعة زمان. وضحكت لارا. نظرت أميرة إلى كليهما. سألت لارا ببرود، بتضحكي على حاجة يا لارا؟ فأجابت لارا، لا أبداً، أصلي افتكرت حاجة كدا.

بدأت نبرة التوتر تتضح في كلام أميرة، النبرة التي تعرفانهما هما من زمان، عيب يا جماعة الحركات دي، عيب تضحكوا عليا وانا جايالكو بنفسي.

أجابت يارا، والله ما كنا بنضحكو عليكي. فصرخت أميرة، لأ بتضحكو، انا سمعتكو وانتو بتضحكو عليا. نظرت يارا ولارا لبعضهما البعض، وأكملت أميرة صراخها، أيوة، أنا جيت عندكو هنا لإني خايفة عليكو. بس أقسم بالله إني لوحدي اقدر أوقف مش بس وزارة الداخلية، لا، رئاسة الجمهورية كلها عند حدها. بس اني غلطانة اني عملت بأصلي.

يارا كانت مستنفرة تماماً. الكلمات كانت تخرج من فمها كطلق النار: هتوقفيها ازاي ياختي. ماتورينا كدا. (وعندما لم تجد رداً من أميرة وقفت وقالت مشوّحة بيديها الاثنتين) يا أميرة يا حبيبتي. لو كُنت أنا ولا اختي قلات أصل كان زمانك مقتولة هنا دلوقتي. ومش انتي لوحدك يا حبيبتي، كل الهلافيت رجالتك كمان.

لارا: أيوة. كلهم، من الصغير فيهم لحد الكبير.

صمتت أميرة قليلاً. بدت خاضعة لضغط عصبي رهيب. جزّت على أسنانها. نظرت للأختين ثم قالت بصوت خافت: ويحيى بركان؟

– ماله يحيى بركان؟

قررت أميرة أن تنطق بسرها الرهيب: يحي بركان يا حبيبتي دا جوزي. متجوزني من زمان. من بعد ما اتجوزك بحاجة بسيطة، والراجل الصراحة ماقصرش ف حقي بحاجة خالص، سلاح وبيوصله لرجالتي بنفسه، وأخباركو وبيقولي عليها أول باول، هتموتيه هو كمان يا حبيبتي؟ صمتت أميرة قليلاً، قررت تضمين جزء إنساني بخطابها. أضافت ووجهها في الأرض: أنا حامل من يحيى بركان كمان على فكرة. هتموتي يحيى وتيتمي ابنه؟ نظرت يارا إلى بطن عدوتها. كانت ترتعش.

مكتبة عابث الإلكترونية

جلست يارا. نظرت لأميرة صامتة بعينين مليئتين بالتحدي، وكان لدى الأخيرة ما تقوله. التقت أميرة بيحيى بركان بعد زواجه من يارا. ومثل زمان، فلقد أعجبت بمنظره وبعضلاته، ولكن لأنها امرأة تعرف ربنا وتتقي الله في أصحاب عمرها، فلم تصرح له بشيء، حتى بدأ هو. غازلها مرة واثنتين وصار يمد يده أيضاً، وهي، كامرأة تخاف الله، حرصت على أن توضح له أنهما لن يجتمعا سوياً غير في الحلال، على أن يقوم بتطليق يارا فور أن تسمح الظروف. هذا ما شرحته أميرة ببرود، بالإضافة إلى بعض المفاجآت الصغيرة أيضاً. يحيى بركان يبيع السلاح للرجال في النفق. يارا كانت تعرف أنه يبيع السلاح لرجالها، وأميرة كانت تعرف أنه يبيع السلاح لرجالها، ولكن أياً منهما لم تكن تعرف أنه يبيع السلاح للجانبين على حد سواء، وإنه يقوم بتسريب المعلومات عن كل من الفريقين إلى الفريق الآخر مقابل المال. هذا ما اكتشفته المرأتين في حديثهما.

انتهى الحديث حوالي السادسة صباحاً. يارا شاحبة ومنهارة. أميرة تبدو وكأنها تحررت من حمل ثقيل، ولارا على وشك النطق بشيء ولكنها لا تنطق به. في النهاية فقط، نطقت يارا بعدة كلمات متقطعة. كان صوتها غير مسموع تقريباً:

– وهو كذلك. حتى لو كان كلامك صح، بس برضه خلي يحيى بركان معانا يوم الجمعة لما البوليس ييجي. نقفو مع بعضينا وبعدين نقطّع بعض زي ما احنا عاوزين. دلوقتي مافيش غير حل واحد. يا إما نتشاركو ف المسئولية يا إمتّن نقعد ونحطو إيدينا على خدنا. واتفقت النساء الثلاث على أن يتشاركن في حمل المسئولية.

يمكننا أن نسمي هذه الليلة بالليلة التي بلا نهاية. فور أن انصرفت أميرة ذهبت يارا لتحاول النوم. بعد نصف ساعة اقتربت منها لارا. طبطبت عليها فالتفتت إليها. نطقت لارا بما لم تستطع النطق به من قبل: ماتزعليش مني ياختي ف اللي هاقولهولك. يحيى بركان دا بني ادم وسخ. انا عارفاه كويس أوي. (تصمت ثوان). طول الوقت كان عاوز ينام معايا.

– (بملامح باردة) كان عاوز ينام معاكي ولا نام معاكي؟

– (تخفي لارا وجهها في الأرض) نام معايا ياختي. تلات مرات. لما كُتي انتي مش موجودة. اني حاولت اقوله لأه بس ما عرفتش.

حولت يارا وجهها عن أختها. لم ترد. أغمضت عينيها. لاحظت لارا جسم أختها وهو يرتعش بقوة، وسمعت صوت نشيج مكتوم.

يمكننا الاستنتاج هنا، بدون تأكيدات، بدون ضمانات من أي نوع، أن يارا وهي متكلفتة في بطانيتها المبللة بالدموع، كانت تفكر في ثيئين بالتوازي. أولهما لعنة البنات الأعداء، اللاتي تعادي كل منهن الأخرى، ويحبهن شخص واحد دائماً، دائماً هو واحد، لا اثنان ولا ثلاثة، ويتركهن متخبطات ويعشن أسوأ حياة بسبب هذا، والثاني أغنية عالقة من زمن بعيد، ترددت في ذهنها الآن، بلحن وإيقاع ورقص وموسيقى، لا تذكر متى سمعتها ولا من غناها ولا كيف حفظتها. الأغنية كانت تقول أولى كلماتها: "أنا صوبعي لو اتقطع/ عمره ما يوجعني تاني/ ولا عمري هايحصل إني أعاني/ أبداً أبداً/ خالص خالص". فقط عندما تذكرت كلمات الأغنية بدأ النعاس يتسلل إلى عينيها. الراحة النفسية.

قبل أن تصعد أميرة إلى بيتها مرت على الشيخة صالحة.

مكتبة عابث الإلكترونية

في الطريق فكرت في مئات الأفكار، فكرت في أنها، بعد كل هذا العمر، حققت كل ما كان في نفسها. كانت تتمنى طول عمرها أن تكون شيئاً. وهي الآن شيء، وشيء مهم أيضاً. لا تتباهى أميرة بنفسها. لقد تخلصت من أي ميل للمباهاة منذ تعرفها على الشيخة صالحة. لا تقول إلا الحقيقة، هي الآن شيء مهم جداً على مستوى الحي والبلد والدولة، ولكن سكينة الخيانة أصعب من كل شيء، بل ويمكننا القول إن سكينة الخيانة هذه هي ما أفقدت حياتها المعنى الذي كانت تبحث عنه طول عمرها. أميرة الآن امرأة حياتها لا معنى لها. اشتكت أميرة للشيخة صالحة بدموع العين، قالت لها إنها كانت فاكرة إنها ستغير يحيى بركان، إنه سيطلق يارا ويخلص لها طول عمره. ماحشتش عنه حاجة يا شيخة والله، كل اللي عاوزه كان بياخده، ليه كدا بس، ليه كدا بس يا يحيى؟ تجلف لها الشيخة صالحة دموعها وتنام أميرة في حضنها لثوان، ثم سرعان ما تنتفض، البت يارا دي عاوزة مني إيه، هي واختها، تصوري يا شيخة، تصوري انه كان بينام مع البت لارا كمان، والبت اختها بعتت تقولي دا ف وشي. هما عاوزين مني إيه؟ هو مين اللي كان بيذاكرلهم وهما صغيرين، مين اللي كان بيسلفهم فلوس لما يحتاجوا، مش انا؟ ليه كدا بس يا يارا؟ ليه بس يا لارا؟ ليه يا حبايبي؟

الشيخة صالحة لم تجد ما ترد به على بكاء أميرة إلا الدعوة للتسامح والمحبة، كلنا مخاليق ربنا يا أميرة، كلنا، بلا استثناء، وانتي مش احسن من أي واحدة فيهم. افتكري دا كويس، ماحدش أحسن من حد أبداً. نظرت لها أميرة طويلاً. فكرت في جملتها، وقررت أن تتخذ الجملة دليلاً لها في الأيام القادمة. ماحدش أحسن من حد. أبداً.

عندما دخلت أميرة على الشيخة صالحة لم تقل لها السلام عليكم. قالت لها شيئاً مثل إسّاليكو، ونحن نعرف من فقرات سابقة ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لها، ولنا. يمكن القول بدون أي خوف من المبالغة إن أميرة كانت تتمزق، إنها لم تعد نفس أميرة الروحانية التي رأيناها من قبل، ليس بسبب يارا ولارا فحسب، بل بسبب يحيى بركان في الأساس. كانت فقرة يحيى بركان هي الفقرة الأخيرة في سهرتها مع الشيخة. نظراتها ثابتة، موجهة إلى كتف الشيخة، لا تحيد عنها، كانت قد وصلت لمرحلة الانهيار النفسي الكامل، برغم النبرة الواحدة والآلية، الرتيبة تماماً، والصوت الخافت، والثبات التام في النظرة، كانت أميرة مدمرة، جميع خلاياها مدمرة، وجميع خلايا كلامها كذلك، ليه تفتكري، هو انا ماكنتش عاجباه ليه، عارفة؟ تصوري انه عمره ما نام معايا، كان كل يوم ييجي من عند يارا ويقولي انا تعبان وخليها بكرة، تصوري انه مانامش معايا ليلة الدخلة. حضرتك مش مصدقة، طب تعرفي ان دا كان اتفاقنا. قالي هتجوزك علشان عارف انك عاوزة راجل يحميكي ويحمي شغلك، بس قالي انه مش هينام معايا، عشان مش عاوز يخون مراته، والكلام دا مش صح، عارفة ليه، لإني بعد كدا وصلتي كلام ياما إنه كان بينام مع البت اختها، مش مصدقاني؟ والله زي ما بقولك. يارا ولارا آه، إنما أميرة لأ، أميرة وحشة، أميرة لابسة خمار لحد ركبتها وبتاعة قال الله وقال الرسول وبتقول فيه حاجات تصح وحاجات ماتصحش بين الراجل ومراته، أميرة دي دمها تقيل على قلبه. (بسخرية) وهما يعني اللي دمهم عسل أوي. (النظرات أكثر قسوة وصلابة) تصوري اني لسة بنت لغاية دلوقتي. آه والله. مستغربة ليه؟ لسة بنت. عمري ما عملت حاجة وحشة. وعشان كدا أنا مستنية ان ربنا يكافئني جامد، هو مش فيه ربنا؟ ولا هو مافيش؟ (تخفي وجهها بين كفيها. يبدأ

مكتبة عابث الإلكترونية

جسمها بالارتعاش) بس انا قلت اني حامل. انا عاوزة دا أوي. نفسي بطني تكبر زي بطنها. نفسي بطني تكبر أوي يا رب.

°°°

لارا وحدها لم تكن تبكي. ولكن البكاء ليس بالدموع وحدها، هناك بكاء بالقلب أيضاً. كان داخلها يتمزق، بالضبط مثل الأخريين، هي التي خانت أختها ثم خانها مَن خانتها معه. على مدار الأيام التالية لم تجرؤ أن ترفع عينيها في وجه يارا. كانت تشعر بالخزي، كانت تشعر بأنها صغيرة جداً، متناهية الصغر، لا تُرى بالعين المجردة، ولم تكن تبكي. لم تبك إلا بعدها بخمسة أيام. رأت مشهداً في مسلسل عربي تعترف بطلته أمام حبيبها إنها تخلت عنه لظروف ما يعلم بها إلا ربنا. وتطلب منه السماح، فيبتسم حبيبها بمرارة ويقول لها إن أذى الجسم مقدور عليه، لكن أذى الروح من يجبره؟ بكت لارا بحرقة. تشنجت ومضت تلطم على وجهها وتصرخ. سامحيني ياختي. لم يكن هناك أحد في البيت ساعتها غيرها هي، كانت كمن تكلم نفسها، وبالتأكيد فلقد تمنت أن تدخل اختها في نفس اللحظة وتراها على هذه الحالة. ولكن أختها كانت بعيدة. لا أحد يعرف أين يارا الآن.

استرجعت لارا هذه الأيام قصة نادية واعتماد. واسترجعت الدرس الأخلاقي المتضمن فيها، إن النساء وحدهن يمكنهن فعل كل شيء. النساء قادرات على المستحيل حالما توفرت الظروف لهن. بالإضافة إلى درس آخر، في ليلة قريبة قررت لارا اجتياز الحدود وزيارة الشيخة صالحة. طرقت عليها باب الشقة وقالت لها أنا لارا، لو عاوزة تتفي ف وشي تفي، بس أنا تعبانة أوي، تعبانة ومش هنستريح إلا امّا اتكلم معاكي. استقبلتها الشيخة صالحة بابتسامة. رقتها بالبخور وقرأت عليها قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب

الناس. جلست لارا بعد أن هدأت قليلاً. قالت لها إنها كانت تعبانة، أنا ست يا ناس، وتعبت زي الستات، وغلطت، وربنا يسامحني بقى. بس بالله عليكي يا شيخة، ماتمشّيني من هنا الا اما تقوليلي كلمة تريحني. قالت لها الشيخة صالحة كلمة تريحها، قالت لها إنها مثلها مثل أختها مثل أميرة. كل الناس مثل بعضها أمام ربنا عز وجل. كان هذا هو الدرس الثاني الذي استوعبته لارا في تلك الأيام.

أخذت لارا نفسها وذهبت لتلتقي بأفريقي، الرجل المسئول عن حربها هي ويارا الآن في النفق. شرحت له تفاصيل الخطة المعدة ليوم الجمعة القادم، سيتم هدم الحدود بين النفقين، والجميع الآن سيتواجدون هناك، الجميع يعني الجميع، يعني لارا ويارا وأميرة ويحيى بركان وأفريقي، وحتى الكاماسوترا، القائد العسكري لأميرة في النفق. سندافع عن أنفسنا بكل شيء، بالسنج والسيوف والمولوتوف والآلي. كلنا زي بعض دلوقتي، مافيش تفريق. العيال هيبقوا فوق النفق، قدام مدخل الكرنتينا، هيلغّموا المدخل. أي عربية من بتوعة الداخلية هتتفجر وهي داخلة. والحريم هيقفوا فوق سطوح البيوت، وبأيديهن زجاجات ماء نار يتم إلقاؤها على أي من يدخل. أما النفق دا بقى يا اخويا فهيبقى حاجة زي غرفة عمليات. هنديرو المعركة من هناك. وعاوزاك تعلقلي شاشة كبيرة تحت نشوفو منها اللي بيحصل فوق. فهمت يا أفريقي؟ أفريقي فهم طبعاً. أفريقي كان يحفظ تفاصيل الخطة، سبق وأن شرحتها له أميرة وسبق أن شرحتها له يارا، كل في لقاء منفصل.

كانت هذه هي التفاصيل المعلنة للخطة، التفاصيل المتفق عليها بين الثلاث نساء. ما أضافته لارا له في لقائها المنفصل كان تفاصيل أخرى. قالت له إنها لم تعد قادرة على احتمال هذه الحياة. حياة صعبة وقاسية تغدر فيها بالناس

مكتبة عابث الإلكترونية

ويغدرون بك ولا كإننا ف غابة. أنا مش أحسن من حد. ولا حد أحسن مني. ربنا بيقول كلكم سواسية. أنا عاوزة القصة دي كلها تخلص بقى. أنا زهقت يا عالم.

خطة لارا لإنهاء القصة كلها كانت بسيطة. سيقوم أفريقي بزرع ديناميت في النفق، عبوة ضخمة من الديناميت، ثم سيطلع خارج النفق، وعندما ترن له لارا على تليفونه، سيقوم بتفجير الديناميت كله. من تحت أقدامها هي نفسها قبل أي شخص آخر، ثم من تحت أقدام أميرة ويحيى بركان، ثم يارا. سيحدث هذا بعد الانتصار على الداخلية، عندما تنفجر عربات الداخلية واحدة إثر الأخرى، وعندما يتأكد أفريقي أن المنطقة في أمان، وإن أحداً لن يجرؤ على اقتحامها ولا تخريبها بعد الآن. ارتكنت لارا على كتف أفريقي. كانت تبدو كالمغيّبة. قالت له إوعى تفتكر يا أفريقي اني مبسوطة باللي حاصل، اوعى تفتكر اني أنا ولا اختي عاوزين نموّتو الناس ونشردوهم. كل واحدة فينا، حتى أميرة، حتى امي الله يرحمها، كان عاوزة تطلع م القصة دي، بس ربنا ما ألهمناش الطريقة. بس ربنا ألهمني أنا دلوقتي. انا عاوزة اختي تخلص م اللي هي فيه، وأميرة تخلص هي كمان. اميرة دي اختي يا ولا، وصعبان عليا أوي إنها تبقى كدا. يمكن لما نموت ربنا يرحمنا برحمته. ماحدش يعرف رحمة ربنا فين. وعدته لارا بِبْيت الكرنتينا في حال موتهن جميعاً، خلاص، ماحدش هيورث حاجة. وانا بنفسي هتكتبلك كل اللي عندي باسمك انت. حاول أفريقي أن يطبطب على كتفها ولكنها أزاحت يده وابتسمت. انا مش تعبانة يا ولا. اوعي تفتكرني تعبانة. انا ربنا ألهمني الحل دوّت من عنده وانا باصلي الاستخارة امبارح.

ما لم يقله لها أفريقي – تأدباً منه– إن أختها، يارا، زارته بالأمس وطلبت منه نفس الطلب، بنفس الكلمات تقريباً، وما لم يقله لها – جهلاً منه – إن أميرة سوف تزور مساعدها الكاماسوترا في الغد، وسوف تطلب منه نفس الطلب، بنفس الكلمات أيضاً، وإنه، في ليلة الجمعة القادمة، سيجلس مع الكاماسوترا ويفشيان لبعضهما هذا السر. أشعل أفريقي سيجارة وأعطاها إياها. حضنها بقوة وقال لها إن كل شيء سيسير على ما يرام إن شاء الله. وهي استسلمت لحضنه تماماً. كانت تبدو رقيقة كالعصفورة وهي في حضنه.

°°°

أمّت الشيخة صالحة الحريم في صلاة الجمعة. قبلها، كان الشيخ في خطبة الجمعة يتحدث عن أهمية الثبات في المواقف الصعبة، كان يكرر من وقت للتاني في الخطبة، هذه ساعة الثبات يا اخوانّا، أنا بأوقسم بالله إن هذه ساعة الشهادة والله. بعد الصلاة جلست الشيخة صالحة مع النساء، مزودة بالطاقة الروحية الجبارة التي تشع من عينيها، قالت إن هناك أشياء كثيرة حدثت في هذه المنطقة، الناس كرهت بعضها وقتلت بعضها والأطفال والحريم اتشردت ع الآخر. ليه يا أخواتي؟ لإن الناس لم تكن تحب بعضها. كل واحدة فكرت في نفسها وظنت إنها أحسن عند ربنا من التانيين. وهو دا ربنا يرضاه؟ وهو ربنا مثلاً قالنا كل واحد أحسن من التاني، ولا قالنا لا فضل لواحد على التاني وإن مافيش حد أحسن من حد؟ أميرة كانت تنظر ليارا أثناء الدرس، ولارا كانت تنظر لكليهما. على شفتي كل منهن الآن ابتسامة راضية ومتسامحة. الخيانة المشتركة التي تعرضن لها رقّقت قلوبهن. وقبل أن تفكر أي منهن في الانتقام من الأخرى لغدرها بها، فكرت في قتل نفسها أولاً. كل الناس سواسية الآن. التاريخ يثبت عدالته.

مكتبة عابث الإلكترونية

بعد نصف ساعة بدأت نداءات الشرطة تتردد، على جميع سكان المنطقة المغادرة فوراً وبلا إبطاء، المنطقة سيتم إخلاؤها بالقوة. الثلاث نساء في النفق. وبجانبهن أفريقي والكاماسوترا. المنطقة مشتعلة بالأعلى، والغازات المسيلة للدموع تتسرب إلى داخل النفق المظلم، والرجال يتساقطون أمام أمطار الرصاص الحي، وعساكر الشرطة يتساقطون أيضاً، وأفريقي والكاماسوترا يوجهان الحريم الواقفات فوق أسطح البيوت، يصدران إليهن التعليمات، أين يمكنهن إلقاء زجاجات الماء الحارق وأين يمكنهن قذف المولوتوف، كما يوجهان الرجال لكيفية استفزاز العربات بحيث تضطر لعبور الخطوط الملغمة بجنازيرها، والعربات تنفجر الواحدة بعد الأخرى. وضباط الشرطة يتم خطفهم إلى داخل الكرنتينا. موقفنا كويس، ينظر أفريقي إلى النساء ويبتسم. ويبتسمن هن أيضاً. يشاهدن بأعينهن الحجارة وهي تنطلق نحو أعين الجنود وتعميهم إلى الأبد. الشاشة الكبيرة في النفق تعرض كل شيء، كل شيء، أحسن من الجزيرة والسي إن إن.

في وسط المعركة تقترب أميرة من يارا، تقول لها سامحيني ياختي، انتي عارفة انا باحبك قد إيه. فتطيطب يارا على شعرها. تنزل أميرة على ركبتيها وتقبل بطن يارا البارزة، تدمدم بفرحة، كتكوتي أنا، صغنوني أنا حبيب قلبي ياختي عليه. وتنظر ليارا وتسألها بعينين دامعتين، هتسميه إيه ياختي؟ فتقول يارا هاسميه عبد الله، وتشير إلى بطن أميرة وتقول لها، عقبال عندك انتي كمان ياختي اما تفرحينا باخته الصغيرة. وأفريقي يجلس على الأرض بجانب لارا. يقول لها بعون الله يا ست الكل ماحدش هيقدر يقرب منا. احنا اللي عندنا الإيمان وهما لأه. فتقبض لارا على كفه وتقبل أصابعه واحداً واحداً،

ثم تنظر له وتقول، انت حلو كدا ليه يا ولا؟ يا ولا ماتحبينيش فيك كدا يا ولا. ويضحكان.

المغرب يؤذن، وعربات الداخلية، أو ما تبقى منها، تنسحب بعد جمع جثث الجنود على متنها. يارا ولارا وأميرة الآن وحدهن في النفق، بعد أن انصرف أفريقي والكاماسوترا. عندما يتأكد انسحاب آخر عربة، تنظر كل واحدة منهن إلى الأخريين، ويقمن جميعاً بإخراج تليفوناتهن وطلب رقم ما. الحركة كانت ملحوظة. تلاحظها كل منهن فيبتسمن جميعاً في نفس اللحظة، في نفس اللحظة، بينما المكان يرتج حولهن بانفجار هائل، بينما أحجار النفق تتساقط عليهن وعلى عربات المترو المتناثرة في المكان، بينما تلتصق كل منهن بحجارة الأرض وتحاول الزحف من أي مكان إلى أي مكان، بينما تسيل دماء أربعة أشخاص في النفق، ثلاث نساء وجنين، يتردد صوت صراخ حريمي فجأة، ربنا نصرني عليكو يا أوساخ انتو الجوز. لا يعرف أحد من صاحبة الصوت من بين الثلاث، ولا أحد يهتم بأن يعرف. عادة، فإن الإنسان وهو يحتضر لا يهتم بمعرفة تفاصيل من هذا النوع.

٥٥٥

الشيخة صالحة تصلي العشاء بالنساء في الجامع. ومن بعدها صلاة الغائب على أرواح الشهداء الذين سقطوا في المعركة. تخرج من الجامع بصحبة أم صلاح الشمالة. المنطقة مدمرة تماماً، والنفق مفتوح بعد أن تهاوى سقفه بفعل ستة عبوات ضخمة من الديناميت المزروع في كل ركن من أركانه. لأول مرة من زمان، يشاهد أهل المنطقة النفق تحت الأرض وهو مفتوح على ما فوق الأرض. تلمح الشيخة صالحة جثة كلب ملقاة بجانب النفق المدمر، فتمسكها بيديها وترميها في عمق النفق. تنظر لأم صلاح مبتسمة، حتى الحيوانات بتحس بينا يا حاجة،

مكتبة عابث الإلكترونية

وبتدعيلنا لما تتدفن صح. تسيران سوياً، الشيخة صالحة وأم صلاح، باتجاه عمق الكرنتينة، كربنتينة سوسو السابقة. تهمس أم صلاح بصوت خافت، ربنا يرحمهم، فترد الشيخة صالحة، ألف مرة، أراحوا واستراحوا. يحيى بركان يمشي بعيداً، في الطريق من الجامع إلى القهوة. وحده نجا من المذبحة، تفكر أم صلاح وتنغز الشيخة فتنظر هذه له ثم تلوي شفتيها. تشعر أم صلاح وهي تصعد سلم بيت الشيخة صالحة إنها تحررت، إن حملاً ضخماً أزيح من على كتفها، تشعر بالخفة والرغبة في الطيران فوق أنقاض الكرنتينا. تتذكر إنها لم تشعر بهذا إلا منذ عشرين عاماً، في العام أربعة وأربعين، عندما مات حمادة وسوسو والرجالة. تبتسم عندما تخطر على بالها فكرة سافلة، إنها تفرح لمصائب الناس. تنظر للشيخة فتجدها مبتسمة برضا هي الأخرى. تسألها، هو احنا ماعندناش دم يا شيخة ولا إيه؟ فتضحك الشيخة. في بيتها، وعلى صوت سورة البقرة الدائرة في الخلفية، وأمام دخان الشاي الساخن المتصاعد من كوبيهما، تهمس الشيخة بصوت خافت، ربنا يلطف بعبيده.

كل منهما الآن تشرب الشاي وتفكر في السلام النفسي الذي حل على العالم فجأة.

مكتبة عابث الإلكترونية